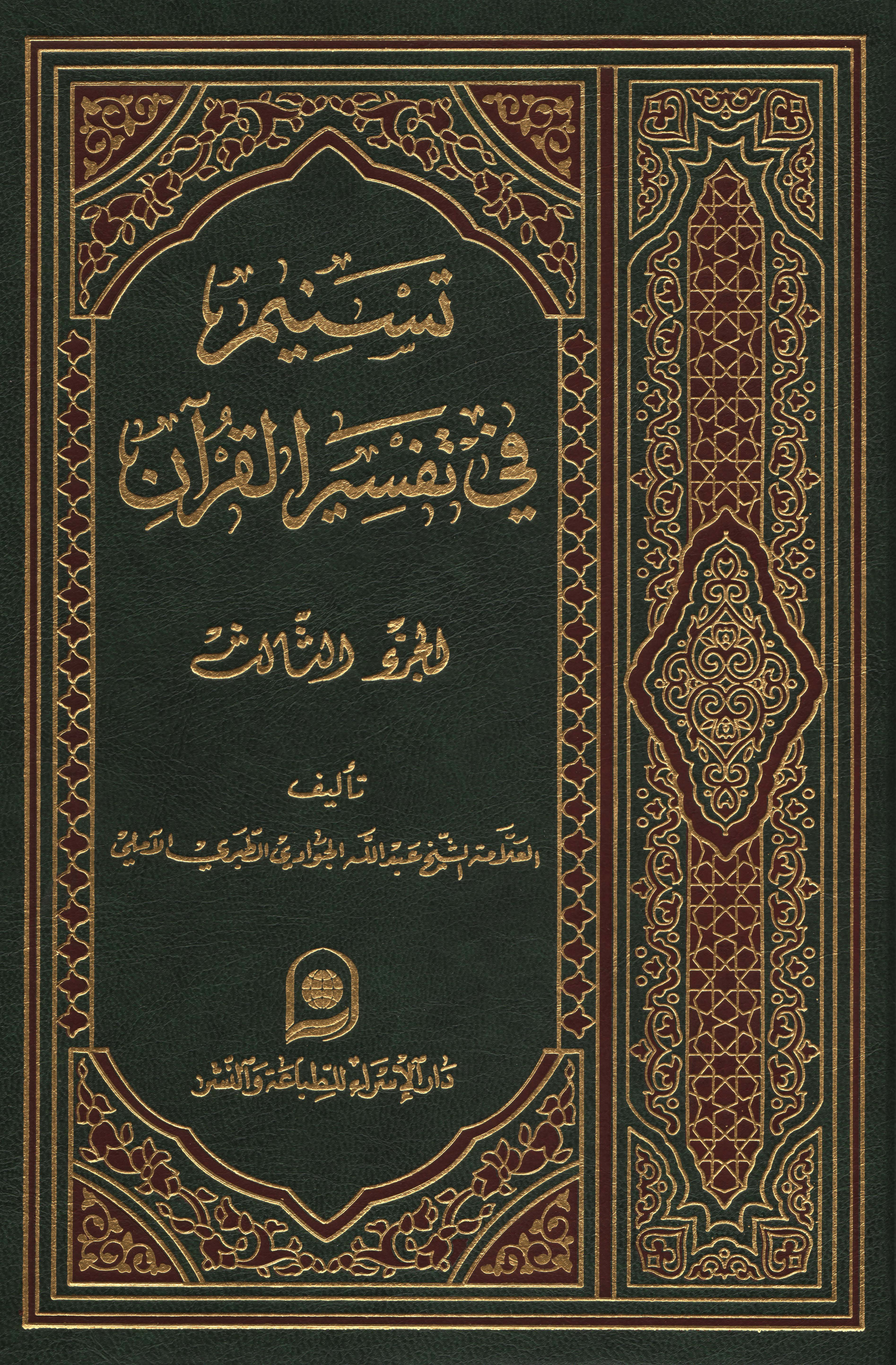

تسنيم
في تفسير القرآن
الجزء الثالث
تأليف
العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي
دار الإسراء للطباعة والنشر

تسنيم

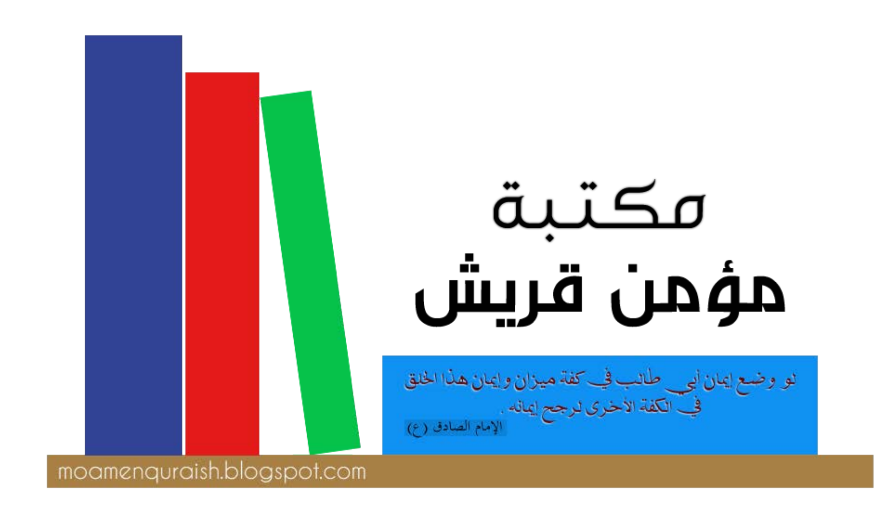
في تفسير القرآن

الجزء الثالث

تأليف

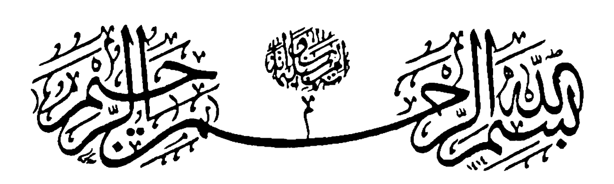
العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

دار الإسراء للطباعة والنشر



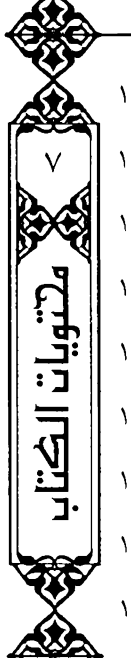
- اسم الكتاب: .... تسنيم في تفسير القرآن ، الجزء الثالث
- تأليف: .... الشيخ عبدالله الجوادي الطبري الآملي
- تعريب: .... السيدعبدالمطلب رضا
- تحقيق: .... الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني
- الناشر: .... دارالإسراءللنشر
- الطبعة: .... الثانية
- سنة الطبع: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م - بيروت

دار الإسراء للطباعة والنشر
لبنان – بيروت – حارة حريك – شارع دكاش
بناية الحسنين تلفون : ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٨


بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

«الآية ٣٠»

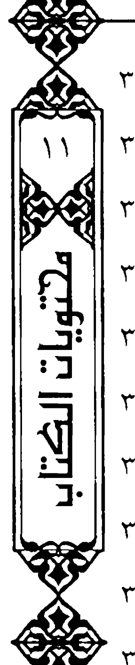


«الآية ٣١»

«الآية ٣٢»

«الآية ٣٣»

«الآية ٣٤»



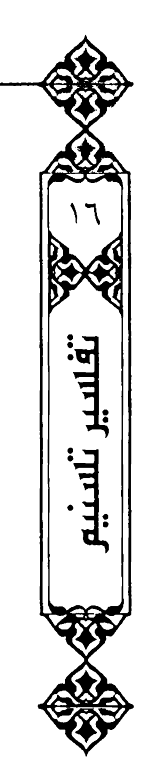
«الآية ٣٥»

«الآية ٣٦»

«الآية ٣٧»

«الآيتان ٣٨ و ٣٩»




١٦
تفاسير تسنيم

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

خلاصة التفسير

إنّ هذه الآية التي تنقسم مباحثها إلى قسمين: أحدهما: بيان خلافة الإنسان من قِبَل الله سبحانه، والآخر: استفهام وجواب حول الخلافة، هي أولى الآيات العشر التي تبيّن مكانة الإنسان ودوره في النظام الأحسن. وهي تدل على أنّ الإنسان يحظى باستعداد خاص في مجال معرفة الحقائق، وتوضّح أيضاً مكانة الملائكة بالنسبة للإنسان، وعدم استعدادهم وأهليّتهم للخلافة الإلهيّة. ولا يتيسّر إثبات شمول الملائكة في الآية لجميع أفراد الملائكة حتى لتلك الفئة من الملائكة الذين هم يشعرون بالفناء والاستغراق الدائم في الله، والذين لا يرون ذواتهم أصلاً حتى يكونوا بصدد قياس أنفسهم مع آدم.

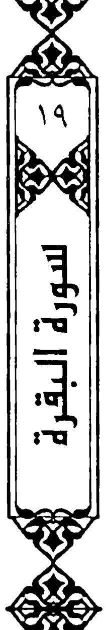
إنّ حرف التأكيد «**إنّ**» إضافة إلى كون الجملة إسمية دليل على جدّية وأهميّة قرار جعل الخليفة، وعلى استمرار وجود خليفة الله أيضاً، والضمير المفرد في (إنّي) يمكن أن يدلّ على عدم وساطة الملائكة في هذا الجعل، نظراً إلى أنّ الأساس في مسألة الخلافة هو حقيقة وروح خليفة الله، وهذه الدرجة من وجود الخليفة هي درجة معلّم الملائكة وعدم قدرة الملائكة على فهم وإدراك الخليفة وبالنتيجة فإنّ الملائكة غيرُ قادرين على أن يكونوا واسطة في جعله.

وقوله (**فِي الأَرْضِ**) قيد للجعل، وليس للمجعول، ولذلك فإنّه يشير فقط إلى أنّ مبدأ الإنسان في قوس الصعود ومحلّ بدنه العنصريّ الماديّ هو الأرض، وألاّ فإنّ الإنسان الكامل على أقلّ تقدير هو خليفة لله في جميع عوالم الغيب والشهود.

وليس المقصود من (**الخليفة**) شخص آدم الحقيقيّ، بل إنّ المقصود هو الشخصيّة الحقوقيّة لآدم ومقام الإنسانيّة، أي إنّ خليفة الله هو مطلق الناس أو نوع أفراد الإنسانيّة الكُمّل على الأقلّ، كما أنّ المقصود من (المستخلف عنه) هو الله سبحانه وليس جماعة من الملائكة كانوا يسكنون في الأرض، ولا الجنّ المفسدين السفاكين للدماء الذين كانوا ثمّ انقرضوا، ولا أناساً سابقين يعرفون باسم (النسناس)، ولا مطلق موجودات العالم.

ولم يكن سؤال الملائكة لأجل الإنكار والاعتراض، ولا لإظهار العُجب والتفاخر، بل هو استفهام ناشئ من الدهشة والتعجّب المقترن بالاستعلام والاستفسار عن الحكمة في جعل الخلافة لآدم، والمستبطن لنحو من القلق على مستقبلهم وعاقبتهم.





والتعبير بـ(**مَن يُفْسِدُ**) بدلاً عن (ما يفسد) يمكن أن يشير إلى أنّ الملائكة كانوا على معرفة بالتركيب الوجودي الخاصّ لشخصيّة آدم وما لديه من إرادة واختيار وعقل ولوازم هذا التركيب، وإنّ جواب ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ ناظر تماماً إلى هذا المعنى وهو أنّكم رأيتم جانباً ووجهاً واحداً من عُملة هذا المركّب ولا علم لكم بالأطهار والأخيار الذين يأتون من مثل هذا المركّب.

وإنَّ ذكر الحمد وكلمة (**بِحَمْدِكَ**) مع فعل التسبيح لبيان ملاحظة هي أنّ تسبيح المسبّحين يجب أن يكون مقترناً دائماً بحمدهم أيضاً.

وإنّ المقدَّس في جملة (**وَنُقَدِّسُ لَكَ**) هو الذات المنزهة الإلهية، لا الكون وموجوداته، ولا حتى الملائكة أنفسهم ولا أفعالهم.

وإنّ الجواب الإجمالي: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ يمكن أن يكون ناظراً إلى أنّ البيان التفصيلي لحكم الأفعال الإلهيّة وأسبابها ليس ضروريّاً بالنسبة للعبد المسلّم أمره إلى الله الحكيم.

التفسير

(**إذ**): قبل بيان معنى «إذ» ينبغي أن نتكلم حول أصالة هذه الكلمة أو زيادتها، وفي هذا المضمار يقول أبو جعفر الطبري:

إن رجلاً من أهل البصرة ينسب إلى المعرفة بلغة العرب، ظنّ أنّ معنى (إذ قال ربّك) هو (قال ربّك) بمعنى أنّ (إذ) زائدة ولا معنى لها واستدلّ على ذلك بشعر الأسود بن يَعْفُر. وقد ردّ الطبريّ على ذلك بما يأتي: أوّلاً: أورد نقداً مفصّلاً على القول بزيادة كلمة «إذ». ثانياً: انتقد

وناقش الأديب البصري على ما أورده من شاهد شعري للأسود بن يعفر.
ثالثاً: ثم أتى إلى الآية مورد البحث وانتهى إلى القول بأصالة كلمة (إذ) وعدم زيادتها.[١] كما أنّ الفخر الرازي يعتبر القول بزيادتها باطلاً ويقول: (الحق هو أنّ القرآن لا يوجد فيه كلمة لا معنى لها).[٢]

كما أنّ القرطبي أيضاً ينقل عن المعمر بن المثنّى أبي عبيدة القول بزيادة كلمة (إذ) ويقول: إنّ الزجّاج والنحّاس وجميع المفسرين أنكروا زيادتها، وقال النحّاس: وهذا الكلام خطأ (أي القول بالزيادة) لأنّ (إذ) اسم وهي ظرف زمان وهي ليست ممّا تزاد، وقال الزجّاج: هذا اجترام من أبي عبيدة[٣]. أي أنّ هذا الكلام جريمة من أبي عبيدة. والمقصود هو أنّ احتمال زيادة (إذ) في أغلب ما كُتب في التفاسير العربية والفارسية مردود. كما أنّ الاندلسي نفى ذلك[٤] أمّا الشيخ الطوسي فهو كالشيخ الطبري يرى عدم صحّة القول بزيادة «إذ».[٥] وكذلك قد انبرى المتأخرون من أهل التفسير إلى تبيين معنى «إذ» وغضّوا أنظارهم عن احتمال زيادتها معتبرين ذلك قولاً لا يستحقّ الذكر.

(**متعلّق إذ**): هناك اختلاف بين المفسّرين حول مُتعلّق «إذ». فالزمخشري في الكشّاف[٦] والطبرسي‌ؒ[٧] في جوامع الجامع وأمثالهما

---

١. **تفسير الطبري**، ج ١، ص ١٥٣ ـ ١٥٤، راجع: جامع البيان، ج ١، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩.
٢. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ١٧٤.
٣. راجع: **تفسير الجامع لاحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٤٩.
٤. **تفسير البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٨٤.
٥. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٢٨.
٦. **الكشّاف**، ج ١، ص ١٢٤.
٧. **جوامع الجامع**، ج ٢، ص ٤١.

قالوا باحتمال تعلّقها بكلمة (أُذكُر) المقدّرة، وكذلك احتمال تعلّقها بكلمة (قالوا) المذكورة في بقيّة الآية، لكنّ الآلوسي يرى أنّ الوجه الثاني هو أفضل وأنسب،[1] والبلاغي يقول: إنّها إذا كانت متعلّقة بكلمة (أُذكُر) فإنّ ذلك يلزم منه القول: بأنّ الرسول الأكرم مأمور بأن يذكر جملة ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ وحدها فقط، ولا يكون لها ارتباط بالجُمل التالية؛ لأنه لو كان هناك ارتباط لوجب أن تذكر فاء في بدايتها، وللزم أن يقال: (فقالوا) كقوله تعالى: ﴿**فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ...**﴾[2] الذي جاء بعد قوله ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ...**﴾.[3][4]

ولهذا، فإنّ العلاّمة البلاغي يرى أنّ (إذ) متعلّقة بمحذوف يدلّ عليه سياق الكلام مثل قولنا «جَرَتْ» ويفسّره، وذلك بأن يكون التقدير: وحين قال ربّك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة فقد جرت في ذلك محاورات وشؤون على النحو الذي يوضّحه قول الملائكة (**أَتَجْعَلُ فِيهَا...**).[5]

ومهما كان، فإنّه طبقاً لرأي الآلوسي والمحقّق البلاغي فإنّ (إذ) متعلّقة بفعل يأتي في بقيّة الكلام (وهو إمّا مقدّر أو ظاهر) فيكون معنى الآية كالتالي: (وعندما قال ربّك للملائكة: إنّي جاعل في الأرض خليفة فإنّهم قالوا...) لا أن يكون معناها (أُذكُر عندما...).[6]

---

١. **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٤٨.
٢. **سورة مريم**، الآية ٢٣.
٣. **سورة مريم**، الآية ١٦.
٤. **آلاء الرحمن**، ج ١، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
٥. راجع: **آلاء الرحمن**، ج ١، ص ١٧٣.
٦. **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٤٨.

تنويه:

(١) الفخر الرازي من القائلين بأنّ (إذ) متعلّقة بكلمة «اُذكُر» وهي محذوفة ويرى: أنّ السرّ في هذا الإضمار والحذف يعود إلى أمرين: أحدهما: إنّ هذا التقدير واضح ومعروف في الأدب العربي، والآخر: هو التصريح بذلك في الكثير من الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ**﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ**﴾،[2] وقوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ**﴾.[3] ثمّ يذكر بعد ذلك عبارة في غاية الروعة فيقول: «والقرآن جاء كالكلمة الواحدة».[4] وكذلك قال كمال الدين الزملكاني: «إنّ القرآن كلّه كالكلمة الواحدة».[5]

والتعبير بأنّ جميع القرآن كالكلمة الواحدة أي أنّه كالجملة الواحدة، بحيث تكون جميع أجزائها منسجمة، هو من ألطف التعابير في معرفة القرآن، لأنّ الاطّلاع على آية في سورة ما أحياناً يقود إلى تفسير آية في سورة أخرى، وأحياناً يستفاد من معرفة آية في سورة معيّنة في تفسير آية أخرى في السورة نفسها، وتارة يستفاد من بعض كلمات الجملة الواحدة في توضيح الكلمات الأخرى لتلك الجملة نفسها. إذن فهذا الترابط والانسجام المذكور هو من أروع أنواع الانسجام، حيث إنّ أعلى درجات

---

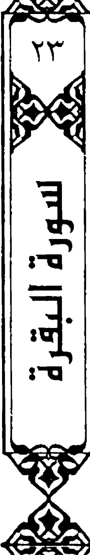
١. **سورة الأحقاف**، الآية ٢١.

٢. **سورة ص**، الآية ١٧.

٣. **سورة يس**، الآيتان ١٣ ـ ١٤.

٤. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ١٧٤.

٥. **البرهان في علوم القرآن**، ج ١، ص ٣٩.



الانسجام يلاحظ في ارتباط آيات القرآن ببعضها وهي التي يربو عددها على ستّة آلاف آية، وقد استغرق زمن نزولها أكثر من عشرين عاماً، لكنّها منسجمة بهذا الشكل بحيث انّ مجموع القرآن يعتبر بمثابة الجملة الواحدة.

(٢) كلمة (**إذ**) بناء على عدم الزيادة تكون منصوبة، لكن إذا كانت متعلّقة بكلمة «اُذكر» فإنّ نصبها يكون بعنوان المفعول به، وإذا كانت متعلّقة بكلمة «قالوا» فإنّ نصبها سيكون بعنوان الظرف والمفعول فيه.

(**قال**): انّ المقصود من القول في «قال» هنا ليس هو جريان الألفاظ بواسطة حركة اللسان وبالاستعانة بالأمواج الجوية حتّى يقال: بأنّ هذا النحو من القول كيف يمكن تصوّره بالنسبة إلى الله سبحانه؟ بل هو كما قال العلاّمة الطباطبائي ﷺ[1]: بأنّ حقيقة القول والكلام هو الكشف عن المقصود وازالة الستار عن المراد وما في الضمير، باستخدام نوع من الدلالة والإشارة. والإنسان لم يتّجه إلى استعمال الألفاظ والأصوات لأجل توضيح مقاصده، الاّ لأنّ الطريق التكوينيّ والاشهاد الحضوريّ غير ممكن له عادةً، ولو امكنه ان يفصح عن مراده ويكشف عن مقصوده عن هذا الطريق أي طريق الاشهاد الحضوريّ لسلكه دون شك، لأنّ من المؤكّد انّ دلالة هذا الطريق وكشفه عن المقصود اقوى وأبلغ، ولا ريب بانّ هذا النحو من الدلالة سهل على الله القادر المطلق، وان كنّا نحن غير مدركين لكيفيّتها وهل انّها من قبيل الالهام أو الوحي، أو ايجاد صوت كالذي حصل في الطور لموسى ﵇ وأصحابه، طبقاً لبعض الروايات، أو انّه غير ذلك.

---

١. **الميزان**، ج ١٣، ص ١٠٦.

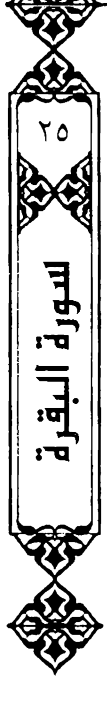
وعلى كلّ حال، فعندما يقال: انّ الله قال للملائكة، فذلك يعني انّه اوجد تكوينيّاً هذا الفهم والشهود فيهم، وكشف لهم عن ارادته ومشيئته بالنسبة لآدم، على الرغم من ان تفاصيل ذلك غير معلومة.

(**ربّك**): انّ التعبير بـ«ربّك»، بدلاً من استعمال تعبير آخر مثل «قال الله» أو «قال الرحمن» والاعتماد على صفة الربوبيّة الإلهيّة وحدها من بين جميع الأسماء الإلهيّة الحسنى، هو لأجل الإلفات إلى هذا المعنى وهو انّ خلق الخليفة وجعله في الأرض صادر من الارادة الربوبيّة لله ولأجل ايصال العالم وآدم إلى الرشد والكمال.

والخطاب بصيغة المفرد في عبارة (ربّك) واختصاص الرسول الأكرمﷺ بها ايضاً (مع انّه وطبقاً لما سوف يأتي توضيحه، فانّ مقام خليفة الله يرتبط بنوع الإنسان، وانّ فعليته ايضاً في المرتبة الكاملة مختصّة بأفراد الإنسانيّة الكُمَّل، وما دون ذلك يرتبط بجميع الناس الأتقياء والمتدينين ولا اختصاص له بآدم) لعلّه بلحاظ انّه قد حظي بأعلى درجات الخلافة الإلهية، وانّه اعظم اسم من بين الأسماء التي تمّ تعليمها لآدم وجُعلت معياراً وملاكاً لمقام الخلافة، وانّ الحقيقة النورانيّة المقدّسة المحمديّة، هي الحقيقة التي وصفها البعض بأنّها وان كانت في الصورة والظاهر ولداً لآدم، لكنّها في السيرة والسريرة تُعَدّ أباً لآدم، وانّ النبي الأكرم يُدعى بـ(آدم الأكبر) و(الأب الأقدم).[1]

(**لِلْمَلاَئِكَةِ**): على الرغم من انّ كلمة (مَلَك) ومشتقاتها كثيرة في القرآن، لكنّ المورد الأول الذي استعملت فيه هذه الكلمة حسب

١. **شرح فصوص القيصري**، ج ١، ص ١٤٨.



الترتيب التدوينيّ للآيات القرآنيّة هو في الآية محلّ البحث. ولذلك كان من المناسب ان يشار حول هذه الكلمة إلى ملاحظات:

١ـ يقول ابو جعفر الطبري: انّ (ملائكة) جمع (مَلأك) ومفردها يستعمل في كلام العرب بدون همزة، وتارة يقال لمفردها (مَألك) بتقديم الهمزة على اللام، فيكون من الكلمات المقلوبة مثل جَبَذَ وجَذَبَ وشَأمَل وشَمْأل، ولكن عند الجمع لا يقال (مآلك) ابداً، بل يقال دائماً عند الجمع ملائك وملائكة...[1] وجاء مفرد الملائكة في القرآن باسم (مَلَك) وجاء اسم (مَلأَك) في الحديث الشريف ولكن لم يرد في القرآن. ومجرّد التعبير عن الملك بكلمة ملأك في التوراة ليس دليلاً على نقله إلى اللغة العربيّة، لان تقارب وتشابه الكلمة في لغتين ليس دليلاً على انتقال الكلمة من احدى اللغتين إلى الاخرى، الاّ إذا دلّ على ذلك دليل معتبر.[2]

٢ـ ويذكر الطبري في بقيّة كلامه المذكور: انّ اصل (ملأك) هو بمعنى الرسالة والارسال...، لأنّ الملائكة هم الرسل الالهيون بين الله والأنبياء أو سائر الخواص من عباد الله الآخرين. ولذلك اطلق عليهم اسم الملائكة[3].

وينتقد الشيخ الطوسي‌ؒ هذا الوجه من التسمية ويقول: انّ هذا الكلام يكون تامّاً وصحيحاً عند من يعتبر جميع الملائكة رسلاً الهيين. لكنّ هذا الكلام غير مقبول عند الأصحاب بنحو الاطلاق، وانّما هو

---

١. راجع: **جامع البيان**، ج ١، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

٢. **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٣٨٤.

٣. **جامع البيان**، ج ١، ص ٢٦١.

مقبول على نحو التفصيل، لانّ الملائكة نوعان: فبعضهم رُسل والبعض الآخر ليسوا رُسلاً، لانّ الله سبحانه يقول في شأنهم: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائكَة رُسُلاً**﴾،[1] كما قال في شأن الناس: ﴿**وَلَقَد اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمينَ**﴾[2] فكما انّ الناس ليسوا بأجمعهم رسلاً فكذلك الملائكة أيضاً ليسوا بأجمعهم رسلاً، والاّ لكانوا جميعاً مُصطَفين للرسالة، لا بعضهم. وبناءً على هذا فانّ المَلك ليس اسماً مشتقاً بل هو علم أو اسم جنس،[3] وذهب امين الإسلام الطبرسي‬ إلى نفس هذا القول.[4]

ولعلّه يمكن القول: انّ الذي يظهر من اطلاق: ﴿**جَاعِلِ الْمَلائكَة رُسُلاً**﴾[5] هو رسالة جميع الملائكة، وانّ الذي يستفاد من آية الاصطفاء المذكورة هو الاصطفاء الخاصّ للرسالة الخاصّة، لانّه ليس كل ارسال هو لأجل ابلاغ رسالة الله إلى الناس، بل انّ لبعض المرسلين دوراً آخر يتعلّق بموجودات اخرى غير الناس.

(٣) يعتبر الزمخشري الحاق حرف (التاء) في (الملائكة) لأجل تأنيث الجمع.[6] ويذهب الفخر الرازي إلى هذا الرأي ايضاً.[7] ويعتقد البعض انّ تأنيث الملائكة قد جاء بتأثير من عقائد المسيحيّين العرب

١. **سورة الحج**، الآية ٧٥.

٢. **سورة الدخان**، الآية ٣٢.

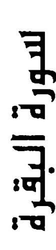
٣. **تفسير التبيان**، الجزء الأول، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

٤. **مجمع البيان**، ج ١، ص ١٧٥.

٥. **سورة فاطر**، الآية ١.

٦. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٤.

٧. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ١٧٤.



الذين سرّبوه إلى اللغة العربية، حيث انّهم كانوا يعتقدون بانّ الملائكة بنات الله، وحينها تأثّر العرب بهذه العقيدة المستوردة الباطلة وقبلوها. وقد جاءت الآية الكريمة: ﴿وَيَجْعَلُونَ للّه الْبَنَات سُبْحَانَهُ﴾[1] لازالة مثل هذا الوهم الواهي.[2] وينقل الاندلسي عن البعض احتمال كون (التاء) للمبالغة.[3] وهذا الاحتمال مبنيّ طبعاً على كون حرف (التاء) ليس جزءاً اساسياً في الجمع، والاّ فانّ حرف (التاء) إذا كان جزءاً أصليّاً في كلمة (الملائكة) التي هي جمع سماعيّ لكلمة (الملك) فلن يكون له معنى منفصل كالتأنيث والتأكيد والمبالغة أبداً.

(٤) ذكر عنوان «الملائكة» في القرآن الكريم في عدّة مواضع، والظاهر انّ ابليس ليس داخلاً في ايّ موضع منها. وفي الآية محلّ البحث والآيات التالية لها تذكر عدّة امور حول الملائكة، ومن المسلّم به انّ ابليس يدخل في احد هذه الأمور، ويُشكّ في دخوله في الأمور الأُخرى. والأمور المذكورة هي: أ: الاعلان للملائكة عن جعل الخليفة. ب: عرض الأسماء على الملائكة. ج: إنباء آدم الملائكة بالأسماء. د: أمر الملائكة بالسجود لآدم. والمورد الرابع اي الأمر بالسجود شامل لابليس، واندراجه تحت عنوان «الملائكة» هو من باب التغليب، لكنّه لا دليل على دخول ابليس تحت عنوان الملائكة في الموارد الثلاثة الاخرى، لانّه وان كان من الممكن القول بالتغليب، لكنّ مجرّد الامكان لا يستلزم

١. **سورة النحل**، الآية ٥٧.

٢. **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٣٨٣.

٣. **تفسير البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٨٤.

الوقوع، والجنوح إلى التغليب في المورد الرابع قد تمّ استناداً إلى قرينة وهي انّ القرآن الكريم من جهة يعدّ ابليس مأموراً بالسجود، ومن جهة اخرى فانّه لم يصدر أمر مستقلّ يتعلّق بسجود ابليس، ومن جهة ثالثة فان استثناء ابليس من امتثال الملائكة للأمر بالسجود شاهد على وحدة الأمر ودخول ابليس في هذا الأمر الواحد. نعم إذا أمكن الحصول على شاهد معتبر منفصل فانّ الجنوح إلى التغليب في الموارد الثلاثة الاخرى ايضاً، سيكون لازماً.

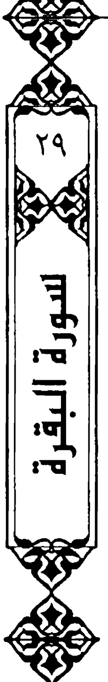
(٥) تارة يطلق عنوان (المَلَك) على ابليس الذي هو من الجنّ كما في قول امير المؤمنين عليه السلام «مَا كَانَ اللّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً»،[1] وتارة يطلق عنوان الجنّ على الملك بسبب الاستتار والخفاء كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا**﴾،[2] لانّ مشركي الجاهلية كانوا يعتقدون بانّ الملائكة بنات الله سبحانه، وكانوا يقولون بعلاقة الابوّة والبنوّة بين الله والملائكة لا بين الله والجنّ. ولذلك فانّ المقصود من الجنّ في هذه الآية هم الملائكة. ومن الطبيعيّ انّ هذا النحو من الاطلاقات يتمّ مع القرينة، والاّ فانّ نوع المَلَك منفصل عن نوع الجنّ.

(**جَاعِلٌ**): هناك قولان حول معنى الجعل في قوله: ﴿**جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، الأول: انّه بمعنى التصيير والتحويل. فالجعل المذكور يتعدّى إلى مفعولين (المفعول الأول هو الخليفة والمفعول الثاني هو في الارض) يعني انّني أجعل خليفة في الأرض. وهذا القول هو القول

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢، المقطع ١١.

٢. **سورة الصافات**، الآية ١٥٨.



المختار للزمخشري، بل هو الوجه الوحيد الذي ذكره[1]. والقول الثاني هو ان الجعل بمعنى الخلق، أي انّني أخلق في الأرض خليفة، فالجعل المذكور يتعدّى إلى مفعول واحد وهو (خليفة). وهذا القول رجّحه ابو حيّان الاندلسي[2]. ولذلك تكرّرت مادة الجعل في بقيّة الآية ﴿**أَتَجْعَلُ...**﴾ دون ذكر (خليفة)، في حين لو كان الجعل ذا مفعولين للزم ان تكون الجملة كالآتي: أتجعل فيها خليفة يفسد فيها.

ويمكن ان يقال: انّ خليفة هنا مقدّر بقرينة الجملة السابقة، ولكن اجيب على ذلك بانّ الكلام بلا إضمار خير من الكلام مع الاضمار.[3]

تنويه:

يجب الالتفات إلى انّ عنوان (الجعل) استعمل في موارد عديدة بمعنى مماثل لعنوان الخلق، لكن في بعض الموارد استعمل بمعنى الأمر اللطيف أو المجرّد أو المعنويّ كما في قوله تعالى: ﴿**... إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء**﴾،[4] ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾.[5] ولذلك فانه في الموضع الذي كان المقصود فيه خلق البدن الماديّ للإنسان قال: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ**﴾،[6] وفي الآية محل

١. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٤.
٢. **تفسير البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٨٨.
٣. **تفسير البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٨٨.
٤. **سورة المائدة**، الآية ٢٠.
٥. **سورة الأنعام**، الآية ١.
٦. **سورة ص**، الآية ٧١.

البحث حيث انّ المقصود هو الجانب المعنويّ للإنسان فقد قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

والملاحظة الاخرى التي ترتبط بمعنى الجعل والتي لا يخلو التنبيه عليها من فائدة لطيفة، هي انّ الجعل إذا كان بمعنى التصيير وتحويل وتبديل الشيء من حال إلى حال، فيحتمل ان يكون جعل آدم بعنوان انّه خليفة وترقيته إلى هذه الدرجة متأخراً عن خلقه بعنوان انّه بشر من طين: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ﴾،[1] أي انّ آدم في حين من الزمان كان بشراً فحسب، دون ان يكون متّصفاً بعنوان الخلافة الإلهيّة ثمّ جُعل خليفة. لكنّ هذا الاحتمال يأتي إذا كان تعبير الآية: «انّي جاعل آدم خليفة». ولكن نظراً إلى انّ التعبير الوارد في الآية هو ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فانّ غاية ما تدلّ عليه هو انّ الأرض في البداية لم تكن تحمل صفة كونها (مسكناً لخليفة الله)، ثم جُعل فيها خليفة واتصفت بانّها مسكن خليفة الله.

(**خَلِيفَةً**): انّ خليفة على وزن فعيلة بمعنى الفاعل لا بمعنى المفعول، والخليفة هو الشخص النائب للسابق لا الشخص الملحوق بآخر والذي يحل في محله من بعده، وان توهم البعض مثل هذا المعنى.[2]

والفرق بين الخليفة والإمام هو انّ الخليفة ناظر إلى الماضي والإمام ناظر إلى المستقبل، سواء كان السبق واللحوق زمانيّاً أم رتبيّاً؛ فإذا ما جاء

---

١. سورة ص، الآية ٧١.

٢. أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، ج ١، ص ٥٧.

شخص بعد آخر واحتلّ مكانه فهو يسمّى خليفة، وإذا ما كان الشخص هادياً ومرشداً للآخرين، والآخرون يقتدون به فهو يسمّى بالإمام. طبعاً من الممكن ان تجتمع الخلافة والإمامة في شخص واحد فيكون خليفة للأفراد الذين سبقوه وإماماً للأفراد الذين من بعده، والإنسان الكامل يكون هكذا، اي انّه إمام بالنسبة للناس، وخليفة بالنسبة إلى الموجود السابق بالذات وهو الله سبحانه، لكنّ هناك كلاماً في تصوير خلافة الإنسان عن الله سيأتي في «لطائف وإشارات».[١]

(**والتاء**): في خليفة للمبالغة، لا للتأنيث، كالتاء في كلمة «بصيرة» في قوله تعالى: ﴿**بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾[٢] فهي لأجل المبالغة ومعناها انّ الإنسان يعرف نفسه بنحو تامّ، على الرغم مما يختلقه لنفسه من حجج لتبرير فساده. والخليفة في الآية محل البحث بهذا النحو ايضاً، اي انّه الموجود الكامل الذي يستطيع ان يحقّق في العالم في جميع المجالات آثاراً إلهيّة (في مقام الفعل).

(**نُسَبِّحُ**): انّ التسبيح الذي معناه اظهار اعلى درجات التعظيم اي التوحيد (ولذلك لا يجوز لغير الله كما انّ العبادة غاية الشكر ولا تجوز لغير الله) يرجع في الأصل إلى مادة (السَبْح) وتعني السير والسعي وبذل الجهد في الحركة، والآية الشريفة: ﴿**إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً**﴾[٣] بهذا المعنى فهي تقول: انّ لك في النهار سيراً وحركة دائبة وسعياً حثيثاً

---

١. **أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن**، ج ١، ص ١٧٢.

٢. **سورة القيامة**، الآيتان ١٤ — ١٥.

٣. **سورة المزمّل**، الآية ٧.

مستمراً، وحيث انّ العبد الموفّق يبادر ويسرع إلى القيام بالعبادة لذلك يسمّى عمله بالتسبيح.[1]

نعم، انّ بعض علماء اللغة قالوا: انّ (السَّبْح) يختص معناه بالحركة في مسير الحقّ دون ايّ نحو من أنحاء الوهن والانحراف، ولا يعني مطلق الحركة، وبعبارة اخرى انّهم يلاحظون فيه جهتين: الأولى الحركة في طريق الحق والاخرى البعد عن الضعف والانحراف. ولذا قالوا: انّ معنى التسبيح ومعنى عبارة (نسبّح) في الآية هو (انّنا نرى امرك سائراً على الحق، ولا نرى فيه أيّ شيء من الضعف والنقص والانحراف).[2]

(**نُقَدِّسُ**): التقديس ايضاً من «القَدَس» (وهو جفنة تستعمل للوضوء والتطهير) ويعني التطهير، وقيل في فرقه عن التسبيح: انّ التسبيح تنزيه الله من الشريك والتقديس تنزيهه من كل عيب،[3] أو بقول المولى عبد الرزاق الكاشاني: انّ التسبيح أعمّ مطلق والتقديس أخصّ مطلق، لانّ التسبيح عبارة عن تنزيه الله من الشريك، ومن أيّ عجز ونقص، في حين انّ التقديس عبارة عن تنزيه الله عن خصوص النقائص والعيوب الماديّة والطبيعيّة، كالحاجة إلى المكان والزمان وامثال ذلك. فالتسبيح ناظر إلى الوحدة وبعد الله عن أيّ نقص وعيب، والتقديس ناظر إلى تجرّده سبحانه عن حاجات عالم الطبيعة والمادّة.[4]

وقيل ايضاً، انّ التسبيح والتقديس، كليهما بمعنى التنزيه من النقص

---

١. **مفردات الراغب**، مادة «س ب ح».
٢. راجع كتاب **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، مادة (س ب ح)، ج ٥، ص ٢٣.
٣. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٣٥.
٤. **تفسير القرآن الكريم**، ج ١، ص ٣٧.

ولا فرق بينهما من هذه الجهة، والفرق الوحيد بينهما هو انّ التسبيح يُستعمل في خصوص تنزيه ذات الله، ولعلّه بهذا اللحاظ فسَّر البعض معنى التسبيح بانّه تنزيه الله عن السوء على وجه التعظيم،[١] لكنّ التقديس اعمُّ من ذلك. ولهذا يقال: إنسان مقدّس وأرض مقدّسة، ولكنّه لا يقال: رجل مسبَّح ولا أرض مسبَّحة.[٢]

ويظهر من بعض العبارات انّ الفرق بين التسبيح والتقديس هو انّه في التقديس يتّجه النظر إلى تلك الجهة الوجوديّة التي تحصل بعد ازالة العيب والنقص، أي انّ الملحوظ هو حصول القداسة والطهارة بعد ازالة النقص والعيب، في حين انّ مثل هذا الأمر غير ملحوظ في التسبيح. بل انّ الملحوظ فيه وكما سبق هو جهتا المسير في طريق الحقّ، والنزاهة من العيب والنقص.

تنويه: يمكن ان يستنتج من التقابل الذي طرحه الملائكة بين افساد الناس وسفكهم للدماء وتسبيح الملائكة وتقديسهم، انّ الإفساد وسفك الدماء هما منتهى الشرّ، وانّ التسبيح والتقديس هما قمّة الخير وأوج الكمال، كما يظهر من الكلام المشرق للإمام السجّاد عليه السلام في انّ حقيقة الإنسان هو الحيوان الناطق الحامد.[٣]

تناسب الآيات: يمكن أن تعدّ هذه الآية تتمّة للاستدلال بالآية السابقة: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً...**﴾[٤] والتي هي ايضاً تتمّة

١. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٣٤.
٢. **معجم الفروق اللغوية**، ص ١٢٥.
٣. **الصحيفة السجادية**، الدعاء الأوّل.
٤. **سورة البقرة**، الآية ٢٩.

للاستدلال بالآية السابقة لها: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾[1] فيصبح معنى مجموع الآيات (من ٢٨ إلى ٣٠) هو كالآتي: كيف تكفرون بالله في حين انّكم كنتم امواتاً فأحياكم... وخلق كلّ شيء في الأرض لأجلكم... وجعلكم خلفاءه في الأرض إذا ما حقّقتم المؤهّلات اللاّزمة وكنتم كفوئين لها، ووهب لكم كل هذه الألوان من الكرامة.

وبعد أن اشار الله سبحانه في الآيتين السابقتين إلى النعم الخاصّة بالإنسان واعتبر جميع النظام الكوني لأجل الإنسان، وانّ الهدف من خلق السماوات والأرض هو انتفاع الإنسان، فانّه يمكن القول بانّ السماوات والارض مع جميع ما يرتبط بهما من شؤون كلّها قد خلقت لأجل الإنسان. وحينئذ يأتي هذا السؤال وهو ما حقيقة شأن هذا الإنسان الذي خلقت من أجله هذه المجموعة الهائلة من الكون والوجود؟!

وبعبارة اخرى: انّ الآية بمنزلة التعليل لكون الإنسان هو الغاية والهدف لنعم الله ومواهبه الأرضية وتسوية السماء بصورة سبع سماوات وهو الأمر الذي بيّنته الآية السابقة، وكأنّها تؤكّد هذه الملاحظة، وهي انّنا عندما خلقنا كلّ ما في الأرض لأجل الإنسان وزينّا له السماوات السبع، فانّما هو لأجل مقام الخلافة الإلهيّة للإنسان الذي تتوفّر فيه المؤهّلات اللاّزمة.

ويمكن ان يقال أيضاً: انّه بعد ذكر النعم الإلهيّة التي وهبها الله للإنسان، جاءت هذه الآية لتكون مقدّمة لبيان نعمة المعرفة ولتقول الآية: انّ الإنسان وبعد ان حظي بموهبة العلم الخاص فقد صار مسجوداً له من قبل الملائكة، ولاجل تحلّيه بهذه الفضيلة والدرجة الرفيعة فقد خضع له

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٨.

جميع الملائكة. وانّ الله سبحانه قد خلق جميع النظام المُلكيّ والملكوتيّ لأجل الإنسان الكامل، وقد خلق الإنسان لينال منصب الخلافة.

كما ويحتمل ايضاً انّ الآية وبعد ان بيّنت إفساد الفاسقين وتعجّبت من كفر المنكرين جاءت أوّلاً: لتفهّم المنكرين بأن لا يمتنعوا عن قبول براهين وأدلّة الرسول الأكرمﷺ وان لا يرفضوا طلب العلم بشكل عام، لأنّه عندما يكون الملائكة بحاجة إلى العلم، فانّ الإنسان الذي فُطِر على اكتساب العلم هو أولى بالحاجة إلى ذلك.

وثانياً، لتسلّي النبي حتى لا يتألّم من اعتراض المنكرين ولا يتعجّب إذا سمع بافساد البعض في الأرض وجحودهم في مقابل الحقّ بعد معرفتهم ايّاه، لأنّه إذا كان الملائكة قد وقفوا هذا الموقف نتيجة لعدم علمهم بحقيقة الأمر، فانّ الإنسان الجهول الظلوم بطريق اولى. وليعلم الرسولﷺ انّ الافساد والجحود ايضاً ليس مختصاً بأمّته ولا بالجيل الحاضر، بل هو أمر غريزي وطبيعيّ في البشر، وفي كلّ موجود ذي فكر واختيار.

وعلى كل حال، فانّ هذه الآية التي تنقسم مباحثها إلى قسمين: أحدهما: اعلان خلافة الإنسان من قبل الله سبحانه، والآخر: سؤال وجواب حول الخلافة، هي المقدمة للآيات العشر التي تعيّن مكانة ودور الإنسان في النظام الأحسن،وتدلّ على انّ الإنسان يحظى باستعداد خاصّ في مجال معرفة الحقائق، وبتنمية هذا الاستعداد وتفعيله، يمكن أن يصبح أعلى وأرفع من الملائكة، ويصير مظهراً لصفات الجلال والجمال وجميع الأسماء الإلهيّة الحسنى، وعن هذا الطريق تظهر قدرته على تسخير جميع ما في السماوات والأرض: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ**

وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.[1] وتبيّن أيضاً دور ومكانة الملائكة بالنسبة إلى الإنسان، فبطرحهم الاستفهام وجواب الله عليه ثمّ امرهم بالسجود في مقابل آدم تبيّن عدم استعدادهم لمقام الخلافة الإلهيّة الخاصّة، وهي تكشف النقاب عن حقيقة ابليس وعدائه لآدم وذريّته، وبنحو عام عن استكبار الشيطان في مقابل الله سبحانه، وبالنتيجة فانّها بيّنت قابليّة الإنسان للتأثّر بوساوس ابليس وهبوطه ونزوله من مقامه الشامخ الذي كان فيه، واشارت ضمناً إلى امكانيّة التوبة وتدارك الأخطاء والعودة إلى مقام القرب السابق.

المراد من الملائكة: هل انّ المقصود من (الملائكة) جميع الملائكة أم فئة منهم فقط، هناك قولان: فقد نقل الشيخ الطوسي‌﵀ عن ابن عباس انّ الملائكة الذين وجّه الله إليهم الخطاب وسألوا الله هم فقط الملائكة الذين سكنوا الأرض بعد الجنّ.[2]

ويؤيّد هذا الاحتمال اوّلاً: الرواية الواردة في تفسير الإمام الحسن العسكريّ‌﵇ والتي نقلها الفيض الكاشاني‌﵀.[3]

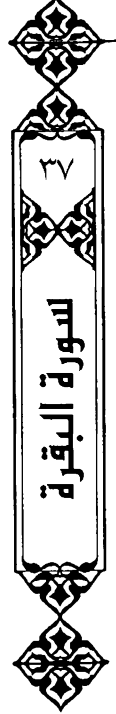
ثانياً: العبارة الاخرى في نفس ذلك التفسير هي: «انّي جاعل في الأرض خليفة بدلاً منكم ورافعكم منها فاشتدّ ذلك عليهم لانّ العبادة

---

١. **سورة الجاثية**، الآية ١٣.

٢. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٣٣.

٣. ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة**﴾ «الذين كانوا في الأرض مع ابليس وقد طردوا عنها الجنّ بني الجان وخفّفت العبادة» التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري، ج ١، ص ١٧٧. والظاهر انّ المقصود من (خفّفت العبادة) بقرينة الرواية التالية عن الإمام الصادق‌﵇ التي يقول فيها: انّ العبادة اصبحت اثقل على الملائكة بعد عودتهم إلى السماء، انّ العبادة في الأرض أقلّ واخفّ على الملائكة.



عند رجوعهم إلى السماء تكون أثقل عليهم»[١] حيث انّ عبارة «رجوعهم إلى السماء» تشير إلى انّ الملائكة المخاطبين كانوا سابقاً في السماء وحين الخطاب كانوا ساكنين في الأرض، وتقرّر ان يعودوا مرّةً اخرى إلى السماء، ومن المستبعد أن يكون مثل هذا النزول والصعود شاملاً لجميع الملائكة، لانّ البعض منهم حملةٌ للعرش وبعض مدبّرات للأمر في كلّ العالم لا في الأرض خاصّة.

والاحتمال الآخر هو انّ المقصود من الملائكة هو جميع الملائكة بدلالة عموم لفظ (الملائكة) وعدم وجود المخصّص كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين مثل الكاشاني[٢]. وهذا الاحتمال مبني على انّ الجمع المحلّى بالألف واللام يدلّ على العموم. في حين انّ بعض المحقّقين أنكر دلالته على العموم بالوضع، لانه لا اللاّم تدلّ على العموم بالوضع ولا مدخول اللاّم ولا المجموع من اللام ومدخولها[٣]، وقالوا: انّ عمومها يجب ان يستفاد من مقدّمات الحكمة أو من قرينة اخرى،[٤] ومن الواضح انّ مقدمات الحكمة في محلّ البحث ليس فيها مثل هذا الاقتضاء، ووجود القرينة الاخرى الدالّة على العموم بحاجة إلى الاثبات، بل من الممكن ان تكون هناك قرينة على الخلاف، لانّ من بين الملائكة من هو فان ومستغرق في الله، ومن هو في تسبيح دائم وركوع وسجود

١. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ٩٣.
٢. **تفسير منهج الصادقين**، ج ١، ص ٢١٩.
٣. لو كانت تدلّ بالوضع للزم ان تكون كلمة الدماء في قوله تعالى ﴿**ويسفك الدماء**﴾ كذلك ايضاً، وان امكن القول بانّ مثل هذه الموارد محفوفة بالقرائن الحالية وأمثالها.
٤. **كفاية الأصول**، ص ٢١٧.

مستمرّ وفيهم من لا يرون أنفسهم اصلاً فكيف يكونون بصدد قياس أنفسهم إلى آدم؟

وعلى كلّ حال صحيح انّ عنوان الملائكة ذُكر في هيئة الجمع وبالألف واللام لكنّ في دلالتها على العموم يوجد تأمل، لانّ الذي يظهر من الاعلان الإلهيّ وكذلك ما يُستظهر من استفهام الملائكة وما يستفاد من عرض الاسماء على الملائكة، ليس منسجماً ولا مساوياً مع ما يستظهر من آية سجود الملائكة، لانّ الظاهر من آية سجود الملائكة وما صاحبها من تأكيدين هما «كلّهم» و«أجمعون»، هو الاستغراق والتعميم، بينما الموارد الاخرى فاقدة لهذين التأكيدين. وينبغي ان يلاحظ هذا المعنى اجمالاً حتى يأتي تفصيله في المحلّ المناسب.

تنويه: ١. ذكر الفخر الرازي بحثاً مفصّلاً حول معرفة الملائكة وأقسامهم وأنواعهم وفي هذا البحث يقول:

«اعلم انّه بعد كلام الله وكلام الرسول ليس هناك من كلام في وصف الملائكة أعلى وأجلّ من كلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام».

ثم ذكر كلام الإمام عليّ عليه السلام في الخطبة الأولى من **نهج البلاغة** في وصف الملائكة.[١]

٢. انّ البحث عن عصمة الملائكة حظي بالاهتمام الكبير في تفسير الإمام الرازي وأتباعه والسائرين على منهجه، لكنّ الورود في مثل هذا البحث باعث للخروج عن المحور الأصليّ في الآية محلّ البحث.

---

١. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ١٧٩ ـ ١٨٠، ذيل الآية (٣٠) من سورة البقرة.

خصائص جعل الخليفة:

انّ حرف التأكيد (انّ) في قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ يدلّ على الجدّية في العزم على جعل الخليفة؛[1] كما انّ كون الجملة اسميّة وصفة مشبهة دليل على استمرار وجود خليفة الله، خلافاً للموارد التي ذكرت بصيغة الجملة الفعلية، وفي هيئة الفعل الماضي كما في قوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾،[2] ففي هذه الحالة (خلافة داوود) جعل شخصي لا نوعيّ، كما ان التصريح بشخص (داوود) المعيّن يدفع أيّ نحو من التوهّم للخلافة النوعيّة، الا ان يكون ذكر شخص (داوود) المعيّن هو من قبيل التمثيل لا التعيين.

وقيل أيضاً: انّ الإتيان بالجملة الاسميّة ومع ما فيها من تأكيد (انّ) للاشارة إلى الملائكة بحتمية مسألة الخلافة، وحتّى يكون هذا البيان البليغ الدامغ سبباً ووسيلة لعدم وقوعهم في العصيان والطغيان وحتّى لا يعترضوا ولا يصدر منهم شيء لا ينسجم مع عبوديتهم وخضوعهم للربوبيّة الإلهيّة، وهكذا تمّ ايضاً، لانّهم اغتنموا الفرصة للمناجاة وللتحدّث مع الربّ الودود والعالم بجميع الخيرات والشرور وخالق جميع الاشياء، وبدلاً عن الاشكال والاعتراض فانّهم سألوا على نحو الاستفهام وعن طريق الاشارة إلى ما هو مبغوض ومكروه لدى الذات الإلهيّة المقدّسة أي (الفساد وسفك الدماء) وما هو محبوب لديه: (التسبيح والتقديس) فأبدوا بذلك اعلى درجات حبّ الخير والعشق لله سبحانه.

---

١. **التفسير الموضوعي**، ج ٤، ص ١٢٦ (وهو للمؤلف باللغة الفارسية).

٢. **سورة ص**، الآية ٢٦.

والاتيان بضمير المتكلم المفرد في كلمة (انّي) بدلاً عن ضمير المتكلم مع الغير (إنّا) وذلك لانّ الله سبحانه يذكر الفعل في صيغة الجمع في الموارد التي يتمّ فيها الفعل عبر الوسائط كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾،[1] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾،[2] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ...﴾،[3] ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾[4] وكما جاء في قضية خلافة النبيّ داوود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾[5] ففي مثل هذه الموارد يؤتى بالفعل بصيغة الجمع نظراً لوجود الوسائط (اضافة إلى مسألة التفخيم والتعظيم التي تلاحظ في بعض الموارد). لكنّه في مسألة خلافة الإنسان الكامل التي ليس فيها أيّ وسيط من الملائكة (لاسيّما إذا قلنا: انّ جميع الملائكة مخاطبون) فانّ الاتيان بضمير الجمع لا وجه له.[6] لكنّ مثل الملاحظة غير موجودة هنا لانّ محلّ البحث هو من قبيل بيان المسائل التوحيدية من قبل الله سبحانه، والتي لا مجال فيها لتصوّر الكثرة والتعدّد كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾،[7] أو ﴿لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ﴾.[8]

ومن الجدير بالذكر انّ عدم وساطة الملائكة يرتبط بحقيقة وروح

---

١. **سورة القدر**، الآية ١.

٢. **سورة الحجر**، الآية ٢٢.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

٤. **سورة مريم**، الآية ٨٣.

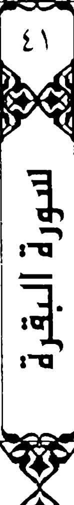
٥. **سورة ص**، الآية ٢٦.

٦. (الأ) للتعظيم والتفخيم الذي اشير إليه كما في الآية ٣٤ عندما قال «قلنا»، بدلاً عن «قلت» مع انه هنا لا محل للوساطة ايضاً لان جميع الملائكة أُمروا بالسجدة.

٧. **سورة طه**، الآية ١٤.

٨. **سورة طه**، الآية ١٤.





خليفة الله التي هي الأساس في مسألة الخلافة، وهذه المرحلة من وجـود الخليفة هي التي تكون معلّم الملائكة، ويتعذّر عليهم ادراكهـا والاحاطـة بها. ولذلك فانّهم لا يمكنهم ان يصيروا واسطة للفيض في هـذه المرتبـة الوجوديّة العالية والاّ فلا ريـب فـي انّ للملائكـة وسـاطة فـي المراتـب النازلة لخليفة الله اي في مجال جسمه وبدنه.

تنويه: إذا كان بعض الملائكة مهيّماً ومتحيّراً، ونتيجة للاستغراق فـي الشهود الإلهيّ والبقاء في الفناء واستمرار حالة المحو دون صـحو، كـانوا غير مشمولين في الخطاب والمحاورة، فانّه لا دور ولا وساطة لهم أيـضاً في جعل الخليفة؛ لانّ المَلَك المحكوم بالمحو المحض كمـا لا حـضور له في ساحة الاعلان والحوار والأمر بالـسجود وفـي الـتعلّم مـن الإنبـاء والإخبار بالأسماء، فانّه أيضاً لن يكون واسطة في جعل الخليفة.

تنويه: سوف يأتي بالتفصيل في بحث لطـائف وإشـارات: انّ المـراد مـن قولـه (فـي الأرض) لـيس هـو انّ الإنـسان الكامـل خليفـة لله فـي خـصوص الأرض، بـل هـو خليفـة الله فـي جميـع العـوالم «الغيبيّـة والشهوديّة»[1] وعبارة (في الأرض) تتضمّن الاشارة إلى انّ مبـدأ الإنـسان في قـوس الـصعود هـو المـادّة الأرضـيّة، وانّ الأرض هـي موقـع بدنـه العنصريّ، وانّ حركته تبدأ من المادّة والأرض.

وبعبارة اخرى، فانّ قيد (في الأرض) هو قيد للجعل، لا للمجعـول، أي انّ الخلافة (التي هي مجعولة) أمر مطلق وجعلها مقيّد. ولذلك قُدِّمت عبارة (في الأرض) على خليفة، خلافاً لما ذُكر في مورد خلافـة داوود عليه السلام حيـث

---

١. **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ١٠٠، من الترجمة العربية.

قالت الآية الكريمة: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[١] حيث انّ قيد (في الأرض) متعلّق بالخليفة والجار والمجرور ظرف للخلافة. ولذلك فانّه طبقاً لهذه الآية يكون داوود خليفة في الأرض لا في جميع العالم.

من هو الخليفة وما هي الخلافة؟

هناك العديد من الاحتمالات المطروحة في تعيين مصداق الخليفة والتي سيدور البحث حولها وهي:

١. اختصاص الخليفة بالشخص الحقيقيّ لآدمعليه السلام كما ذهب إلى ذلك الزمخشري[٢] والطبرسيرحمه الله.[٣]

٢. تعميم الخليفة إلى جميع أفراد الإنسان الكامل.

٣. تعميم الخليفة إلى جميع المؤمنين المتّقين الورعين.

٤. تعميم الخليفة إلى جميع الناس الأعمّ من المؤمن والكافر، كما هو الظاهر من كلام (الكاشف)[٤] و(المنار)[٥] من انّ مطلق الناس وعلى نحو الفعليّة قد اكرمهم الله بكرامة وسام الخلافة، على الرغم من انّهم لم يشكروا نعمة الخلافة كتصرّفهم مع سائر النعم والفضائل التي وهبها الله لهم فلم يشكروها ووقفوا منها موقف الظلوم الجهول.

٥. تعميم الخليفة إلى جميع الناس الأعمّ من المؤمن والكافر لكن لا

---

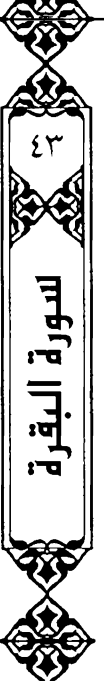
١. سورة ص، الآية ٢٦.

٢. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٤.

٣. **مجمع البيان**، ج ١، ص ١٧٦؛ **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤١.

٤. **تفسير الكاشف**، ج ١، ص ٨٠.

٥. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٥٨.



على النحو الذي ذكر في الاحتمال الرابع (جعل الخلافة بالفعل لجميع الناس) بل انّ المجعول في هذا الوجه، الذي هو مختارنا، هو الحقيقة الجامعة للخلافة وقد جُعلت لحقيقة الإنسان، وحيث انّ الخلافة مقولة مشكّكة وذات مراتب مختلفة، كما انّ لأنحاء الكمال الإنساني درجات مختلفة، فكلّ مرتبة من الخلافة قد جُعلت لمرتبة خاصّة من المراتب الوجوديّة للإنسان.

وبيان ذلك هو انّ منشأ خلافة الإنسان هو ايداع العلم بالأسماء في باطنه وفطرته ولا ريب في انّ العلم بالأسماء الإلهيّة الحسنى حقيقة ذات مراتب، فبمقدار اهتداء الإنسان في الصراط المستقيم في مجال العقيدة والأخلاق والعمل، فانّ الاسماء الإلهية تتحوّل في وجوده من القوّة إلى الفعل، وتظهر فيه تبعاً لها الخلافة الإلهيّة.

وعليه فانّ الأفراد الذين هم في درجة الاستعداد للإنسانيّة لا نصيب لهم سوى درجة الاستعداد للخلافة (وان كانت درجات القرب والبعد للقوّة مختلفة ايضاً)، والأفراد الذين هم ضعفاء أو متوسطون في الكمالات الإنسانيّة والإلهيّة، بما انّ العلم بالأسماء الإلهيّة لديهم ضعيف أو متوسط، فانّ الخلافة الإلهيّة تكون فيهم ايضاً ضعيفة أو متوسطة، وامّا الأفراد الكاملون فقد حظوا بالدرجة العالية من العلم بالأسماء الإلهيّة، ولأجل ذلك فهم ينعمون ايضاً بالدرجة العالية من الخلافة الإلهيّة.

البحث في الاحتمالات الخمسة

الأوّل: وهو احتمال غير مقبول، لانّ المقصود من الخليفة ليس هو

الشخص الحقيقيّ لآدمعليه السلام، بل المقصود هو الشخصيّة الحقوقية لآدم ومقام الإنسانيّة. وبعبارة اخرى: انّ خلاصة وعصارة الإنسانيّة ومقامها الشامخ تجلّى في قصّة وهيئة آدم فأصبح مثالاً للإنسانيّة، كما انّ الذي خضع في مقابله الملائكة لم يكن شخص آدم، بل انّ آدم كالكعبة صار بمثابة القبلة، وتمّ السجود لشخصيّته وإنسانيّته التي هي شخصيّة وإنسانيّة جميع الناس (فالمسجود له هو هذه الإنسانيّة)، وسيأتي تحقيق ذلك بالتفصيل في الآيات التالية.

وهناك شواهد على هذا المدّعى (وهو انّ شخص آدم اجمالاً ليس هو المقصود):

أ: انّ الاخبار عن العزم على جعل الخليفة جاء بصيغة الجملة الاسميّة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ وهو مفيد للاستمرار.

ب: انّ زمام الأرض والقدرة على تسخيرها واكتشاف منافعها وثرواتها واستثمار بركاتها وآثارها قد اوكل إلى نوع الإنسان لا إلى إنسان خاصّ. وهذا يدلّ على انّ خليفة الله في الأرض، اي النائب عن الله الذي يستطيع ان يكون آيةً ومظهراً خاصّاً له ومأذوناً من قبله في التصرّف في الأرض وتبديل ما فيها من ثروات وامكانيّات من القوّة إلى الفعل هو نوع الإنسان لا إنسان خاصّ.

ج: انّ العلم بالأسماء ليس مختصّاً بآدمعليه السلام بل هو مودع في جميع أبنائه على نحو القوّة بحيث انّ كل انسان إذا استطاع بواسطة السير في طريق الحقّ ان يخرجه من القوّة إلى الفعليّة، وتظهر آثاره عليه فيحظى بنصيب من العلم بالأسماء الإلهيّة،فانّه بمقدار ذلك سينعم بالخلافة الإلهية.

د: ظهور السؤال الاستفهاميّ للملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ...**﴾ حيث انّ ظاهر هذا التركيب لاسيّما مع قرينة التقابل بين (من يفسد...) و(نحن نسبّح) حيث انّ افساد النوع في مقابل اصلاح النوع الآخر أي الملائكة، لا انّ المقابل لإصلاح النوع هو افساد فرد من افراد النوع الواحد، ولازم ذلك انّ الخلافة ايضاً مجعولة لذلك النوع وان كانت مجعولة في الجملة لا بالجملة.

هـ: قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**﴾،[1] حيث تدلّ هذه الآية الكريمة على انّ آدم قد أصبح مسجوداً له من قبل الملائكة لا بعنوان شخصه، وانّما بعنوان كونه المثال والقدوة لنوع الإنسان وعصارة البشريّة، لانّ الخطاب في الآية متوجه لنوع الإنسان،[2] وحيث انّ الأمر للملائكة بالسجود لآدم قد صدر بعد منحه مقام الخلافة فقد ظهر من ذلك انّ مقام الخلافة ليس مختصاً بآدم. ولذلك فانّ عداوة الشيطان ايضاً ليست مختصّة بآدم، ومع انّ الآية الكريمة في سورة طه تقول: ﴿**إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ**﴾[3] لكنّه في نفس الوقت فانّ الآية في سورة الأعراف تقول: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾.[4]

وذكر العلاّمة الطباطبائيّ شاهداً آخر أيضاً وهو الآيات التي تتحدّث عن الخلافة فتنسبها إلى جميع الناس كما في الآيات التالية: ﴿**إِذْ جَعَلَكُمْ**

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١١.

٢. **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٣. **سورة طه**، الآية ١١٧.

٤. **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

﴿خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾،[1] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾[2] و﴿يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ﴾.[3] ولكنّ الذي يظهر من النظر في سياق هذه الآيات انّ المقصود منها هو خلافة الامم الحاضرة للأمم السابقة لا خلافة نوع الإنسان عن الله أو عن الجنّ أو عن الأنواع الاخرى غير الإنسان.

نعم يمكن استفادة هذا المعنى من الخطاب الموجّه إلى النبي داوود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[4] بزعم انّ المقصود من الخلافة هنا مشابه لخلافة آدم، ولازم ذلك انّ الخلافة ليست مختصّة بآدم عليه السلام، لكنّه يجاب على ذلك أولاً: انّ خلافة داوود قد حصلت بجعل مستقلّ في حين انّ صلاحية الآية بان تكون شاهداً على الآية محل البحث تعتمد على أن تكون خلافة داوود ناشئة من ذلك الجعل الأوّل أي قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

ثانياً: انّ اصل هذا المعنى وهو انّ المقصود من خلافة داوود امر شبيه بخلافة آدم غير ثابت، لأنّه يحتمل ان تكون خلافة داوود كتلك الخلافة التي جاءت في الآيات الثلاث المذكورة، اي انّ المقصود هو خلافة داوود للحكام والولاة السابقين، والخليفة هنا بمعنى الحاكم والمتولي لزمام الأمور، ومن الواضح انّ دائرة هذه الخلافة تختصّ بالأرض ولا تشمل جميع العالم، والظاهر انّ ظرف «في الأرض» قد ذكر بهذا اللحاظ في الآية المرتبطة بخلافة داوود وهو ان يكون قيداً للخلافة

١. **سورة الأعراف**، الآية ٦٩.
٢. **سورة يونس**، الآية ١٤.
٣. **سورة النمل**، الآية ٦٢؛ **الميزان**، ج ١، ص ١١٥ ـ ١١٦.
٤. **سورة ص**، الآية ٢٦.



فقالت الآية: ﴿**خليفة في الأرض**﴾، على العكس ممّا ذُكر في الآية محلّ البحث حيث ذكر ظرف «في الأرض» كقيد للجعل فقالت الآية: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ فقدّمت الظرف «في الأرض» على «خليفة».

وإذا كان المقصود هو خلافة داوود ايضاً عن الله، فالمراد منها هو الحاكميّة التشريعيّة لله وليس الخلافة التامّة المطلقة التي هي المقصودة في الآية محلّ البحث، أي انّ داوود عليه السلام خليفة لله في مجال القضاء والحكم بالحقّ، وهي أيضاً خلافة في حدود نطاق الأرض.

طبعاً وكما سبق التنويه إليه وسوف يأتي فانّ الخلافة لها درجات ومراتب.[١]

تنويه

١. ينبغي الالتفات إلى هذه الملاحظة وهي حيث انّ الآية محلّ البحث مفيدة للاستمرار، فإذا ذكرت بجملة مستقلّة خلافة أحد افراد الإنسانيّة الكاملين، فانّه يمكن ان يكون ذلك دليلاً على استمرار ذلك الاستخلاف والجعل الدائم.

٢. انّ بيان بعض شؤون الخلافة التامّة فيما يتعلّق بالنبي داوود، ليس دليلاً على حرمانه من سائر شؤون الخلافة الإلهيّة، لانّ ذلك النبيّ هو كباقي أفراد الإنسانيّة الكاملين الآخرين خليفة لله بمقدار ما كان لديه من علم بالأسماء الإلهيّة، واثبات بعض شؤون الخلافة لا ينفي الشؤون الاخرى.

---

١. **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ١٠٠، من الترجمة العربية.

الثاني: الاحتمال الثاني تؤيّده بعض الروايات الواردة حول الآية محلّ البحث كالرواية التي تقول: «ان الله تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلّها، ثمّ عرضهم وهم أرواح على الملائكة، ﴿**فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ بأنّكم أحقّ بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم و﴿**قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ**﴾ فلمّا انبأهم بأسمائهم وقفوا على عظم منزلتهم عند الله عزّ ذكره فعلموا انّهم أحقّ بان يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريّته».[1] وشبيه هذه الرواية رواية عن امير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: انّ الله سبحانه قال للملائكة «انّي اريد ان اخلق خلقاً بيدي، أجعل ذريّته أنبياء مرسلين وعباداً صالحين وأئمّة مهتدين؛ أجعلهم خلفائي على خلقي في ارضي...»[2] وبضمّ هذه الرواية إلى رواية اخرى واردة في ذيل هذه الآية والتي تقول: «فكان آدم أوّل خليفة لله»[3] نستنتج انّ المجعول في آية الخلافة هو آدم وكلّ إنسان كامل آخر.

تنويه: طبقاً لهذا الاحتمال، فان الخلافة الإلهيّة على الرغم من كونها مقولة مشكّكة، لكنّ حدّ النصاب في بلوغ خليفة الله هو الإنسان الكامل، فكلّ من بلغ هذا النصاب فهو خليفة الله، وهذا المقام ليس مختصاً بأكمل الناس وهو خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، وبعبارة اخرى فانّ الاختلاف

---

١. **البرهان في تفسير القرآن**، ج ١، ص ١٦٤؛ ح ٢؛ **كمال الدين وتمام النعمة**، ج ١، ص ٨٩ ـ ٩٠.
٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٢، ح ٨٠؛ **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٢٩.
٣. **البرهان في تفسير القرآن**، ج ١، ص ٧٥، ح ١٣؛ **مائة منقبة** ج ٣، ص ١١٨ ـ ١١٩.

الموجود بين الناس الكاملين لا تأثير له في أصل الخلافة الإلهيّة، بل انّ هناك آثاراً اخرى فقط تترتب على هذا الاختلاف، كالذي جاء حول رسول الله ﷺ من انّه إذا كان يوم القيامة جاء الله من كلّ امّة بشاهد ليشهد على جميع عقائد وأعمال تلك الأمّة وجيء بالرسول الأعظم ﷺ ليكون شاهداً على جميع الأمم والانبياء: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيدًا**﴾.[1] لذلك قال النبيّ الأكرم بنفسه: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»،[2] وهذا المقام خاصّ بالإنسان الأكمل أي الصادر الأوّل والتجلّي الأوّل.

وجواب الاحتمال الثاني هو انّ مثل هذه الروايات ليست مفيدة للحصر ولا دلالة فيها على نفي الخلافة عن الأفراد المؤمنين والأتقياء وان كانوا في الدرجة المتوسّطة أو الضعيفة ولا دلالة فيها على نفي درجة الخلافة بالقوّة عن غير المؤمنين.

الثالث: يمكن ان يقال بانّ الاحتمال الثالث هو مقتضى السنخيّة بين الخليفة والمستخلف عنه، لأنّه في حال كون المستخلَف عنه هو الله سبحانه (كما سوف يتّضح) فانّ الأفراد المعاندين والملحدين والكافرين والفاسقين لا يتمتّعون بأيّة سنخيّة في صفات الكمال مع الله سبحانه، ومع ملاحظة انّ السنخيّة بين الخليفة والمستخلف عنه لها درجات وبالنتيجة فانّ حقيقة الخلافة ايضاً لها مراتب مختلفة، فيتعيّن هذا الوجه وهو انّ جميع الأفراد المتّصفين بالتقوى والصلاح هم خلفاء لله حتّى

١. **سورة النساء**، الآية ٤١.

٢. **بحار الأنوار**، ج ١٦، ص ٤٠٢، ح ١؛ **مناقب آل ابي طالب**، ابن شهر آشوب، ج ١، ص ٣٦٧.

نصل إلى الخليفة الأكمل وهو الذي يتجلّى بعنوان الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل، والآخرون سوف يحصلون على الدرجات المتوسّطة أو النازلة من الخلافة الإلهيّة.

والجواب على الاحتمال الثالث هو انّ التوجيه المذكور لازمه ايضاً هو فقط اثبات الخلافة الفعلية للأفراد المؤمنين وليس فيه اقتضاء نفي الخلافة ـ ولو في حدّ القوّة ـ عن سائر الناس.

الرابع: الاحتمال الرابع الذي اختاره صاحبا تفسيري «الكاشف» و«المنار» ويؤيّدانه هو أوّلاً: انّه يمكن ان يستفاد من بعض الروايات كما في قضيّة الصلاة على آدمعليه السلام وما نُقل في شأنها عن لسان جبرئيل انّه قال: «انّا لا نتقدم على الآدميين مذ أمرنا بالسجود لآدم» أي انّنا لا نكون اماماً في الصلاة للآدميين،[1] وجاء بعبارة اخرى: «فليس لنا ان نؤمّ احداً من ولده».[2] وفي سورة الأعراف وكما مرّ فانّ الآية تخاطب جميع الناس وتقول: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**﴾[3] حيث تدلّ على انّ آدم صار مسجوداً له من قبل الملائكة بعنوان انّه مثال لنوع الانسان.

ثانياً: وفي توجيه ذلك يمكن ان يقال: انّ عناد وكفر وفسق الانسان المعاند والكافر والفاسق لا يلزم منه عدم السنخيّة بين الله سبحانه ونوع الانسان، لانّه حتّى الانسان الكافر أو المعاند أو الفاسق يتمتّع ايضاً بالعلم

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٨، ح ١٠٣؛ **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٨ ـ ١٩.
٢. **كمال الدين وتمام النعمة**، ج ١، ص ٣٢١.
٣. **سورة الأعراف**، الآية ١١.

والعقل والقدرات بالقوّة أو بالفعل وبنحو لا يُلاحظ عند أيّ مخلوق آخر حتّى الملائكة، أي انّ مثل هذا الإنسان ايضاً ينطوي فيه العالَم الأكبر: (وفيك انطوى العالَم الاكبر)،[1] وانّ قدرته على الابداع والاختراع مظهر لخالقيّة الله سبحانه، وانّ حريّته واختياره وحاكميّته مظهر للاختيار والحاكميّة المطلقة لله سبحانه.

والفارق الوحيد بين الإنسان المؤمن والكافر يتمثّل في انّ المؤمن لا يُسيء استخدام هذا المقام واستثمار هذه القدرة والاستعداد بل انّه يستعملها في طريق الخير والصلاح وتحقيق اهداف ورغبات المستخلَف عنه، لكنّ الكافر لم يشكر النعمة، واختار لنفسه ان يقابل هذه الأمانة العظمى التي وضعت على عاتقه (وهي الأمانة التي عجز عن حملها سائر الموجودات حتّى الملائكة، وان كان سوف يتّضح فيما بعد انّه ليس من السهل تطبيق آية عرض الأمانة على الخلافة) بالجهالة والظلم، فأساء استخدامها سالكاً بها طريق الفساد وسفك الدماء، مثل الكثير من الخلفاء والنواب الذين يسيئون استخدام الثروات والمناصب التي حصلوا عليها ولا يؤدّون حقّ شكرها، بل يستعملونها بالباطل لاشباع شهواتهم ونزواتهم النفسانيّة، ومن الواضح انّ كفران النعمة ليس ملازماً ولا مساوياً لعدم وجود تلك النعمة.

ويؤيّد هذا المعنى انّه وبعد اعلان جعل الخليفة من قِبَل الله سبحانه، فانّ ما بيّنه الملائكة من جواب لله في اثبات عدم كفاءة الإنسان للخلافة هو انّهم ذكروا صفتين تعودان إلى نوع الإنسان، كما انّ ما اعتبروه ميزاناً

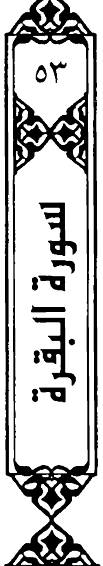
---

١. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ٧٨.

لكفائتهم وأهليّتهم للخلافة صفتان تعودان إلى نوع الملَك، وهذا يدلّ على انّ ما فهموه من قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ هو خلافة نوع الإنسان. ولذلك كأنّهم قالوا في سؤالهم: هذا النوع وبسبب ما لديه من تركيب وجوديّ خاصّ يؤدّي به إلى الفساد وسفك الدماء، فانّه ليس أهلا لخلافتك، بل انّ خليفتك ينبغي ان يكون نوع الملائكة الذي هو ليس منزّهاً عن الفساد وسفك الدماء فحسب، بل هو دائماً منهمك في تسبيحك وتقديسك.

والله سبحانه في جوابه للملائكة لم ينف فهمهم وادراكهم فيما يتعلّق بالإنسان ولم يقل لهم: انّكم اسأتم الفهم، وانّ خليفتي المجعول ليس هو المفسد والسفّاك للدماء من نوع الإنسان، وانّما فقط بعض الناس يكونون هكذا. بل قال الله سبحانه لهم في البداية: انّني اعلم حول هذا الخليفة اموراً لا تعلمونها أنتم، ثمّ ذكر مسألة علمه بجميع الأسماء. وكأنّه يريد أن يقول: انّ معيار خلافة الإنسان هو جامعيّته ومظهريّته لجميع الأسماء ولو بالقوّة. فجامعيّة الإنسان اذن هي السبب في استخلافه، وما هو معيار للخلافة هو امتلاك الإنسان لهذه المؤهّلات بالقوّة والتي تكون درجات فعليّتها مختلفة باختلاف أفراد الناس وحالاتهم وظروفهم وسجاياهم.

فكلّ إنسان وبعد ان يتحوّل استعداده في درجة معيّنة إلى الفعليّة فانّه سينعم بدرجة خاصّة من الخلافة ويصبح خليفة لله في الأرض، والخليفة بما انّه آية ومظهر لله فانّ بامكانه الخلق والابداع والتصرّف في موجودات العالم، فيحوّل ما في الأرض وغيرها من قابليّات وثروات من حالة القوّة إلى الفعل.



وخلاصة القول: فانّ هذا المقام امانة وضعت على عاتق كلّ إنسان وان كان البعض ـ وبدلاً من استعمال هذه الأمانة في طريق الهدف الذي اراده صاحبها ـ قد سلكوا بها طريق الظلم والجهالة، فأصبحوا ظلومين جهولين واستعملوها في طريق تحقيق مآرب الشيطان، فأجلسوا عدوّهم على مائدة صديقهم. وفي مقابل هؤلاء فانّ هناك اناساً آخرين قد اعطوا هذا المقام حقّه، والبعض منهم (وهم الأفراد الكاملون) قد قاموا بمراعاة جميع شؤون الخلافة ونفّذوا جميع الواجبات التي فرضها عليهم المستخلَف عنه.

كما ويحتمل أيضاً ان يكون سبب الظنّ في اختصاص مقام الخلافة بالأفراد الكاملين، هو الخلط بين نظامي التكوين والتشريع، لانّ نظام التشريع يذكر شروطاً كثيرة في الاستخلاف من ضمنها لزوم وثاقة وأمانة وطهارة الخليفة، ولكنّ ما يُطرح في نظام التكوين فيما يتعلّق بالاستخلاف فهو ليس اكثر من القدرة على الابداع وصلاحيّة الخليفة لمظهريّة الأسماء الحسنى. طبعاً انّ الافساد وسفك الدماء والتخريب واهلاك الحرث والنسل هي امور تنافي مقام الخلافة، لكنّ صدورها من الإنسان يعني كفره بالنعمة، وعدم أدائه لحقّ هذا المقام العظيم الذي قد جُعل له، ولا يعني ذلك انّ هذا المقام لم يجعل لنوع الإنسان اطلاقاً.

يقول صاحب المنار: جرت سنَّة الله في خلقه بان تُعلّم احكامه للناس، وتُنفّذ فيهم على السنة اناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما انّ الإنسان اظهر احكام الله وسننه التشريعيّة كذلك اظهر الله حكمه وسننه الخلقية الطبيعية. فيصحّ ان يكون معنى الخلافة عاماً في

كلّ ما ميّز الله به الإنسان على سائر المخلوقات، وجرت سنّة الله في أن يظهر قوانينه وسننه التكوينية في مجموع هذا العالم الوسيع بواسطة نوع من انواع مخلوقاته وذلك النوع هو الإنسان، ولذلك اختار نوع الإنسان واختصّه بكرامات ودرجات خلاصتها هي جامعيّة الإنسان بالنسبة إلى سائر المخلوقات، لانّ سائر المخلوقات حتّى الملائكة ذات وجود محدود وهي فقط مظهر لاسم معيّن من الأسماء الإلهيّة، ولعلّ ما جاء في الروايات من انّ الملائكة طوائف ولكل طائفة وظيفة محدودة فمنهم الساجد دائماً ومنهم الراكع دائماً إلى يوم القيامة هو اشارة إلى محدوديّة وضيق نطاق مظهريّتهم للأسماء الإلهيّة.

وامّا الإنسان فمع انّه قد خلقه الله ضعيفاً، كما قال في كتابه: ﴿**وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا**﴾،[1] وخلقه جاهلاً كما قال تعالى: ﴿**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾،[2] ولكنّه على ضعفه وجهله فهو عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجّب، لأنّه مع ضعفه فانّه يتمكّن بعد تحويل استعداده من القوّة إلى الفعل وتنمية طاقاته الكامنة على يد الأنبياء أن يتصرّف في الامور المهمّة والعظيمة، ومع جهله في البداية فهو يستطيع ان يُصبح عالماً بجميع الأسماء. يولد الحيوان عالماً عن طريق الإلهام بما ينفعه وما يضرّه وتكتمل له قواه وتنشط في فترة قصيرة، بينما يولد الإنسان وليس له من الالهام الاّ الصراخ بالبكاء من أجل سدّ حاجاته، ثمّ يحسّ ويشعر بالتدريج البطيء بالنسبة إلى سائر

١. **سورة النساء**، الآية ٢٨.
٢. **سورة النحل**، الآية ٧٨.



الحيوان، ويُعطى بعد ذلك قوّة اخرى تتصرّف بشعوره واحساسه تصرّفاً يكون له به السلطان على هذه الكائنات فيسخّرها ويذلّلها بعد ذلك كما تشاء هذه القوّة العجيبة وهي التي يسمّونها العقل، ولحدّ الآن لم يعرف الإنسان سرّها ولم يدرك حقيقتها وكنهها، فهي التي تغني الإنسان عن كلّ ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحرّ والأعضاء التي يتناول بها غذاءه، والتي يدافع بها عن نفسه ويتغلّب بها على عدوّه، وغير ذلك من المواهب التي يُعطاها الحيوان بلا كسب، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان.

فالإنسان بهذه القوّة غير محدود الاستعداد، ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم والعمل، فهو على ضعف كلّ فرد من أفراده يتصرّف بمجموعه في الكون تصرّفاً لا حدّ له باذن الله وتيسيره. وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والاستعدادات الطبيعيّة ليظهر بها أسرار خليقته وملّكه الأرض وسخّر له عوالمها، فقد أعطاه أحكاماً وشرائع حدّد فيها لأعماله وأخلاقه وحقوقه حداً ليحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعده على بلوغ كماله لأنّها مرشدٌ ومربٍّ للعقل الذي كان له كلّ تلك المزايا حتّى يظفر بالقرب الإلهيّ، وكما قال علي عليه السلام في بيان دور الأنبياء للبشريّة من انّهم: «... **وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُول**».[1]

ولأجل كلّ هذه المزايا فقد جعله خليفته في الأرض، وهو أنسب المخلوقات لهذه الخلافة. وقد ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١، المقطع ٣٧.

الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات وفي البرّ والبحر والهواء، فهو يتفنّن ويبتدع، ويكتشف ويخترع ويجدّ ويعمل، حتّى انّه غيّر شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً والماحل خصباً والخراب عمراناً، والبراري بحاراً أو خلجاناً، وولّد بالتلقيح أزواجاً من النبات لم تكن، وقد تصرّف في أبناء جنسه من انواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والتغذية والتوليد، حتى ظهر التغيّر في خلقتها وأخلاقها وأصنافها، فحوّل الكبير منها إلى الصغير، والصغير إلى الكبير، والأهلي منها إلى الوحشي، والوحشيّ منها إلى الأهليّ، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخّره لخدمته.

أليس من حكمة الله تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[1] أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض ليُقيم سننه ويظهر عجائب صنعه وأسرار خليقته وبدائع حكمته ومنافع أحكامه؟ وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى في ﴿**أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾؟[2] وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فهل في هذا عجب؟ أو ليس اظهار التعجّب من خلافة مثل هذا الإنسان والاستفهام عنه والتساؤل حول هذه الخلافة يدلّ على الجهل بحقيقة شخصيّة الإنسان والهدف من خلافته، وهل يوجد غير الجهل سبب آخر لذلك؟[3]

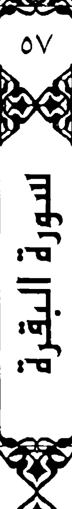
مناقشة الاحتمال الرابع: انّ ما ذكر في تبرير الاحتمال الرابع على

---

١. **سورة طه**، الآية ٥٠.

٢. **سورة التين**، الآية ٤.

٣. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ مع التلخيص والتوضيح.



الرغم من كونه مفيداً في تبرير عدم انحصار الخلافة في شخص آدم عليه السلام والأفراد الكاملين وفي شمولها لجميع الأفراد المؤمنين، ولكنّه غير تامّ في تبرير الاحتمال الرابع أي اثبات الخلافة بالفعل لجميع الناس حتى الكافرين والفاسقين والمعاندين، وانّ غاية ما يمكن ان يثبته هذا التبرير هو القوّة والاستعداد للخلافة في الأفراد غير المؤمنين وسيأتي البحث في سبب قصور التبرير المذكور عند الكلام عن الاحتمال الخامس.

الاحتمال الخامس: انّ بيان قصور الاحتمال الرابع وتثبيت الاحتمال الخامس يحتاج إلى بيان عدة ملاحظات حول معنى الخلافة وخصائص وصفات الخليفة الإلهيّ كي تكون هذه الملاحظات بمثابة المحكم الذي يُرجع إليه أيّ متشابه في هذا البحث حتّى يخرجه من حالة التشابه والابهام ويصيّره متقناً ومحكماً وشفّافاً.

١. انّ الخلافة مرآة للاستخلاف حدوثاً وبقاءً، وهي لا تحوّل وجهها عن جهة الاستخلاف أبداً، ولا تُبتلى باستدبارها كما انّ الخليفة في بداية ظفره بهذا المقام ونهايته مرآة للمستخلَف عنه، فهو مولٍّ وجهه نحو قبلته ولن ينحرف عن كعبته أبداً. فإذا كان هناك شيء ليس مرآة للاستخلاف حدوثاً أو بقاءً فهذا يعني نحواً من الاستقلال وليس خلافة، ويكون اصالة وليس نيابة، وهو ولاية وليس وكالة، كما انّه إذا لم يكن في بداية أو نهاية ظفره بهذا المقام مرآةً للمستخلَف عنه، فهو مثلاً كمرآة فقدت قابليّتها على الحكاية والاراءة بسبب تكدّرها بالغبار، أو انّه لم يفقد قدرته المرآتيّة على الحكاية والعرض لكنّه انحرف عن القبلة الإلهيّة الأصيلة فراح يعرض ويحكي نفسه أو الاغيار، فانّ مثل هذا الشخص لن يكون خليفة

أبداً، بل سوف يكون (خليعة) ومتمرّداً، ويكون غاصباً لا منصوباً، ومطروداً لا منسوباً، ويصبح مغضوباً عليه وممقوتاً، لا نائباً ومحبوباً، وهذا المعنى يمكن استفادته من قوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾،[1] لانّ الذي يُستنبط من هذه الآية هو انّ علامة ومقياس الخلافة الإلهيّة هو التزام محور الحقّ والدوران حوله، وانّ الذي يدور حول محور الهوى ضالّ عن سبيل الله، ومادام الإنسان سالكاً في سبيل الله فانّه يمتلك نصيباً من الخلافة عنه، وبمجرّد ان ينحرف عن طريق الله ويسلك سبيل الغيّ والضلال فانّه يُمسي خليعاً ومعذباً.

٢. انّ عنوان الخلافة هو غير المظهريّة والمرآتيّة وكونه آية، كما انّ عنوان الخليفة هو غير عنوان المظهر والآية، وتغاير أحدهما مع الآخر يكون على نحو العموم والخصوص، أي انّ كلّ خلافة فهي تقترن مع المظهريّة والمرآتية، ولكنّه ليس كل مظهريّة فهي تقترن بالخلافة المصطلحة والمعنونة في محل البحث، كما انّ كلّ خليفة فهو مظهر وآية لله، ولكنّه ليس كلّ مظهر وآية فهو خليفة بالمعنى المصطلح والمقصود في محلّ البحث. فكمال وجمال الملائكة مثلاً هو مظهر وآية للكمال والجمال الالهيّين، والملائكة أنفسهم أيضاً مظاهر وآيات لله سبحانه، لكنّهم ليسوا مصداقاً لخليفة الله الاصطلاحيّ، وابليس أيضاً مظهر للعقوبة الإلهيّة بالاضلال، كما انّ كلّ موجود طبيعي ـ اعمّ من الجماد والنبات

---

١. سورة ص، الآية ٢٦.

والحيوان والإنسان الطالح والسفّاك والمفسد ـ فانّ جميع هؤلاء أيضاً آيات واسماء إلهيّة، ولكنّه ليس فيهم خليفة لله بالمعنى المصطلح للخليفة، وليس في صفاتهم وأفعالهم ايضاً صبغة خلافة الأفعال الإلهيّة. نعم إذا أعطينا مفهوم الخلافة وكذلك عنوان الخليفة معنى واسعاً وخرجنا عن دائرة البحث الحاليّ فانّ شموله لغير المؤمن لا يكون فيه محذور.

٣. إذا امكن الفصل بين عنواني (الخلافة) و(الخليفة) حينئذ يمكن القول: انّ الأفراد الملحدين الذين لا يتّصفون بالحسن الفاعليّ، ولكن قد يصدر أحياناً الفعل الحسن منهم، كالكافر المضحّي والمشرك الجواد والمعطاء والملحد المخترع والمبدع والمفسد الفنّان وهم الذين يُعدّ عملهم خدمة للمجتمع البشريّ، فانّ هؤلاء وان كانوا في أنفسهم ليسوا خلفاء لله ولكنّ فعلهم يعكس خلافةَ فعل الله. وما جاء في الرواية من «**انّ الله يؤيّد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم**»[١] يُعدّ من تجلّيات هذا الاحتمال، اي انّ الله سبحانه ينصر دينه أحياناً بواسطة أفراد لا نصيب لهم من المعنويّات وشؤون الآخرة. وهذا الحسن الفعلي يقترن بخلافة فعل الله، وان كان الفاعل نفسه أي الشخص المحروم من فيض الله ليس خليفة لله. وحيث انّه لا يوجد شرط خاص في صدق تأييد الدين فانّ عمل أيّ فرد إذا كان في اطار فائدة المجتمع البشريّ واقترن بتحقيق المنفعة العامّة فهو يمكن ان يكون مبيّناً لخلافة الفعل الإلهيّ، على الرغم من انّ ذلك الفرد لا نصيب له من الخلافة الإلهيّة، لانّ الكافر خليع وليس خليفاً، وجنيف وليس حنيفاً، ومغضوب عليه وليس منصوباً،

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٢٤، ص ٣٦١؛ **الكافي**، ج ٥، ص ١٩.

وخائن وليس أميناً، ومن البديهي انّ الخائن سوف لـن يكـون نائبـاً عـن الأمين الخالص.

٤. انّ محور الخلافة المصطلحة ومقياس الخليفـة الاصـطلاحيّ هـو العلم بالأسماء الإلهيّة، اي كونه مظهراً لجميع الأسـماء الإلهيّـة الحـسنى، ومراعياً لنظمها وترتيبها الخـاصّ ومحافظـاً علـى إمامـة بعـضها وتبعيّـة البعض الآخر.

إذن فالموجودات التي تكون مظهراً لـبعض الأسـماء الإلهيّـة ولـيس لجميعها، مثل الملائكة الذين هم فقط آيات لأسماء الله التنـزيهية، ومثـل الحيوانات التي هي فقط مظاهر للأسماء التـشبيهيّة لله سـبحانه، فانّهـا لا تكون خليفة لله، بينما الإنسان الأمين ذو الورع والتقوى والذي هو مظهـر لجميع الأسماء الإلهيّة الأعم من التنـزيهيّة والتشبيهيّة فهو يحظى بنصيب من الخلافة ويكون خليفة لله.

طبعاً للخلافة حقيقة مشكّكة، لانّ العلـم بالأسـماء الإلهيّـة الحـسنى أيضاً حقيقة مشكّكة. فمثلاً في الإنسان الكامل توجد جميع تلك الأسماء الحسنى على نحو الكمال، وفي الإنسان المتوسّـط أو الـضعيف تحـصل جميعها بنحو متوسّط أو ضعيف، وإذا لم يستطع الفرد أو لم يرغـب فـي ايصال الأسماء الإلهيّة إلى الفعليّة ولو بالحدّ المتوسّـط أو الـضعيف فـانّ خلافته تكون في مرحلة القوّة لا الفعليّة، وهو ايضاً خليفة بـالقوّة ولـيس خليفة بالفعل، وان كانت مراتب القرب والبعد للقوّة مختلفة ايضاً.

وبعبارة اخرى: انّ الخلافة الإلهيّة هي مـن سـنخ الكمـال الوجـوديّ ومقولة بالتشكيك، ومراتبها العليا توجد في الأفراد الكاملين مثـل آدم عليه السلام

والأنبياء والأولياء الآخرين، ومراتبها الأقلّ تظهر عند الأفراد المتّقين والمتديّنين من أصحاب الشعور بالمسؤوليّة والأمانة.

والقرآن الكريم وان لم يستعمل عنوان الخلافة صراحة في المؤمن الأمين، لكنّ المعنون بهذا العنوان والمصداق بنحو الحمل الشائع للنيابة والخلافة والمظهريّة وأمثالها قد استعمله القرآن في الرجال الإلهيّين العاملين بواجباتهم الدينيّة، فتراه مثلاً ينسب الجهاد والقتال ـ الذي هو من أفعالهم المباشرة ـ إلى الله فيقول: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ**﴾،[1] ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ**﴾،[2] ففي هذه الآيات توجد امور كثيرة حصلت على أيدي المجاهدين الأتقياء البواسل وقد اُسندت إلى الله، اي انّ الفعل المباشر للإنسان المؤمن قد جُعل وعُدّ فعلاً تسبيبيّاً لله سبحانه، وهذا هو الاستخلاف والاستنابة بعينها. والقصد هو انّ الدرجة الكاملة للخلافة الإلهيّة وان حصلت للإنسان الكامل لكنّ سعة الخلافة تمتد على مدى سعة الإنسانيّة المهذّبة وما تتحلّى به من الورع والتقوى وسوف يأتي تفصيل ذلك في خلال البحث.

٥. من مظاهر ترتيب الأسماء الحسنى ونظمها الخاصّ هو انّ لخليفة الله صفتي الرحمة والغضب، لكنّ غضبه دائماً يظهر تابعاً ومقوداً لرحمته، ورحمته دائماً تقود غضبه، وذلك لانّ المستخلَف عنه أي الله سبحانه، يكون كذلك، اي انّ رحمته تتجلّى قبل وامام غضبه، ورحمته هي المهندس الذي

---

١. **سورة الأنفال**، الآية ١٧.

٢. **سورة التوبة**، الآيتان ١٤ ـ ١٥.

يضع تصاميم غضبه، فيظهر غضبه بامامة وقيادة رحمته. فإذا كان هناك موجود يغضب ولا يكون غضبه بامامة وهداية رحمته فمثل هذا الموجود لن يكون هو الخليفة الإلهيّ المقصود في الاصطلاح. فمن لم يكن غضبه مأموماً للطفه، وقهره مستسلماً لرأفته وشوكته مسبوقة بمودّته وسماحته فليس بخليفة لله الذي تسعى رحمتُه أمام غضبه، وتسبق رأفتُه غضبَه.

فاتّضح ممّا سبق انّ الوجه المختار (الخامس) تامّ ومتقن وبالنتيجة فبالاضافة إلى انّه قد أُجيب على هذا السؤال: (من هو الخليفة) فانّ السؤال الآخر: (ما هي الخلافة) أيضاً قد وجد جوابه ولا حاجة إلى الاعادة.

من هو المستخلَف عنه؟

لا شكّ انّ الخليفة يعني (مَن يخلف عن غيره) فكلّ خليفة يتحمّل مسؤوليّة الخلافة عن (المُستخلَف عنه). وفي محلّ البحث هناك اقوال وآراء عديدة في من هو المستخلَف عنه في هذه الخلافة، ويُشار هنا إلى بعضها (وان كان قد تبيّن ولو اجمالاً من البحوث السابقة انّ المستخلَف عنه هو الله سبحانه).

١. الملائكة الذين كانوا في الأرض بعد ان نزلوا إليها لمحاربة الجنّ الذين كانوا يعيشون في الأرض بقيادة ابليس وقد أفسدوا فيها وسفكوا الدماء. هذه الفئة من الملائكة أُمرت من قبل الله للقضاء على جماعة الجنّ المفسدة وبعد أن قضوا عليهم أصبحوا حاكمين في الأرض، وفي حينها اخفى ابليس نفسه فيما بينهم، وبعد أن اطلعهم الله على ارادته حول جعل الخليفة ثَقُلَ ذلك عليهم، لانّ الله قال لهم: انّي اريد أن أجعل



في الأرض خليفة بدلاً عنكم وانقلكم إلى السماء، وقد كانوا يعلمون انّ العبادة في السماء أثقل من العبادة في الأرض.

هذا البيان الذي هو حاصل الجمع بين رواية التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام ورواية القمّي عن الإمام الصادق عليه السلام،[1] لازمه انّ المخاطب في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ...**﴾ هم الملائكة الذين تولّوا الخلافة والحكومة في الأرض بعد القضاء على الجنّ، لا جميع الملائكة كما سبق ذكره واثباته في مبحث (المراد من الملائكة)[2] ونقل عن الشيخ الطوسي في **التبيان** نسبته إلى ابن عباس.

طبعاً هاتان الروايتان تتعارضان مع ظاهر رواية اخرى للقمّي عن الإمام الباقر عليه السلام، لانّ ظاهر تلك الرواية هو انّ الموجودات التي كانت تعيش في الأرض عند جعل الخليفة هم الجنّ والنسناس (لا الملائكة).[3] لاسيّما مع ملاحظة انّ محلّ الخليفة في الآية هو الأرض، والملائكيّة لا تناسبها الأرضيّة (التي تلازمها الشهوة والغضب والتزاحم)؛ وذلك لان آيات القرآن حول الملائكة كقوله تعالى: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[4] تؤكّد على انّ جميع الملائكة معصومون، وليس من الممكن أن تكون هناك اُمّة أرضيّة وتعيش في الأرض التي هي دار التزاحم والحركة، وفي نفس الوقت يكون جميع أفرادها معصومين ومنزّهين عن الخطأ والمعصية. بل يظهر من قوله تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ فِي**

١. راجع كتاب **تفسير الصافي**، ج ١، ص ٩٢ ـ ٩٣.
٢. **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ٣٦، من الترجمة العربية.
٣. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ٩٣.
٤. **سورة الأنبياء**، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.



الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾[1] انّه لم يسكن في الأرض حتّى مجموعة من الملائكة، لانّه لو حصل ذلك لأرسل الله لهم نبيّاً من سنخهم في الماضي او الحاضر.

مضافاً إلى ذلك لو كان المستخلَف عنه هم الملائكة وكان الإنسان هو الخليفة الذي يقوم مقامهم لم يكن هناك داعٍ للقول **﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾** وانّنا اكثر كفاءة وأهليّةً لهذا المقام، لانّه طبقاً لهذا الفرض فانّ الملائكة هم الأصل والإنسان سوف يكون فرعاً وتابعاً. في حين انّ عبارة القرآن الكريم تشير إلى منح الإنسان مقاماً ومنزلةً أعلى وأسمى من مقام الملائكة، وهو مقام فوق وسع وطاقة الملائكة، انّه مقام لا يمتلك احد طاقة وقدرة الوصول إليه سوى الإنسان وحده.

٢. ان المستخلَف عنه هم الجنّ الفاسدون والسفاكون للدماء الذين انقرضوا. وهذا الاحتمال نقله الشيخ الطوسي عن ابن عباس.[2]

٣. انّ المستخلَف عنه هم جميع الموجودات لانّ آدم هو النسخة الجامعة للعالم وقد اودع فيه عيّنة من جميع انواع الكائنات وأصناف الموجودات وكما نقل عن الإمام علي عليه السلام:

اتزعم انّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر[3]

وطبقاً لهذا الاحتمال فانّ الإنسان يقوم مقام جميع موجودات العالم.

٤. انّ المستخلَف عنه هم الناس السابقون المعروفون باسم

---

١. **سورة الاسراء**، الآية ٩٥.

٢. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٣١.

٣. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ٧٨.

(النسناس) الذين ذكروا في رواية القمّي عن الإمام الباقر عليه السلام.[١] وتدلّ رواية الإمام الباقر عليه السلام أيضاً على انّ الف الف عالم وآدم غير آدم وعالم اليوم كانوا قد خُلقوا من قبل، حيث تقول الرواية: «**لعلّك ترى انّ الله انّما خلق هذا العالم الواحد؟ أو ترى انّ الله لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم. أنت في آخر تلك العوالم واولئك الآدميين**».[٢]

ويؤيّد هذا الرأي ما قيل بانّ الأجساد التي اكتشفها علماء الآثار والتي يعود تاريخها إلى ما قبل آلاف السنين، يمكن أن تكون من المراحل السابقة المتقدّمة على جيل الإنسان الحاضر، لانّ من المؤكّد انّ الجيل الحاضر أقلّ بكثير من هذا المقدار.

٥. انّ المستخلَف عنه هو الله سبحانه، لانّ سياق الآية محلّ البحث والآية التي بعدها هو انّ الله سبحانه في مقام منح الكرامة والكمال للإنسان، تلك الكرامة التي تحتاج إلى استعداد وأرضيّة مناسبة كالعلم بالأسماء، والتي يفتقدها الملائكة المكرّمون. وهذا الكمال والتكريم لا يمكن تصوّره إلاّ إذا كان الإنسان أوّلاً: خليفة لله سبحانه وثانياً: ان تمتدّ رقعة خلافته وسيطرته إلى جميع السماوات والأرض لا الأرض وحدها، وان تكون الأرض مسكناً له كما سوف يأتي في بقيّة تفسير الآية.

ومن هذه الوجوه الخمسة فانّ الوجه الخامس هو الصحيح، لانّ خلافة الإنسان عن الجنّ أو النسناس لا تعدّ كرامة له، كما انّها ليست

---

١. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ٩٣.

٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٩؛ **التوحيد**، ص ٢٧٧.

بحاجة إلى العلم بالأسماء، أو أن يكون الإنسان حائزاً على مقام التسبيح والتقديس الذي دعا الملائكة إلى الاستفهام. وبالاضافة إلى ذلك يقال أوّلاً: انّ ظاهر جملة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ هو انّ المتكلّم في صدد تعيين الخليفة عن نفسه لا عن الآخرين. وثانياً: انّ قضية السجدة للخليفة ايضاً تدلّ على انّه خليفة الله، لا خليفة شخص آخر، لانه في هذه الحالة لا مجال لسجدة الملائكة للمستخلَف عنه نفسه فكيف بالسجود لخليفته. ثالثاً: انّ اجيالاً وأدواراً كثيرة توالت بعضها بعد بعض، وكان كلّ جيل منها خليفة للآخر وكان الخالق لها جميعاً هو الله سبحانه، ولكنّ الله لم يطلع الملائكة حين خلق أيّ واحد منها، ولم يخبرهم عند خلقه الجيل الجديد بانّه قد جعله خليفة، ولو كان ذلك قد حصل لكان الملائكة مسبوقين بجعل الخليفة ولم يتعجّبوا. والخلاصة هي انّ (الخلافة التاريخيّة) قد حصلت كثيراً، ولكنّ الله سبحانه لم يذكر أحداً فيها بعنوان انّه (خليفة)، فيُعلم من ذلك انّ خلافة الإنسان، ليست أمراً تاريخيّاً وطبيعيّاً واجتماعيّاً وانّما هي أمر إلهيّ.

أمّا الوجه الثالث الذي يعتبر المستخلَف عنه جميع الموجودات ويرى انّ الإنسان هو النسخة الجامعة والمثال الكامل للعالم بأجمعه، فانّ الخلافة بهذا المعنى وان كانت أيضاً كرامة وكمالاً عظيماً للإنسان، لكنّ الاشكال على الوجه المذكور هو انّ مثل هذا الكمال لا يُطلق عليه اسم الخلافة، ومثل هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو المقصود من الخلافة. بالاضافة إلى انّ كلّ شيء من الأشياء فهو في محلّه

وموقعه ومنهمك في أداء دوره، وعلى هذا الحال فلا مجال لتصوير الخلافة. نعم يمكن لمثل هذا الكمال والجامعيّة التي يتمتّع بها الإنسان أن تكون منشأ للخلافة الإلهيّة، أي بما انّ الإنسان هو الكتاب الجامع للعالم والذي اودع الله فيه العالم الاكبر، وقد تضمّن عيّنة من جميع انواع الكائنات، فانّ هذا ادّى إلى أن تتهيّأ فيه الأرضيّة المناسبة لمقام الخليفة الإلهيّ، كما انّه بملاحظة هذه الجامعيّة يمكن ان يقال: انّ آدم يؤدّي دور العالَم، ولكنّ العالَم لا يستطيع أن يؤدّي دور آدم، ولذلك فانّ آدم يمكن ان يحلّ محلّ العالَم ولكنّ العالَم لا يمكن ان يكون خليفة ونائباً لآدم.

وبالاضافة إلى قرينة السياق المتّصلة توجد هناك قرائن منفصلة أيضاً دالّة على انّ المستخلَف عنه هو الذات المقدّسة الإلهيّة، وهي تلك الروايات الكثيرة التي تصف آدم بانّه (خليفة الله) وتصف الأفراد الكاملين من ذريّته بأنّهم (خلفاء الله)، كالرواية التي ذكرت في مبحث (من هو الخليفة وما هي الخلافة).[1]

تنويه: ١. حيث انّ آدم (الإنسان الكامل) خليفة الله، فسوف يكون ايضاً خليفة للعالَم. فإذا كان هناك محذور في ارادة كلا معنيي الخلافة من العنوان الجامع (الخليفة)، فانّ ارادة احدهما (خلافة الله) بالمطابقة وارادة الآخر (خلافة العالَم) بالالتزام ليس فيه اشكال.

٢. هناك ثلاثة اسئلة سيتمّ الجواب عليها في مبحث الاشارات بالتفصيل وهي: أ: إذا كان الله سبحانه مهيمناً على كلّ شيء ويده

١. **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ٤٢، من الترجمة العربية.

مبسوطة في جميع الشؤون وهو محيط بجميع الأشياء وحاضر في كل مكان ولا يغيب عن شيء ولا يخفى عليه شيء حتّى يحلّ أحد في مكانه ليؤدّي عنه مهمّته، كما ليس عنده خَلْف حتّى يأتي الإنسان من خَلْفه ويرد إلى عرصة الوجود، فكيف يكون الإنسان خليفة لله؟

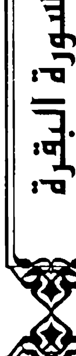
ب: ما هو عمل هذا الخليفة وما هي المهمّات التي يجب عليه أن يقوم بها كخليفة ونائب عن الله؟

ج: مَنْ هم الأفراد المستخلَف عليهم؟[1]

والجواب الاجماليّ لهذه الأسئلة هنا هو انّه طبقاً للاحتمال الثاني في بحث (من هو الخليفة وما هي الخلافة) وهو انّ مقام الخلافة مختصّ بأفراد الإنسانيّة الكاملين، وعليه فانّ الخليفة في الآية هو الخليفة المطلق لله لا الخليفة النسبيّ، ويلزم من ذلك انّه إذا كان الله سبحانه يتّصف بانّه: ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾،[2] ﴿**وعَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا**﴾،[3] فانّ خليفته ايضاً سيكون باذنه محيطاً بجميع العالم ومظهراً لجميع الأسماء الحسنى، ولا يوجد شيء في الوجود من فعل الله أو فيضه الاّ وخليفة الله حائز عليه في أتمّ صفاته وقادر على فعله، وبعبارة اخرى: هو المرآة التي تحكي جميع صفات المستخلَف عنه، وصاحب الصورة بجميع ملامحه وصفاته، وهذا هو الذي يصطلح عليه باسم (الكون الجامع)، ومقام كهذا مختصّ بالإنسان الكامل ولا يشمل

١. في **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ٩٢، من الترجمة العربية (الأرقام: ٣، ٧، ١٠، ١٢، ١٣، ٢١).
٢. **سورة فصلت**، الآية ٥٤.
٣. **سورة فصلت**، الآية ٥٣.





اولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بانّهم: ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[١] أو ﴿شَيَاطِينَ الإنسِ﴾[٢] أو ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.[٣]

استفهام الملائكة وجواب الله

في القسم الثاني من الآية يوجد سؤال وجواب حول خلافة آدم. فبعد أن أعلن الله سبحانه عن عزمه على جعل خليفة في الأرض، قالت الملائكة: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد صرّح صاحب **تفسير التبيان** واكثر المفسرين بانّ الاستفهام في قول الملائكة (أتجعل) ليس استنكاراً ولا اعتراضاً ولا هو من باب ابراز العُجب والتفاخر، بل هو استفهام تعجّبي مقترن بنحو من الاستعلام والاستفسار عن الحكمة من هذا العمل كما انّه لم يتضمّن أيضاً قلقاً وحزناً على عاقبته ومصيره[٤].

وبعبارة اخرى انّ الملائكة كانوا يعلمون بانّ آدم موجود أرضي ومن عالم المُلك، والموجود الأرضيّ والماديّ مركّب من القوى الشهويّة والغضبيّة، وعالم المادّة منطقة يسودها التزاحم وانواع النزاعات التي تؤدي إلى الافساد وسفك الدماء[٥]، أو لانّ الإنسان قياساً

١. **سورة الفرقان**، الآية ٤٤.
٢. **سورة الأنعام**، الآية ١١٢.
٣. **سورة البقرة**، الآية ٧٤.
٤. **التبيان**، ج ١، ص ١٣٣.
٥. راجع كتاب **الميزان**، ج ١، ص ١١٥.

مع الجنّ والناس السابقين[١] يمتلك قوى ثلاثاً هي الشهويّة والغضبيّة والعاقلة فقد تساءلوا عن الحكمة من هذا الجعل، لانّه لا ينتج عن قوّتي الشهوة والغضب غير الفساد والخراب، وهذا ما لا يمكن ان يكون حكمة للجعل والايجاد، وإذا كانت الحكمة هي ابراز واظهار بركات القوّة العقليّة أي التقديس والتسبيح فنحن نقوم بهذا العمل وخلق الإنسان لأجل هذا الهدف ما هو الاّ تحصيل للحاصل[٢].

وببيان ثالث انّه يظهر من اعتراف الملائكة بعلم الله وحكمته في نهاية الآية الثانية بعد الآية محلّ البحث: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ انّهم مذعنون بأنّ هناك حكمة في جعل الخلافة في الأرض وهم على يقين بانّ عمل الله هذا ليس خالياً من الحكمة والمصلحة، ولكنّهم لم يكونوا مدركين لتلك المصلحة، لأنّ جعل الخلافة هو لأجل انّ الخليفة يحكي المستخلَف عنه [اي يجب ان تكون هناك سنخيّة بين الخليفة والمستخلَف عنه]. ولذلك لا تجد استفهاماً كهذا من قبل الملائكة في المواضع الاخرى التي لم تتحدّث عن الخلافة بل تحدّثت فقط عن

١. كما تدل عليه بعض الروايات، راجع **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠.

٢. انّ كون ثمرات القوّة العقليّة تظهر في الحمد والتقديس والتسبيح لله،وانّ امتياز الإنسان عن الحيوان يكون في ذلك، هو معنى يستفاد من الكلمات النورانيّة للإمام السجّاد في الصحيفة السجاديّة حيث يقول عليه السلام: «والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة، وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة، لتصرّفوا في مننه فلم يحمدوه وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانيّة إلى حدّ البهيمة، فكانوا كما وصف في محكم كتابه ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾». **الصحيفة السجاديّة**، الدعاء الأول، سورة الفرقان، الآية ٤٤؛ راجع كتاب **منهج الصادقين**، ج ١، ص ٢٢٣.

أصل خلق الإنسان أو سجود الملائكة للإنسان، كما في الموضع الذي يقول الله فيه للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.[1]

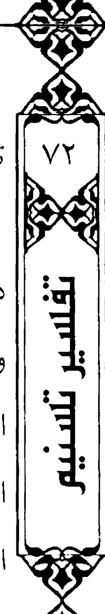
ويكون في جميع شؤونه واموره وأفعاله ومواقفه علامة على المستخلَف عنه، وهو يسبّحه ويحمده ويقدّسه، في حين انّ كون هذا الخليفة أرضياً لا يتناسب مع هذه المواصفات، لانّ الموجود الأرضي بما انّه مادّي ومركّب من القوى الغضبيّة والشهويّة واُفق المادّة هو محلّ التزاحم والتنازع والتغيير والانحلال والافساد والبطلان، فهو يؤدّي به شاء أم ابى إلى الفساد والدمار، ومثل هذا الموجود لا يمكن أن يكون حاكياً عن المبدأ المتّصف بالأسماء الحسنى وأعلى صفات الجمال والكمال والجلال والمنزّه عن النقص في الذات والصفة وعن الشرّ والفساد في الفعل. وبالاضافة إلى ذلك فانّ الهدف من التسبيح والتحميد والتقديس حاصل بحمدنا وتسبيحنا وتقديسنا، فنحن يجب ان نكون خلفاءك. فما الفائدة اذن من جعل الخلافة في الارض؟![2]

بعبارة اخرى: انّ من يريد ان يكون خليفة لله سبحانه الذي ارادته مطلقة وعلمه بلا نهاية فهو ايضاً يجب أن يكون ذا إرادة مطلقة وعلم غير محدود، في حين انّ الإنسان موجود يحصل له العلم ـ الذي يصرّف ارادته ـ بالتدريج، ومن الطبيعيّ انّ محدوديّة العلم وعدم الاحاطة مدعاة للفساد والتنازع المفضي إلى سفك الدماء.

---

١. **سورة الحجر**، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

٢. راجع كتاب **الميزان**، ج ١، ص ١١٥.

وعلم الإنسان بسبب كونه تدريجيّاً ومحدوداً فلا شَبَهَ له بعلم الله تعالى، وكلّما اوتي الإنسان قدراً أكبر من العلم فانّه يتّضح له جهله أكثر.[١]

وبعبارة اخرى، فانّ جملة: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ قرينة متّصلة دالة على انّ سؤال الملائكة لم يكن اعتراضيّاً، كما انّ نفس تسبيح وتقديس الملائكة قرينة متّصلة اخرى تدلّ على انّهم لا يقصدون من استفهامهم الاعتراض على الله سبحانه، لانّه مع الاعتراف بنزاهة الله المطلقة من ايّ عيب ونقص لا يبقى مجال للنقد وعدم الرضا عن فعل الله سبحانه.[٢]

وببيان رابع فانّ سؤال الملائكة ليس من قبيل السؤال الاعتراضيّ المنبعث من هيمنة حبّ الثروة والمال وروح الاستكبار لدى بني اسرائيل عندما اعترضوا على تولّي طالوت وقالوا لنبيّهم: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ**﴾[٣] بل هو من قبيل أسئلة موسى من الخضر وهي التي صدرت بسبب محدوديّة المستوى العلميّ للسائل لا غير.

ولذلك فانّ الملائكة لم يقولوا مثل بني اسرائيل: انّنا أحق بالخلافة منه بل قالوا لله: انّ جعل الخلافة إذا كان يراد منه التسبيح والتقديس لله فنحن قائمون بذلك، والإنسان لا يصدر منه سوى الفساد وسفك الدماء. لاسيّما مع ملاحظة انّ الملائكة معصومون ولا يصدر منهم الفعل الباطل

---

١. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٦١.

٢. **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ١٣٤ – ١٣٥ (بالفارسية).

٣. **سورة البقرة**، الآية ٢٤٧.




ابداً، بل انّهم لا يتكلّمون بغير اذن من الله: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ**﴾[1] اي انّهم حتّى في هذا السؤال الاستفهاميّ كانوا مأذونين من قبل الله، كما انّ الناس في يوم القيامة لا يتكلّمون الاّ باذن الله: ﴿**لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ**﴾.[2]

فالذي لا يتكلّم الاّ باذن الله وليس في كلامه سوى الحق، والذي هو عبد محض كالنبيّ عيسى والملائكة الذين لا يستنكفون عن عبادة الله وليس لديهم أيّ استكبار كما وصفتهم الآية الكريمة: ﴿**لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّه وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[3] والذي هو عند الله ولا يمتنع عن التسبيح والسجود امام الله سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾[4] والذي يمتثل ما يصدر إليه من اوامر: ﴿**وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾،[5] فانّ مثل هذا لا يمكن ان يكون لديه سؤال اعتراضيّ، بل انّه لا يسأل من غير اذن الله سبحانه[6].

اشكال: انّ ظاهر الروايات التي وردت في ذيل هذه القصّة هو انّهم قد ارتكبوا معصية واخطأوا، لانّ ما صدر عنهم من سؤال يناسب الانكار والاعتراض، والاّ فانّ الاستفسار والاستعلام المحض لا يعدُّ ذنباً، كما في الروايات التالية:

---

١. **سورة الأنبياء**، الآيتان ٢٦ – ٢٧.

٢. **سورة النبأ**، الآية ٣٨.

٣. **سورة النساء**، الآية ١٧٢.

٤. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠٦.

٥. **سورة النحل**، الآية ٥٠.

٦. راجع كتاب **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

١. «... فردّوا على الله عزّ وجلّ هذا الجواب، فندموا فلاذوا بالعرش فاستغفروا...».[١]

٢. «أما بدء هذا البيت فانّ الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، فردّت الملائكة على الله تعالى، فقالت: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾، فأعرض عنها فرأت انّ ذلك من سخطه فلاذت بعرشه...».[٢]

٣. «انّ الله تعالى لمّا أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فردّوا عليه... فغضب عليهم ثمّ سألوه التوبة...».[٣]

٤. «... عظم ذلك عليهم وغضبوا لله...».[٤]

٥. «... فظنّت الملائكة انّ ذلك سخط من الله عزّ وجلّ عليهم...».[٥]

٦. «... فردّوا على الله تبارك وتعالى...» فحجبهم عن نوره سبعة آلاف عام فلاذوا بالعرش.[٦]

فظاهر هذه الروايات بالنظر لما فيها من عبارات مثل ردّ الملائكة وغضبهم وبعد ذلك ندمهم واستغفارهم، وكذلك ما جاء من كلمات مثل سخط الله عليهم وغضبه وحجبهم عن النور الإلهيّ، يدلّ على انّ استفهام الملائكة متضمّن للانكار وانّهم قد ارتكبوا ذنباً بهذا الاعتراض، لانّ

---

١. **عيون اخبار الرضا**، ج ٢، ص ٩٨؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٤٩، ح ٧٤.

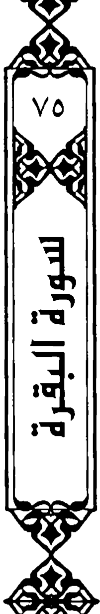
٢. **الكافي**، ج ٤، ص ١٨٧؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٠، ح ٧٧.

٣. **الكافي**، ج ٤، ص ١٨٨؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٠.

٤. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥١، ح ٨٠؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٢٩.

٥. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٢، ح ٨١؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٠٥.

٦. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٣، ح ٨٣؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١١٠.



مجرد الاستفسار والاستعلام لأجل الاطّلاع على الحكمة الإلهيّة أمر محمود ومستحسن. ولذلك فانّ بعض المحقّقين كالشيخ البلاغي؇ الذي على الرغم من اعترافه بانّ الاستفهام لم يكن اعتراضيّاً ومع ذلك يقول: «ولكن مع ذلك كان الأولى بهم أن لا يصدر منهم هذا السؤال في هذا المقام وان كان سؤالهم للتعلم، بل يفوّضوا الأمر إلى الله وحكمته وعلمه بما هو الصالح»[١] فقد تورّط في لون من التهافت، الاّ ان يقال بانّ ما صدر منهم هو ترك الأولى وهو من باب: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»[٢].

امّا استشهاد «الميزان» بجملة: «انّك أنت العليم الحكيم»[٣] فليس تامّاً، لانّ هذا الاعتراف ليس شاهداً على عدم كون الاستفهام اعتراضيّاً، إذ انّهم نطقوا بهذا الكلام بعد الاستفهام من الله وبعد الجواب والتوضيح من قِبَل الله لهم وليس قبل ذلك.

ويمكن ان يقال: انّ هذا البيان يلزم منه عدم عصمة الملائكة. ويُجاب على ذلك بانّه نظراً لتواتر الروايات المذكورة فلا مناص من قبول أحد وجهين، فامّا أن يقال: انّ ذنبهم بمعنى ترك الأولى والذي لا ينافي العصمة، كما قيل بذلك في حقّ الأنبياء، وهو ما اختاره المحقّق البلاغيّ؇ من أنّ سؤال الملائكة كان تركاً للأولى، أو أن نقول بالتفصيل بين طوائف وطبقات الملائكة، فنقول بانّ الملائكة الذين وصفتهم آيات القرآن بانّهم معصومون ومكرمون: ﴿**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ**

---

١. **آلاء الرحمن**، ج ١، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

٢. **بحار الأنوار**، ج ٢٥، ص ٢٠٥.

٣. **الميزان**، ج ١، ص ١١٥.

بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1] هم الملائكة المقرّبون، لا الدرجات الوسطى والنازلة منهم، وان كان ظاهر الآية شاملاً لعموم الملائكة، وأمّا ما جاء في الآية محلّ البحث فهو يتعلّق بذوي الدرجات الوسطى والدانية من الملائكة الذين حكموا في الأرض بعد انقراض الجنّ أو النسناس. لاسيّما إذا أخذنا بالمبنى القائل بانّ الجمع المحلّى بالألف واللام (الملائكة) لا يفيد العموم.

والوجه الثاني هو مختار الذين يقولون بالتفصيل ويقولون: انّ طائفة الملائكة الذين وصفتهم الآيات بانّهم: **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[2] و**﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[3] و**﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾**[4] هم من ملائكة السماء النورانيّين الذين يوحى إليهم أيضاً في بعض الأحيان وليس هم من ملائكة الأرض (الماديّة اللطيفة).

وعلى ايّ حال ـ وكما أشار بعض المفسّرين ـ[5] فانّ ما يؤيّد كون سؤال الملائكة اعتراضيّاً هو كثرة التأكيدات الواردة في كلامهم بعد الجواب التوضيحيّ من الله تعالى، وهي: ١. التعبير بـ(سبحانك) والذي يفيد التأكيد المعنويّ.

٢. نفي العلم الذاتي عن انفسهم وحصر علمهم بما أعطاه لهم الله فقط.

---

١. سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

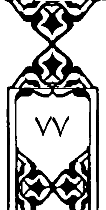
٢. سورة النحل، الآية ٥٠.

٣. سورة التحريم، الآية ٦.

٤. سورة الأنبياء، الآية ٢٧.

٥. تفسير المنار، ج ١، ص ٢٦٤.





٣. التأكيد بـ(إنّ).

٤. الاتيان بجملة اسميّة.

٥. الاتيان بضمير الفصل (انت).

٦. الاتيان بصيغتي المبالغة في العلم والحكمة وهما (العليم) و(الحكيم).

كلّ ذلك يدلّ على شعورهم بصدور أمر غير مناسب منهم فجاءوا بكلّ هذه الألوان من التأكيد ليتداركوا ما فات ويجبروا ما حصل.

والمؤيّد الآخر هو طريقة الخطاب والاسلوب والسياق الذي استخدمه الله سبحانه في احتجاجه مع الملائكة حيث قال: ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾،[1] فهذا النحو من الخطاب يناسب المخاطبين المقصّرين في أمر مّا أو الذين صدر منهم كلام غير لائق.

فاتّضح ممّا تقدّم انّ ما ذُكر بعنوان انّه قرينة متّصلة على كون سؤال الملائكة غير اعتراضيّ، هو قول غير تامّ عند بعض المفسّرين.

جواب الاشكال: انّ التحقيق في المسألة يقتضي ان يقال أوّلاً: انّ الروايات الضعيفة أو المرسلة ليست حجّة في الأحكام الفرعيّة فضلاً عن المسائل العلميّة والعقائديّة.

ثانياً: ليس من السهل اثبات تواتر هذه الروايات.

ثالثاً: عالم الملائكة ليس مجالاً للتشريع والأحكام الفقهيّة، والاّ لكان لديهم شريعة ورسالة وحدود وأحكام جزائيّة وثواب وعقاب.

رابعاً: اقتران المحاورة المذكورة بعبارات التسبيح والتقديس والعلم

---

١. سورة البقرة، الآية ٣١.

والحكمة يدلّ على اعتقاد الملائكة واعترافهم وتسليمهم بنزاهة فعل الله من الخطأ وقداسته عن العيب، بل انّ صنع الله دائماً نابع من العلم والحكمة. والاعتقاد بالنزاهة من العيب والنقص والاذعان بالعلم والحكمة قرينة كافية للدلالة على كون السؤال استفهاميّاً.

خامساً: الآية التي تدلّ على عصمة الملائكة تأبى التخصيص.

طبعاً لا يمكن استقصاء جميع انواع الملائكة والبحث في أحكامهم جميعاً، والحكم بعصمة كلّ فرد منهم، لكنّ الملائكة المعهودين في القرآن والذين هم المدبّرون للأمر الإلهيّ معصومون، ونخصّ بالذكر اولئك الحافّين واللائذين بالعرش الإلهيّ، كما ورد في بعض الروايات السؤال عنها.

سادساً: انّ ثناء وحمد وتنزيه الملائكة ليس وسيلة إلى تدارك ما فات، لانّ سيرة وسريرة المَلَك هي التسبيح المقترن مع الثناء وكذلك التقديس الإلهيّ.

تنويه: ١. وان ورد في الروايات المذكورة عبارة غضب الله، لكنّ بعض الروايات جاء فيها انّ الملائكة غضبوا لأجل رضا الله وتأسّفوا على أهل الأرض، اذن فغضب الملائكة وتأسّفهم كان له صبغة عباديّة وسوف يأتي ذلك في البحث الروائيّ.[١]

٢. ذكر عدد من المفسّرين انّ معنى الجملة الحالية: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ هو كالآتي: (كيف تجعل آدم خليفة لك في حين انّنا أولى وأكفأ منه لانّنا نسبّحك ونقدّسك). ونُقل عن

١. **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ١٦٥، من الترجمة العربية.

الطبرسيّ[١] ﷺ والزمخشريّ[٢] قولهما: انّ هذه الجملة هي بمنـزلة قول القائل (أتحسن إلى فلان وأنا أحقُّ منه بالاحسان)، وبهـذا اللحـاظ ولانّ ظـاهر هذا الكلام متضمّن للون مـن العُجـب والتفـاخر لـذلك انبـرى الـبعض للدفاع وقالوا: انّ سؤال الملائكة كان لمحض الاستفسار والاستعلام.

في حين انّه قد ظهر ممّا تقدم بانّ لهذه الجملة منحىً آخـر ومعناهـا هو: إذا كنّا نسبّحك ونقدّسك وأنت مقدّس ومنـزّه عـن اللغـو والعبـث وفعل القبيح فكيف تفعل فعلاً مبهماً لا تُعرف الحكمة منه؟!

وطبقاً لهذا البيان فـانّ مـن الواضـح انّ سـؤال الملائكـة، حتّـى بحـسب الظاهر، لا يتضمّن نحواً من العُجب والتكبّر حتّى يكون بحاجة إلـى التـصدي لتبريره، وأمّا تشبيهه بجملة (أتحسن إلى فلان...) فهو غير صحيح أيضاً.

السرّ في التعبير بـ(مَن يُفْسِدُ)

انّ التعبير بقوله (**مَن يُفْسِدُ**) بدلاً عن (ما يفسد) يمكـن أن يكـون اشـارة إلى انّ الملائكة كـانوا علـى معرفـة بـارادة واختيـار وعقـل آدم، وكـان تعجّبهم وقلقهم ناشئاً من علمهم بانّه إذا ما تعلّقت حقيقـة سـامية باسـم الروح[٣] بهذا الهيكل المركّب من الشهوة والغضب وصارت الغرائز مزوّدة

---

١. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٠.

٢. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٥.

٣. وهي التي تنتسب إلى المبدأ الأعلى فقط وافاضتها خارجة عن حـدّ وجـود الملائكـة ودائرة تدبيرها وانّما تتحقق مباشرةً من قِبَل الله سبحانه، ولعلّه بهذا اللحاظ اسـند الجعـل لنفسه في الآية محلّ البحث فقال: ﴿**إِنّي جَاعِلٌ**﴾ وكذلك في آية نفخ الـروح حيـث قـال تعالى ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي**﴾ (سورة ص، الآية ٧٢).

بسلاح الاختيار والتدبير وارتبطت بقوّة العقل غير المحدودة، فأيّ فساد ودمار يحصل عند هيجان الشهوة ﴿يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ وكم من دماء تسفك في الأرض إذا ما اضطرمت ألسنة نار الغضب: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾؟[1] وبدرجة لا يبلغها ايّ حيوان وحشيّ من الموجودات الاخرى، لانّ فسادها وإراقتها للدماء محدود بسدّ حاجاتها البدنيّة فقط.

وكان جواب الله سبحانه لهم ناظراً بالدقّة إلى هذه الجهة وهو انّكم رأيتم جانباً ووجهاً واحداً من هذه السبيكة وكنتم تنظرون إليها بنحو سلبيّ، ولكنّ لهذه السبيكة وجهاً ايجابيّاً أيضاً وهو الذي يجعل من هذا المزيج مصدراً لمصالح ومنافع تفوق بمرّات كثيرة مفاسده ومضارّه.[2]

تنويه: انّ مجيء جملة ﴿يَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ بعد جملة ﴿يفسد في الأرض﴾ هو من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ، ولأجل أهميّة الخاصّ المذكور، وهو دليل على انّ أهمّ وأخطر مصداق للفساد هو قتل النفس المحترمة والإنسان البريء، وانّ أسوأ أنحاء القتل هو القتل عن طريق سفك الدماء، لانّ القتل يتحقّق عن طريق اساليب اخرى أقلّ قبحاً وشدّة

١. من الممكن وكما قال الشيخ عبد الرزاق الكاشاني، انّ جملة ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ناظرة إلى القوّة الشهويّة التي عندما تتجاوز حدّها فهي تؤدّي إلى الفساد كالحيوان الذي تهيج شهوة بطنه فهو يهاجم المزارع والأشجار والمراعي مسبّباً الفساد والخراب، وجملة ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ ناظرة إلى القوّة الغضبيّة التي إذا ثارت جعلت الإنسان كالوحوش التي تفترس وتسفك الدماء. (**تفسير القرآن الكريم**، لابن العربي، ج ١، ص ٣٦).

٢. سوف يأتي توضيح هذا المعنى في تفسير عبارة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. راجع **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ٨٧، من الترجمة العربية.

من سفك الدماء، كما انّ تكرار كلمة «فيها» لتأكيد الافساد في الأرض ولابراز شدّة الاستبعاد والاّ كان كافياً أن يذكر هذا الظرف مرّة واحدة.

لزوم المزج بين الحمد والتسبيح

ما هو المقصود من قوله ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وما الغرض من ضمّ «بحمدك» إلى «نسبّح»؟ هل هو لافادة معنى انّنا نسبّحك في حال شكرنا لك، إذ انّنا لولا لطفك بنا لم نوفّق لتسبيحك؟ او انّ المقصود هو انّنا بسبب حمدك أو بالاستعانة بحمدك نسبّحك؟ أو انّ المراد أمر ثالث وهو انّنا نُسبّحك تسبيحاً مقترناً مع حمدك؟

والجواب على هذا السؤال يتوقّف على توضيح معنى حرف (الباء) في قوله (بحمدك) ومتعلّق هذا الجار والمجرور. وهنا توجد عدّة احتمالات:

١. الجار والمجرور في موقع الحال، وهناك متعلّق به هو كلمة: (متلبسين)، اي نسبّح متلبسين بحمدك، أو نسبّحك في حال حمدك، لانّه إذا لم يكن لطفك وتوفيقك وفضلك لم تكن لدينا قدرة على تسبيحك[1].

ونتيجة ذلك انّ هذه الجملة تكون شبيهة بالمتداول على ألسن البعض حين يقول: (انّني بحمد الله وفّقت لاحياء ليلة القدر) اي انّني احمد الله في هذا التوفيق لانّه وهبني هذه النعمة. والملائكة أيضاً قالوا: انّنا في حال شملنا فيه فضلك ولطفك فأصبحنا نسبّحك ونقدّسك فكيف تجعل آدم خليفة في الأرض؟!

---

١. **غرائب القرآن**، ج ١، ص ٢٢٠. وراجع كتاب **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٦٣.

والظاهر انّ الباء حسب هذا الوجه تكون للتعدية لانها تكون كمن يقول (تلبّست بثوب فلان).

٢. ان الجارّ والمجرور متعلّق بـ(نسبّح)، و«الباء» للسببيّة أو للاستعانة، اي انّنا نسبّحك بسبب حمدك أو بالاستعانة[1] بحمدك.

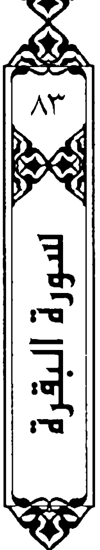
وعلى هذا الفرض يوجد احتمالان: الأوّل: هو انّ اضافة الحمد إلى كاف الخطاب من باب اضافة المصدر إلى الفاعل، وفي هذه الحالة فالحامد هو الله أي (بحمدك ايّاك)، ويكون المعنى انّنا نسبّحك عن طريق الحمد الصادر منك لذاتك (لا عن أيّ طريق، وان كان ينجرّ إلى تعطيل الكثير من الصفات، كالتسبيح الذي لدى المعتزلة وغيرهم من المذاهب الباطلة). والاحتمال الثاني: هو انّ هذه الاضافة هي من باب اضافة المصدر إلى المفعول، وفي هذه الصورة فانّ الحامد هو المسبّح أي (بحمدنا ايّاك)، والمعنى هو انّنا نسبّحك عن طريق حمدنا ايّاك.

وبناءً على كلا الاحتمالين يرد هذا السؤال وهو: كيف يكون الحمد وسيلة للتسبيح في حين انّ الحمد هو تزيين للمحمود بنعته بصفات الجمال، والتسبيح هو تنزيهه من النقص والعيب؟

ويمكن ان يُجاب على السؤال المذكور بانّه وان كان التجميل ليس دائماً يؤدّي إلى التنزيه (طبعاً من الممكن ان يصدق العكس اي انّ كل تنزيه وتطهير من النقص والعيب فهو يؤدّي إلى التجميل والتزيين)، لكنّه في خصوص الذات المقدّسة الإلهيّة يكون الأمر كذلك حيث انّ اتصافه

---

١. الاستعانة هي بأحد المعنيين اللذين ذكرهما ابن هشام للآية ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾. (**مغني اللبيب**، ج ١، ص ١٤٠، المعنى الخامس للباء).



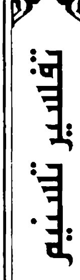
بصفات الجمال يقترن بتنزيهه من النقائص والعيوب، لانّ جميع الصفات الثبوتيّة التي يُحمد بها الله صادقة على الله بنحو مطلق؛ اي انّ الله غنيّ، قادر، عزيز، عالم، قويّ.... على الاطلاق، ومثل هذا النعت والتوصيف والتجميل يتضمّن في أعماقه نفي الأضداد، مثلاً إذا قلنا: انّ الله غنيّ على الاطلاق فهذا يعني انّه لا يعتريه ايّ فقر، طبعاً انّ الباعث على اجتماع الجمال المحض والجلال الصرف ـ الذي اقترن بالتسبيح الممتزج بالتحميد ـ هو تلك الهويّة المطلقة على نحو اللابشرط المقسمي الثابت للذات الإلهيّة.

٣. انّ الباء هي بمعنى «مع»، والجار والمجرور متعلّق بـ(نسبّح)،[١] وفي هذا الفرض فانّ معنى ﴿**نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ هو أننا (نسبّحك مع حمدك) وفي الحقيقة تكون الباء هنا لتوضيح كيفيّة التسبيح وللاشارة بانّ تسبيحنا تسبيح مقترن بحمدك والاعتراف لك بانّك جامع لكلّ الكمالات.

ومن الممكن ان يكون ذكر (الواو) في بعض العبارات مثل (سبحان ربّي العظيم وبحمده) مؤيّداً لهذا الاحتمال، لانّه مع وجود الواو، فانّ الباء تدلّ قطعاً على الملازمة والمصاحبة، الاّ ان يقال بانّ كون الباء بمعنى (مع) هو خلاف الاصل، وهذا امر لا يغض النظر عنه الا إذا كانت هناك قرينة (كما في موارد الاقتران بالواو) لا غير ذلك.

٤. انّ الجار والمجرور متعلّق بـ(نسبّح) والباء بمعنى الالصاق، وطبقاً لما نقله ابن هشام عن بعض النحويّين فانّ هذا المعنى لا يفارق حرف

١. هذا المعنى يذكره ايضاً ابن هشام للآية ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾. (**مغني اللبيب**، ج ١، ص ١٤٠، المعنى الخامس للباء).



الباء، ولذلك اكتفى سيبويه بهذا المعنى، واعتبره أصلاً وأساساً في معنى الباء وقال: الباء لأجل الالصاق والاختلاط[1]. اذن ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ اي (نلصق ونخلط تسبيحنا بحمدك). ونتيجة هذا المعنى هي المصاحبة والملازمة، مع فرق واحد وهو انّه في هذه الصورة لا يلزم خلاف للأصل، بل انّ الالتزام بهذا المعنى هو مقتضى المحافظة على المعنى الأصليّ للباء.

وبهذا البيان يتّضح انّ الأصحّ في بيان معنى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ هو أن يقال (والحال انّنا مع حمدك فنحن ننزّهك) أو (في الحال الذي نحن نقوم بتسبيحك وحمدك) وأن يقال في بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[2]: (لا شيء الاّ وهو يسبّحه مع الحمد)، أو (لا موجود الاّ وهو يقوم بالتسبيح والحمد).

وعلى كلّ حال فانّ مفاد انضمام (بحمدك) إلى فعل التسبيح في جميع هذه الموارد هو انّه على جميع الأحوال يجب ان يكون تسبيحنا مقترناً بحمدنا، لانّ التسبيح بلا حمد هو نفي بدون اثبات، في حين انّ النفي مقدّمة للاثبات، فكذلك الحمد أيضاً يجب ان يكون مقترناً بالتسبيح، لانّ الحمد بدون التسبيح، اثبات ناقص من حيث انّ الحمد توصيف ونعت لله عن طريق فهمنا وادراكنا الناقص، والله سبحانه منزّه عن مثل هذا التوصيف الناقص: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3]،

---

١. راجع **مغني اللبيب**، ج ١، ص ١٣٧، المعنى الأوّل لحرف الباء، مضافاً إلى ما نقل عن سيبويه في الحاشية.

٢. **سورة الاسراء**، الآية ٤٤.

٣. **سورة المؤمنون**، الآية ٩١؛ **سورة الصافات**، الآية ١٥٩.



فيجب ان ننزّه الله ونسبّحه عن مثل هذا الوصف الناقص. وعلى كلّ حال فانّ الحمد وحده وكذلك التسبيح وحده لا يمكنهما أداء حقّ توصيف الله سبحانه.

وببيان آخر: ان الله يجب ان يُسبَّح ويُنزَّه وفي نفس الوقت يجب ان يُحمد ويُشكر، والسرّ في لزوم التسبيح والتنزيه هو انّ الله رافع لكلّ نقص ومنزّه للمخلوقين من كلّ عيب، والذي يستطيع أن يكون كذلك هو الذي بذاته منزّه من كلّ نقص وعيب. والسرّ في لزوم الحمد والثناء المقترن بالتسبيح ايضاً هو انّه بافاضته الكمال واعطائه النعم يزيل العيوب والنقائص عن الآخرين. فهو اذن منزّه عن كلّ عيب ونقص، ومن جهة اخرى فمن الواضح انّ كلّ كمال ونعمة فهو يقتضي حمداً.

وعلى كل حال فانّ الله سبحانه سبّوح ومسبَّح، ولولا ذلك لم يمكن أن يكون رافعاً للنقص، وكذلك هو محمود، لانّه بعطائه الكمال والنعمة يزيل النقائص عن الآخرين. اذن يجب ان يُسبَّح وكذلك يجب أن يكون تسبيحه مقترناً مع الحمد، وبعبارة اخرى كما انّ تنزيه الله بالنسبة للموجودات يقترن بإفاضته الكمال والنعم، كذلك تنزيهنا لله ايضاً يجب ان يكون مقترناً بالحمد له.

تنويه: انّ عدم تصريح الملائكة بقولهم: (اننا نمتلك أهليّة الخلافة لك) وقولهم بدلاً عن ذلك وعلى نحو الكناية: (انّ خليفتك يجب ان يكون من أهل التسبيح والتقديس ونحن مسبّحون ومقدّسون لك) دليل على تأدّبهم، وانّ قول الله لهم: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ كناية عن انّ خليفتي أيضاً يجب أن يكون عالماً بشيء لا تعلمون به أنتم: أي انّ

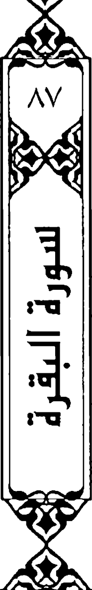
خليفتي يجب ان يكون أكمل منكم، كما شهدت على ذلك الآيـة التاليـة وهي قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء...**﴾.

مصداق المقدّس في الآية

انّ مقتضى سياق الآية ولازم عطف (نقدّس) على (نسبّح) هـو انّ الموجـود المقدَّس والمسبَّح هو الذات الإلهيّة المقدسة، كما انّه هو المـسبَّح ايـضاً، لا العالَم ولا موجودات العالَم حتّى يكون المعنى (انّنا نعمل على تطوير حركة العالم وموجوداته نحو الصلاح والقداسة والكمال) كمـا قـال الـبعض،[1] ولا الملائكة أنفسهم بمعنى انّنا نطهّر أنفسنا من الدنس، كما نُقل عـن الـضحّاك وغيره،[2] أو نطهّر افعالنا من المعاصي كما روي عـن ابـي مـسلم.[3] وان كـان البعض قد اختار هذا المعنى في (نقدّس لك) وقالوا: انّ المراد هـو تقـديس النفوس لله.[4] وقالوا كذلك في (سبّح لله) وفي جميع الموارد التي جـاء فيهـا التسبيح مع اللاّم، كقوله تعـالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾[5] و﴿**يُـسَبِّحُ لَـهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾[6]: «انّ المراد هو تسبيح أنفسهم لله وفي سبيل الله طلباً للكمال وتنزيهاً للنفس من كلّ نقص وضعف».[7]

---

١. راجع: **برتوي از قرآن (شعاع من القرآن)**، ج ١، ص ١١٧ (باللغة الفارسية).
٢. **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٩١.
٣. **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٩١.
٤. **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، ج ٩، ص ٢٣٣، (ق د س).
٥. **سورة فصّلت**، الآية ٣٨.
٦. **سورة النور**، الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.
٧. **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، ج ٥، ص ٣٠ (س ب ح).



والظاهر انّ الباعث للقول بمثل هذا الاحتمال هو انّ الآية ذكرت بدلاً عن (نقدّسك) أو (نقدّسك لك) عبارة: (نقدّس لك) بحذف المفعول به، مع انّه لو كان مفعول (نقدّس) هو الذات الإلهيّة المقدّسة لوجب ان يقول (نقدّسك) كما في (نسبّحك)، وفي مورد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أيضاً كان ينبغي ان يقول «سَبَّحَ اللّه».

لكنّه وكما قيل: فانّ مقتضى سياق الآية: انّ المقدَّس والمسبَّح هو الذات المقدّسة الإلهيّة، لاسيّما مع الأخذ بعين الاعتبار ما تقدّم في تعريف التسبيح بانّه عبارة عن (أعلى درجات التعظيم)، وانّ هذا المعنى مختص بالله ولا يطلق على غيره، فتكون النتيجة هي انّ اللاّم في (لك) لأجل التأكيد،[1] اي انّ المفعول به لـ(نقدّس) هو الكاف المجرورة، مع لام التعدية والتعليل «اي نقدّس لأجلك» وفي هذه الحالة فانّ مفعول (نقدّس) يكون مقدّراً، والمعنى هو «نقدسك لأجلك» واللاّم لافادة الخلوص والاخلاص، اي انّنا نقدّسك خالصين ومخلصين دون أيّ طمع وخوف من العاجل والآجل[2]، وعلى هذا المقياس يجري الكلام في معنى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وفي جميع الموارد التي جاء فيها التسبيح مع اللاّم.

المراد من ﴿إِنِّي أَعْلَمُ...﴾

هناك سؤالان يطرحان في تفسير جملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾: الأول:

---

١. راجع كتاب **تفسير الجلالين، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**، ج ١، ص ٥٦ ـ ٥٧.
٢. **تفسير الجلالين، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**، ج ١، ص ٥٦ ـ ٥٧.

هو لماذا أجاب الله على سؤال الملائكة بنحو مجمل؟ والثاني: ما هو الشيء المعلوم عند الله، والذي كانت الملائكة جاهلة به؟

وقد أُجيب على السؤال الأول بجوابين: أحدهما: انّه بالنسبة إلى العبد المسلّم امره إلى ربّه والعالم بانّ الله حكيم في جميع الافعال والأمور لا توجد ضرورة للبيان التفصيليّ للحِكَم والأسرار في أفعال الله سبحانه، والآخر: هو انّ جواب الله لم يكن مجملاً بنحو كلّي، بل قد اشير في الآيات التالية إلى بعض الحِكَم والأسرار.

وفي جواب السؤال الثاني روي عن ابن عباس وابن مسعود انّ المقصود هو كِبْر وعُجب ومعصية ابليس،[1] وكأنّ الله سبحانه يريد ان يقول: انّني اعلم انّ سبب هذا الاعتراض هو كبر وحسد ابليس بالنسبة إلى خلافة آدم.

كما وروي ايضاً عن قتادة:انّ المقصود من قوله ﴿**مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ هو الأنبياء والصالحون من ذريّة آدم[2]. اي انّكم لا تعلمون كم من العظماء والأطهار سوف يأتون من ذريّة آدم وتطأ أقدامهم عرصة الوجود.

والاحتمال الثاني تؤيّده بعض الروايات التي تقدّم ذكرها سابقاً، وبيان ذلك كما تقدّم في البحوث السابقة انّ الله سبحانه كأنّه يقول للملائكة: انّكم رأيتم فقط وجهاً واحداً من العملة أو المسكوكة: (اي آدم والتركيب الوجودي الخاصّ به) ولم تعلموا انّ هذا التركيب الذي فيه صراع ونزاع بين العقل والشهوة والغضب لو تغلّب العقل لظهرت لدى

---

١. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٣٥.
٢. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٣٥.



الإنسان فضائل كالعفّة والشجاعة والانصاف وغيرها ولبدت عليه آثار ممتازة كالاحاطة بالجزئيّات واختراع الصنائع وتسخير ثروات العالم وتحويلها من القوّة إلى العقل، ولتنامت قوّته الروحيّة وزادت عبوديته وصار أقرب إلى الله.

انّكم لا تعلمون انّ علم الإنسان ومعرفته وان كانت تحصل بالتدريج، وانّ جهله اكثر من علمه بكثير، وانّه قليل جداً بالقياس إلى سعة العلم الإلهيّ، لكنّه مع ذلك، فانّ علم الإنسان أعظم مظاهر العلم الإلهيّ ولا أحد يستطيع ان يبلغ درجته.[1]

انّكم لا تعلمون انّ خلق آدم لطف الهيّ خفيّ، لانّه سيأتي من نسله أنبياء وائمة يتّصفون بأعلى درجات الطهارة والعصمة والطاعة والعبادة على الرغم ممّا لديهم من شهوة وغضب، ويسعون إلى هداية واصلاح الناس وارشادهم نحو عبوديّة الله.

ولذلك روي عن امير المؤمنين علي عليه السلام من انّ معنى هذه الآية هو: «انّي جاعل في الأرض خليفة لي عليهم فيكون حجّة لي عليهم في أرضي»،[2] وجاء ايضاً في بقيّة هذه الرواية: «أجعل ذريّته أنبياء مرسلين وعباداً صالحين وائمة مهتدين؛ اجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهونهم عن المعاصي وينذرونهم عذابي».[3]

انّكم لا تعلمون بانّه وان كان الهدف من جعل الخليفة هو التسبيح

---

١. راجع **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٦١.

٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥١؛ **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٢٩.

٣. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥١؛ **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٢٩.

والتقديس والحمد لي، لكنّ ذلك ايضاً له درجات، ونظراً لوجودكم المحدود: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1] فانّ معرفتكم بالنسبة لي أيضاً محدودة، وحيث انّ اساس التسبيح والحمد والتقديس هو المعرفة، لذلك فانّ تسبيحكم وتقديسكم محدود أيضاً ولا يليق ولا يتناسب مع ساحة قدسي وكبريائي وعظمتي. اذن لابدّ أن اجعل خليفة يكون ـ على الرغم من وجوده الأرضيّ ـ أعلى منكم في المعرفة أنتم أهل السماء، ويكون في مجال المظهريّة الإلهيّة مظهراً لجميع اسمائي الحسنى (خلافاً لما أنتم عليه حيث انّ الفرد أو الطائفة منكم تكون مظهراً لاسم واحد من أسمائي). فالإنسان اذن يحظى بحمد وتسبيح وتقديس أعلى، كما جاء في حقّ رسول الله ﷺ انّه صاحب لواء الحمد في القيامة وحامل اللواء هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: فقد روي عن الحسين بن علي عليهما السلام عن ابيه علي بن ابي طالب عليه السلام قال: «قال لي رسول الله ﷺ: انت أوّل من يدخل الجنّة، فقلت: يا رسول الله، أدخلها قبلك؟ قال: نعم، لانّك صاحب لوائي في الآخرة، كما انّك صاحب لوائي في الدنيا وحامل اللواء هو المتقدّم. ثمّ قال: يا علي كأنّي بك وقد دخلت الجنّة وبيدك لوائي وهو لواء الحمد وتحته آدم ومن دونه»،[2] اي انّ الأوّلين والآخرين لا يستطيعون ان يحمدوا الله كالنبيّ محمد ﷺ وعلي عليه السلام.

انّكم لا تعلمون انّ في الإنسان استعداداً لمعرفة الأسماء، وأنتم لا تعلمون بها ولا طاقة لكم على تعلّمها، وقد خلقت الإنسان لأجل هذه

---

١. **سورة الصافات**، الآية ١٤٦.

٢. **بحار الأنوار**، ج ٨، ص ٦؛ **الاختصاص**، ص ٩١.

المعرفة لا لأجل الرذائل والمعاصي. فالهدف من خلق الإنسان هو المعرفة بالأسماء والعلم الصحيح النافع والعمل الصالح، وانّي اُطلع الإنسان على هذا الهدف، وأدلّه على طريق الوصول إليه، وأنهاه عن الافساد والمعصية، واخوّفه من العذاب، ومثل هذا الخلق بهذه الخصائص يترجّح على عدمه دون شكّ.

واخيراً فانّكم لا تعلمون بانّ الموجود الأرضيّ وان كان مستعداً للافساد وسفك الدماء، وكذلك فانّه صحيح انّكم أهل للتسبيح والتقديس، لكنّ خليفة الله لا هو من أهل الفساد وسفك الدماء ولا أنتم تملكون القدرة على القيام بتسبيحه وتقديسه. بل هو في الحقيقة معلّمكم في التسبيح والتقديس، كما جاء في الرواية: «فسبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا»[1] أي انّكم حتّى في هذا الكمال أيضاً تلامذة للإنسان الكامل.

وعلى كلّ حال، فانّ المعلوم لله في جملة: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ هم الأنبياء والصالحون والأئمّة المعصومون (صلوات الله عليهم)، وبعبارة اخرى وكما سيتّضح في الآية التالية فانّ اولئك الذوات المقدّسة هم المراد من الأسماء التي تمّ تعليمها لآدم، وكذلك هم المراد من ﴿**غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ الوارد في ذيل الآية المذكورة، اي انّ ﴿**مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ تُفسّر بواسطة الآية التالية وهي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، (المقصود من الغيب هو تلك الأسماء المستورة تحت حجب الغيب، وجميع ما في السماوات والأرض قد اشتقّت من نورها)، لانّ تعبير ﴿**أَلَمْ أَقُل لَكُمْ**﴾ يدلّ على انّ جملة ﴿**أَعْلَمُ غَيْبَ...**﴾ قد

---

١. **علل الشرائع**، ج ١، ص ٢٠٦؛ **بحار الأنوار**، ج ٢٤، ص ٨٨

تقدم بيانها، والذي تقدّم بيانه ليس شيئاً سوى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. اذاً ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ هو نفس ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وهو أيضاً ليس سوى الأسماء التي جرى تعليمها لآدم.[1]

طبعاً إذا اعتبرنا جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بقيّة مقول القول في ﴿أَلَمْ أَقُل﴾ فالنتيجة هي انّ ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أيضاً جزء من المعلوم لدى الله في جملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وإذا صحّ ما ورد في تفسير الآية التالية بانّ المراد من قوله ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هو الكبر والعجب والحسد عند ابليس فانّ النتيجة هي الجمع بين القول الأوّل (قول ابن عباس وابن مسعود) والقول الثاني (قول قتادة)، اي انّ في كلا هذين القولين قد ذُكر مصداق من معلوم الله في جملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ولا منافاة بين القولين.

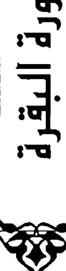
فالنتيجة هي انّ ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كما تشمل المناقب المباركة للإنسان الكامل في العلم والعمل كذلك تشمل مثالب ومطاعن الأشرار المتوحّشين من البشر، إذ انّ بعض جرائم ومفاسد البشريّة لا تصدر من أيّ حيوان هائج مفترس، لكنّها قد تأتي من إنسان عالم يستخدم علمه في اهلاك الحرث والنسل.

لطائف واشارات

١. هدف وفائدة وكيفيّة التذكير في القرآن

انّ اصل التذكرة والتذكير يقترن بفوائد عديدة، ولأجل هذه الفوائد فقد

١. راجع **الميزان**، ج ١، ص ١١٦.

تحدّث عنها القرآن الكريم في مواضع عديدة، فالتذكير تارة بلحاظ الكمال والقوّة المفقودة، وفائدته هو استرجاع العلوّ والعظمة المنسيّة والآفلة، وتارة بلحاظ النقص والعجز الذي تمّ تداركه والسلبيات التي تمّ علاجها وفائدته هي السعي والانتباه للمحافظة على النعمة الحاصلة.

واسلوب وطريقة التذكير يكون تارة بواسطة ذكر أصل الحدث التاريخيّ والواقعة المهمّة التي حدثت في ظرف خاصّ، وتارة يكون بذكر الآثار الجانبيّة والمرافقة لذلك الحدث المهمّ. وفي هذا الشأن يتمّ التذكير أحياناً بمكان حادثة المتمكّن واخرى بزمان حادثة المتزمّن. والتذكرة بالزمان بلحاظ الوحدة النوعيّة والتكرر السنويّ اكثر من التذكير بالمكان بلحاظ الوحدة الشخصيّة، لانّه بالنسبة لغير المتمكّنين في ذلك المكان المعيّن لا يحمل صفة التذكير، لكنّ الزمان بلحاظ سعته النوعية (على الرغم من انّ وحدته الشخصيّة غير محفوظة) قابل للتذكرة بالنسبة إلى عامّة الناس.

فالقرآن الكريم يذكر موارد من التذكرة بزمن الحادثة المهمّة كما في قوله تعالى: **﴿واذْكُرْ في الْكتَاب مَرْيَمَ إذ انتَبَذَتْ منْ أَهْلهَا مَكَانًا شَرْقيًّا﴾**،[1] **﴿واذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنيَ الشَّيْطَانُ﴾**،[2] **﴿واذْكُرْ أَخَا عَاد إذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأَحْقَاف﴾**،[3] **﴿واذكُرُواْ إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء من بَعْد قَوْم نُوحٍ﴾**،[4] **﴿واذْكُرُواْ إذْ كُنتُمْ قَليلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾**،[5] **﴿واذْكُرُواْ إذْ أَنتُمْ قَليلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ**

١. سورة مريم، الآية ١٦.
٢. سورة ص، الآية ٤١.
٣. سورة الأحقاف، الآية ٢١.
٤. سورة الأعراف، الآية ٦٩.
٥. سورة الأعراف، الآية ٨٦.

فِي الأَرْضِ﴾.[1] فالبحث الإجماليّ في مضامين الآيات المذكورة يعطي أمثلة للفوائد والملاحظات التي أُشير إليها في صدر هذه الاشارة.

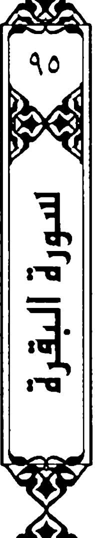
والذي ينبغي الالتفات إليه هنا انّ الحدث الوجوديّ تارة لا يكون مكانيّاً ولا زمانيّاً حتّى يتمّ التذكير بزمانه ومكانه، وانّما هو موجود ملكوتيّ، ولذلك فانّ كلمة (إذ) في مثل هذا المورد تأتي بمعنى الظرف الوجوديّ، لا بمعنى ظرف الزمان ولا ظرف المكان. ومفاد كلمة (إذ) هنا هو التذكرة بمثل ما جرى في قضيّة المكالمة الإلهيّة مع الملائكة، وكذلك ما حصل في ساحة أخذ ميثاق الله من ذريّة آدم وسائر الحوادث الملكوتيّة غير الزمانيّة، فالالتفات إلى الدرجة الوجوديّة لذلك الحدث ومع حفظ وحدته الشخصيّة يجعله قابلاً للتذكرة للجميع، اي ليس مثل المكان المادّي الذي ليس فيه تذكرة لغير التمكّنين فيه، وليس مثل الزمان المادّي الذي تكون تذكرته بلحاظ الوحدة النوعيّة لا الشخصيّة، بل هنا مع حفظ الوحدة الشخصيّة فانّ سعته الوجوديّة هي تذكرة للجميع.

٢. دروس من المحادثة الإلهيّة مع الملائكة ونقلها

ما هي حكمة الاعلان من قِبل الله عن خلق آدم وخلافته وابلاغ ذلك للملائكة ثمّ سرد تلك المحادثة والسؤال والجواب للرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وامته في القرآن الكريم؟ وما هو الموجب اصلاً في ان يخبر الله سبحانه الملائكة عن خلق آدم وجعل الخلافة له كي يدعوهم ذلك إلى اثارة

١. سورة الأنفال، الآية ٢٦.





مثل هذا السؤال؟ وما هو مغزى هذا الاعلان؟ هذا السؤال اُثير في بعض التفاسير واجيب عليه بأجوبة هي:

الأوّل: انّ الله أراد ان يعلّم الملائكة بانّ عظمة الشخص وعلوّ درجته لا ينبغي ان تمنعه من مشاورة من هو أقلّ منه درجة.[1]

الثاني: انّ الله اراد ان يعلّمهم بانّه لا ينبغي التضحية بالخير الكثير لأجل الشرّ القليل.[2]

الثالث: ليعلن عن هذا الطريق انّ الله تعالى لا يكره السؤال حول أسرار الخلق، بل هو راضٍ به.[3]

الرابع: إذا كانت أسرار وحِكَم الله في خلقه خافية على الملائكة فخفاؤها على الإنسان العاديّ اولى. وعليه فلا ينبغي له ان يتوقّع ان تكون له قدرة كشف جميع اسرار الخليقة (فانّه لم يؤت من العلم الاّ قليلاً).[4]

الخامس: انّ اظهار الخضوع والتسليم في مقابل الله، مقدّم على معرفة حكمته؛ لأنّ الله قال في البداية في جواب الملائكة على نحو الاجمال: ﴿**أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، ولازمه خضوع السائل وبعد ذلك ومن خلال ذكره لقضيّة تعليم الأسماء اعطى الجواب التفصيليّ للسؤال.

السادس: انّه عزاء ومواساة للنبيّ الأكرم في مقابل احتجاج المشركين وجدال المنكرين، لانّه عندما يكون أهل السماء وسكّان الملأ الأعلى

---

١. راجع **تفسير منهج الصادقين**، ج ١، ص ٢٢٠.
٢. **تفسير منهج الصادقين**، ج ١، ص ٢٢٠.
٣. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٥٤ – ٢٥٥.
٤. **تفسير المنار**، اشارة إلى الآية ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (**سورة الاسراء**، الآية ٧٤).

يسألون الله الدليل والبرهان فانّ أهل الأرض وسكنة الغبراء اولى بان يكونوا كذلك، وعلى الأنبياء الاستقامة والصبر في مقابلهم وان يقيموا لهم البرهان.[1] بل انّ في هذه القصة درساً لكلّ مبلّغ وقائد دينيّ الهيّ حتّى يواجه أسئلة الناس واحتجاجاتهم بالحلم والصبر وسعة الصدر، وأن يسعى ما امكنه لإثبات مدّعاه في الدين بالبيان واقامة البرهان.

السابع[2]: انّ هذه القصّة تعلّم المجتمع البشريّ بانّ الإنسان مهما بلغ في درجات العلم والقوّة، ومهما اتّصف به من الطهارة والصلاح والاخلاص وحسن النيّة في القرارات والمواقف، فلا ينبغي له ان يمتنع عن قبول النقد والنقاش، بل عليه أن يُبقي الباب مفتوحاً للجدال والاعتراض، وان يستقبل ذلك برحابة صدر، كما انّ الله سبحانه بجلاله وعظمته فسح المجال للملائكة للجدال واثارة السؤال الشبيه بالاعتراض بحيث انّ هؤلاء مع معرفتهم بحكمة الله وعظمته لم يأخذهم الرُعب، ولم تمنعهم الهيبة منه عن اثارة سؤالهم واستفهامهم، والله سبحانه قابلهم بكرمه ولطفه الخاصّ وأجابهم جواباً مقنعاً في غاية الحلم والمداراة وببيان الدليل المشهود والمعقول، والأعجب من ذلك انّ الله سبحانه أبقى باب الجدال والاعتراض مفتوحاً حتّى لابليس الملعون ايضاً، وذلك عندما قال لله سبحانه: ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ...**﴾.[3]

فعلى الذين يرون أنفسهم فوق النقد والاعتراض ان ينتبهوا ويعتبروا

---

١. راجع **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٥٥.
٢. راجع **تفسير الكاشف**، ج ١، ص ٨١ – ٨٢
٣. **سورة ص**، الآية ٧٦.

بهذه القصّة، ويعلموا انَّ الاعجاب بالنفس والاستعلاء على الآخرين بصورة غير واعية، هو بمثابة اعتبار الإنسان نفسه فوق العزيز الجبّار، وليستمعوا إلى ما قاله أمير البيان الإمام عليّ عليه السلام: «**فَلا تُكَلِّمُوني بِمَا تُكَلَّمُ به الْجَبَابِرَةُ وَ لا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِه عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَة، وَ لا تُخالِطُوني بالْمُصَانَعَة (النفاق) وَ لا تَظُنُّوا بي اسْتِثْقَالاً في حَقٍّ قيلَ لي وَ لا الْتِمَاسَ إعْظَامٍ لِنَفْسي، فَإِنَّهُ مَن اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَو الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْه كَانَ الْعَمَلُ بهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْه، فَلا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بحَقٍّ أَوْ مشُورَةٍ بعَدْلٍ، فَإِنِّي لَسْتُ في نَفْسي بِفَوْق أَنْ أُخْطِئَ (أي بالنظر إلى شخصي وبعنوان أني أحد الناس) وَ لا آمَنُ ذَلكَ منْ فِعْلي، إلاّ أَنْ يَكْفِيَ اللّهُ منْ نَفْسي مَا هُوَ أَمْلَكُ به منِّي**»،[١] (أي انّني لا أرى نفسي فوق الاشتباه في بعض الموضوعات الاّ ان يحفظني الله).

طبعاً انّ الله يحفظ أفراد الإنسانيّة الكاملين ـ ونخصّ بالذكر القادة المعيّنين المعصومين ـ من شرّ السهو والنسيان كما انّهم مصونون من آفة المعصية.

تنويه: أ: صحيح انّه ليس من السهل استنباط مسألة المشاورة من حكاية قصّة آدم، لكنّه إذا كان الهدف من هذه المحاورة والمناقشة هو طرح أصل مسألة التشاور وبيان اصل المشاورة (كما هو مشهود في بعض جوانب القصة من ابداء النظر وتبادل الرأي) فهذه القصّة تدلّ على انّ هذه الفضيلة قد اودعت في أعماق البشر منذ بداية خلقه، لانّ الصفة التي يتمّ ملاحظتها والتركيز عليها عند ايجاد الشيء وتهيئته وتكميله هي صفة يعتمد على مراعاتها ويرتبط بها كمال ذلك الموجود، ولذلك قد

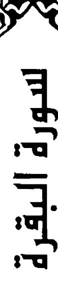
١. **نهج البلاغة**، الخطبة ٢١٦، المقطع ٢٢ ـ ٢٥.

جعلت هذه الصفة في اساس خلقه، وبعبارة اخرى: كما انّ تعليم الأسماء قد ذكر في بداية ايجاد آدم وتعليم القرآن قد لوحظ أساساً في تحقّق هويّة الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[1] فإذا ما عاش الإنسان بعيداً عن طريق العلم فانّه قد ابتعد عن الحياة الإنسانية، وتعاليم الأنبياء ليست امراً قسرياً ومفروضاً على وجود الإنسان بل انّها تثير لديه دفائن عقله وتنمّي ما لديه من طاقات كامنة، كذلك فانّ امر المشاورة ايضاً ليست عبئاً ثقيلاً على كيان الإنسان، بل انّ أمر ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[2] وصفة ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[3] كلاهما بمثابة الاثارة والتفعيل والتنمية لرغبة ونزعة معبّأة في الكيان الباطنيّ للإنسان، والإنسان الذي يتهرّب من الاستشارة سوف يقع في فخّ الاستبداد ويهلك: «مَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِه هَلَكَ».[4]

والنتيجة هي انّ الإنسان العارف بكيفيّة نشأته وايجاده وانّ هويّته قد تبلورت مع تعليم الأسماء والمشاورة، سوف لن ينسى ـ لكي يحافظ على هويّته الأصيلة ـ مراعاة جميع الأمور المأخوذة فيها كالإحاطة بالأسماء الإلهيّة من جهة وتعليمها أو انبائها إلى الآخرين طبقاً لدرجاتهم المختلفة من جهة اخرى، وكذلك اصل المشاورة من جهة ثالثة، وسوف يعتبر هذه الأمور عاملاً لنمو ورشد باطنه وفطرته وليست فرضاً وقسراً على رغباته ونزعاته الباطنيّة.

---

١. سورة الرحمن، الآيات ١ ـ ٤.
٢. سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
٣. سورة الشورى، الآية ٣٨.
٤. نهج البلاغة، الحكمة ١٦١.



ب: يرى بعض اهل التفسير انّ كلمة ﴿إِذْ قَالَ﴾ أينما وردت في القرآن فمعناها (اسمع كي اقول) وانّ الاخبار بخلق آدم قبل خلقه لم تكن فيه صفة الاستعانة ولا صبغة المشاورة، بل انّ هذا الاخبار يحمل صفة البشارة، ولكي يعلم الملائكة بظهور معلّم الأسماء ومبيّن الحقائق ولكي يُعدّوا أنفسهم لتحقّق هذا الوعد.[1]

واسلوب التبشير وطريقة التمهيد والاعداد أمران مشهودان في القرآن الكريم، كما أخبر الله سبحانه أنبياءه السلف بمجيء النبيّ الخاتم للخلف وأخذ منهم ميثاقهم كما في الآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ**﴾[2] وفي ضمن اخبار النبيّ عيسى عليه السلام بظهور الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يأمره الله سبحانه بان يبشّر بذلك وان يقول: ﴿**إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[3] وقد وصف أصحاب النبوّة وصحابة رسالة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في التوراة والانجيل قبل مجيئهم إلى الدنيا بقوله: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ...**﴾[4].

وانّ ما أظهره الملائكة بعد علمهم بالبشارة لم يكن من سنخ تضارب آراء المشاورين ولا هو من قبيل اعلان المعاونين الاستعداد لتقديم العون، لانّ الاعلام الإلهي أرفع من تقديم المشورة وأهمّ من الاعانة وأفضل من الاستعانة، بل هو من سنخ اعلان الاستعداد للعبوديّة

١. **كشف الأسرار**، ج ١، ص ١٣٢.
٢. **سورة آل عمران**، الآية ٨١.
٣. **سورة الصف**، الآية ٦.
٤. **سورة الفتح**، الآية ٢٩.

والطاعة، اي انّهم قالوا لله سبحانه إذا كنت تريد عبداً فنحن عابدون، وإذا كنت تريد طاعة فنحن مطيعون، كما يظهر هذا من الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.[1] فقال الله سبحانه لهم: إذا كنتم تعلمون بفساد يصدر من جوارح بعض بني آدم، فانّكم تجهلون الصلاح الذي تتّصف به جوانح أوليائهم ولا تعلمون بنور الولاية المشرق الذي يشعّ من قلوبهم وقدرتهم على حمل كتاب قيادة الأُمم وتبليغ القيم الإلهيّة وتوضيحها وبيان أسرارها واقامتها وتطبيقها وحمايتها والدفاع عنها.[2]

جـ : انّ سؤال الملائكة يمكن ان تكون له غير صفة الاستفهام صبغة (الادلال) «وتعني حالة عدم الخجل والجرأة والصراحة الناشئة من الوثوق والاطمئنان بالمحبّة»، لانّ العبد المقرّب يتحدّث مع مولاه أحياناً من باب (الادلال).[3]

٣. درجات الخلافة

تقدّم في البحوث التفسيريّة السابقة انّ المقصود من الخلافة هو حقيقتها الجامعة التي لها درجات كثيرة، وان كان المصداق العينيّ المطروح في الآية محلّ البحث يحظى بالخلافة المطلقة والكاملة التي هي من نصيب الإنسان الكامل، لانّ اصل الخلافة فيه مراتب وكل

١. **سورة الصافّات**، الآيتان ١٦٥ ـ ١٦٦.

٢. **كشف الأسرار**، ج ١، ص ١٤٠.

٣. كما جاء في **دعاء الافتتاح**: «اسألك مستأنساً لا خائفاً ولا وجلاً مدلاً عليك فيما قصدت فيه اليك».



إنسان فهو خليفة الله بمقدار ما لديه من علم بالأسماء الإلهيّة،وبواسطته يمتلك قدرة السيطرة على الموجودات الاخرى، وانّ ما يستفاد ايضاً من قوله تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾[1] ليس اكثر من خلافة النبي داود في مجال القضاء بالحقّ في الأرض، اي انّ فرق هذه الآية مع الآية محلّ البحث هو انّ هذه الآية لا تفيد الخلافة المطلقة[2]، في حين انّ سياق الآية محلّ البحث شاهد على انّ المراد من الخلافة فيها هو الخلافة المطلقة، لانّها تعتبر منشأ وملاك خلافة الإنسان هو علمه بغيب السماوات والأرض، وهذا يدلّ على انّ دائرة خلافته جميع الغيب والشهادة، لانّ العالِم بالغيب عالم بالشهادة بطريق اولى، ونتيجة ذلك انّ الجميع من الموجودات المادّية إلى أعلى الموجودات المجرّدة، كلها داخلة في نطاق خلافته وولايته، وما حصل من انفلاق البحر لموسى عليه السلام وتحوّل النار إلى برد وسلام على يد ابراهيم خليل الله عليه السلام وانشقاق القمر باشارة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كل ذلك ثمرة مباشرة لسيطرة وليّ الله على عالم المُلك.

وعلى كلّ حال فانّ الخلافة الإلهيّة لها درجات متعدّدة، لانّ لله ظهورات مختلفة، والمذكور في الآية محلّ البحث هي خلافة الخليفة التامّ والكامل الذي يؤدّي فعل الله سبحانه باذنه في جميع شؤون عالم الامكان، يعني حيث انّ الله سبحانه عليم وقدير بالذات، فالإنسان الكامل

١. **سورة ص**، الآية ٢٦.

٢. فما ذكره العلامة الطباطبائي رحمه الله في **الميزان** وصاحب **فصوص الحكم** في الفص الداوودي من استفادة الخلافة المطلقة من هذه الآية ليس تامّاً. نعم من الممكن ان يكون للنبي داوود مقام اعلى، لكن المستفاد من الآية المذكورة ليس هو تلك الخلافة المطلقة.

ايضاً مظهر تامّ لذلك العليم والقدير، وهو عالم بالعلم الالهيّ ومقتدر بالقدرة الإلهيّة ومتخلّق بالاخلاق الإلهيّة، ودائرة عالم التكوين بالنسبة إليه كدائرة البدن بالنسبة إلى كلّ إنسان بحيث يستطيع ان يقوم بأيّ فعل يريده باذن الله، ومثل هذا الإنسان الكامل خليفة الله في الذات (باصطلاح الحكماء) وكذلك في صفات الذات وفي صفات الفعل والآثار العينيّة، ذاته وصفاتها خليفة ذات الله وصفاته سبحانه، وأفعاله وآثاره خليفة أفعال الله وآثاره، أي انّه مظهر الله في الجهات الأربع من دون أن يكون متمتّعاً بشيء من نفسه، ومثل هذا المقام لا يصل إليه أحد من الموجودات حتى الملائكة، وانّما هو للإنسان الكامل خاصّة. وان كان كلّ موجود وفي أيّ درجة من الوجود كان وفي دائرة صفات الجمال والجلال التي هو فيها وبمقدار سعته الوجوديّة فانّه يُعدّ خليفة لله، اي يكون مظهراً لإسم من الأسماء الإلهيّة سواء كان جزئياً أم كليّاً.

والخلافة الإلهيّة التي هي مقولة بالتشكيك قابلة للتقييم من جهات مختلفة. والذي يُراد بيانه هنا هو الدرجات المختلفة لها بلحاظ كيفيّة تعلّق الصفات الكمالية بروح الإنسان الذي هو خليفة الله، لانّ درجات خلافة الله تعتمد على البحث في مراحل ارتباط الصفات الإلهيّة بالروح المتّصفة بها.

فالشخص الحائز على الصفات الكماليّة لله سيكون متّصفاً بخلافة الله في الجملة لكنّ تفصيل درجاته تكون كالآتي:

١. إذا كان ثبوت الصفات الكماليّة للفرد على مستوى (الحال) القابل للزوال، والذي تكون قابلية زواله سريعةً ايضاً فمثل هذا الفرد تكون خلافته عن الله في مستوى (الحال) لا أكثر.



٢. وإذا ما بلغ مرحلة بحيث أصبح يتّصف بصفات الكمال في مستوى المَلَكة (التي هي على الرغم من قبولها للزوال لكنّ قبولها للزوال بطيء وضعيف) فخلافة مثل هذا الفرد عن الله هي في مستوى (المَلَكة) لا أكثر.

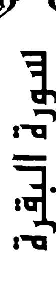
٣. وإذا ما ارتفع الفرد إلى درجة بحيث صارت صفات الكمال بالنسبة له في مستوى (التقويم الماهوي) أي أصبحت مقوّمة لماهيّته وصارت من الأجزاء الماهوية له، فهنا سوف لا تزول الصفات مادامت تلك الماهية موجودة. وخلافة مثل هذا الفرد عن الله سبحانه في مستوى (التقويم الماهويّ) لديه وليس أكثر.

٤. وإذا ما بلغ قمّة الهرم في التكامل بحيث أصبحت صفات الكمال لديه على مستوى (التقويم الوجوديّ) لا الماهويّ وكانت على نحو العينيّة لا الجزئيّة، اي انّ الكمالات المذكورة أصبحت عين هويّته لا ماهيّته ولا على نحو الجزئيّة، لانّ الوجود أصيل وبسيط وهو منزّه عن أيّ نحو من التركيب والتجزئة، وإذا ما ثبت له كمال فانّه سيثبت حتماً على نحو العينيّة لا الجزئيّة، فمثل هذا الإنسان الكامل سوف تكون خلافته الإلهيّة عين هويّته الوجوديّة، وفرض الزوال مع حفظ الهويّة الوجوديّة هو فرض اجتماع النقيضين، لانّ سلب الشيء عن نفسه يعني الجمع بين المتناقضين. وخلافة مثل هذا الإنسان الكامل هي أعلى من خلافة الخلفاء الآخرين، لانّ خلافته هي مثل سائر الكمالات الإلهيّة نظير العلم والقدرة والحكمة وغيرها حيث تشكّل عين هويّته لا عين ماهيّته ناهيك عن ان تكون في مستوى الحال أو الملكة.

ومثل هذا الإنسان الكامل هو خليفة الله في نفي الصفات الزائدة عن الذات، وهو آية الله الكبرى، اي كما أنّ لله أسماءً حسنى وصفات عليا ذاتيّة وغير محدودة، وكل تلك الصفات الكمالية هي عين ذاته وليس هناك من تغاير بينها وبين الذات المقدسة الإلهيّة سوى التغاير المفهوميّ، فكذلك خليفته أيضاً فهو مظهر لتلك الأسماء الحسنى وآية لتلك الصفات العليا المذكورة، لكنّه بنحو محدود، وجميع تلك الصفات الكماليّة المحدودة هي عين ذاته المحدودة، وليس في ما بينها ولا مع الذات المقدّسة لخليفة الله أيّ نحو من التغاير سوى الاختلاف المفهومي لبعضها مع الآخر ومع الذات، لانّ مثل هذا الإنسان الكامل هو آية لله سبحانه الذي تكون غاية الاخلاص في معرفته التوحيديّة هي نفي الصفات الزائدة على الذات، كما قال امير المؤمنين عليه السلام: «**كَمَالُ الإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ**»[1] حيث انّ تلك الخطبة العلويّة المعروفة قد تضمّنت من بدايتها إلى نهايتها بيان الصفات الكماليّة لله، لكنّه لأجل بيان الاتّحاد بل العينيّة المصداقيّة والوحدة الصدقيّة بين الصفات والموصوف قال: انّ نفي الصفات، هو كمال الاخلاص في المعرفة التوحيديّة لله. وينبغي الالتفات إلى انّ وحدة الذات والصفة، وعينيّة الصفة والموصوف لا هي مختصّة بالواجب ولا هي محال على الممكن، لانّ معيار التمايز بين الواجب والممكن هو وجوب الوجود وامكان الوجود، حيث انّ أحدهما غنيّ محض ومتمتّع بجميع الكمالات الوجوديّة بنحو غير محدود، والآخر فقير صرف ولا يتمتّع بأيّ شيء من ذلك. فإذا كانت ذات الموجود واجبة فانّ

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١، المقطع ٤.



الكمالات الوجوديّة لذلك الواجب سوف يكون لها اتحاد عينيّ واجب فيما بينها،وتكون وحدتها الصدقيّة والمصداقيّة مع ذات الموصوف واجبة. وإذا كان الموجود ممكناً فانّ الكمالات الوجوديّة لذلك الممكن واتّحادها العينيّ مع الموصوف سوف يكون ممكناً، لانّ جميع الصفات المذكورة وكذلك مسألة الوحدة المصداقيّة والاتّحاد العينيّ تابعة لأصل الموصوف. فإذا كان الموصوف ذا وجود امكانيّ فانّ جميع شؤونه أيضاً سيحكم عليها في حدود دائرة الامكان. والفرق الاصطلاحيّ يمكن ان نجده في التفكيك بين (الضرورة الذاتيّة) التي لا تنافي الامكان الوجوديّ و(الضرورة الأزليّة) المختصّة بالواجب.

وعليه فانّ كمال الخلافة في البساطة الوجوديّة، لانّ خليفة بسيط الحقيقة يجب ان يتّصف بالبساطة المحدودة والنسبيّة، حتّى يكون آيةً لذلك البسيط المحض، وهذا لا يتسنّى الاّ للموجود الذي ينال درجة البساطة في ظلّ وحدة وعينيّة الأوصاف والموصوف، كي يصبح الآية الكبرى لبسيط الحقيقة، وتكون صفاته الكماليّة ـ كصفات المستخلَف عنه ـ عين ذاته الامكانيّة حتّى يصدق عليه في دائرة الامكان القول: (انّ كمال الخلافة هو نفي الصفات الزائدة على ذات الخليفة).

ولأجل بلوغ مثل هذه الخلافة لابدّ من الهجرة من التركّب إلى البساطة، وهو سفر أصعب من السير من الكثرة إلى الوحدة، لانّه من الممكن أن يصير الكثير واحداً، وأن يتحوّل السالك الذي كان ينظر إلى عالم الوجود بعين الكثرة إلى النظر إليه الآن بعين الوحدة، وان تحصل عنده وحدة الناظر اضافة إلى وحدة المنظر، لكنّه وبسبب

فقدانه لبعض أنحاء الكمال اللاّزمة للخلافة، يقع في نفق التركّب من الوجدان والفقدان الذي يُعدّ أسوأ أنحاء التركيب لانّ حيثيّة الاتصاف ببعض الكمالات ليست هي عين حيثيّة عدم امتلاك الكمالات الاخرى، ومثل هذا الموجود المركّب والمرقّع من الوجود والعدم لا يكون آية لله البسيط المحض، وبالنتيجة فانّ خلافته عن الله سبحانه لا تكون كاملة.

ولأجل بلوغ تلك القمة فلا سبيل سوى الهجرة من التركّب إلى البساطة، وهذه الهجرة الكبرى لا تتمّ بالهجرة الصغرى ولا الوسطى، كما انّها لا تحصل بالجهاد الأصغر ولا الأوسط، بل لابدّ من الجهاد الأكبر حتى تتهيّأ الأرضيّة لتلك الهجرة الكبرى. وفي هذا السفر المهول ينبغي على السالك أن يضيء ظلمات الطريق ويُسكّن الروع من خوف الأمواج وأهوال الأعاصير بالاستمداد من اللطف الخاصّ للمستخلَف عنه، وأن يكون علاوة على رعايته لجميع الأحكام والآداب الإلهيّة، الواردة في شرائع ومناهج أنبياء الله والتي هي زاد المسافر ومتاع طريقه، أن يُغَلِّبَ دائماً صبغة فطرة الروح على نزوة طبيعة البدن المنبعثة من ميله الحسي، وأن يسوق رغباته وشهواته الحسيّة نحو صراط الإنسانيّة المستقيم بالتعديل لا بالتعطيل. حتّى إذا وصل إلى وادي الفطرة وتحرّر من عيوب الطبيعة ونقائصها وأكمل جانب الكمال فيها من خلال الكمال الوجودي للفطرة هنالك يأتي دور الجهاد الأكبر والهجرة الكبرى للعقل والقلب، وفي هذا الميدان لا ينبغي التضحية بالعقل الباحث عن المفاهيم فداءً للشهود الجذّاب، بل يجب اثارة ذلك

العقل وتنميته كي يتحرّك برفقة القلب من المفهوم الصادق إلى العين الخارجيّة اي المصداق. والاّ فيصدق قول الشاعر:

حذار فانك ان أصغيت إلى وسوسة العقل

فسوف تكون كآدم وتخرج من روضة الرضوان[1]

انّ السالك المشتاق إلى الخلافة الإلهيّة يُذكي العقل الباحث عن المفاهيم ولا يضحّي به. وكما انّه في الحركة الجوهريّة، تصل القوّة إلى الفعل، وعند وصولها إلى الفعليّة تتفتّح وتتفتّق وتذكو لا انها تزول وتفنى، فكذا العقل البرهاني إذا ظفر بالعرفان الخالص فانه ينسجم مع الوحي القرآني ويتفتّح ويذكو، لا انّه يمسي ضحيّة وفقيداً. وجبرئيل الذي هو ملك من الملائكة وله مقام معلوم ومحدّد، لم يكن لديه قدرة الفناء في الإنسان الكامل كي يستطيع الوصول ـ من خلال الانطواء والاندراج والانسلاك في الروح النبويّة ـ إلى المقام الشامخ المذكور في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾.[2] لكنّ العقل الباحث عن المفاهيم والطالب للبراهين لدى الإنسان السالك المشتاق للخلافة تكون له القدرة على التفاعل والذوبان في قلب الغوّاص في بحر المعرفة الشهوديّة الهائج، ممّا يجعله ينتقل من «العلم إلى العين ومن الأُذن إلى الحِضن».

وفي ميدان الجهاد الأكبر والهجرة الكبرى فانّ جانب الهويّة يتغلّب تدريجيّاً على جانب الماهيّة، والامكان الفقريّ يتفوّق على الامكان

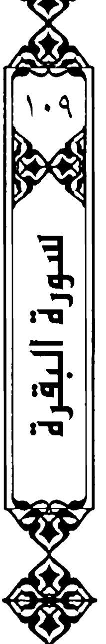
---

١. **ديوان حافظ**، الغزل ٤٩٤ (باللغة الفارسيّة).

٢. **سورة النجم**، الآية ٩.

الماهويّ، فتظهر عظمة الوجوب بالغير شيئاً فشيئاً، ويزول الامكان الذاتيّ سواء كان بمعنى «الماهيّة» أو كان بمعنى «الهويّة»، لانّ الامكان الذاتيّ صفة للذات، والشيء الذي لا ذات له، لا الذات بمعنى الماهيّة المركّبة من الجنس والفصل، ولا الذات بمعنى الهويّة، كيف يتّصف بالامكان الذاتيّ؟ فالشيء الوحيد الباقي اذن هو الوجوب بالغير، لانّ الإنسان كباقي الموجودات الامكانيّة يتّصف بانّه أولاً: ربط محض، وثانياً: الوجود الرابط (لا الرابطي) أقلّ شأناً من أن تكون له ذات، لانّ كلّ ذات فهي قابلة للملاحظة، والوجود الرابط غير قابل للملاحظة أبداً، حيث انّ المعنى الحرفيّ لا يمكن في أيّ حال أن يلاحظ مستقلاً، والشيء الذي ليس في مستوى ملاحظة نفسه أو الآخرين فلن يتّصف اطلاقاً بالامكان الذاتيّ ولا بسائر المعاني المرتبطة بالذات.

ولأجل هذا يقال: انّ ما سوى الله «فقر» وليس «فقيراً»، بمعنى الذات التي يثبت لها الفقر، مثل عدد الأربعة الذي تثبت له الزوجيّة، والاّ فانّ الفقر (لازم للذات) وليس هو (عين الذات)، وهذا اللاّزم تقترن معه محاذير كثيرة، وحيث انّ خلافة مثل هذا الإنسان الكامل كسائر شؤونه الكماليّة تعدّ عين هويّته، وهويّته عين الفقر والربط الوجودي بالله سبحانه، اذن فخلافته أيضاً عين الربط بالمستخلَف عنه، ومثل هذا الخليفة ليس فقط لا يدعو الناس إلى نفسه، بل انّه لا يدعو أحداً إلى غير الله، كما انّه ليس فقط يرى فعله وتصرّفه في الإنسان والعالم عين الربط بفعل الله وتصرّفه الذي يتمّ بصورة المالك المستقل، بل انّه يرى فعل وتصرّف كلّ موجود آخر ايضاً عين الفقر والربط بالفعل والتصرّف



المقتدر لله سبحانه، لانّ جميع عالم الامكان في عين مثل هذا الخليفة الكامل ليس سوى مرآة للوجود الإلهي وصورة لفعل وتصرّف ذلك المالك الحقيقي المقتدر.

وخلاصة القول هي أولاً: انّ أفضل خليفة لـ(بسيط الحقيقة)، هو (بسيط المجاز)، لا (مركّب المجاز). ثانياً: انّ عينية الصفة والذات لها مراتب، وأعلى تلك المراتب مختصّ ببسيط الحقيقة وهو الله سبحانه. ثالثاً: بعض مراتب عينيّة الذات والصفة تُلاحظ في المظاهر الكاملة الإلهية، اي انّ أصل العينية ليست مختصّة بالواجب وان كان أعلى درجاتها مختصّاً بالله سبحانه. رابعاً: انّ ما قاله عبد الكريم بن ابراهيم الجيلاني من انّ هذا الحكم لا يوجد في غير الله[١]، فهو ليس صواباً، وقد تقدّم تفصيل ذلك خلال البحث.

٤. الخلافة عن الله في جعل الخليفة

انّ الخلافة الكاملة والنيابة الجامعة تحصل في ان يكون الخليفة الحقيقيّ مظهراً لجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا للمستخلَف عنه، حتى في اسم الاستخلاف وصفة جعل الخلافة، حتّى يمكنه في ضوء هذه المظهريّة ان يجعل طائفة من الناس خليفة لَهُ في (مشهد الحضور) وطائفة اخرى خليفة لَهُ في (مكتب الحصول)، حيث انّ هؤلاء في الحقيقة خلفاء الله بنحو غير مباشر ومع الواسطة، وليس لديهم من أنفسهم ولا من الأغيار الآخرين شيء سوى الآثار الإلهيّة. طبعاً ليس

١. **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، ج ١ ، الباب ٢٥، في الكمال ، ص ٩٧.

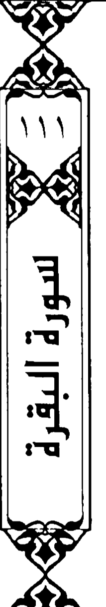
الخليفة الامكاني أعلى من المستخلِف، لكن يُتوقّع من المستخلَف عنه ان يظهر نفسه بشكل جيّد.

فالذي يكون خليفة لآدم يجب أن يسعى حتّى لا يقع اكثر من مرّة في ذلّة الزلّة، وان لا يعاود الاستبدال بلّذة جنّة القرب والدرجة العالية الوقوع في فخّ الشجرة الممنوعة، وأن لا يجرّب اكثر من لحظة العصيان والنسيان، وان لا يُبدّل اكثر من مرّة «الدلالة» إلى البقاء والخلود بـ«التدلية» والسقوط المقرون بالغرور، وان يبادر فوراً إلى تدارك ما فاته وبنحو دائم وثابت، كما فعل المستخلَف عنه الذي استخلفه أي آدم الذي هو الخليفة الحقيقي لله، حيث أصلح بنحو دائم لحظة الزلّة، والعصيان، والنسيان، والغواية، والتدلّي، والانخداع بوسوسة ابليس، بالاصطفاء والاجتباء والتوبة الإلهيّة وتلقّي الكلمات الربّانية والهداية الإلهيّة الخاصّة، فأشرق نور اصطفائه وتلألأ بحيث تقّشعت جميع الظلمات التي جلبتها لحظة معصيته فلم يبق لها أثر، لانّ بحر الاصطفاء الإلهي وعباب امواج اجتباء الله لا يدع فرصة ولا مجالاً لظهور زبد العصيان والغواية.

وعلى كلّ حال، فانّ الإنسان الكامل هو الخليفة الجامع والكامل لله، حتّى في اسم الاستخلاف وصفة جعل الخليفة.

ومن الواضح انّ جميع هذه البركات هي من سنخ ظهور جمال صاحب الصورة في وجه مرآة الإنسان المتبلور. ولذلك يمكن أن نقول انّ ما قام به الرسول الأكرم، محمد بن عبد الله ﷺ الذي هو الصادر الأوّل أو الظاهر الأوّل أو الخليفة الإلهي الجامع حتّى في اسم الاستخلاف، في





يوم الغدير والمجالات الكثيرة الاخرى في حقّ أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام عندما اجلسه على كرسيّ الخلافة وعلّقَ وسام الولاية على صدره المنشرح وشدّ وسام القيادة والامامة لأمّة الإسلام على ساعديه الفاتحتين لحصن خيبر، فكلّ ذلك هو من سنخ مظهريّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وخلافة تلك الذات المقدّسة عن الذات الأقدس الإلهيّة في مجال اسم الاستخلاف وصفة جعل الخلافة. ولذلك يمكن ان يقال لصاحب النبوّة والرسالة وأعظم خليفة لله في عالم البشريّة: «وما نصّبت عليّاً عليه السلام للخلافة، إذ نصّبت، ولكنّ الله نصّب، وما قلت للناس يوم الغدير في عليّ عليه السلام: «**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه**»، ولكنّ الله قال، وكذلك في الأمور والمواضع الاخرى.

٥. معرفة درجة خليفة الله

انّ الخلافة بين الموجودات تنقسم إلى قسمين، لانّ الخلافة تارة تطلق ويلاحظ بها الجانب التاريخيّ وأمثاله فقط، ومن هذه الناحية لا يوجد فرق جوهريّ بين الخليفة والمستخلَف عنه، كما في خلافة الجيل الثاني للجيل الأوّل من الاقوام والامم التي تقطن ارضاً معيّنة، ففي مثل هذه الموارد لا يوجد بين الأصل والفرع اختلاف في المقام والدرجة. ولذلك يمكن أن يكون الخليفة مساوياً للمستخلَف عنه وتارة يكون أعلى منه، اي انّ الدرجة الوجوديّة للجيل الثاني أعلم واتقى وأفضل من الجيل الأوّل: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾[1] وهنا

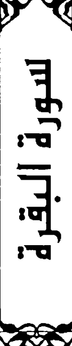
---

١. سورة البقرة، الآية ١٠٦.

يستطيع الخليفة ان يتكلّم ويعمل بنحو مساو للمستخلَف عنه وتارةً أعلى منه، لانّ قدرته وكفاءته صادرة من هويّته واعتماداً على نفسه، لا على افاضة المستخلَف عنه.

والقسم الآخر للخلافة يُنظر فيه فقط إلى المقام والدرجة الوجوديّة والرتبيّة لا التاريخيّة وأمثالها. ولذلك فانّ فيها فرقاً جوهريّاً بين الخليفة والمستخلَف عنه؛ وجميع ما لدى الخليفة من كفاءة وقدرة فهو يعدّها متعلّقة بالخلافة، لانّها من الأساس قد أُعطيت له من قبل المستخلَف عنه. اذن فانّ درجته الوجوديّة ورتبته ليست اعلى من المستخلَف عنه ولا حتّى مساوية له، بل هي أقلّ منه قطعاً. طبعاً انّ درجة التنزّل ترتبط بدرجة الخلافة وكيفيّة الاستخلاف.

ومثل هذا الخليفة الذي هو رشحة من رشحات الدرجة الوجوديّة للمستخلَف عنه وليس مساوياً له ابداً، لو ادّعى مقام المستخلَف عنه، فهو لا يفقد شرعيّته فحسب وانّما سوف يفقد قدرته ايضاً. مثل النائب الخاصّ أو العام للمعصوم عليه السلام لو ادّعى، معاذ الله، ما ليس له وانّه اعلى من كونه فرداً من امّة ذلك الإمام الهمام المعصوم، فانّه سوف يسقط كما سقط السامري، ولو انّ الإمام المعصوم عليه السلام الذي هو نائب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، معاذ الله، قد حدّثته نفسه بمقام اعلى من الإمامة وادّعى النبوّة، فانّه سيواجه ذلك العقاب الأليم الذي توعّدَ الله به نبيّه الأكرم وخليفته صلى الله عليه وآله، لو انّه، معاذ الله، قال شيئاً بغير اذن الله أو نسب إلى الله سبحانه شيئاً على نحو التقوّل والافتراء، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ***



فَمَا منكُم مِّنْ أَحَد عَنْهُ حَاجزِينَ﴾،[١] لانّ حدود الإمامة منفصلة تماماً عن دائرة النبوّة والرسالة، كما انّ حدود النبوّة والرسالة منفكّة تماماً عن حمى الربوبيّة وحريم الالوهيّة.

وانّ لله سبحانه أسماءً حسنى وصفات عليا كثيرة، وبعضها من المستأثرات التي لا يبلغ احد مقامها الشامخ. وعنوان الربوبيّة والكبرياء هو من هذا القبيل. وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَبسَ الْعزَّ وَ الْكبْريَاءَ وَ اخْتَارَهُمَا لنَفْسه دُونَ خَلْقه وَ جَعَلَهُمَا حمًى وَ حَرَماً عَلَى غَيْره وَ اصْطَفَاهُمَا لجَلاله**»[٢]

وعليه فانّ خليفة الله سواء كان مباشراً بلا واسطة أو مع الواسطة يجب عليه أن يعرف درجته دائماً كي لا يتجاوزها.

طبعاً ينبغي الالتفات إلى انّ تلك المعرفة وهذه الاستقامة ليست أمراً سهلاً، لانّ الصراط المستقيم يمتاز بأمرين: احدهما صعوبة المعرفة والآخر مشقّة الاستقامة. والسبب في صعوبة المعرفة هو انّ الصراط المستقيم من ناحية المعرفة: «ادقّ من الشعرة» فيحتاج إلى محقّق دقيق حتّى يتمكن من بلوغ تلك المعرفة، وهو من الناحية العمليّة «أحدّ من السيف»[٣] فيحتاج إلى المتحقّق الثابت الصامد حتّى يتمكّن من ناحية العمل ان ينال الثبات والاستقامة على الصراط. فالنتيجة هي اوّلاً: انّ المقام العالي للخلافة هو ادنى درجة تماماً من الحريم الوجوديّ والرتبيّ

١. **سورة الحاقة**، الآيات ٤٤ ـ ٤٧.

٢. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢ (القاصعة)، المقطع ١.

٣. **الكافي**، ج ٨، ص ٣١٢؛ **بحار الأنوار**، ج ٧٠، ص ٢٧٠، ح ٢٢.

للمستخلَف عنه. وثانياً: صعوبة معرفة الحدّ الفاصل بين الخليفة والمستخلَف عنه. وثالثاً: انّ أداء واجب الخلافة أمر شاقّ وعسير. ورابعاً: انّ جميع هذه المراحل يمكن اجتيازها وعبورها في ظلّ اللطف والعناية الخاصّة للمستخلَف عنه. وهذا المعنى بالذات ورد عن ذلك الإنسان الكامل والخليفة الإلهي الجامع الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام عندما تكلم فحذّر وأنذر من ادّعاء التكبّر والتجبّر، وأوضح واجب العبد في فناء قدس مولاه فقال: «**إيَّاكَ وَ مُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَ التَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِه، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَ يُهِينُ كُلَّ مُخْتَال**».[1]

وعلى هذا فانه لو قام أحد المسؤولين في الحكومة الإسلامية في مجال التقنين أو التنفيذ أو القضاء، بتقديم افكاره البشريّة على قوانين الوحي الإلهيّ، فانّه لا يصلح ان يكون خليفة لله ابداً، كما انّ كلّ فرد يقدّم مآربه وغاياته على الهدف الإلهي فليس بخليفة لله ابداً.

تنويه: انّ مواجهة الظلم وإزالة الباطل لا تتيسّر من دون التلبّس برداء الجبروت، والاتّصاف بالشدّة في مقابل اعداء الله، ولذلك فانّ خلفاء الله في نفس الوقت الذي هم ﴿**رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾ لكنّهم في مقابل الظَلَمة الغاشمين: ﴿**أشِدَّاء عَلَى الْكُفَّار**﴾،[2] كما انّ المستخلَف عنه يجمع في وقت واحد بين صفتي «ارحم الراحمين في موضع العفو والرحمة» و«اشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة».[3]

---

١. **نهج البلاغة**، الرسالة ٥٣ (عهد الإمام إلى مالك الأشتر)، المقطع ١٦.

٢. **سورة الفتح**، الآية ٢٩.

٣. **مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.**

٦. الخلافة المباشرة وغير المباشرة

الخلافة هي ظهور المستخلَف عنه في الخليفة، وهذا الظهور مقول بالتشكيك وله مراتب مختلفة، والعلماء العدول كلّ واحد منهم ـ بمقدار درجته ـ مظهر للخلافة الإلهيّة، ومراتبها التشكيكيّة طوليّة فيما بينها، فمن هو في قمة هرم الظهور فهو الخليفة الإلهيّ الأوّل، والآخرون هم أصحاب الدرجات التالية له.

ولذلك فانّ الظاهر الأوّل الذي هو الخليفة الأوّل لله سبحانه، أي الإنسان الكامل الذي لا يوجد أكمل منه، لا في قوس النزول ولا في قوس الصعود، هو فقط الخليفة المباشر وبغير واسطة لله سبحانه، ولكنّ الخلفاء التالين له في الدرجة ـ لأنّهم خلفاء لله بالواسطة ـ فلذلك هم خلفاء لخليفته بالاضافة إلى كونهم خلفاء الله، ويمكننا ملاحظة تعدّد الخلافة بشكل أكثر في المراتب النازلة.

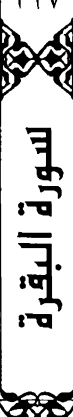
فبعض الناس ملحوق بالخلافة فقط وليس مسبوقاً بها أبداً، كصاحب الدرجة الرفيعة خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وبعض الناس فقط مسبوق بالخلافة وليس ملحوقاً بها أبداً، كمن يقع في أسفل درجات الإنسانية التي يكون التنزّل منها موصلاً إلى مقام الحيوانيّة، بحيث يخرج من دائرة الخلافة ونطاق الإنسانية، وبعض أفراد الإنسانيّة الكاملين يكون مسبوقاً بالخلافة وملحوقاً بها أيضاً، كالنبيّ آدم عليه السلام الذي هو مسبوق بخلافة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وملحوق بخلافة الأفراد الكاملين الآخرين الذين لا يضاهونه في الدرجة بل هم أقلّ منه وأنزل. وحيث انّ الخليفة من حيث انّه خليفة ليس سوى

مرآة للمستخلَف عنه، فانّ آدم عليه السلام إذا اعتُبر خليفة لرسول الله، فانّ ذلك لا يشكّل حائلاً دون خلافته عن الله، لانّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي هو المستخلَف عنه بالنسبة لآدم عليه السلام لا يملك شيئاً من نفسه، وانّما الخلافة الإلهيّة هي التي تشكّل كل هويّته وحقيقته، والخليفة من حيث انّه خليفة ليس الاّ مرآة للمستخلَف عنه. اذن فان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ليس لديه شيء سوى ظهور الفيض الإلهيّ، وخلافة آدم عنه ليست سوى حكاية لهذا الظهور الإلهيّ.

وبعبارة اخرى، فانّ آدم عليه السلام هو خليفة الإنسان الكامل الفاني في الله نتيجة لكونه الظهور الأوّل، والخلافة عن الفاني من حيث انّه فان ليست الاّ خلافة عن المفنّي فيه. وعليه فانّ آدم عليه السلام الذي هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله يصبح خليفة لله، وهذه الخلافة قد نشأت امّا لكون خليفة خليفة الله هو خليفة الله، أو انّها بلحاظ كون الخليفة للفاني هو خليفة للمفنيّ فيه، وإذا كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يصف آدم عليه السلام بانّه خليفته فانّ هذا الوصف يصحّ اطلاقه من طريقين: احدهما: انَّ آدم ليس خليفة الله بنحو مباشر وبغير واسطة، وانما هو بواسطة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أصبح خليفة الله، والآخر: هو انّ آدم وان كان خليفة لله لان الخلافة مع الواسطة تعدُّ خلافة، ولكنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ـ عن طريق قرب النوافل ـ يتكلّم باللسان الإلهيّ، ولذلك فانّه يستطيع ان يذكر آدم باللسان الغيبيّ لله سبحانه ويصفه بأنّه خليفته.

وقد جاء هذا المعنى الذي ذكر هنا بعنوان اشارة في القصيدة





«التائيّة» لابن الفارض المصري الحموي،[١] فهو يتكلّم عن لسان الرسول الأكرم ﷺ ويقصد بذلك آدم عليه السلام فيقول:

ولمّا نَقلتُ النفسَ من ملكِ أرضها
بحكم الشِّرى منها إلى ملك جنَّة
وقد جاهدتْ فاستشهدت في سبيلها
وفازت ببُشرى بيعها حين أوفت
سَمَتْ بي لجمعي عن خلودِ سمائها
ولم ترض اخلادي لأرض خليفتي[٢]

يعني بذلك الاقتباس من الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾،[٣] لقد بعت وبايعت الله، ولمّا بعت نفسي لله فقد أصبح كلّ تصرّف فيها مرتبطاً باذن الله، ولم اعمل بها سوى عمل المجاهد الباسل في الجهاد الأصغر والأوسط والأكبر. ولقد أكرمني الله جزاء امتثالي لأمره بالجهاد بمكافأة وهي ان رفعني من دائرة المُلك لأصلَ إلى آفاق الملكوت ومن

١. انّ الاستاذ الفاضل في العرفان الشيخ محمد بن اسحاق بن محمد بن يوسف بن علي، المعروف بصدر الدين القونوي (المتوفى ٦٧٣هـ.ق) قام بتدريسها وشرحها، وقد قام بكتابة ونشر تقرير درسه شارح الديوان الشيخ سعيد الدين بن احمد الفرغاني (المتوفى ٧٠٠ هـ.ق).
٢. **ديوان ابن الفارض المصري**، ص ٥٣.
٣. **سورة التوبة**، الآية ١١١.

سرادقات الأرض لأبلغَ الجنّة ومن خَرِبة الطبيعة كي آويَ إلى معمورة الغيب. وانّ نفسي الغيبية والمجاهدة لن ترضى أبداً أن تهجع في أرض خليفتي، اي في نطاق الطبيعة.

ويقول شارح القصيدة في شرح البيت الأخير:

انّ آدمعليه السلام التابع إلى (الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله) خليفتي من وجهين: احدهما: من لسان الجمع الإلهي الذي سمّاه بهذا الاسم تبعاً للحكم الصادر في قوله تعالى ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، والآخر من لسان الحقيقة المحمّدية التي هي الملاك في امره وميزان شخصيته، في جملة هذه التقريرات، وآدم في مقام الدعوة والخلافة نائب وخليفة لحقيقته وجملة الأنبياء والرسل، الجميع خلفاء ونواب لتلك الحقيقة، وتحقيق تلك النيابة والخلافة قد مضى في مقدمة وتقريرات اخرى.[١]

٧. كيفيّة الخلافة عن الحاضر المحضِ

انّ الخليفة هو الذي يظهر بعد المستخلَف عنه اي يكون وراءه وخلفه، وهذا يتوقّف على غيبة وعدم المستخلَف عنه، فكيف يتحقّق ذلك هنا والله سبحانه ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**﴾[٢] و﴿**عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[٣] فلا غيبة له ولا تخلو منه ساحة حتّى يحلّ فيها الخليفة، فكيف يمكن تصوّر خلافة الإنسان عن الله؟

---

١. **مشارق الدراري**، ص ٤٩٩.

٢. **سورة فصلت**، الآية ٥٤.

٣. **سورة النساء**، الآية ٣٣؛ **سورة فصلت**، الآية ٥٣.

في جواب هذا السؤال ينبغي ان يقال: انّ هذا الاشكال يلزم إذا كـان الاستخلاف بمعنى التفويض واخلاء الساحة، ومثـل هـذا الاسـتخلاف ـ بالنسبة إلى الله تعالى ـ لا العقل يؤيّده ولا النقل يدلّ عليـه. وانّمـا الـذي يفهم من استخلاف الله هو المظهريّة والمرآتيّة الخاصّة، اي انّ المقـصود من خلافة الإنسان عن الله هو انّه مظهر صـفات الله ومـرآة أفعالـه، فـالله سبحانه هو الأصل والإنسان الخليفة مرآته وآيته.

وببيان آخر: انّه ليس المقصود من الخلافة خلوّ الساحة مـن الله، ولا المقصود هو تخلّـي الله تعـالى عـن مقـام الربوبيّـة والتـدبير وتفويـضها للإنسان، إذ لا غيبة الله ومحدوديّته يمكن تصوّرها تـصوّراً صـحيحاً، ولا استقلال الإنسان في تدبير الأمور يمكن القبول به، لانّ الموجود الممكن والفقير عاجز بذاته وبنحو مستقلّ عن ادارة امور نفسه فضلاً عـن تـدبير امور غيره. انّ خليفة الله هو يد الله التي تعمل على شـكل إنـسان، وفـي الحقيقة انّ الذي يعمل هو الله، وخليفته مجـرى ومحـل لـصدور الفعـل ومهبط لهبوط ونزول ارادة الربّ: «وإرادة الربّ في مقـادير امـوره تهـبط إليكم وتخرج من بيوتكم»[1] وكلّ خيـر وحـسنة تتحقـق فمـن الله ﴿**مَّـا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ**﴾[2] والإنسان الكامـل وخليفـة الله هـو المنفـذ الوحيد الذي تخرج منه قـدرة الله وتظهـر فيـه ﴿**وَمَـا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْـتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى**﴾.[3]

---

١. **مفاتيح الجنان**، الزيارة الاولى من زيارات الإمام الحسين عليه السلام المطلقة.

٢. **سورة النساء**، الآية ٧٩.

٣. **سورة الأنفال**، الآية ١٧.

وببيان ثالث فانّ المحيط المطلق والحاضر المحض لا يحتاج إلى خليفة ولا يقبل الاستخلاف. ولذلك فانّ الله الذي هو المحيط المطلق والحاضر المحض عندما يجعل له خليفة فمعنى ذلك انّ يد الله وقوّته تظهر عبر هذا المنفذ: ﴿**إِنَّ الَّذينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّه فَوْقَ أَيْديهِمْ**﴾[١] ﴿**يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْديكُمْ**﴾،[٢] وإذا أردنا المحافظة على المعنى الظاهريّ للخلافة (تحقق فعل المستخلَف عنه على يد الخليفة) فيجب ان يقال: كما انّ الله قادر ومحيط وشاهد على كل شيء فخليفته ايضاً كذلك. والفرق الوحيد يكمن في انّ هذه الصفات تكون لله بالأصالة وبالذات وتكون لخليفته بالتبع وبالعرض، وفي الحقيقة انّ اختلاف بالأصالة وبالتبع وبالذات وبالعرض يعود إلى مسألة انّ الله غنيٌّ عن كل شيء ولكنّ خليفته يسدّ حاجاته بواسطة كلّ شيء.

ويمكن ان يقال: إذا كان الخليفة لا يستطيع ان يفعل أمراً لولا وجود الأشياء، فانّ هذا التصوير للخلافة محل تأمّل، لانّ الخليفة إذا كان مظهراً لقوله:﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾[٣] لاستطاع ان يوجد شيئاً بمحض ارادته لذلك الشيء.

وفي الجواب ينبغي القول: انّ المقصود هو انّه لا يوجد شيء في عالم الامكان الاّ وهو تحت سلطة الخليفة المطلق لله، ولا يتمّ فعل الاّ وهو في المنهج الذي يرسمه خليفة الله. اذن فانّ الله غنيّ عن كلّ شيء وخليفته غنيّ بكلّ شيء. وهذه ذروة مقام الإنسانيّة، التي لا حدّ لها بالعرض ولا

١. **سورة الفتح**، الآية ١٠.

٢. **سورة التوبة**، الآية ١٤.

٣. **سورة البقرة**، الآية ١١٧.

تتوقّف في مجال، وهي كالجنّة التي لا نهاية لها وآية الرضوان الإلهيّ الأكبر والرحمة الإلهيّة الواسعة المطلقة التي لا حدود لها.[1]

٨. الفرق بين الخلافة والرسالة

وان كان كلّ نبيّ خليفة لله وله حظّ من الولاية الإلهيّة، لكنّ عنوان النبوّة والرسالة الذي يختص بمجالات التشريع والتبليغ ومسؤولية تعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس، يختلف عن عنوان الخلافة والولاية التي يتبادر منها إلى الأذهان جانب التكوين، ومثل هذه الخاصيّة تصاحب هذا العنوان.

ومن الواضح امكان اجتماع العناوين والصفات المذكورة في الإنسان الكامل، وكلّ صفة من الصفات المذكورة مقولة مشكّكة وتحتوي على مراتب ايضاً، وعند القياس والمقارنة يجب ان تؤخذ المرتبة العليا من كل صفة وتُعرض على المرتبة العليا من الصفة الاخرى حتى يعلم زيادة أو نقصان كل منهما عن الاخرى. وفي غير ذلك فانّ أيّ نحو من الحكم في علوّ احداهما على الاخرى يكون فاقداً لملاك التقييم الصحيح. طبعاً انّ جانب التكوين هو المصدر والأساس دائماً لجانب التشريع وهو بالنسبة له بمثابة القاعدة، اي انّ باطن الشريعة هو الولاية.

وقد انبرى بعض اهل النظر في علم معرفة الإنسان، الذي هو من اصعب ابواب المعرفة، وبعد استعراضه لأصل معرفة الله وأصل معرفة العالَم وأصل معرفة الإنسان، فقد تصدّى لتبيين الأصل الرابع وجعله

---

١. **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ١٥٠ (باللغة الفارسية).

المحور في معرفة النبي والولي، وفي هذا الأصل وبعد بيان معنى النبيّ والوليّ وذكر نظر العامّة من أهل الشريعة وتوضيح رأي الخواصّ من اهل الشريعة ونقل كلام خاصّ الخواص من أهل الشريعة وكذلك يعد بيان رأي أهل الوحدة، الأعم من العامّة والخواصّ يقول: اعلم الآن انّ النبيّ الذي وصل إلى خواص الأشياء، وحصل على المعرفة الكاملة بخواص الأشياء هو الإنسان العالم، والولي الذي وصل إلى حقائق الأشياء، وحصلت له معرفة تامّة بحقائق الأشياء هو إنسان عالم ايضاً. أمّا الذي وصل إلى خواصّ الأشياء وحصلت له معرفة كاملة بخواص الأشياء ووصل كذلك إلى الحقائق وحصل له الاطّلاع الكامل بحقائق الأشياء فهو الإنسان الكامل. وهو المرآة الحاكية عن جميع الكون وهو الاكسير الأعظم، وهو قلب العالم وهوالخليفة على وجه الأرض، والإنسان الكامل على قسمين، احدهما:يسمّى البالغ،والآخر: يُدعى بالحرّ، ولا فرق بين الحرّ والبالغ في العلم، وانّما الاختلاف بينهما في قطع العلقة والارتباط، فالبالغ يدعو الناس إلى نفسه ويريد منهم ان يتبعوه وينقادوا له، امّا الحرّ فلا يدعو الناس وليس له عمل سوى الاشراف والنظر، وليس له من صفة سوى الرضا والتسليم... واعلم انّه يجب على النبيّ ان يتبع الوليّ في حقائق الأشياء، وعلى الولي ان يتّبع النبيّ في خواصّ الأشياء، وعلى النبيّ والولي ان يتّبعا الإنسان الكامل، من حيث انّ الإنسان الكامل هو خليفة الله، والنبيّ والوليّ خليفة خليفة الله.[1]

وفي تحليل الموضوع المذكور ينبغي التأكيد على عدّة ملاحظات:

١. راجع **بيان التنزيل**، عزيز محمد النسفي، ص ٢٠٨ ـ ٢١٧.

أوّلاً: انّه لا مشاحّة ولا محذور في جعل الاصطلاح.

ثانياً: لا مانع من التحدّث عن الكشف الخاص والشهود المخصوص الذي يكون معتبراً للمشاهد فقط.

ثالثاً: طبقاً لحكومة الأسماء وحاكميّة الصفات الإلهيّة فانّ الفرد الـذي هو مظهر لاسم أعلى أو صفة فائقة يكون مطاعاً من قبل الشخص الـذي يكون مظهراً لاسم نازل أو وصف سافل في نفس المجال ونفس المحور ونفس دائرة ذلك الظهور، لا في مجالات ألوان الظهور الاخرى.

رابعاً: نتيجة لتوزيع المناصب الإلهيّة وتقسيم الشؤون والمنح الربّانيـة إذا كان شخص مجلىً للفيض الخاصّ التكـوينيّ وآخـر مجلـىً للفـيض الخاصّ التشريعيّ، فانّ الانقياد والطاعة المتبادلـة والتبعيّـة المتقابلـة بـين احدهما والآخر أمر معقول ومقبول.

طبعاً انّ الإنسان الكامل الذي هو مظهـر الاسـم الأعظـم وخليفـة الله الجامع للتكوين والتشريع، سوف يكون متمتّعاً بـصفة المـستخلَف عنـه، وامّا من هو مظهر لإسم العظيم لا الأعظم فهـو خليفـة خليفـة الله، لكـنّ الخليفة بلا فصل ليس واسطة في الثبوت، لانّ عنوان الخلافة ليس بشيء سوى ظهور الحق في مرآة الخلق.

٩. الفرق بين جعل الخلافة وعرض الأمانة

انّ بعض العناوين تحمل في داخلها صفة التعلّق والارتباط بـشيء آخـر، على نحو يكون فيه الارتباط بالغير مودعاً في جوهرها وباطنها. كما فـي عنوان الخلافة والنيابة وأمثال ذلك. فإذا ما صار شخص خليفـة لآخـر أو

نائباً عنه، فانّه يجعل نصب عينه امتثال أمر المستخلَف عنه وتحقيق رضاه، والاّ تبدّل عنوان (الاستخلاف) إلى عنوان (التفويض) أو (الاستقلال)، وتبدّل عنوان (النيابة) إلى عنوان (الأصالة)، وحيث انّ الخليفة أو النائب ليس مستقلاً في الظفر بهذه العناوين، فانّ هذه الوظائف بنفسها تكون بمثابة الأمانة؛ أي انّ الخليفة والنائب غير مستقلٍّ في دائرة الاستخلاف ونطاق النيابة، ولا يقتصر الأمر على هذا، بل انّه فاقد للاستقلال ايضاً حتّى في نيل هذه الصفات وبلوغ هذه المقامات، لانّ الإنسان أمين على هذه الصفات، وهذه المقامات ثابتة له على نحو الأمانة لا على نحو الأصالة.

ولبعض الكبار من أهل المعرفة في تفسيره لآية عرض الأمانة على السماوات والأرض: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[1] تعبير مؤدّاه انّ الأمانة تنطبق على الخلافة الإلهيّة للإنسان، لانّه قال:

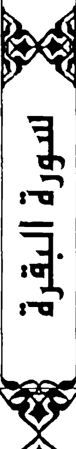
«وأيّ امانة أعظم من النيابة عن الحق في عباده، فلا يصرفهم الا بالحق، فلابدّ من الحضور الدائم ومن مراقبة التصريف على السماوات والأرض والجبال».[2]

ثمّ تحدث عن الفرق بين العرض والأمر فقال بانّ الأمر فيه لزوم الإمتثال، ولذلك عندما أمر الله السماوات والأرض بالاتيان، فقد أطاعتاه كما في قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا**

١. **سورة الأحزاب**، الآية ٧٢.

٢. **تفسير القرآن الكريم**، لابن العربي، ج ٣، ص ٤١٨.





طَائعينَ﴾،[١] ولكنّه في مسألة العرض ليس هناك حديث عن وجوب القبول، ولذلك فان امتناعها وابائها الاشفاقيّ قد تمّ قبوله بشكل ممزوج بالرأفة، ولم يكن فيه أيّ نحو من التخطئة والتوبيخ،[٢] خلافاً للامتناع الاستكباريّ الذي صدر من ابليس كما تقدّم ذكره سابقاً.

وصحيح انّ البحث التفصيليّ حول عرض الأمانة له محلّه الخاصّ به، ولا ينبغي الاستعجال بذكر مباحثه هنا، لكنّ الاشارة الاجمالبّة للفروق التفسيريّة بين الآية محل البحث وآية عرض الأمانة لا تخلو من الفائدة في الحكم على وحدة أو كثرة المقصود من هاتين الآيتين، وتلك الفروق هي عبارة عن:

١. انّ الآية محلّ البحث تتكلّم عن (الجعل) وآية عرض الأمانة تتحدث في اطار العرض، وهناك فرق بين الجعل الذي هو الاعطاء الخارجي والعرض الذي هو في مستوى الاقتراح.

٢. ليس في آية عرض الأمانة كلام عن الملائكة، لكنّ الآية محل البحث تناولت موضوع الملائكة في مباحثها من جهات متعدّدة.

٣. في آية عرض الأمانة تمّ عرض واقتراح قبول الأمانة على السماوات والأرض والجبال، وفي الآية محل البحث نرى انّ الملائكة قد عرضوا أنفسهم لقبول الخلافة، ايّ في آية عرض الأمانة يكون الله سبحانه هو الذي يقترح على السماوات والأرض والجبال قبول الأمانة وهي تأبى وتمتنع، وفي الآية محل البحث يكون الملائكة هم الذين يطرحون قبول

---

[١] سورة **فصّلت**، الآية ١١.

[٢] **رحمة من الرحمن**، ج ٣، ص ٤١٨.

الخلافة والله سبحانه يأبى ذلك، وبالطبع فانّ الامتناع الإلهيّ صادر عن الحكمة، واباء السماوات والأرض والجبال صادر عن الاشفاق.

٤. في الآية محل البحث نرى انّ العامل الأساسيّ الذي يتكفّل قبول الخلافة هو علم الإنسان بالأسماء الإلهيّة الحسنى، بينما في آية عرض الأمانة لا يوجد حديث عن العلم بالأسماء الإلهيّة الحسنى.

٥. في الآية محل البحث وهي آية الخلافة لم يوصف خليفة الله بصفات مذمومة كالظلم والجهل، بل تحدثّت آيات اخرى عن خلفاء الله بالتجليل والاحترام وانّهم اصفياء الله كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾،[١] ولكن في آية عرض الأمانة جاء نعت حامل الأمانة بصفتي (الظلوم) و(الجهول).

٦. انّ العلامة البارزة للخلافة في الآية محل البحث هي تعليم الأسماء الإلهيّة، وإنباء الملائكة بها نيابة عن الله سبحانه، في حين انّ مثل هذا المعنى لم يذكر في آية عرض الأمانة أصلاً.

وبالنتيجة فانّ الخطوط الأساسيّة للخلافة والعناصر المحوريّة للنيابة غير واضحة في ثنايا آية عرض الأمانة. وعليه فليس من السهل الحكم بوحدة مضمون الآيتين.

والأمر الجدير بالنظر والالتفات والذي ينفع الاهتمام به هو تلك الالتفاتة الرائعة التي انبرى لذكرها ذلك المفسِّر الكبير، وهي انّ بعض علماء الظواهر والصور والعلوم الحصولية اعتبروا انّ اباء وإشفاق السماوات والأرض والجبال هو بلسان الحال لا على نحو الحقيقة، كما حسبوا ان

---

١. سورة آل عمران، الآية ٣٣.

قولها في الآية الكريمة: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائعينَ﴾[1] كذلك بلسان الحال وليس خطاباً حقيقياً، في حين انّ الحمل على لسان الحال لا لسان الحقيقة ليس صحيحاً وليس هو المقصود من الآيات القرآنيّة، بل انّ الصحيح والمقصود هو نفس ظاهر الآيات، وأهل الكشف يدركون ذلك أيضاً.[2]

ولتوضيح هذه المحادثة الحقيقيّة لله سبحانه مع السماوات والأرض يقال: اوّلاً: انّها في حدّ ذاتها امر صحيح، وثانياً: انّ كون المقصود من هذه المكالمة انها حقيقيّة لا انّها كنائيّة، يعتمد على اثبات الشعور والادراك لدى السماوات والأرض والجبال. وقد تكفّلت الحكمة المتعالية بالاستدلال والبرهنة على ما اخبر القرآن الكريم عنه، والعرفان الخالص يدركه ويكتشفه، وتفصيل ذلك يحال إلى كتاب: (**الرحيق المختوم**) ويتعهّد تفسير «**تسنيم**» بتوضيح هذا المعنى ضمن بحثه في آيات تسبيح وسجود واسلام وتحميد وقول وطاعة السماوات والأرض. ونرجو ان تتحقّق هذه الآمال بلطف الله وعنايته.

١٠. دائرة خلافة الإنسان الكامل

نظراً لكون مصداق ونموذج ومثال الخليفة في الآية محل البحث هو الإنسان الكامل، وان كان اصل الخلافة المجعولة هي للحقيقة الجامعة بين مراتب كثيرة، وقد تقدّم انّ الإنسان الكامل مظهر لله سبحانه الذي هو مطلق وغير متناه في وجوده وكمالاته، اذن يتبيّن بهذا انّ دائرة ورقعة

[1] **سورة فصّلت**، الآية ١١.

[2] **رحمة من الرحمن**، ج ٣، ص ٤١٨.

خلافة الإنسان الكامل لا تتحدّد بالأرض، بل انّ الأرض هي مسكن ومقرّ وجوده الماديّ والجسمانيّ، وكلمة (في الأرض) في الآية تعني انّ مبدأ حركة الإنسان التكامليّة في قوس الصعود، هو الأرض، لا أنّ موطن خلافته ونطاق مظهريّته هو الأرض، وانّه يقوم بتنفيذ الأعمال التي يجب ان يقوم بها الله في الأرض فقط، وكما تقدّم سابقاً بيانه فانّ كلمة (الأرض) قيد للجعل، وليست قيداً للخلافة. لاسيّما مع الالتفات إلى انّ الخليفة هو الذي سجدت في مقابله ملائكة السماء، ولو كان خليفة لله في الأرض فقط، لكان الملائكة خليفة لله في السماوات، ولا مبرّر عندئذ لسجودهم للإنسان الكامل، وفي هذه الحالة فانّ الإنسان الخليفة لن يكون عارفاً أيضاً بجميع نظام الخلق.

انّ مقام الخليفة الإلهيّ هو تلك الشجرة الطيبة المسمّاة بشجرة طوبى والتي: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾[1] ولذلك فانّ ملائكة السماوات ايضاً ينتفعون من ثمار هذه الشجرة ومن علم الإنسان الكامل، وفي الحقيقة فانّ كمال اولئك الملائكة هو في الانتفاع من هذه الشجرة وفي الخضوع في مقابله.

خليفة الله هو الذي يستمدّ زاده العلميّ والعمليّ من بركة تعليم الأسماء، أمّا الذي يتغذّى من الأرض والطبيعة ويقال عنه: ﴿**وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ**﴾[2] فهو بدنه ووجوده الماديّ والعنصري.

ولذلك عندما يصف محمد ابن الحنفيّة إنساناً كاملاً مثل الإمام

---

١. سورة ابراهيم، الآية ٢٤.
٢. سورة الأنبياء، الآية ٨.

الحسين عليه السلام فانّه ينعته في البداية بثلاث ميزات فيقول: «أعلمُنا علماً، أثقلُنا حلماً (اي انّه في فضائل العقل العملي اكثرنا حلماً وأشدُّنا صبراً)، وأقربنا من رسول الله رحماً» ثمّ يضيف إلى تلك السجايا الثلاث فضيلتين اُخريين خارجتين عن اطار الزمن، الأولى هي انّه «كان فقيهاً قبل ان يُخلق» اي انّه جاء إلى الدنيا وهو يحمل معه الأسرار والعلوم الإلهيّة بحيث لم يتعلّمها من أحد، وانّما تعلم باشارة ولمح بصر بحيث أصبح معلّم مئات المدرّسين دون أن يذهب إلى مدرسة.[١] والثانية هي انّه «وقرأ الوحي قبل أن ينطق» أي انّه كان يعلم بالوحي قبل ان يتنزّل إلى الأرض ويظهر في هيئة الكلمات والحروف أو قبل ان يبلغ مرحلة القدرة على النطق، كالنبيّ عيسى عليه السلام الذي كان مطّلعاً على الوحي دون مدرسة وتعليم عن طريق السمع والبصر.[٢]

وعلى ايّ حال، فانّ المقصود من قوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ هو انّ بداية سير خليفة الله في قوس الصعود قد تمّت من الأرض، والاّ فانّ حضوره يمتدّ من الأرض إلى افق: ﴿**أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾.[٣] وهو خليفة الله في الأرض وفي السماء ايضاً، وخلافته في جميع الأسماء والشؤون، فكما هو معلّم لأهل الأرض: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾،[٤] فكذلك هو معلّم أهل السماء:

١. لانّ المقصود من الفقه ليس هو الفقه في مقابل علم الاصول، بل المقصود جميع العلوم الإلهيّة الأعمّ من الأحكام الفرعية والحِكَم الأصلية.

٢. **اصول الكافي**، ج ١؛ كتاب الحجّة، باب النصّ على الحسين بن علي عليه السلام، ص ٣٠٢.

٣. **سورة النجم**، الآية ٤٢.

٤. **سورة النحل**، الآية ٤٤.



﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾،[١] بل انّ تسبيح وتقديس الملائكة أيضاً يتمّ بتعليم خليفة الله: «سبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا»،[٢] ولو انّ الملائكة علموا بهذا ولم ينظروا إلى خليفة الله من جانبه الأرضي فقط، لما تساءلوا عن خلقه، ولما قالوا الذي قالوا، وهذا يدلّ على تعقيد خلق الإنسان من جهة، وقصور ومحدوديّة علم الملائكة من جهة اخرى.

والنتيجة هي انّ خليفة الله ليس موجوداً أرضيّاً فقط، ولا دائرة خلافته منحصرة في الأرض، وليس هو موجوداً سماويّاً فقط، بل انّ الموجود الذي هو خليفة الله هو الذي يتميّز بانّه: (الكون الجامع) الذي لديه الاحاطة التامّة بالسماء والأرض والمُلك والملكوت، ولديه جميع خزائن الأشياء ومفاتح الغيب باذن الله، وان كان وجوده الماديّ مرتبطاً بالأرض.

ولذلك وجب على الملائكة ان يسجدوا في مقابله تكريماً له، وعلى سائر الناس ان يُجلّوه ويحترموه.

وجدير بالذكر انّ ما قيل فهو يتعلّق بأعلى درجات الخلافة، أي الخليفة الكامل ومظهر جميع شؤون المستخلَف عنه (وبهذا اللحاظ اتّصف بالوحدة كما انّ المستخلَف عنه واحد، اي انّ الخليفة الكامل في كل عصر واحد، وإذا كان هناك خلفاء آخرون معاصرون له فهم منضوون تحت لواء خلافته المطلقة)، والاّ فانّ الخلافة حقيقة تشكيكيّة لها مراتب ومصاديق مختلفة، أكملها يتجلّى في الصادر أو الظاهر الأوّل، والآخرون منَ ذوي الكفاءة والصلاح هم الحاصلون

١. **سورة البقرة**، الآية ٣٣.
٢. **بحار الأنوار**، ج ٢٤، ص ٨٨؛ **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٦.



على الدرجات المتوسّطة أو النازلة من الخلافة الإلهيّة، وحيث يجب مراعاة المراتب والدرجات، فينبغي القول: انّ البعض خليفة الله بغير واسطة، والبعض خليفة بالواسطة، وانّ الخليفة بالواسطة هو خليفة خليفة الله، وليس هو خليفة الله الاّ بلحاظ الواسطة. نعم، يمكن أن ينظر إليهم جميعاً بمثابة حلقات مترابطة ومنسجمة ومتّحدة في سلسلة الخلافة الإلهيّة.

١١. الأعلى من مقام الخلافة

وان كانت الخلافة هي الكمال السامي للإنسان، لكنّ ثمّة كمالاً اعلى منها يحصل عليه الإنسان، وهو بمثابة قمة الهرم للحيّ المتألّه اي (إنسان العين) و(عين الإنسان) ومظهر الإسم الأعظم وذلك هو الاستغراق في التوحيد الخالص.

وهنا تذكر ثلاثة امور: احدها: الاختلاف الماهويّ بين الخلافة والتوحيد الشامل والجامع والمحض، والآخر: هو ترجيح وتغليب التوحيد التامّ على مقام الخلافة، والثالث: هو جمع وتبويب الآراء المذكورة في الترجيح والحكم فيما بينها.

أمّا الأمر الأوّل في تبيين الاختلاف بين التوحيد الخالص والخلافة، فعلى أساس الشكل الثاني من الأشكال الأربعة في المنطق يمكن ان يقال هكذا: انّ الموحّد المحض يقطع جميع النسب والاضافات لغير الله، اي انّه لا ينظر أبداً إلى ذواتها وصفاتها، ناهيك عن الالتفات إلى الحاجات وتحمّل ثقل مسؤوليّة توفير ما يؤمّن

تلك الحاجات وما شابه ذلك، لكنّ الخليفة مأمور بالالتفات إلى الأغيار والحاجات وكيفيّة اشباعها، وان يتحمّل مسؤولية جميع تلك الأثقال. اذن فالموحّد المحض لا يكون خليفة، والخليفة أيضاً ليس هو الموحّد الخالص.

وخلاصة القول هي انّ الموحِّد الخالص غارق في شهود الوحدة المحضة، ولا ينظر ابداً إلى ذاته ولا حتّى إلى توحيده وشهوده الوحداني ناهيك عن النظر إلى الغير، ولكنّ الخليفة يجب ان ينظر إلى ذاته وإلى خلافته ومسؤوليّته، ويراعي شؤون الذين استخلف عليهم ومشاكلهم، وينظر في كيفيّة ادارتها وعلاجها، ومثل هذا الشهود والنظر المتكثّر لا ينسجم مع الاستغراق في الوحدة، والغريق في بحر الوحدة لا يتمكّن من شهود الكثرة ولا يقوى على النظر المتكثّر.

امّا حول الأمر الثاني وهو ترجيح التوحيد التامّ على مقام الخلافة فيقال: انّه لا مفرّ للخليفة من أن يثبت شيئاً ليس له شأنيّة الثبوت، لكنّ الموحّد الخالص غير مكلّف بذلك، بل هو مستغرق في الشهود للثابت المحض. وبناءً عليه فانّ شأنيّة مقام التوحيد أتمّ وأكمل من مقام الخلافة. وقد ذكروا للتوحيد التامّ علامة، فاختار البعض السكوت وعدم التفوّه بشيء عند تصدّيه لبيان تلك العلامة وقال: انّه لا يوجد في مقابل التوحيد المحض شيء سوى العدم. والبعض تحدّث في توضيح تلك العلامة فقال: انّ المتحقّق في التوحيد الخالص لا يعرف شيئاً سوى الله الواحد المحض، ولا يريد شيئاً ولا يقدر على شيء. فعلامة الإنسان المتحقّق بالتوحيد الخالص هي فقدان العلم والارادة والقدرة بالنسبة إلى



غير الله الواحد الأحد، لانّ التوحيد التامّ قام بتجميد واخماد جميع ما لديه من القوى العلميّة والعمليّة وجعلها راكدة[1].

امّا الأمر الثالث وهو الحكم وتقييم الآراء التي تذكر في الترجيح بين مقام التوحيد التامّ والخلافة، فيجب الالتفات إلى انّ بعض انحاء الشهود المتكثّر وان كانت لا تنسجم مع التوحيد الخالص، لكنّه ينسجم مع الشهود الموحّد لآيات الله، والنظر إلى الأشياء والاشخاص بما انّها آيات، والذي يتمّ في السفر الرابع للإنسان الكامل الذي يُدعى بـ(المختصر الشريف) و(الكون الجامع). ومن الممكن ان يُعدّ الاستغراق في التوحيد وعدم الالتفات إلى غير الله كمالاً سامياً لدى المَلَك الذي هو فقط مظهر لجلال الله ومتمتّع بالأسماء التنزيهيّة الإلهيّة، بحيث يجعله ذلك في زمرة (العالين) المنفصلين والغافلين عن خلق آدم والعالم، لكنّ مثل هذا المقام لا يعدّ قمّة الهرم في الكمال بالنسبة إلى الكون الجامع الذي هو خليفة الله ومظهر الجمال والجلال والتشبيه والتنزيه الإلهي والذي هو آية المستخلَف عنه في انّه (لا يشغله شيءٌ عن شيء)[2] (ولا شأن عن شأن)[3]. كما انّه ليس منافياً للتحقّق بالتوحيد الخالص أيضاً.

وكما انّ الله المستخلِف في نفس حال شهوده التامّ لوحدته المطلقة التي لا حدّ لها، له الاشراف الكامل على جميع ما سواه وبنحو لا تعزب عن علمه المطلق ذرّة في الأرض ولا في السماء،

١. **كشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجلّيات**، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١، مع التحرير والاضافة.
٢. **بحار الأنوار**، ج ٩٤، ص ٢٥١ وج ٨٧، ص ١٥٤، **المدد القوية**، ص ٢٠٥.
٣. **مصباح المتهجّد**، ص ٥٠٣؛ **بحار الأنوار**، ج ٨٧، ص ١٥٤.

كذلك خليفته الكامل ايضاً، لانّ الخلافة الكاملة تقتضي وجود أمرين: أحدهما: ما تقدّم في الكلام المذكور وهو لزوم التفات الخليفة إلى شؤون المستخلَف عليهم، والآخر: هو الملاحظة الرائعة التي لم تذكر ولم يلتفت إليها، وهي انّ هذا الشهود للأشياء بما هي آية لا يخالف ولا يتنافى مع التوحيد، كما انّ توحيد الله أتمّ من جميع أنحاء وأنواع التوحيد.

توحيده إيّاه توحيده ونعت من ينعته لاحد[1]

لكنّه مقترن مع شهود ما عداه.

١٢. الشؤون والبركات الوجوديّة لخليفة الله

انّ عدم الاعلان المسبق من قِبَل الله سبحانه للملائكة حول أيٍّ مخلوق آخر، وعدم طرح الموضوع معهم في قضايا مثل خلق العرش أو السماء أو الأرض، الاّ في قضيّة خلق الإنسان الذي يعتبر آدم عليه السلام مصداقه الكامل حيث قال فيه: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، لهو دليل على انّ هذا الموجود يحظى بميزة خاصّة لا تتمتع بها سائر الموجودات الامكانية، كما انّ التعبير بـ(جاعل) بدلاً من «خالق» ليس خالياً من اللطف، لانّ مادّة الجعل (إذا لم تكن بمعنى التصيير) تستعمل غالباً في الأمور الابداعيّة[2] وهي ألطف من مادّة الخلق وفيها اشارة إلى انّ الابداع والمهارة التي

١. **التجلّيات الإلهيّة**، ص ١٥٠؛ **الرحيق المختوم**، القسم الخامس من ج ٢، ص ١٢٧ (باللغة الفارسية).

٢. راجع **تفسير القرآن الكريم**، صدر المتألهين، ج ٢، ص ٣٠٠.



استخدمها ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] في هذا الموجود تختلف عن خلق سائر الموجودات.

ويمكن ان يكون في التعبير بقوله: (خليفةً) بدلاً عن قوله: (إنساناً) اشارة إلى انّ الإنسان ليس فقط موجوداً أرضيّاً ومركّباً من الروح والبدن، وانّ الملاحظ في خلافته ليس فقط كونه خارجاً عن دائرة قول المتفكّرين المادّيين الذين يرون كل موجود منحصراً في المادّة، بل هو أوسع وارفع أيضاً من دائرة نظر المتفكّرين الالهيّين الذين يرون أنّ الإنسان مركّب من البدن والروح المجرّدة، لأنّه طبقاً لهذا الرأي فانّ الإنسان كما لا تنحصر حقيقته في البدن وانّما له مرتبة أعلى من البدن تُدعى بالروح المجرّدة، كذلك فانّه لا تتوقّف حقيقته في هذه الدرجة، بل له مرتبة أعلى من الروح المجرّدة وهي حاضرة في الخزائن الإلهيّة واللوح والكرسيّ والعرش وفي مقام (عند الله) و(لقاء الله)، وفي الحقيقة هناك ما هو أوسع وأعلى من (الأنا) بمعنى الروح التي تسيطر على البدن، وهي (أنا) اخرى توجد عند وليّ الله وخليفة الله حيث تسيطر على روحه.

فوليّ الله حاضر في جميع العوالم بدءاً من عالم المادّة وانتهاءً بجنّة اللقاء، فهو من جهة يقول (انا الذي أتحرّك في الأرض وآكل وأنام)، ومن جهة اخرى يقول (انا الذي ادرك وافكّر)، ومن جهة ثالثة يقول: «**ما كنت أعبد ربّاً لم اره**»[2] ويقول: «... **فَلأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الأَرْضِ**».[3]

---

[1] **سورة البقرة**، الآية ١١٧.

[2] **التوحيد للصدوق**، باب ما جاء في الرؤية، ص ١٠٩، ح ٦.

[3] **نهج البلاغة**، الخطبة ١٨٩، المقطع ٥.

انّ «أنا» في قوله: (لم أره) وفي قوله: (فلأنا) هي «الأنا» العالية التي فوق «الأنا» المجرّدة التي تذكر في الحكمة والفلسفة. وهي تلك الحقيقة التي يعنيها بقوله ﷺ: **«ما لله آية اكبر منّي»**[1] والتي لها طرفان: أحدهما: في الأرض، والآخر: متّصل بالمجال الذي بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾،[2] فهو من جهة: ﴿**يأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾،[3] ومن جهة اخرى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾.[4] فهو من جهة بشر مصنوع من طين: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ**﴾[5] ومنتسب إلى التراب، ومن جهة اخرى هو من روح الله وينتسب إلى الله، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...**﴾.[6] فكما ينعم بجنّة اللقاء، كذلك هو حاضر في عالم التجرّد العقليّ والمثالي؛ وهو موجود أيضاً في نشأة الناسوت والطبيعة. وهو بواسطة تعليم الله له وفي ظلّ علمه بأسماء الله يكون ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وعن طريقه وبواسطة مظهريّته يتمكّن الإنسان من معرفة الله العليم المطلق.

انّه ليس أكبر من السماوات فحسب، بل هو أكبر من كلّ موجود امكانيّ حتى المَلَك واللوح والقلم أيضاً. وكما هو أهل التسبيح

١. **بحار الأنوار**، ج ٢٣، ص ٢٠٦؛ **تفسير القمي**، ج ١، ص ٣٠٩.
٢. **سورة الفجر**، الآيتان ٢٩ ـ ٣٠.
٣. **سورة الفرقان**، الآية ٧.
٤. **سورة النجم**، الآيتان ٨ ـ ٩.
٥. **سورة ص**، الآية ٧١.
٦. **سورة ص**، الآية ٧٢.

والتقديس فكذلك هو أهل التحميد والتكبير، اي انّه كما يتمتّع بالصفات التشبيهيّة كذلك يتمتّع بالصفات التنزيهيّة. وهو في الدنيا والآخرة ميزان الأعمال: «هم الموازين القسط».[١] فكلّ عمل مطابق لعمله فهو حقّ، وكلّ عمل يخالف عمله فهو باطل. وحيث انّه الصادر الأول وأول فيض لله سبحانه فهو واسطة نزول البركات الإلهيّة إلى عالم الطبيعة. حتّى في الفيض الظاهريّ الذي يصل إلى وجوده المادي فانّ حقيقته وباطنه هو الواسطة، أي انّ باطنه يتجلّى لظاهره، والفيض الإلهيّ يصل من باطنه إلى الملائكة، وعن طريق الملائكة يصل إلى عامّة الناس ومن جملتهم يصل إلى الوجود الماديّ لوليّ الله نفسه، وبالنتيجة فليس للملائكة دور تعليميّ بالنسبة إلى مقامه الشامخ الذي هو التعيّن الأول، بل هم في هذه المرتبة السامية العالية في عداد الخَدَم للإنسان الكامل ولا تكون الملائكة مجاري ووسائط فيض للإنسان الكامل الاّ في مراتبه النازلة فقط.[٢]

انّ خليفة الله هو المدير المسؤول للجهاز المسيطر على نظام الوجود الامكانيّ، ولأجل ذلك فهو:

أوّلاً: انّ له الاحاطة والمعرفة بجزئيّات وخصائص الأشياء الماديّة ويستطيع اخراج ما فيها من فوائد ومنافع من القوّة إلى الفعل، وعن هذا الطريق يوجد الصناعات ويخترع الأجهزة والأدوات. وعليه فانّه يمكن ان يكون الكثير من الفنون الصناعيّة والاختراعات والاكتشافات كالعلوم والقوانين قد تمّت على يد الأنبياء أو بارشاد منهم.

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٦٨، ص ٢٢٦؛ **معاني الأخبار**، ص ٣١ ـ ٣٢.
٢. لتكميل هذه الاشارة راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٢١٤، من الترجمة العربية.

ثانياً: انّه يتكفّل بالهداية التكوينيّة لجميع الوجود الامكاني (الأعمّ من المجرّد والمادّي) ويقود جميع الموجودات باذن الله، لانّه مظهر جميع الأسماء الحسنى وصفات جمال وجلال الله. فهو «يد الله» و«عين الله» و«اذن الله» وغيرها. وانّ فتح الأمور وختمها وفتقها ورتقها بيده باذن الله ومن دون تفويض. بهداية منه يهطل المطر ويمسك السماء وما فيها من شهب وصخور كي لا تقع على الأرض. وبنظره ورعايته يزول الغمّ والهمّ وينكشف الكرب والبلاء: «بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزّل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض الاّ باذنه وبكم ينفّس الهمّ ويكشف الضرّ».[١] وبواسطته تنمو النباتات وتثمر الأشجار: «وبكم تنبت الأرض أشجارها وبكم تخرج الأرض ثمارها».[٢] وعن طريقه يتمّ المحو والاثبات من قبل الله: «وبكم يمحو الله ما يشاء ويثبت».[٣] وبعبارة واحدة: انّ ارادة الله في جميع المقدّرات تنزل اليه وتصدر منه: «ارادة الربّ في مقادير اموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم».[٤]

ثالثاً: انّه يتكفّل بالهداية التشريعيّة للناس من ارشاد وموعظة، وتفصيل

---

١. **الزيارة الجامعة.**

٢. **الزيارة الأولى** من الزيارات السبع المطلقة للإمام الحسين عليه السلام؛ **كامل الزيارات،** الباب ٧٩، ص ٣٦٥.

٣. **الزيارة الأولى** من الزيارات السبع المطلقة للإمام الحسين عليه السلام؛ **كامل الزيارات،** الباب ٧٩، ص ٣٦٥؛ **بحار الأنوار،** ج ٩٨، ص ١٥٣.

٤. **الزيارة الأولى** من الزيارات السبع المطلقة للإمام الحسين عليه السلام؛ **كامل الزيارات،** الباب ٧٩، ص ٣٦٩.

وبيان للحلال والحرام وتنفيذ للحدود الإلهيّة وحماية لثغور الدين، وبكلمة واحدة فانّ اقامة حكومة السماء العادلة تكون على عاتقه أيضاً.

لذلك فانّ سلمان الذي قيل في حقه «سلمان منّا أهل البيت»[1] والذي كان يتغذّى من مأدبة ومائدة النبوّة والإمامة، كان ذات يوم في مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله في مجلس ضمّ عمر وكعب الأحبار وطلحة والزبير فأجاب سلمان على سؤال عمر حول الاختلاف بين الخليفة والمَلك، وقال موضحاً جانب الهداية التشريعيّة لمقام الخلافة الرفيع: «الخليفة هو الذي يعدل بالرعيّة ويقسم بالسويّة ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ويقضي بكتاب الله» ويبلغ أوامر الله ونواهيه إلى خلقه دون زيادة أو نقصان، وأمّا المَلك فانّ عمله أعمّ من ذلك. فأعجب كلام سلمان كعب الأحبار فقال: انّ (سلمان مُلىء حكماً وعلماً). فقال عمر: يا سلمان هل انّني مَلك أم خليفة؟ فأجابه سلمان انّك إذا أنفقت طول عمرك درهماً واحداً أو ما دونه في غير موضعه فأنت مَلك ولست خليفة، فاستحى عمر وبكى.[2]

وهذه القصّة وان كانت تتعلّق بالخلافة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، لكن من حيث انّ خليفة النبيّ خليفة الله أيضاً (ولذلك ذكر في الرواية التي سيأتي ذكرها انّ خلافة عليّ عليه السلام في عَرض خلافة آدم وداود) فهي مناسبة جدّاً لبحثنا هذا.

وبهذا المعنى ايضاً فانّ الخضر عليه السلام يرى انّ للخلفاء الأربعة مفهوماً

---

١. **بحار الأنوار**، ج ١٧، ص ١٧٠؛ **الاختصاص**، ص ٢٤١؛ **الاقبال**، ص ٦٣٧.

٢. **تفسير منهج الصادقين**، ج ١، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

متميّزاً ومصاديق خاصّة بحيث انّه يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام ويقول: «السلام عليك يا رابع الخلفاء ورحمة الله وبركاته» وفي توضيح ذلك يذكر آدم وهارون وداود والإمام علي عليه السلام بالترتيب ويقول: انّهم يُعدّون من الخلفاء في كتاب الله، ويتلو بحقّ كلّ واحد منهم الآية المتعلّقة به.

وحول هذا جاء في الرواية عن امير المؤمنين عليه السلام: «بينما أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وآله في بعض طرقات المدينة، إذ لقينا شيخ طوال كثّ اللحية، بعيد ما بين المنكبين، فسلّم على النبي صلى الله عليه وآله ورحبّ به ثمّ التفت إليّ فقال: السلام عليك يا رابع الخلفاء ورحمة الله وبركاته... فأنت رابع الخلفاء كما سلّم عليك الشيخ، أوَ لا تدري من هو؟ قلت: لا، قال: ذاك أخوك الخضر، فاعلم».[1]

فمن الحقّ ان يقال: انّ الخليفة الكامل لله ورسول الله يجب أن يكون (مَظهر العجائب) و(مُظهِر الغرائب) وخلاصة العوالم الجسمانيّة والروحانيّة وجامع الحقائق العلوية والسفليّة والأعلى من جميع الأداني والأقاصي، ومن لم يجمع هذه الصفات فليس كفؤاً لخلافة الله والرسول، ولذلك فانّ نصب الخليفة والنبيّ يكون بجعل من قِبَل الله سبحانه: كما أعلن في خلافة الإنسان وقال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ...**﴾ وفي حقّ داود قال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً...**﴾[2] وفي حقّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ...**﴾[3] و: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ...**﴾،[4] وحول آخر خليفة كامل، أي صاحب

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٤٨؛ **عيون أخبار الرضا**، ج ٢، ص ١٢.
٢. **سورة ص**، الآية ٢٦.
٣. **سورة المائدة**، الآية ٥٥.
٤. **سورة المائدة**، الآية ٦٧.

الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف قال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ﴾،[1] وكذلك كل إمام من الائمّة المعصومين عليهم السلام قد عيّن احدهم الآخر بتبليغ من الرسول صلى الله عليه وآله.[2]

١٣. السرّ في نصب الخليفة

لماذا جعل الله له خليفة لأجل اعمار الأرض وتدبير امور الناس وتكميل النفوس وغير ذلك من الأهداف، ولم يقم هو بنفسه مباشرة بهذا الدور؟

قال بعض المفسّرين في الجواب على هذا السؤال: انّ السبب في جعل الخليفة وتعيين الواسطة، هو قصور الناس وعدم اكتمال استعدادهم لتلقّي الفيض بنحو مباشر.[3] ولأجل هذا السبب ايضاً كانت الواسطة اي الرسول بشراً ولم يكن ملكاً، ولو كان النبيّ ملكاً لظهر في هيئة إنسان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾،[4] وهذه الوساطة العقليّة شبيهة بالوساطة الحسيّة للغضروف بين اللحم والعظم، لانّ العظم لا يستطيع جذب الغذاء بنحو مباشر.

وطبقاً لهذه الملاحظة فحتى الأنبياء ايضاً مختلفون فيما بينهم في تلقي الوحي، اي لأنّ قدراتهم وقابليّاتهم مختلفة، فلا يتيسّر لهم جميعاً ان يكونوا في ايّ وقت مثل الكليم موسى عليه السلام في الميقات ومثل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في المعراج، حيث يتكلّمون مع الله بغير واسطة، بل انّ منهم

---

[1] سورة النور، الآية ٥٥.

[2] تفسير منهج الصادقين، ج ١، ص ٢٢١ وراجع هذا الكتاب أيضاً (تفسير تسنيم، ج ٣) الإشارة ١٩ و٢١.

[3] تفسير منهج الصادقين، ج ١، ص ٢١٩.

[4] سورة الأنعام، الآية ٩.

من يتلقى الوحي عن طريق الرؤيا أو الالهام ومنهم من يتلقّاه عن طريق نزول الملك، وحتى الكليم موسى نفسه ونبيّ الإسلام الأكرم ايضاً في كثير من الموارد أو اكثرها يتلقّيان الوحي عن طريق نزول الملك[1].

ونصب الخليفة يكون تارة بسبب قصور الفاعل، واخرى لأجل قصور القابل، والقسم الأوّل يُتصوّر في حالة كون المستخلَف عنه ـ بسبب الغياب أو العجز أو الضعف ـ لا يستطيع القيام بوظائفه، وهذه الحالة لا يمكن تصوّرها ولا معنى لها بالنسبة لله سبحانه الذي هو دائم الحضور و﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**﴾[2] و﴿**عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[3] والذي لا يُتصوّر ان يعتريه أيّ نحو من العجز والضعف. فالذي يمكن تصوّره بالنسبة إلى الله هو القسم الثاني، أي قصور القابل. وتوضيح ذلك: انّ فيض الله سبحانه وان كان متواصلاً ومستمرّاً لجميع الموجودات، لكنّ غالبيّتها ولاسيّما الموجودات الأرضية غير قادرة على تلقّي الفيض والأحكام والعلوم والمعارف الإلهيّة بغير واسطة، بل هي محتاجة إلى واسطة تعرف لغتها ويمكنهم الارتباط بها ويشعرون بحضورها فيما بينهم بنحو محسوس وملموس.

١٤. عدم امكان انفصال الخلافة عن الإنسان الكامل

انّ لباس خلافة الله سبحانه قد فُصّل وخيط بحيث يناسب القوام المعتدل للكون الجامع والإنسان الكامل بحيث لم يتخلّ عنه وهو في

---

١. **تفسير منهج الصادقين**، ج ١، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

٢. **سورة فصّلت**، الآية ٥٤.

٣. **سورة الحج**، الآية ١٧.

قمّة الإنسانيّة عندما سجدت له الملائكة، ولم ينفصل عنه وهو في حضيض الهبوط إلى مهبط الأرض، وذلك لانّ الخلافة الإلهيّة تكوّن تمام هويّة الإنسان الكامل، والشيء المقوّم لهويّة الإنسان لا ينفكّ عنه الاّ في فرض زوال هويّته الذي يحصل فقط بواسطة الحركة الجوهرية والتغيّر الباطنيّ فيما وراء الإنسانيّة بحيث يسقط الموجود نحو الوحشية والبهيميّة والشيطنة، كالأفراد الذين تصبح فطرتهم مدسوسة وعقلهم مغلوباً وقلبهم مقلوباً وتغدو رغباتهم اميراً عليهم وتُمسي اهواؤهم معبوداً لهم. وفي هذه الحالة ستكون القضيّة من باب السالبة بانتفاء الموضوع، فتنتفي حتّى الخلافة الجزئيّة من مثل هذا المصلوب في مشنقة الشيطان، وهو خارج عن دائرة البحث.

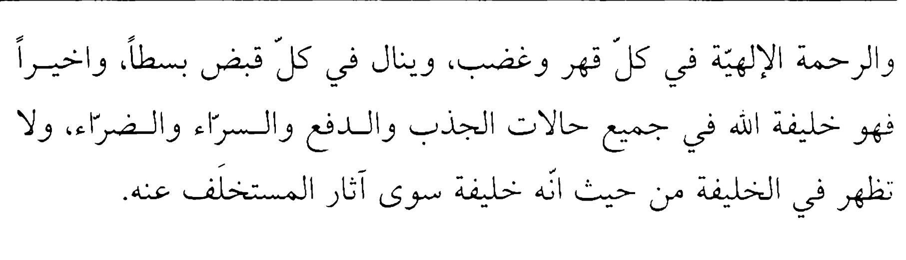
وعليه فانّ آدم (الإنسان الكامل) عندما بلغ القمّة في سجود الملائكة له، ونال ذروة العلم بالأسماء الالهيّة الحسنى وصار في الأوج عند قيامه بانباء الملائكة وتعليمهم لم يكن يملك شيئاً من نفسه، لانّ جميع صفاته العلميّة والعمليّة كانت بهذا اللحاظ وبعنوان كونه خليفة الله، والخليفة من حيث انّه خليفة لا يملك شيئاً سوى انّه يعكس كمال وجمال المستخلَف عنه، وعندما أُمِر بالهبوط إلى الأرض وصار جاراً وأنيساً لأهل الأرض والتراب لم يُظهر شيئاً آخر سوى نزول وهطول الفيض الإلهيّ الخاصّ، لانّ الله سبحانه يتّصف بالعلوّ والدنوّ في حال واحد فهو «في علوه دانٍ وفي دنوّه عالٍ»،[1] وحضوره في ايّ مرتبة وعالم ونشأة لا يؤدّي إلى غيابه عن المراتب والعوالم والنشآت الاخرى، وظهوره في أيّ

[1] **بحار الأنوار**، ج ٩٥، ص ٣٧٩؛ **اقبال الأعمال**، ص ١٢٠.

مرحلة لا يكون سبباً لخفائه عن المراحل الاخرى، وان كان بلحاظ صاحب النظر أو صاحب البصر هناك حضور وغياب أو ظهور وخفاء. وخليفته التامّ ايضاً في علوّ تعليم الأسماء والسجود وفي دنوّ الهبوط والأرضية، يكون آية في علوّ ودنوّ الأسماء الالهيّة. ولذلك فهو خليفة لله في أعلى فضاء التجرّد وما وراء الطبيعة، لأجل تعليم الملائكة، كما انّه خليفة الله في أغوار ووديان التجسّم والطبيعة، لأجل تعليم الكتاب والحكمة وتزكية نفوس أهل الأرض. وانّ ذلك العهد الفاخر الذي جرى فيه تعليم الملائكة ليظهر دائماً في ذاكرة معلّم ومربّي المجتمع الأرضيّ، لانّه خليفة لله الذي (لا يشغله شيء عن شيء)[1] و(لا يشغله شأن عن شأن)[2] وانّه جدير بأن يكون واسطة العقد بين الغيب والشهود.

وعليه فانّ آدم (الإنسان الكامل) لم تُخلع منه كسوة الخلافة ابداً. وهو وان نزع بعض ثيابه الاّ انّه لم يفقد حُلَّة الخلافة، لانّ الكاسي والعاري وجهان من حقيقة مشكّكة واحدة، ولذلك فانّه كما كان خليفة لله عندما ارتدى حُلّة الاجتباء: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ**﴾[3] كذلك عندما أمسك بعصا المعصية: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[4] فانّه كانت الخلافة تحمله. ولم تكن الفترة والفجوة التي حدثت بتناول الشجرة الممنوعة سبباً في حدوث فطور في سماء الخلافة ابداً، لانّ من صار مظهراً للأسماء الإلهيّة في ظلّ العلم بها فانّه يتلقّى جمال الله في كلّ جلال، وهو يدرك الرأفة

١. **بحار الأنوار**، ج ٩٤، ص ٢٥١؛ **المدد القوية**، ص ٢٠٥.
٢. **مصباح المتهجّد**، ص ٥٠٣؛ **بحار الأنوار**، ج ٨٧، ص ١٥٤.
٣. **سورة طه**، الآية ١٢٢.
٤. **سورة طه**، الآية ١٢١.



والرحمة الإلهيّة في كلّ قهر وغضب، وينال في كلّ قبض بسطاً، واخيراً فهو خليفة الله في جميع حالات الجذب والدفع والسرّاء والضرّاء، ولا تظهر في الخليفة من حيث انّه خليفة سوى آثار المستخلَف عنه.

١٥. الخلافة الإلهيّة والخلافة الشيطانيّة

على الرغم من انّ فطرة الإنسان تسوقه نحو الخلافة الإلهيّة الا انّ طبيعة النزوع إلى الحس وحب الراحة والرفاهية تجعله يتهرّب ويبتعد عن جهة خلافة الله ويميل نحو جهة خلافة الشيطان. فإذا ما تزيّن بالحقّ والصدق والصلاح بطاعته أوامر العقل والوحي، فانّه ينال مقام خليفة الله، وإذا ما تبع وسوسة ابليس واغواءه فتلوّث وتدنّس بالباطل والكذب والقبيح فانّه يتسافل إلى مقام حقير ذليل ليمسي خليفة الشيطان.

ويصنّف القرآن الكريم هاتين الطائفتين إلى ﴿**حِزْبَ اللّه**﴾ و﴿**حِزْبُ الشَّيْطَانِ**﴾.[1] وكما انّ خليفة الله يبلغ قرب النوافل في ظلّ العناية الإلهيّة، ويتكفّل الله سبحانه ـ في مقام الفعل ـ نشاط اعضائه وقواه الادراكيّة والتحريكيّة، فيظهر مثلاً في قوّته الباصرة فهو ينظر بعين الهيّة وهكذا...، وخليفة ابليس ايضاً بسبب غبار الغواية وظلمات الوسوسة يتقرّب إليه ويدنو منه بحيث يتكفّل ابليس بجميع مظاهره العلميّة والعمليّة.

ويمكن ان نرى مثالاً لهذا الاستخلاف الكاذب والخلافة الباطلة في حديث نوراني لواحد من أعظم الخلفاء الإلهيّين ألا وهو أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب عليه السلام حيث يقول: «**اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لأَمْرِهِمْ مِلاكاً وَ**

١. **سورة المجادلة**، الآيتان ١٩ و٢٢.

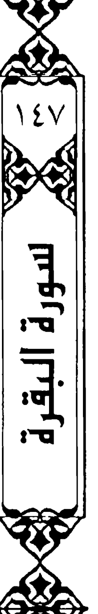
اتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً فَبَاضَ وَ فَرَّخَ فِي صُدُورِهِمْ وَ دَبَّ وَ دَرَجَ فِي حُجُورِهِمْ فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ وَ نَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَلَ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ فِعْلَ مَنْ قَدْ شَرِكَهُ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ وَ نَطَقَ بِالْبَاطِلِ عَلَى لِسَانِهِ».[1]

وخلاصة هذا الكلام العَلويّ هو تسلّل ابليس إلى حريم القلب بحيث يبني العُشّ فيه ويقوم بالتكاثر الحرام والقاء البيوض فيه وتربيتها لتفقس فراخاً شيطانيّة في قلوب المغرورين والمخدوعين فتُمكّن ابليس من امتطائهم واستعبادهم والاستبداد بهم حتى يصبح هؤلاء عين الشيطان ولسانه فيقوم ابليس بالنظر بأعينهم والتكلّم بألسنة المغرورين، وهذه هي الاستنابة، التي معناها ان يقوم الشخص بأعماله بالتسبيب، وبالنحو الذي يكون فيه ابليس احياناً عين واُذن ولسان الإنسان المفسد بحيث انّه يبصر ويسمع ويتكلّم بوسائل الشيطان، وتارة تكون القوى الادراكيّة والتحريكيّة للفاسق تحت تصرّف ابليس كي يقوم عن طريقها ببثّ ما لديه من أقاويل كاذبة وباطلة وقبيحة إلى اتباعه ومستمعيه. وفي الحالين فانّ مثل هذا المفسد المبتلى بالبطلان والكذب والقبح قد تدنّس بخلافة ابليس، وتبلور جميع ما لديه من جزم علميّ وعزم عمليّ طبقاً لفكر وهدف المستخلَف عنه أي الشيطان ﴿**كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾.[2] وكما انّ الخلافة الالهيّة شجرة طوبى تؤتي ثمراً طيّباً، فانّ الخلافة الشيطانيّة شجرة خبيثة تنتج ثمراً خبيثاً، لانّ خبث الثمار نتيجة حتميّة لخبث الشجر، كما انّ طيب الثمرة نتيجة قطعيّة لطهارة الشجرة.

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ٧، المقطع ١ ـ ٢.

٢. **سورة الاسراء**، الآية ٨٤.



وعندما يأتي فرد متهوّر فيوجّه إلى الإمام عليّ ابن ابي طالب عليه السلام سؤالاً غير مناسب فانّه يجيبه عليه السلام فيقول: «...لا تَعُدْ لمثْلهَا فَإنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ»،[1] اي انّ المتكلّم بهذا الكلام الباطل هو الشيطان ولكنّه تحدّث بلسانك، وهذا العمل التسبيبيّ يرجع إلى استخلاف واستنابة الشيطان، لانّ النيابة والخلافة تحصل تارة بأن يكون الشيطان مجرى واداةً وواسطة لعمل المفسد، واخرى بان يكون المفسد طريقاً لتحقيق اهداف ابليس، والتغاير في العنوان والاختلاف في التعبير لا دخل له في اصل المعنى، وإذا كان القرآن الكريم قد وصف بعض الغاوين والمنحرفين بأنّهم: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ﴾[2] فلعلّ ذلك بسبب انّ الارتباط الخاص بين الخليفة والمستخلَف عنه يجعله ينسب إلى المستخلَف عنه. أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا وجعل خاتمة امورنا خيراً يرضاه ويُرضي خلفاءه.

١٦. طريق الخلافة عن المعصومين عليهم السلام

انّ درجات كمال الإنسان الكامل ومقاماته من ناحية الموهبة والكسب ليست متساوية، لانّ بعضها يحصل فقط عن طريق الموهبة الإلهيّة ولا يأتي عن طريق الاكتساب ابداً كالنبوّة التشريعيّة والرسالة والإمامة حسب قوله تعالى: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3] الذي يدلّ على انّ بلوغ

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٣، المقطع ٢٩.
٢. **سورة الأنعام**، الآية ١١٢.
٣. **سورة الأنعام**، الآية ١٢٤.

هذا المقام التشريعيّ غير ممكن إلاّ بالموهبة الإلهيّة، ولا أحد يقوى على كسب هذا المقام عن طريق تحصيل العلم وتهذيب النفس. وبعضها فضلاً عن حصوله بالموهبة الإلهيّة، فانّه يأتي ايضاً عن طريق التحصيل والكسب الاختياريّ. ويعتمد هذا النحو من الكمال الاكتسابي في شدّته وضعفه على مقدار العمل الصالح ودرجة الاخلاص فيه أي بانضمام الحُسن الفعليّ إلى الحُسن الفاعلي.

والخلافة عن المعصومين وبلوغ الأفراد الصالحين درجة المظهريّة لظهور انواع كمال تلك الذوات المقدّسة هي من سنخ الكمالات الكسبيّة، أي انّه يمكن عن طريق تحصيل العلوم الإلهيّة التي تلقّاها اولئك الطيّبون الأطهار من الله وعملوا بها وقاموا بتعليمها وتبليغها، وبواسطة تذكية العقل النظريّ وتزكية العقل العمليّ والتضحية بالنفس بما يتناسب مع مستواه، أن يكون الإنسان نائباً وخليفة عن تلك الذوات المقدّسة فينشر ويبلّغ - نيابة عنهم - شؤونهم العلميّة والعمليّة في ظلّ الجهاد الأصغر والأوسط والأكبر وفي ضوء الفقه والاجتهاد الأصغر والأوسط والأكبر.

ان الطرق الابتدائية والتمارين الخفيفة والقصيرة فيها تبدأ من النيابة عن تلك الذوات النورانيّة في العبادات والأعمال القربيّة التي يشترط فيها أوّلاً: صحّتها، ثانياً: كونها قابلة للنيابة عنهم، وثالثاً: ثبوت صحّة النيابة فيها عن المعصومين عليهم السلام، وبعد ذلك تظهر صبغة وآثار الخلافة عنهم تدريجياً، فيجد الإنسان المتحلّي بالتقوى والمتخلّي عن الهوى والمتّصف بالعلم والعدل، نفسه نائباً عنهم. ومن الممكن أن يبدأ السالك

المشتاق إلى النيابة - لأجل بلوغ المقام الشامخ لخلافة المعصوم - من اهداء الثواب، لا النيابة، وبعد مدّة ينتقل من اهداء الثواب إلى النيابة ويستمرّ في التقدّم على هذا المنوال.

ويمكن ان نرى مثالاً على هذا التمرين العمليّ في النيابة عن المعصومين عليهم السلام في طواف الكعبة. فقد روى علي بن مهزيار عن موسى بن القاسم انه قال:- قلت لابي جعفر الثاني (الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام): «**قد اردت أن اطوف عنك وعن ابيك، فقيل لي: انّ الأوصياء لا يطاف عنهم، فقال: بلى، طف ما امكنك، فانّ ذلك جائز. ثمّ قلت له بعد ذلك بثلاث سنين: انّي كنت استأذنتك في الطواف عنك وعن ابيك، فأذنت لي في ذلك فطفت عنكما ما شاء الله، ثمّ وقع في قلبي شيء فعملت به، قال: وما هو؟ قلت: طفت يوماً عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال ثلاث مرات: صلّى الله على رسول الله، ثمّ اليوم الثاني عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ طفت اليوم الثالث عن الحسن عليه السلام، ثم طفت اليوم الرابع عن الحسين عليه السلام، والخامس عن علي بن الحسين•، واليوم السادس عن ابي جعفر محمد بن علي عليه السلام، واليوم السابع عن جعفر بن محمد•، واليوم الثامن عن ابيك موسى عليه السلام، واليوم التاسع عن ابيك علي عليه السلام، واليوم العاشر عنك يا سيّدي، وهؤلاء الذين أدين الله بولايتهم، فقال: اذاً والله تدين الله بالدين الذي لا يقبل من العباد غيره، فقلت: وربّما طفت عن امّك فاطمة عليها السلام، وربما لم اطف، فقال: استكثر من هذا، فانّه افضل ما انت عامله ان شاء الله.**»[1]

---

١. **الكافي**، ج ٤، ص ٣١٤؛ **وسائل الشيعة**، ج ١١، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

والنيابة عن المعصوم عليه السلام في الطواف مذكورة ايضاً في مواضع اخرى،[1] كما انّ النيابة عن الإمام في الحج، والعمرة وعتق الرقبة ايضاً كالنيابة عنه في الطواف مشروعة بل هي من الأمور التي ورد الحثّ عليها في كتب الروايات،[2] ولا فرق بين المعصوم الحيّ والمعصوم الراحل في هذا المجال. وانّ صحابة الأئمّة الأطهار كانوا يبادرون إلى ذلك العمل الراجح في حضور الأئمّة، فكان ذلك يلقى ترحيباً منهم.

وخلاصة القول هي انّ بلوغ المقام السامي للخلافة الإلهيّة بحاجة إلى تمارين كثيرة تبدأ من اهداء الثواب والنيابة التبرعيّة، وتتصاعد إلى المراحل العليا حيث العقبات الكؤودة الشديدة في الاخلاص أربعين يوماً وامثالها، هنالك يبدأ الاستعداد لظهور فيض الخلافة وتفتّح ازهار فوز الولاية. عند ذلك يختار المبدأ الفاعليّ طبقاً لمشيئته الحكيمة من يحبّه ويكرمه فيجعله خليفةً للمعصوم.

١٧. دور الحكماء والعرفاء في تبيين معارف الخلافة

انّ القصص القرآنية حول انبياء الله وأوليائه، وان كانت كل واحدة منها قضيةً شخصيّة وخارجيّة وتاريخيّة وهي في ظرف وقوعها ليست اكثر من موجود عيني واحد، لكنّ الأصل الحاكم عليها هو انها سنّة إلهيّة ثابتة ومستمرّة وغير قابلة للتخلف والاختلاف، ويمكن أن يأتي شخص آخر خلال التاريخ فيكون مشمولاً بذلك النهج وتلك السيرة

---
١. **وسائل الشيعة**، ج ١٣، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.
٢. **وسائل الشيعة**، ج ١١، ص ١٩٦ ـ ١٩٩.

والسنّة الإلهيّة. ولذلك نرى في نهاية الكثير من قصص الأنبياء والأولياء انّه يشار إلى تلك السنة الإلهيّة الثابتة فيقال مثلاً ﴿**كَذَلِكَ نجْزِي الْمُحْسِنينَ**﴾[1].

وقصّة آدم فضلاً عن انّ فيها بعض وجوه الشَّبَه بقصص الأنبياء الآخرين، لكنّ الشواهد المشهودة في القصّة من بدايتها إلى نهايتها هي انّ الله سبحانه كان يريد تربية الخليفة وجاء بآدم كمثال للخلافة، وانّ قصة محادثة الملائكة وتعليم الأسماء، وإنباء الأسماء وسجدة الملائكة وامتناع ابليس وغير ذلك وظهور هذه الامور بصورة واحد تلو الآخر، كل ذلك منهج قد خُطّطَ له من قبل وكان يجري تطبيقه، اي انّ قضية آدم بغير شكّ كانت قصّة شخصيّة وعينيّة وخارجيّة، ولم تكن تمثيلاً، لكنه كان مثالاً ونموذجاً للخليفة الإلهيّ. وقصّة الخلافة ليست كقصّة سفينة نوح أو سفينة موسى والخضر عليهما السلام التي كانت من سنخ الشخص المعيّن الخارجيّ الذي انقضى أمده، بل هي كأصل الإنسانيّة، فيض متّصل وفوز مستمرّ، وقد تمّ تصميمها من الأول بفكرة الدوام ودافع الاستمرار وبالنحو الذي تمتدّ فيه دائرة أصل الخلافة من نطاق النبوّة والرسالة والإمامة لتشمل ما هو اوسع من ذلك فتحيط بجميع مساحة الإنسانيّة لتحقيق الحياة المتألّهة.

وانّ ما له الدور المؤثّر في خلود حقيقة قصّة آدم بعنوان كونها قصّة واقعية نوعيّة وليست قضيّة شخصيّة بحيث ينزّهها ويبرّئها من سراب التمثيل وسرد الأساطير ويحافظ دائماً على المقصود الحقيقيّ منها وهو

---

١. **سورة الصافّات**، الآية ١١٠.

الإنسان الكامل، هو في الدرجة الأولى الروايات الطافحة بالعلم للعترة الطاهرة عليهم السلام وفي الدرجة الثانية ما يقدّمه أهل المعرفة من كشف وملاحظات حصلوا عليها بمجاهدتهم، لانّ هؤلاء قد نهضوا وتقدّموا خطوات اكثر من الآخرين في ميدان الخلافة وانسجامها مع الإنسان الكامل، وانتفعوا من كلّ طريف ولطيف، وميّزوا بسهولة بين الغثّ والسمين في ظلّ العرض على القرآن الكريم والسنّة القطعيّة للمعصومين عليهم السلام. وانّ سعيهم البليغ في اثارة دفائن النصوص المنقولة عند تأليفهم الكتب القيّمة أمر يستحقّ المدح والثناء لانّ علم معرفة الإنسان معروف لأهل النظر والبصر.

ولعلّه يمكن اعتبار سعيهم في توسيع دائرة الخلافة وجعلها تدور على مدار الإنسانيّة وتطوف على كعبة كمال الإنسان، هو من سنخ الاجتهاد وتفريع الفروع واستنباطها من الاصول الروائيّة، حيث تصدّى لبيان ذلك الأئمّة الأطهار عليهم السلام على نحو المتن والأصل والكلي والجامع، ودعوا أتباعهم إلى التخريج والتفريع، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «انّما علينا ان نلقي إليكم الاصول وعليكم ان تفرّعوا»، وقال الإمام الرضا عليه السلام: **«علينا القاء الاصول وعليكم التفريع»**.[1] فالاجتهاد كسقي الشجرة الطيّبة الأصل، والفروع المستنبطة منها كالثمار اليانعة لتلك الشجرة.

والمثال على النصوص الواردة من اهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هو ما رواه الحارث بن عبد الله الهمداني (جدّ الشيخ البهائي طبقاً لبعض

---

١. **كتاب السرائر**، ج ٣، ص ٥٧٥؛ **بحار الأنوار**، ج ٢، ص ٢٤٥.

الأخبار) عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام: انّه قال: انني عبد الله واخو رسول الله «... صدّقته وآدم بين الروح والجسد».[1]

فالذي يصدّق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوة والرسالة قبل تحقّق آدم هو الإنسان الكامل الذي يعلن ايمانه أمام الأكمل منه صادقاً ومصدّقاً. هذا الحديث يمكن أن يكون نصّاً جامعاً واصلاً كاملاً يتكفّل تبيين الخلافة حول محور الإنسانيّة ويجعل مركز نظرها ومدار بصرها هو معرفة الإنسان الكامل، وان تستخرج بواسطة الغوص في بحر النصّ المذكور وامثاله لئالئ نفيسة عن طريق تفريع الفروع وتخريجها من الاصول.

فعلى سبيل المثال، انّ ما قيل حول الصادر الاول وتطبيقه، تارة على العقل، واحياناً على القلم ومرة على روح الإنسان الكامل والحقيقة المحمديّة يسهل به الارتباط بين الخلافة والعقل والقلم وتفوّقها على الموجودات الاخرى، وسوف تثبت به لروح الإنسان الكامل حقيقة تعلو على الملائكة ايضاً، وما وجد بعد تحقّق الملائكة هو رقيقة تلك الحقيقة لا أصلها.

والقصد هو كما انّ المسائل القرآنيّة والروائيّة الناظرة إلى الفقه والأصول قد تفتّقت ونمت عند بزوغ اساطين كبار في هذين الاختصاصين مثل (الشيخ المفيد) و(السيد المرتضى) و(الشيخ الطوسي) و(ابن ادريس) وآخرين وتطوّرت وطوت مراحلها التكامليّة تدريجيّاً وفي عصور مختلفة كذلك فانّ مسائل الثقلين المتعلّقة بالرؤية الكونيّة ومعرفة الإنسان ومعرفة الخليفة وامثالها قد أُثيرت وكُتبت وخطت

---

١. **الأمالي**، ص ٦٢٦؛ **بحار الأنوار**، ج ٣٩، ص ٢٤٠، ح ٢٨.

خطوات كبيرة ولازالت تخطو وذلك بفضل ظهور الحكماء المتألّهين والعرفاء المتشرعين وبقيّة كبار اساطين هذا الفنّ، كما انّ المتعمّقين في الفكر والبحث القرآني واقتباساً من الحديث البليغ: «اقرأ وارقَ»[1] وبعد اكتمال نصاب الظواهر التي هي حجّة ومراعاة نتائجها والعمل بالأحكام المستفادة منها، يصلون إلى مراحل اعلى، ثمّ ينظرون في الحديث المعروف: «كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن اُعرف فخلقت الخلق لكي اعرف».[2] الذي يعتبر الهدف من الخلق هو المعرفة الإلهيّة، ويتمّ تأييد سنده بدعم قرآنيّ متقن، وعند ذلك يبيّنون نصيب خليفة الله في بلوغ هذا الهدف السامي المرتبط بالمعرفة.

والكيفية الاجمالية في تأييد سند الحديث المذكور يتمّ بهذا النحو وهو ان الله سبحانه يقول: ﴿**اللَّهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَات وَمنَ الأَرْض مثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شَيْءٍ علْمًا**﴾[3] حيث تحدّثت هذه الآية عن انّ الهدف من خلق النظام الكوني هو معرفة الإنسان بالقدرة الإلهيّة المطلقة والعلم الإلهي المطلق. طبعاً من الواضح انّ العلم المطلق والقدرة المطلقة صفتان للهويّة المطلقة، لانّ الذات المحدودة لا يمكن ان تكون لها صفة مطلقة، وإذا كانت الذات غير محدودة فانّها لا تبقي مجالاً لذات اُخرى ومبدإ منفصل، والاّ فانّ الإله المفروض سوف يكون محدوداً، والمحدوديّة

---

١. **اصول الكافي**، ج ٢، ص ٦٠٦؛ **كنز العمال**، ج ١، ص ٥٢٠، ح ٢٣٣٠.

٢. **بحار الأنوار**، ج ٨٤، ص ١٩٩.

٣. **سورة الطلاق**، الآية ١٢.



تتنافى مع الالوهيّة. وعليه فانّ الهدف من الخلق (وهو الذي يتحقّق به كمال المخلوق، لا كمال الخالق) هو معرفة الله سبحانه. اذن فاذا كان هناك كلام في سند ذلك الحديث القدسيّ المعروف فانّ دعم القرآن الكريم لمضمون هذا الحديث يدفع عنه جميع المحاذير، وبعد اتّضاح هدف الخلق، سوف يتّضح انّ الإنسان الذي هو المخاطب الأصليّ في الدعوة إلى معرفة القدرة المطلقة والعلم المطلق، له الدور المؤثّر في تحقّق هذا الهدف السامي.

١٨. محوريّة الإنسان في المدينة الفاضلة

انّ تبيين خلافة الإنسان وتشخيص هويّته الأصيلة بكونه خليفة الله سبحانه له الدور المؤثر في الجمع بين بعض الآراء المتضاربة في النظام السياسي للمدينة الفاضلة والتركيبة الإنسانيّة للحكومة المتحضّرة، لانّ البعض يعتبرون أساس السياسة السليمة هو (محوريّة الله) والبعض يرون انّ اساسها هو (محوريّة الإنسان). وان كان اصحاب نظرية محوريّة الإنسان غير واقفين على نتائج كلامهم، ولا يدركون كارثة محوريّة الإنسان غير الموحّد، لكنّ الواعين من أصحاب الرؤية الكونيّة التوحيديّة والواقفين على التدبير والادارة الحكيمة لله الواحد الأحد، يدركون انّ هويّة الإنسان ـ التي هي الحيّ المتألّه ـ لا يقوّمها ولا يتدخّل في قوامها شيء سوى الخلافة الالهيّة.

والموجود الذي تكون خلافة الله سبحانه هي المقوّم الوجوديّ له لابدّ ان يُلاحظ فيه حتماً مراعاة حكم الله ومرضاته في الجوانب الثلاثة

وهي (المصدر) و(المورد) و(المقصد)، اي انّ خليفة الله سوف لن يكون ابداً مصدراً لأي جزم علميّ وعـزم عملـيّ الاّ إذا كـان مـسبوقاً بـالارادة التشريعيّة لله والحكم الصادر من جهته سبحانه، ولا يقرّر شـيئاً حـول ايّ إنسان الاّ وهو ينظر إليه بعين خليفة الله، ولا يقوم بأيّ عمل يتعلق بفـرد مّا أو بالمجتمع الاّ ان يكون هدفه جلب المنافع والمصالح للإنسان ودفع الأضرار والمفاسد عنه.

وبهذا البيان نحافظ على اصل محوريّـة الله الـذي هـو الأسـاس والعامل الوحيد للكمال والجمال الإنـسانيّ، وكـذلك يتحقّـق أصـل محوريّة الإنسان، لانّ معرفة الإنسان من منظار الخلافة الإلهيّة لا تنتج ثمرة سوى محورية الله في جميع الأبعاد الثلاثة المذكورة، لانّ كرامة الإنسان هي ثمرة خلافته، وامتياز الخليفة هو في كون جميع شـؤونه العلميّة والعمليّة مسبوقاً بحكم الله ومرضاته، كما انّ الملائكة الذين هم عباد الله المكرّمون: ﴿**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُـونَ**﴾.[1] اذن هذا الفرض الذي يتضمّن محوريّة الإنسان في المدينة الفاضـلة لا يصحّ من دون محورية الله، حيث انّ الإنسان لا كرامـة لـه مـا لـم يتّصف بخلافته لله، وإذا ما نزعت الكرامة من الإنسان فانّـه لا يبقـى سبب لضرورة جعله محوراً، وانّما إذا أُخذت الخلافة الإلهيّـة بعـين الاعتبار فهو يتمتّع بالكرامة ويكـون اهـلاً للمحوريّـة. ولـذلك فـانّ تكريم الخليفة واحترامه وتحقيق رضـاه والعمـل مـن اجـل تـأمين منافعه ومصالحه كلّ ذلك مسبوق باذن ورضا المستخلَف عنه، وهو

١. سورة الأنبياء، الآية ٢٧.



الله سبحانه. والخلافة كالمرآة الشفّافة التي لا تحكي سوى المستخلَف عنه، وإذا ورد في بعض النصوص انّ اكرام المؤمن هو تكريم لله واهانة المؤمن هي اهانة لله[١]، فذلك لانّ المؤمن المتّقي قد تخلّص من ضغط الغريزة وانتظم بالتزكية وكسر قيود الهوى واعتمد على العقل وابتعد عن ذوي الظاهر الجميل والباطن القبيح في الطبيعة ولم يستنر بقبس خافت يضيء بقطرة وينطفىء بنفخة، ومثل هذا المؤمن اهل للتجليل والتكريم.

كما انّ الشخص المفسد ليس لديه مثل هذه المنزلة.

١٩. تجنّب النظرة الماديّة والأسئلة الاستكباريّة

انّ الشيطان بسبب رؤيته المادّية قد نظر في سؤاله إلى بداية الوجود المادّي للإنسان فقال: ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾،[٢] فأجابه الله سبحانه بانّ الإنسان وان كانت بدايته من الطين والتراب ولكنّ له مرتبة متوسّطة حتّى ينتهي امره أيضاً إلى لقاء الله. فالشخص الذي أجعله خليفة لي هو الذي يسلك طريقاً يوصله إلى لقائي، ولا اتّخذ خليفة من الذين هم: ﴿**كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾[٣] والله سبحانه بريء منهم: ﴿**وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِه... أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾.[٤] في حين انّ الملائكة نظروا إلى ما هو أوسع من الطبيعة والمادّة ولم يختصروا حقيقة

١. **بحار الأنوار**، ج ٧٢، ص ١٤٢ – ١٤٧.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ١٢.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ١٧٩.

٤. **سورة التوبة**، الآية ٣.

الإنسان في الطين والتراب، بل نظروا إلى بعض قواه النفسانيّة (الشهوة والغضب) وقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَ...**﴾ فأجابهم الله أيضاً وقال: انّني أعلم وأرى شيئاً في الإنسان وهو مخفيّ عنكم.

كما أنّ كيفيّة سؤال الشيطان تختلف أيضاً عن كيفيّة سؤال الملائكة، فالشيطان سأل بنحو (الاستكبار) والاعتراض وأراد أن يستعرض كبرياءه، في حين انّ الملائكة قد سألوا بنحو (الاستخبار) ولكي يزدادوا معرفة ووعياً وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**سَلْ تَفَقُّهاً وَ لا تَسْأَلْ تَعَنُّتا**»،[1] فانّهم قد سألوا من أجل التفقه وزيادة البصيرة. ولذلك فانّهم قد خضعوا بعد الفهم والادراك واعترفوا بالعجز، بينما الشيطان وجّه سؤاله متبجّحاً ومتفاخراً، ولذلك لمّا اتّضحت الحقيقة له فقد اصرّ على عناده وزاد استكباراً. ومن اراد أن يتجنّب الطريقة الشيطانيّة في السؤال فعليه أن يسأل تعلّماً وتفقّهاً لا لأجل التفاخر ولا بقصد اهانة وتسقيط الآخرين، لأنّه إذا فعل ذلك فقد سلك سبيل الشيطان وصار في عداد شياطين الانس، وكانت عاقبته: ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾،[2] وهذا على العكس من سؤال الاستخبار الذي كانت عاقبته هي: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾[3] وانتهى إلى الخضوع والتواضع حيث قالوا: ﴿**سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾.[4]

---

١. **نهج البلاغة**، الحكمة ٣٢٠.

٢. **سورة البقرة**، الآية ٣٤.

٣. **سورة الحجر**، الآية ٣٠.

٤. **سورة البقرة**، الآية ٣٢.

٢٠. الملائكة مأذونون في السؤال

انّ ذكر الله يعتبر عبادة لانّه يقترن بالأدب والقرب الحضوريّ لله. وللذكر درجات، ونظراً إلى بعض الملاحظات فانّ اعلاها هو ذكر (الصمت والانصات) الذي يتنعّم به الواصلون إلى مقام الفناء والسابحون في بحر المحو. وفي مثل هذه المرحلة إذا أراد أحد ان يخرج من الصمت ويميط لثام الانصات ويرفع الغطاء عن فيه ويتكلّم فانّه ترك للذكر وان كان لأجل الاستعلام والاستفهام عن أمر مّا، لانّ طلب العلم في مشهد العليم المحض الذي لا يمكن أن يعتريه الستر والخفاء ولا ينقطع منه فيض العلم وعطاء المعرفة ليس صحيحاً. وعلى هذا فانّ النقد يوجه إلى أصل سؤال الملائكة لا الشيء الذي سألوا عنه، اي انّ الكلام لا يدور حول سؤال الملائكة عن هذا الأمر أو تلك الحالة حتّى يكون محور الكلام هو خصوصيّة المسؤول عنه أو صفة السؤال، بل انّ النقاش كلّه ينصبّ على سبب خروج الملائكة من الصمت والانصات، ولماذا أخرجوا رؤوسهم من حصن التسليم وقلعة التفويض وبحر المحو والفناء وقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾. ولهذا يمكن القول: انّ كلام الله سبحانه مع الملائكة هو بمنزلة الإذن لهم في الكلام وتبديل ذلك (الصمت والانصات) إلى ذكر (الكلام والحوار) فبادروا إلى التسبيح وسائر آداب القرب والتشرّف.

تنويه أ: حيث انّ للملائكة درجات، فاذا كانوا جميعاً مشتركين في السؤال فيمكن ان يكون محذور البعض هو (خصوصية المسؤول عنه)

ومعضلة البعض تكمن في (خصوصيّة كيفيّة السؤال) ومشكلة البعض في (أصل السؤال) وترك ذكر الصمت والإنصات.

ب: انّ بعض الأنبياء قد استعاذ بالله من خصوصيّة الشيء المسؤول عنه أو خصوصيّة كيفيّة السؤال كما حصل للنبيّ نوح عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.[1]

ج: انّ للسؤال اقساماً، فبعض منها لا يصحّ في حقّ الله سبحانه اصلاً والبعض الآخر صحيح ومقبول، لكنّه يختلف بالنسبة إلى الأفراد والأوضاع والأحوال. فأمّا السؤال الذي لا مجال في طرحه حول الله سبحانه فهو السؤال عن المبدأ الفاعليّ أو الغائيّ له عزّ وجلّ، لانّه على اساس ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾[2] بنفسه هو المبدأ الفاعليّ بالذات وكذلك المبدأ الغائيّ بالذات لجميع الأشياء، ولذلك فانّه منزّه عن الفاعل والغاية، كما انّه ليس محكوماً لأيّ أصل حاكم وقاهر حتّى يصير مسؤولاً، اي يوجّه إليه السؤال والاعتراض. وامّا السؤال الذي يصحّ في حقّ الله ولكنّه مختلف تبعاً للأشخاص وأحوالهم وظروفهم المختلفة، فهو السؤال العلميّ والاستعلام والاستفهام الذي لا يصحّ صدوره من خواصّ المقرّبين الذين يعيشون مع ذكر الصمت والانصات ويستقرّون في مقام الفناء والمحو البحت، ويصحّ للآخرين على شكل الدعاء وغيره. وبهذا البيان يتّضح معنى الآية: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.[3]

---

١. سورة هود، الآية ٤٧.

٢. سورة الحديد، الآية ٣.

٣. سورة الأنبياء، الآية ٢٣.



٢١. المعلوم لله والمجهول للملائكة

تقدّم في تفسير جملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ انّ الملائكة قد رأوا المراحل النازلة من الانسانيّة فقط، وكانوا مطّلعين على شهوة وغضب الإنسان، ولذا طرحوا مثل هذا السؤال غافلين عن انّ للإنسان مرحلة كاملة أيضاً وهي العلم والعقل بحيث يمكنه بهما ان يمنع افساده وسفكه للدماء ويبلغ الكمال الإنسانيّ فيصير انساناً كاملاً وتصبح جميع أفعاله باذن الله، فلا فساد في افعاله، بل انّ جميع أفعاله حاكية عن لطف الله وعنايته وحكمته، وحتّى سفكه للدماء يأخذ عنوان الجهاد في سبيل الله ويصبح مظهراً لعذاب الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾.[1]

وقد غفل الملائكة عن هذه الحقيقة وهي انّ لكلٍّ واحد منهم درجته المحدودة التي لا يمكنه ان يجتازها: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾،[2] في حين انّ الإنسان الكامل المرتبط بعالم الحركة يمكنه أن ينمو ويرقى بالإيمان والعمل الصالح ولا يتوقّف في أيّة درجة، ويستمرّ في سيره وسلوكه، حتّى اذا بلغ درجات شامخة ومنازل رفيعة مثل (اطمئنان النفس) و(الرضا بقضاء الله) و(امتلاك الدين المرضيّ لله)، هناك أيضاً يوجّه إليه الخطاب مرّة اخرى بأن يواصل سيره ورجوعه إلى الله، حتّى يصل إلى درجة عند الله بحيث لا يحول بينه وبين محبوبه شيء من الأغيار: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً

١. **سورة الأنفال**، الآية ١٧.

٢. **سورة الصافّات**، الآية ١٦٤.

مَّرْضِيَّةً﴾،[1] لقد غفل الملائكة عن هذه الحقيقة وهي انّ الإنسان هو الآية الكبرى لله سبحانه والمظهر الأتمّ والمحيط بجميع حقائق الوجود بتعليم الله والمؤثّر في جميع الكائنات باذن الله، والمطّلع على كلّ ما في عالم الامكان وكلّ ما نزل إلى نشأة الظهور والتعيّن.

لقد خفي على الملائكة حقيقة وهي انّ مفاتح الغيب بيد الإنسان الكامل باذن الله، وانّه صاحب مفتاح عالم الغيب، وهذا لا يعني انّ الله تعالى فوّض إليه مفتاح عالم الغيب، لانّ التفويض والتوكيل لا يتناسب مع الاطلاق الذاتيّ لله اللاّمتناهي سبحانه، ولا مع الاحتياج الذاتيّ للإنسان الكامل من حيث انّه ممكن الوجود، بل هو بمعنى التجلّي التامّ لله سبحانه في الإنسان الكامل. فهو فوق مفاتح الغيب وخزائن الغيب، وهو الصادر والفيض والتجلّي الأوّل، والاّ فلو كانت مفاتح الغيب أعلى من الإنسان الكامل للزم أوّلاً: ان لا يكون مسير الإنسان الكامل في قوس الصعود إلى: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾[2] و(جنّة اللقاء)، وثانياً: ان لا يكون أيضاً هو الصادر الأوّل والفيض والتجلّي الأوّل.

لقد كان الملائكة غافلين عن انّ قلوب الناس الكاملين وعاء ارادة الله: «**بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله**».[3] وفي ذيل الآية الكريمة: ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾[4] ورد انّهم لا يريدون شيئاً الاّ إذا اراده الله سبحانه، وإذا

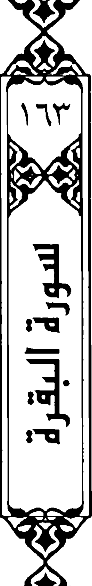
---

١. **سورة الفجر**، الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

٢. **سورة النجم**، الآية ٤٢.

٣. **كتاب الغيبة**، ص ٢٤٧، ح ٢١٦؛ **بحار الأنوار**، ج ٢٥، ص ٣٣٧، عن الإمام الحجة عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

٤. **سورة التكوير**، الآية ٢٩.



ما شاء الله وأراد شيئاً، فحيث انّ هذه الارادة صفة للفعل فهي ممكنة الوجود وتظهر في موطن الامكان ألا وهو قلب وليّ الله والإنسان الكامل: «**ارادة الربّ في مقادير اموره تهبط اليكم وتخرج من بيوتكم**».[1]

٢٢. معرفة النفس في الآية محلّ البحث

يرى بعض اساطين الحكمة والتفسير انّ الآية محلّ البحث اشارة إلى معرفة النفس وشرح ماهيّتها وانّيتها وكيفيّة نشوئها من الأرض وسرّ خلافتها، لانّ معرفة النفس هي امّ الفضائل وأصل المعارف، كما جاء في الوحي الإلهي: «اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربّك» وجاء في كلام النبي صلى الله عليه وآله: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه» وجاء في كلام بعض الأوائل والقدماء: «من عرف ذاته تألّه».[2]

٢٣. الشارح لآية الخلافة:

كما تقدّم في مقدمة هذا التفسير،[3] فانّه قد تنزل احياناً آية مثل آية: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ لرسم خط اصيل في التعليم والتهذيب، ولا يذكر مضمونها في آية اخرى بنحو صريح، لكنّ المفاد والمؤدّى المتحرك والبليغ والشامل لجميع أو اكثر آيات القرآن الكريم ناظر إلى بلورة وتصوير وتبيين وتدقيق، وتعميق وتحقيق

---

١. **مفاتيح الجنان**، الزيارة الأولى من الزيارات المطلقة للإمام الحسين عليه السلام.

٢. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألهين، ج ٢، ص ٢٩٩.

٣. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ١)، ص ٧٥ ـ ٧٦، من الترجمة العربية.

المضمون والمحتوى الأصيل للآية المذكورة. ففي هذه الآية أُشير إلى المقام الشامخ لخليفة الله، ولم تنزل أيّة آية اخرى بعنوان شرح وتفصيل المنزلة السامية للخلافة التي هي بحاجة ماسّة إلى التفصيل المبسط، لكنّ المؤدّى المشترك والارشاد والتوجيه البليغ لجميع أو اكثر الآيات يتعلّق بتعليم الأسماء الإلهيّة الحسنى وتهذيب وتزكية النفوس والأرواح لأجل نيل مقام الخلافة الإلهيّة الرفيع. وعلى هذا فإذا ما ادّعى أحد وقال، حيث انّ الهدف النهائي للقرآن هو تربية الإنسان الكامل وإعداد الإنسان الموحّد الخالص، فانّ الآيات القرآنيّة الاخرى شرح لآية خلافة الإنسان الكامل، لم يكن قوله هذا جزافاً، وان كان هذا السنخ من التفسير لا يعدّ من تفسير القرآن بالقرآن المعروف والمصطلح.

البحث الروائيّ

١. تاريخ المخلوقات وأرضيّة خلق الإنسان

قال رجل لابي عبد الله عليه السلام: «جعلت فداك! انّ الناس يزعمون انّ الدنيا عمرها سبعة آلاف سنة، فقال: ليس كما يقولون. انّ الله خلق لها خمسين ألف عام فتركها قاعاً قفراء خاوية عشرة آلاف عام ثمّ بدا لله بدء الخلق فيها خلقاً ليس من الجنّ ولا من الملائكة ولا من الانس وقدّر لهم عشرة آلاف عام، فلمّا قربت آجالهم، افسدوا فيها فدمّر الله عليهم تدميراً ثمّ تركها قاعاً قفراء خاوية عشرة آلاف عام ثمّ خلق فيها الجنّ وقدرّ لهم عشرة آلاف عام، فلما قربت آجالهم، أفسدوا فيها وسفكوا الدماء وهو

قول الملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ كما سفكت بنو الجانّ، فأهلكهم الله، ثمّ بدأ الله فخلق آدم وقدّر له عشرة آلاف عام وقد مضى من ذلك سبعة آلاف عام ومأتان وأنتم في آخر الزمان».[1]

اشارة: أوّلاً: انّ من الصعب جدّاً اثبات السابقة التاريخيّة وتعيين عمود زمان خاصّ وأمد معيّن اعتماداً على مثل هذه الأحاديث التي هي من أخبار الآحاد اضافة إلى كونها مرسلة وضعيفة السند. ولا يمكن بخبر الواحد اثبات المسائل التي يكون التعقّل معتبراً فيها لا التعبد.

ثانياً: في صورة صحّة الحديث يمكن اسناد مضمون، إلى صاحب الشريعة في حدود الظنّ.

ثالثاً: لم يقم أيّ دليل معتبر على خلاف مضمون الحديث المذكور، ولذلك فانّ صحّته محتملة.

رابعاً: انّ حصر الأنواع الحيّة الموجودة بالملائكة والإنسان والجنّ ليس حصراً عقليّاً دائراً بين النفي والاثبات حتّى تكون نتيجته نفي نوع رابع غير الأنواع الثلاثة المعروفة.

خامساً: لم ترد في هذا الحديث قصة خلافة الإنسان الكامل، وانّما ذُكر فقط سؤال الملائكة عن جعل المفسد وسافك الدم الذي كان يعيش في الأرض سابقاً.

٢. منشأ علم الملائكة بإفساد الإنسان

عن امير المؤمنين عليه السلام: «ان الله تبارك وتعالى لمّا أحبّ ان يخلق خلقاً

---

١. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٩ ـ ٥٠، ح ٨؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٧، ح ٧.

بيده... ولمّا كان من شأنه ان يخلق آدم... ثمّ قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس، فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق، عظم ذلك عليهم، وغضبوا لله واسفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم أن قالوا: يا ربّ! أنت العزيز القادر الجبّار القاهر العظيم الشأن وهذا خلقك الضعيف الذليل في أرضك يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام، لا تأسف ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم وترى، وقد عظم ذلك علينا واكبرناه فيك، فلمّا سمع الله ذلك من الملائكة قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ لي عليهم فيكون حجّة لي عليهم في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة سبحانك: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...**﴾.[1]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: «ما علم الملائكة بقولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ لولا انّهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء».[2]

ـ عن علي بن الحسين عليه السلام: «... ردّوا على الله فقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ وانّما قالوا ذلك بخلق مضيّ يعني الجانّ أبا الجنّ... ».[3]

---

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٠ ـ ١٧١؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥١، ح ٨٠؛ **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٢٩.

٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٧، ح ٤؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٥، ح ٣.

٣. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٦، ح ٦.

ـ «ثمّ خلق فيها الجنّ وقدّر لهم عشرة آلاف عام، فلمّا قربت آجالهم أفسدوا فيها وسفكوا الدماء وهو قول الملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ كما سفكت بنو الجانّ فأهلكهم الله... ».[1]

ـ انّ الله تبارك وتعالى أراد ان يخلق خلقاً بيده وذلك بعد ما مضى من الجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة، وكان من شأنه خلق آدم كشط عن أطباق السماوات، قال للملائكة: انظروا إلى الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس، فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق عظم ذلك عليهم.[2]

ـ لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا: ربّنا لم خلقت هذه؟ قال: لمن عصاني من خلقي، ولم يكن لله خلق يومئذ الاّ الملائكة، قالوا: يا ربّ ويأتي علينا دهر نعصيك فيه؟ قال: لا؛ انّي اريد ان اخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض، قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾.[3]

ـ عن ابن عباس: انّ الله قال للملائكة: انّي خالق بشراً، وانّهم متحاسدون فيقتل بعضهم بعضاً ويفسدون في الأرض، فلذلك قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾.[4]

اشارة: أوّلاً: تقدّم القول بصعوبة اثبات مثل هذه المسائل العلميّة

---

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٧؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٩ ــ ٥٠.

٢. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٣٦؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٧١.

٣. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١١٢.

٤. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١١٢ ـ ١١٣.

بواسطة الأخبار الضعيفة أو المرسلة أو على فرض صحّتها واعتبارها فهي من أخبار الآحاد كما تقدّم.

ثانياً: انّ اطّلاع الملائكة ومعرفتهم بفساد وقبح سلوك الإنسان الأرضي كما حصل لهم من الإخبار الإلهي، كذلك يمكن استنباطه من التأمّل في خصوصيّات الموجود المادّي المتحرّك الذي لديه الشهوة والغضب.

ثالثاً: لا يمكن حصول العلم بإفساد الإنسان وسفكه للدماء من خلال التعرّف على معاصي غيره كالجنّ والنسناس التي هي من نوع آخر، والقياس الفقهيّ والتمثيل المنطقيّ لا يفيد العلم ولا ينفع في مثل هذه المعارف، الاّ ان ينتهي إلى الطريقين السابقين وهما الإخبار الإلهي من جهة، ومواصفات الموجود المادّي المجهّز بالشهوة والغضب من جهة اخرى. طبعاً، انّ الجمع بين هاذين الطريقين أمر ممكن بل هو واقع.

٣. مصاديق الإنسان الكامل وخليفة الله

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «بينما أنا امشي مع النبي صلى الله عليه وآله في بعض طرقات المدينة إذ لقينا شيخ طوال كثّ اللحية بعيد ما بين المنكبين، فسلّم على النبي صلى الله عليه وآله ورحّب به ثمّ التفت اليّ فقال: السلام عليك يا رابع الخلفاء ورحمة الله وبركاته، أليس كذلك هو يا رسول الله؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : بلى، ثمّ مضى. فقلت: يا رسول الله! ما هذا الذي قال لي هذا الشيخ وتصديقك له؟ قال: أنت كذلك والحمد لله. انّ الله عزّ وجلّ قال في كتابه: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ والخليفة المجعول فيها آدم، وقال عزّ وجلّ: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ فهو الثاني، وقال عزّ وجلّ حكاية عن موسى حين قال

لهارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ فهو هارون إذاً استخلفه موسى في قومه وهو الثالث، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ وكنت انت المبلغ عن الله عزّ وجلّ وعن رسوله وأنت وصيّي ووزيري وقاضي ديني والمؤدّي عني وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى الاّ انّه لا نبيّ بعدي، فأنت رابع الخلفاء، كما سلّم عليك الشيخ، أو لا تدري من هو؟ قلت: لا، قال: ذاك اخوك الخضر، فأعلم».[1]

ـ عن محمد بن اسحق بن عمّار قال: قلت لابي الحسن الأوّل عليه السلام: «ألا تدلّني على من آخذ عنه ديني، فقال: هذا عليّ، انّ ابي اخذ بيدي فأدخلني إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا بني، انّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وانّ الله عزّ وجلّ إذا قال قولاً وفى به».[2]

ـ «من لم يقل: انّي رابع الخلفاء الأربعة فعليه لعنة الله، قال الحسن بن زيد: فقلت لجعفر بن محمد• قد رويتم غير هذا، فانّكم لا تكذبون؟ قال: نعم، قال الله تعالى في محكم كتابه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكان آدم أول خليفة لله و﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ وكان داود الثاني وهارون خليفة موسى وهو خليفة محمد صلى الله عليه وآله فلمَ لم يقل انّي رابع الخلفاء الأربعة»؟![3]

اشارة: اوّلاً: طبقاً للتحليل والتعليل السابق، فانّ جميع الأنبياء

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٣٦، ص ٤١٧، ح ٢؛ **عيون اخبار الرضا**، ج ٢، ص ١٢؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٤٨، ح ٧٣.

٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٤٩، ح ٧٦؛ **الكافي**، ج ١، ص ٣١٢.

٣. **تفسير البرهان**، ج ٢، ص ١٦٩؛ **مائة منقبة**، ج ٢، ص ١١٨.

والمرسلين والائمّة المعصومين عليهم السلام من الأناس الكاملين وخلفاء الله، وعنوان (الخليفة) اسم يستعمل للمفرد والجمع وللمذكّر والمؤنّث،[١] وقضيّة الخلافة كقضيّة النبوّة والرسالة والإمامة والولاية مقولة بالتشكيك وعدّ الاشخاص الأربعة من تلك الذوات الطاهرة والتصريح بانّ رابعهم هو عليّ عليه السلام انّما هو ناظر بالصراحة إلى مفردة (الخلافة) والاّ فانّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو من أكمل مصاديق الخلافة الإلهيّة.

ثانياً: حيث انّ الخليفة مع الواسطة هو بمنزلة الخليفة بلا واسطة، لذلك فانّ الإمام علياً عليه السلام وكذلك الأئمّة المعصومين هم خلفاء لله، كما انّ هارون خليفة الله، لانّ خلافة الإمام علي عليه السلام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تمّت باستخلاف الله كما انّ خلافة هارون عليه السلام عن النبي موسى عليه السلام كانت استخلافاً إلهيّاً.

٤. الملائكة وجعل الخليفة

عن الرضا عليه السلام: «ان الله عزّ وجلّ قال للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ فردّوا على الله عزّ وجلّ هذا الجواب فندموا... ».[٢]

ـ عن ابي جعفر عليه السلام «... يا أخا أهل الشام اسمع حديثنا ولا تكذب علينا، فانّ من كذب علينا في شيء فقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله فقد كذب على الله، ومن كذب على الله عزّ

---

١. **نهج البيان عن كشف معاني القرآن**، ج ١، ص ١١٦.
٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٤٩، ح ٧٤؛ **عيون اخبار الرضا**، ج ٢، ص ٩٨.



وجلّ عذّبه الله؛ امّا بدء هذا البيت فانّ الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فردّت الملائكة على الله تعالى فقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ فأعرض عنها فرأت انّ ذلك من سخطه... ».[1]

ـ عن ابي جعفر عليه السلام «... انّ الله تعالى لمّا أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، ردّت الملائكة فقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال الله عزّ وجلّ ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فغضب عليهم ثم سألوه التوبة... ».[2]

عن احدهما• «... انّ الله تبارك وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال ملكان من الملائكة: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، فوقعت الحجب فيما بينهما وبين الله عزّ وجلّ وكان تبارك وتعالى نوره ظاهراً للملائكة. فلمّا وقعت الحجب بينه وبينهما، علما انّه قد سخط قولهما... ».[3]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام «... لانّ الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فردّوا على الله تبارك وتعالى وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ قال الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وكان لا يحجبهم عن نوره فحجبهم عن نوره سبعة آلاف سنة... ».[4]

---

١. **الكافي**، ج ٤، ص ١٨٧؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٠، ح ٧٧.
٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٨، ح ٦؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٦، ح ٥.
٣. **بحار الأنوار**، ج ١١، ص ١٠٩، ح ٢٣؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٠٦.
٤. **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١١؛ **بحار الأنوار**، ج ١١، ص ١١٠، ح ٢٥.

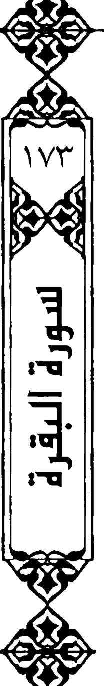
ـ سأل ابي عليه السلام رجل وقال: حدّثني عن الملائكة حين ردّوا على الربّ، حيث غضب عليهم وكيف رضي عنهم؟[١]

– عن الباقر عليه السلام «... انّ الله لمّا قال للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ كان ذلك من يعصي منهم فاحتجب عنهم سبع سنين».[٢]

ـ عن عبد الله بن عمر: انّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «انّ آدم لمّا اهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: اي ربّ ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ قالوا: ربّنا نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان؟ فقالوا: ربّنا هاروت وماروت... قال فاهبطا إلى الإرض، فتمثلت لهم الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تتكلّما بهذه الكلمة من الاشراك.قالا: والله لا نشرك بالله ابداً، فذهبت عنهما حتى رجعت بصبيّ تحمله،فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبيّ. قالا: لا والله لا نقتله أبداً،فذهبت ثمّ رجعت بقدح من خمر، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا من هذا الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي، فلمّا أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبيتماه عليّ الاّ قد فعلتماه حين سكرتما، فخيّرا عند ذلك بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا».[٣]

---

١. **بحار الأنوار**، ج ١١، ص ١٧٠، ح ٧؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٤٣.
٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٧ – ٤٨؛ **بحار الأنوار**، ج ٩٦، ص ٢٠٤، ح ١٧.
٣. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١١٤ – ١١٥.



اشارة: اوّلاً: وان كان ظاهر بعض الروايات كراهة الملائكة من جعل الخلافة لآدم، لكنّ الملائكة المعهودين المعروفين في القرآن الكريم كلهم معصومون، وأدلّة عصمتهم ممتنعة عن التخصيص.

ثانياً: كما انّ ظاهر بعض الآيات المتعلّقة بالتوحيد أو النبوة بحاجة إلى التوجيه والتوضيح، فانّ بعض الروايات ايضاً على فرض صحّتها واعتبارها بحاجة إلى التوجيه والتوضيح.

ثالثاً: يمكن ان يتمّ توضيح قصّة هاروت وماروت في ذيل الآية ١٠٢ من سورة البقرة.

٥. العلم الإلهيّ وسعته

ـ عن الحسين بن بشار عن ابي الحسن الرضاعليه السلام سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن ان لو كان كيف كان يكون؟ فقال: «انّ الله هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء: قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ وقال لأهل النار: ﴿**وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ فقد علم عزّ وجلّ انّه لو ردّهم لعادوا لما نهوا عنه وقال للملائكة لمّا قالت: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ فلم يزل الله عزّ وجلّ علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك الله ربّنا وتعالى علوّاً كبيراً، خلق الأشياء كما شاء وعلمه بها سابق لها كما شاء، كذلك ربّنا لم يزل عالماً سميعاً بصيرا».[1]

---

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٣، ح ٨٤؛ **عيون أخبار الرضا**، ج ١، ص ١٠٨.

اشارة: أولاً: انّ العلم الذاتي لله سبحانه هو عين ذاته وهو في مقابل العلم الفعليّ لله الذي هو عين الفعل والمعلوم، لا عين الفاعل والعالِم، وسيأتي تحقيقه في الموضع المناسب.

ثانياً: انّ ذات الله هي وجود غير متناه وحقيقة غير محدودة، وعلى هذا الأساس فانّ العلم الذاتي لله الذي هو عين الذات اللامتناهية سوف يكون غير متناه وغير محدود. وعليه فانّ المعدوم والموجود، والمجرّد والمادي، والماضي والحاضر والمستقبل كل ذلك معلوم عند الله في مستوى واحد، لانّه في العلم اللامتناهي ليس هناك مجال لأيّ نحو من الاختلاف والتمايز.

ثالثاً: العلم هو ذلك الكشف والظهور والحضور، والمعلوم يجب ان يكون شيئاً واضحاً. اذن فالمعدوم المحض الذي ليس له ايّ ذات ولا وجود له بما انّه لا يصدق عليه انّه (شيء) فانّه لا يكون مشمولاً بقوله تعالى: ﴿**اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.[1]

رابعاً: انّ علم الله بالمعدوم الممكن بل حتى بالمعدوم الممتنع على فرض وجودهما وشيئيّتهما هو نظير ما في قوله تعالى ﴿**وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ**﴾[2] أو قوله تعالى ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾،[3] اي انّ المعلوم عند الله هو انّ الممتنع على فرض وجوده كيف سيكون.

---

١. **سورة النور**، الآية ٦٤.
٢. **سورة الأنعام**، الآية ٢٨.
٣. **سورة الأنبياء**، الآية ٢٢.

٦. التسبيح والتقديس ومعناهما

عن ابي ذر عن رسول الله ﷺ انّه قال: «احبّ الكلام إلى الله ما اصطفاه الله لملائكته: سبحان ربّي وبحمده (أو سبحان الله وبحمده) ».[1]

اشارة: اولاً: انّ الذات المقدّسة لله كمال محض وكل كمال فهو محبوب، لكنّ الكمال الذاتي وغير المتناهي هو محبوب ذاتي.

ثانياً: جميع المعارف ومحاسن الوجود التي تعود إلى ذلك الكمال الذاتي فانّها تحظى بالمحبّة العائدة إلى تلك المحبّة الذاتيّة.

ثالثاً: انّ للمحبوبية درجات تترتب حسب الدرجات الوجودية لتلك المحاسن والمآثر.

رابعاً: انّ التسبيح والتحميد الذي اختاره الله للملائكة ممزوج بالتوحيد الالهيّ الذي يتكفّل به التهليل، وكلّ ذكر فهو محبوب بقدر اشتماله على التوحيد. فالسرّ في كون الذكرين المذكورين احبّ الكلام إلى الله هو اشتمالهما على درجة عالية من التوحيد الذي هو أصل الأصول.

٧. عدم سعة علم الملائكة

عن العسكري عليه السلام: «... ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ انّي أعلم من الصلاح الكائن فيمن اجعله بدلاً منكم ما لا تعلمون، وأعلم ايضاً انّ فيكم من هو كافر في باطنه لا تعلمونه وهو ابليس لعنه الله... ».[2]

عن ابن عباس: «وكان ابليس أميراً على ملائكة سماء الدنيا، فاستكبر

---

١. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١١٣.

٢. **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري**، ص ١٧٦؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ٧٣، ح ١.

وهمّ بالمعصية وطغى، فعلم الله ذلك منه. فذلك قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وانّ في نفس ابليس بغياً».[1]

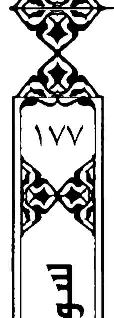
اشارة: على الرغم من انّ الملائكة يعلمون - بتعليم الله - بالكثير من الأمور الغيبيّة، لكنّ بعض المعارف الغيبيّة خارجة عن نطاق علمهم ودائرة اطلاعهم فعلى سبيل المثال: انّ الكمال المكنون للإنسان والنقص المكتوم لابليس لم يكن معلوماً لدى الملائكة، وكذلك عندما حُكم على خليل الرحمان ابراهيم بالاحراق وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ فانّ الملائكة ضجّوا من ذلك فقال لهم الله: إذا طلب منكم العون فأعينوه وعندما ادركوا انّ ابراهيم يرى انّه أعلى همّةً من ان يطلب منهم شيئاً، قال الله سبحانه لهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2] وعندما رأى ابليس انّ رأيه أعلى من الأمر الالهي وأعرض مستكبراً وكان نقصه الاستكباري لا يزال خافياً على الملائكة فانّه كان ممكناً سماع الهتاف المفعم بالعتاب: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ بالأُذن الملكوتيّة.

۸. العلم الالهي ونقد القَدَريّة

قال زرارة: «دخلت على ابي جعفر عليه السلام فقال: ايّ شيء عندك من أحاديث الشيعة؟ فقلت: انّ عندي منها شيئاً كثيراً، قد هممت أن اوقد لها ناراً ثمّ احرقها! فقال: وارِها تنسَ ما انكرت منها. فخطر على بالي الآدميون. فقال لي ما كان علم الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

---

١. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١١٣.
٢. **البحر المديد**، ج ١، ص ٩٤.



الدِّمَاء﴾ قال: وكان يقول ابو عبد الله عليه السلام إذا حدّث بهذا الحديث: هو كسر على القَدَرِيّة... ».[1]

اشارة: أوّلاً: انّ قبائح القَدَرِيّة التي اشير إليها في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله تسبّبت في انّ كلاً من الجبريّة والمفوّضة يتّهم احدهما الآخر بها.

ثانياً: حيث انّ العصيان في الآية المذكورة يُنسب إلى الإنسان نفسه، لانّه نسب إليه الإفساد وسفك الدماء، فتبيّن انّ الجبر باطل، وحيث انّ زمام الأمور بيد الجاعل فاتّضح عدم استقلال أيّ أحد في فعله وان كان مختاراً.

---

١. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٠، ح ٩؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٧، ح ٨

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

خلاصة التفسير

تتحدّث هذه الآية أوّلاً عن تعليم الأسماء لآدم وثانياً عن عرضها على الملائكة وعجزهم عن ادراكها.

والتعليم غير التدريس، فالتعليم إذا لم يكن في دائرة الطبيعة، فهو لا ينفك عن التعلّم والاستيعاب، خلافاً للتدريس الذي يمكن ان يجتمع مع الجهل وعدم تعلّم المخاطب.

ولم يكن الملائكة واسطة في تعليم الأسماء لآدم، لانّ الوساطة في الفيض غير ممكنة بغير العلم به. فتعليم الأسماء كان عن طريق تكلّم الله مع البشر أي تحقّق بالوحي المباشر وبغير واسطة.

والمقصود من الأسماء هي الحقائق الغيبيّة للعالم بمعنى سِمة وعلامة الله وبهذا اللحاظ اطلق عليها كلمة (اسم)، وهي الحقائق ذات الشعور والعقل والمستورة بحجاب الغيب والمخزونة عند الله، وفي نفس

الوقت هي خزائن أشياء العالم، وبهذا اللحاظ فانّها تشمل جميع أشياء العالم، الأعمّ من الغيب والشهادة، ويلزم من التعرّف عليها التعرّف على المفاهيم الذهنيّة التي هي أسماء تلك الحقائق، وكذلك الأسماء اللفظية التي هي اسماء الصور الذهنية اي (أسماء أسماء أسماء الله).

انّ كلمة (ثمّ) في هذه الآية تدلّ على الترتيب الوجوديّ، لا التأخّر الزمانيّ، اي انّ الذي حصل في البداية هو تعلّم آدم الأسماء بالتعليم اللدنيّ وبغير واسطة، فتلقّى هذه الحقائق، وفي الرتبة التالية عرضت على الملائكة. طبعاً هذا يتعلّق بحقيقة الأسماء وكيفيّة الإشهاد والتعليم الحضوريّ لها وكيفيّة عرضها على الملائكة المجرّدين وبقيّة الامور المنزّهة من الزمان، والاّ فانّ ما يتعلّق بمسألة تعليم الأسماء لبدن آدم فهو زماني ومن الطبيعيّ ان يكون الترتّب فيه زمانيّاً ايضاً.

والمقصود من العرض في جملة ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ**﴾ اي جعلها أمامهم وعرّفهم بها اجمالاً عن طريق الالهام وشبهه، أي العرض العلميّ، لا الجسمانيّ، كما انّ الحجاب والمانع الذي حال دون الفهم هو الحجاب المعنويّ والنوراني، وما هو الاّ عمق الأسماء الإلهيّة وارتفاع مستواها ودرجتها. ويحتمل ان يكون عرض الأسماء على الملائكة هو جعلهم يرون حقيقة الإنسان الكامل الذي هو مظهر جميع الأسماء الإلهيّة الحسنى.

والوجه في استعمال عنوان الصدق في قوله: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ يمكن ان يكون بهذا الشكل وهو انّ المؤدّى الضمنيّ لادّعاء التسبيح والتقديس هو انّنا اكثر أهليّة وكفاءة للخلافة من آدم، وهذا المؤدّى يتّصف بالصدق والكذب. كما يحتمل ان يكون اشارة إلى السعة والكمال



الوجوديّ، اي إذا كنتم تتمتّعون بالكمال الوجوديّ اللاّزم وليس فيكم نقص في مجال القدرة والعلم...، إذ انّ الصدق والكذب في الموجود المجرّد التامّ يرجع إلى الوجود والعدم لا إلى ما ينبغي وما لا ينبغي.

التفسير

«الأسماء»: الألف واللاّم في الأسماء امّا أن تكون حالّة محلّ المضاف إليه كما في قوله تعالى ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾[1]، وحينئذ يكون استفادة العموم والكليّة للأسماء فقط من كلمة (كلّها)، أو ان تكون من قبيل الألف واللاّم التي تدخل على الجمع وتفيد العموم (وعليه فانّ الجمع المحلّى بالألف واللاّم يفيد العموم كما تقدّم في البحث في الآية السابقة)[2].

وبالنتيجة فانّ العموم والشمول يستفاد من كلمة (الأسماء) ومن كلمة (كلّها). فهنا يوجد احتمالان.

وقد اختار جماعة كالشيخ الطبرسيّ[3] والشيخ البلاغيّ[4] وابي السعود[5] الاحتمال الأوّل، واختار الاستاذ العلاّمة الطباطبائي ﵀ الاحتمال الثاني[6].

---

١. **سورة مريم**، الآية ٤.

٢. **تفسير تسنيم**، ج ٣، ص ٣٦، من الترجمة العربية (فصل (المراد من الملائكة)).

٣. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٢.

٤. راجع: **آلاء الرحمن**، ج ١، ص ١٧٥.

٥. راجع: **تفسير ابي السعود**، ج ١، ص ١٠٤.

٦. **الميزان**، ج ١، ص ١١٧.

لكن من الواضح انّ الاشتغال بهذه المسألة ليس فيه ثمرة عمليّة، لانّ عموم الأسماء يستفاد من كلمة كلّها في جميع الأحوال، الاّ ان يقال: انّ كلمة (كلّ) جيء بها لتأكيد المعنى السابق وليست هي بذاتها مفيدة للعموم، اي إذا كان المقصود من (الأسماء) معنى خاصّاً لا كلّ اسم فهنا يكون معنى (كلّ) هو تأكيد ذلك المعنى الخاص.

(**كلّها**): تأنيث ضمير (كلّها) باعتبار لفظ الأسماء، كما انّ في جملة (وبأسمائك التي ملأت اركان كلّ شيء)[1] استخدم ضمير المؤنّث مع انّ المقصود من الأسماء فيها هو الحقائق الإلهيّة.

(**عرضهم**): كما سيأتي في بحث المقصود من الأسماء انّ الوجه في الاتيان بصيغة ضمير الجمع للمذكّر السالم في قوله (عرضهم) واسم الاشارة (هؤلاء) هو انّ المرجع والمشار إليه في الاثنين، ليس هو الأسماء بمعنى الألفاظ الموضوعة حتّى تكون علاقتها مع المسمّيات علاقة الوضع والاعتبار، بل هي الأسماء بمعنى الحقائق ذات الشعور، والحقائق التي شاهد الملائكة درجتها الضعيفة ولم يتمكّنوا من الغور في أعماقها، كما انّ الإنسان يمكن ان يرى الشمس والماء والمعادن والنباتات ولكنّه لا يعرف كنهها وحقيقتها.[2]

(**انبئوني**): الإنباء بمعنى مطلق الإخبار، سواء كان خبراً مهمّاً أم لا، لكنَّ أغلب موارد استعماله تكون في الخبر المهمّ، كما انّ المخبرين والمبلّغين لرسالات الله يسمّون بالأنبياء بهذه المناسبة، لانّهم يأتون بنبإٍ

١. **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل.
٢. **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ١٦٧ ـ ١٦٨ (بالفارسية).



مهمّ، وقد عبّر القرآن الكريم عن أخبار الأنبياء المهمّة وعن اممهم وعن المعاد الذي هو في درجة المبدأ احياناً بالنبأ، ووصفه أحياناً بالعظيم للتأكيد على الأهميّة كما في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾،[1] ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾.[2] وعليه فانّ التعبير عن الإخبار (بالإنباء) هو لأجل أهميّة معرفة الأسماء الإلهيّة، كما يمكن الإشعار ضمناً بهذا المعنى وهو انّني لا اريد ان تخوضوا في تفصيل حقائق الأسماء، وانّما اريد منكم مجرّد الإخبار، ومثل هذا الإخبار وان كان إخباراً علميّاً الاّ انّه ليس مثل نفس العلم ولا يبلغ درجته.

تناسب الآيات:

بعد الاعلان عن جعل الخليفة في الآية السابقة، فانّ هذه الآية والآيتين اللاّحقتين بعدها جاءت لتوضّح السرّ في جعل الخليفة واثبات كفاءة آدم وأهليّته لمنصب الخلافة وعدم كفاءة الملائكة لذلك. والذي يظهر من هذه الآية، انّ سرّ خلافة آدم ليس هو نفي الافساد وسفك الدماء، لانّ الله سبحانه لم ينفِ ذلك، كما يظهر من الآية أنّ عدم اهليّة الملائكة ليس لأجل عدم تسبيحهم وتقديسهم، لانّ هذا لم يُنفَ أيضاً ولم يُكَذَّب ادّعاؤهم بالتسبيح والتقديس، بل انّ السرّ في خلافة آدم هو تحمّله ومعرفته بشيء لا تستطيع الملائكة تحمّله ولا قدرة لها على ادراكه، وذلك هو الأسماء التي تعتبر طبقاً للآيات التالية غيب السماوات

---

١. سورة ص، الآية ٦٧.

٢. سورة النبأ، الآيتان ١ ـ ٢.

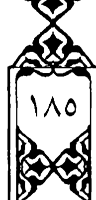
والأرض. فالمعرفة بهذه الأسماء والحقائق الغيبيّة هي السبب في امتياز آدم على الملائكة.

وينبغي الالتفات إلى انّ تعليم الأسماء ليس هو العمل الأول بعد اعلان جعل الخلافة، لانّ من المُسلَّم به انَّ خلق آدم مقدّم على تعليم الأسماء، اي انّ هناك فاصلاً بين الآية محلّ البحث والآية السابقة وهو خلق آدم، لكنّه نظراً لانّ الغرض في هذه الآية هو بيان معيار جعل الخلافة لآدم، لذلك لم تتحدّث الآية عن مسألة خلق آدم.

وهذه الآية التي تكشف عن وجود الاستعداد والأهليّة الفائقة لدى آدم لأجل ادراك حقائق العالم، تنقسم إلى قسمين: القسم الأول حول تعليم الأسماء لآدمعليه السلام والقسم الثاني حول عرض الأسماء على الملائكة وعجزهم عن ادراكها.

الفرق بين التعليم والتدريس

انّ التعليم غير التدريس. وتعليم الشيء لا ينفصل عن تعلّمه وفهمه. والتعبير بـ(علّم) يكون في الموضع الذي يحلّ فيه حقيقة العلم في روح المتعلّم، خلافاً للتدريس الذي يجتمع مع جهل المخاطب وعدم التفاته ايضاً، اي انّه تارة يؤثّر، وأثره هو التعلّم، وتارة لا يعطي أثراً. وما هو مشهور في المراكز العلميّة هو التدريس، لا التعليم، ولذلك قد يثمر المعرفة والتعلّم وقد لا يثمر، في حين انّ ما يذكره الله سبحانه بالنسبة إلى الأنبياء وما هو مطروح هنا في الآية محلّ البحث هو التعليم الذي لا مجال فيه لأيّ نحو من الجهل والسهو والنسيان. وبالنتيجة فانّ تعليم



جميع الأسماء لآدم غير منفكّ عن تعلّم وادراك ذلك الإنسان العظيم لجميع الأسماء.

طبعاً انّ التعليم والتعلّم يكون تارة في نطاق الطبيعة وحدودها، واخرى خارج حدود الطبيعة، وما يطرح في دائرة الطبيعة لا يمنع من انفكاك التعلّم عن التعليم، اي انّ المعلّم قد لا يكون قاصراً ولا مقصّراً في تعليم المسألة، لكنّ ضعف وفتور المتعلّم يكون مانعاً عن استيعاب العلم، لانّ القابل لم يبلغ النصاب التامّ للقبول، لذلك يبتلى بالنكول والتخلّف، ومثل هذا التعليم يعود إلى التدريس. وامّا ما يحصل في الفضاء الخارج عن الطبيعة فهو في أمن من الابتلاء بآفة انفكاك التعلّم عن التعليم، لأنّه كما انّ الفاعل التعليمي تامّ في النصاب الفاعليّ، فانّ القابل التعلّمي ايضاً سيكون تامّاً في النصاب القابلي. وفي مثل هذا الظرف فانّ تحقّق التعليم يعني تحقّق التعلّم فهما متلازمان. ولذلك فانّ تعليم الأسماء المذكورة يقترن بالتعلّم القطعيّ لآدم (الإنسان الكامل) ولا يحصل أدنى تخلّف أو اختلاف بين الاثنين.

تعليم الأسماء لآدم بغير واسطة

انّ التعليم والتعلّم تارة يكون مباشراً بغير واسطة، وتارة مع الواسطة كما انّ حصول العلم يكون أحياناً مباشرة وأحياناً اخرى مع الواسطة. وتوضيح القسم الاول هو انّ المعلّم إذا ألقى مسألة مّا إلى المتعلّم بنحو مباشر، فانّ التلميذ يستوعب المسائل من (لدن) ومن عند الاستاذ دون واسطة اخرى، وإذا ما قام المعلّم بنقل المعلومات إلى المتعلّم عن طريق



واسطة، فهنا لم يتعلّم التلميذ شيئاً من لدن ومن عند الاستاذ، فالمتعلّم هنا لا يتمتّع بالعلم اللدنيّ بالنسبة إلى هذا الموضوع وفيما يتعلّق بهذا الاستاذ. وبيان القسم الثاني هو انّ المعلوم إذا حضر عند العالم دون توسّط الماهيّة أو المفهوم المنتزع فانّ مثل هذا العلم يدعى بالعلم الحضوريّ، وإذا حصل عند العالم بواسطة انتزاع المفهوم أو الماهيّة وبقيت هويّته الأصيلة محجوبة فانّ مثل هذا يُسمى علماً حصوليّاً. وسيأتي بيان العناصر الأساسيّة للأمور الأربعة المذكورة (التعليم بغير واسطة، التعليم مع الواسطة، العلم بلا واسطة، العلم مع الواسطة) في موضعها المناسب.

ولاشكّ انّ الملائكة لم يكونوا واسطة في تعليم الأسماء، وانّ التعليم الإلهيّ كان بصورة مباشرة وبغير واسطة، لانّ الوساطة هنا ليست مثل وساطة موظّف جهاز الاتصالات أو ساعي البريد في المعاملات البريدية المتداولة التي يقوم فيها الوسيط بعمليّة النقل المجرّد للرسائل من المرسِل إلى المرسَل إليه دون ان يطّلع على شيء من مضمونها، وانّما الوساطة هنا في هذا المقام يكون فيها الوسيط واسطة في الفيض، والوساطة في الفيض لا يمكن ان تحصل دون الاطّلاع عليه. والسرّ في تعليم الأسماء مباشرة لآدم وبغير واسطة هو انّ آدم وحده قد اطّلع على الأسماء، وإذا كان الملائكة قد اطّلعوا عليها فانّ ذلك قد تمّ بواسطة تعليم آدم. فالنتيجة تكون انّ طريقة تعليم الأسماء من الله لآدم لم تكن من قبيل ﴿**يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ**﴾ بل وحتّى لم تكن ايضاً وحياً من وراء حجاب ﴿**أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ كما هو ظاهر الآية، بل كانت عن

طريق ثالث وهو تكلّم الله سبحانه مع البشر، أي تحقّق بالوحي المباشر ومن باب ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾.[1]

المراد من الأسماء

انّ المقصود من الأسماء في هذه الآية ليس هو من قبيل الأسماء التي هي بغير مسمّى والمذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾،[2] بل انّها بالتأكيد أسماء لها حقيقة ومسمّى. ولذلك فانّ من الضروري بيان هذه المسألة وهي انّ المقصود من (الأسماء) ليس هو أسماء المسمّيات (بتقدير المضاف إليه)، بمعنى انّ التعليم تعلّق بالأسماء أي انّ الله أرى آدم أشياء هذا العالم وعلّمه بأسمائها وخصائصها وأحوالها وفوائدها الدينيّة، والدنيويّة، كما اختار ذلك عدد من المفسّرين كالشيخ الطبرسي[3]، وليس المقصود هو مسمّيات الأسماء (بتقدير المضاف) ولا هو الأسماء بمعنى المسمّيات والمعاني الذهنيّة، بمعنى انّه قد تمّ التعبير عن المدلول بالدليل وعن المعنى باللفظ الذي وضع له لشدّة العلاقة بين اللفظ والمعنى[4].

بل انّ المراد هو أسماء تلك الحقائق الغيبيّة للعالم والتي بلحاظ كونها سمة وعلامة لله اطلق عليه (الاسم)؛ وهي حقائق ذات شعور

١. الطرق الثلاث المذكورة بيّنتها الآية (٥١) من **سورة الشورى** وعلى نحو القضيّة المنفصلة المانعة للخلو.

٢. **سورة النجم**، الآية ٢٣.

٣. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٢.

٤. راجع **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٦٢.

وعاقلة ومحجوبة بحجاب الغيب ومخزونة عند الله وفي نفس الوقت هي خزائن أشياء العالم، وهي الموجودات العالية التي تُعتبر جميع حقائق عالم الشهود رشحة ورقيقة متنزّلة منها، وكلّ ما يرى في السماء والأرض مشتقّ من نورها وبهائها ونازلة بِيُمنها وبركتها، والمقصود من تعليمها لآدم ليس هو التعليم بالعلم الحصوليّ عن طريق الألفاظ والمفاهيم بل المقصود هو (الإشهاد الحضوريّ) بمعنى انّ وجوداتها الملكوتيّة أصبحت مشهودة لآدم.

والشاهد على كونها من ذوات الشعور هو رجوع ضمير المذكّر العاقل في كلمة (عرضهم) واسم الاشارة المختصّ بالعقلاء (هؤلاء) والشاهد على كونها غيبيّة هو جملة: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، في الآيتين التاليتين لها، اذ الظاهر انّ اضافة الغيب إلى (السماوات) هي اضافة لاميّة (اي غيب وباطن السماوات والأرض، لا الغائب عن السماوات والارض)، ومقتضى سياق الآيات هو انّ هذا الغيب ليس الاّ تلك الأسماء التي جرى تعليمها وأنّه هو الموصول في جملة ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

وعلى كلّ حال فانّ ما جرى تعليمه لآدم وتمّت إراءته له هو تلك الحقائق العالية المسماة بـ(اسماء الله) والمحتمل انّها هي (مفاتح الغيب) في قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ**﴾[1] والخزائن في قوله تعالى ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ**﴾[2] وهي المفاتح والخزائن التي

١. **سورة الأنعام**، الآية ٥٩.

٢. **سورة الحجر**، الآية ٢١.

لا تقبل الفناء لكونها (عند الله) والله سبحانه يقول: ﴿**مَا عِنـدَكُمْ يَنفَـدُ وَمَا عِندَ اللّه بَاقٍ**﴾.[1]

وهناك عدد من الملاحظات حول هذا المعنى جديرة بالذكر وهي:

١. لمّا كانت الأسماء هي خزائن الغيب وباطن السماوات والأرض وبقيّة حقائق النشأة المادّية والملكيّة، وانّ الحقائق الطبيعية ليست الاّ درجاتها النازلة، فيمكن القول انّ الأسماء في الآية شاملة لجميع حقائق العالم من الغيب والشهود، وكأنّ آدم لما رأى تلك الخزائن قد رأى جميع أشياء العالم الأعمّ من الغيب والشهادة وصارت مشهودة له، واستعمال الضمائر المذكّرة واسم الاشارة الخاصّ بذوي العقول، يعود إلى انّ جميع الموجودات بناء على قوله تعالى ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[2] ذات شعور وتحمد الله وتسبّحه، وإذا فُسِّرت في بعض الروايات بأسماء أهل البيت عليهم السلام فهذا من باب التطبيق على المصداق الأكمل لا من سنخ التفسير المفهومي.

٢. لا شكّ انّ ما هو الاسم الإلهيّ حقيقة، وما هو في الواقع علامة وآية لله انّما هو هذه الحقائق الخارجيّة، امّا المعاني والصور الذهنيّة لها فهي في الواقع أسماء لهذه الحقائق وليست أسماءً إلهيّة، والأسماء اللفظيّة التي تجري على اللسان والموضوعة للمفاهيم الذهنيّة وتدلّ عليها، فانّما هي أسماء لهذه المعاني الذهنيّة. اذن فالألفاظ في الحقيقة هي (أسماء أسماء أسماء الله).

---

١. **سورة النحل**، الآية ٩٦.

٢. **سورة الاسراء**، الآية ٤٤.

٣. انّ اللاّزم من هـذا التعليـم والاراءة هـو اطّـلاع ومعرفـة المـتعلّم بجميع آثار وخواصّ ومنـافع ومـضارّ الأسـماء، بمـا فـي ذلـك معرفتـه بالمفاهيم الذهنيّة والأسماء الظاهريّة واللفظيّة لها ايضاً، اي انّ تعريف الله سبحانه كان بالنحو الذي مكّن آدم من تحليل وتبيين مفـردات الحقـائق بحيث يسمّيها ويصفها وينبىء بها الملائكة، طبعاً انّ كيفيّة تعلـيم وإنبـاء آدم للملائكة ينفرد ببحث خاصّ به وهو يوضّح هل انّه كـان مـن سـنخ الإشهاد الحضوريّ أم من صنف التعليم الحصولي؟

ولذلك فانّ ما جاء في بعض الروايات من انّ أسماء الجبال والوديان والأشجار وغيرها قد تمّ تعليمهـا لآدم لا يتنـافى مـع المعنـى المـذكور، وحيث انّ صدور الأحاديث المختلفة يكون أحياناً تابعـاً لمـستوى فهـم المخاطبين، لذلك ذُكرت الأشياء الطبيعيّة والماديّة في بعض الروايات.

٤- يمكن الاشكال بانّه إذا كان المراد من (الأسماء) هـو أسـماء الله أي انّ المضاف إليه في الأسماء هو كلمة (الله) وانّ الألـف والـلام حالّـة محلّ (الله) لا انّ المضاف إليه هو كلمة (هؤلاء) المذكورة في بقيّة الآيـة ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء**﴾، فالنتيجة تصبح انّ الأسماء في صدر الآية هي غير الأسماء في ذيل الآية، وهذا خلاف الظاهر وخلاف وحـدة الـسياق. ولذلك فانّ الشيخ الطبرسي اعتبر هذه الملاحظة قرينـة علـى انّ المقـدّر فـي كلمـة (الأسـماء) والبـدل عـن الألـف والـلام فـي (الأسـماء) هـو المسمّيات المشار إليها في (هؤلاء) ومرجع الضمير في (عرضهم).[1]

وفي الجواب ينبغـي أن يقـال، بـانّ الاسـم معنـاه (حقيقـة الوجـود

---

١. راجع **مجمع البيان**، ج ١، ص ١٨٠؛ **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٢.

المحض مع تعيّن خاص) والاسم بهذا المعنى له مظهر، وحيث انّ حقائق عالم الخلق ولاسيّما الخزائن الغيبيّة مظاهر للأسماء الإلهيّة الحسنى، ونظراً للارتباط والاتّحاد النسبيّ بين الظاهر والمظهر، فانّ الحقائق الامكانيّة تعدّ أيضاً من جملة الأسماء الإلهيّة، وفي النتيجة فانّ المفاهيم المنتزعة من تلك الحقائق هي أسماء الأسماء، والألفاظ الدالّة على تلك المفاهيم المنتزعة تُعتبر أسماء أسماء الأسماء. وعليه فانّ الانسجام بين صدر الآية وبقيّتها موجود ووحدة السياق تكون محفوظة.

٥. كما ويمكن أيضاً أن يُسأل بانّه إذا كان المراد من الأسماء هو الحقائق ذات الشعور في العالم، وبهذا الاعتبار جاءت الضمائر في هيئة جمع المذكّر، والعاقل، فكيف جاء الضمير في (كلّها) بصيغة المفرد المؤنّث، أليس هذا دليلاً على انّ ضمير الجمع المذكّر لا يختصّ بذوي العقول، بل هو يشبه ما جاء في قوله تعالى ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[1] حول رؤيا النبي يوسف عليه السلام وسجود الشمس والقمر والكواكب له، فيمكن ان يعود الضمير إلى غير ذوي العقول أيضاً؟

وبالاضافة إلى ذلك، فانّ كون الضمير مذكّراً ومن ذوي العقول لا يلازم كون جميع الأفراد التي يعود إليها من ذوي العقول، بل ينسجم مع كون بعض الأفراد من ذوي العقول ثمّ تغليبها على سائر الأفراد.

والجواب هو انّه تارة يعود إلى الشيء الواحد ضميران مختلفان بلحاظ اختلاف اللفظ والمعنى، مثلاً كلمة (الحقائق) فهي يمكن أن تكون بلحاظ اللفظ مرجعاً لضمير التأنيث وبلحاظ المعنى مرجعاً لضمير

---

١. **سورة يوسف**، الآية ٤.

المذكر. وعلى هذا الأساس، فانّ التأنيث في ضمير (كلّها) هو بلحاظ لفظ (الأسماء) وتذكير الضمائر المتعدّدة بعدها هو بلحاظ معناها. وامّا ارجاع ضمير ذوي العقول في قصّة النبيّ يوسف عليه السلام فهو بلحاظ الفعل العاقل الذي صدر من الشمس والقمر والكواكب، وهو سجود تلك الكواكب السماويّة للنبي يوسف واحترامها البالغ له في الرؤيا. مضافاً إلى أنّ تعبير الآية ناظر إلى نشأة الملكوت وفي مجال الرؤيا الذي هو فضاء حياة وشعور. وامّا التغليب، فانّ مجرّد امكانه ليس موجباً للوقوع، الاّ مع قرينة خاصّة تدلّ على تحقّقه.

٦. كما ويمكن ان يقال ايضاً: ما هو المقصود من الأسماء في بعض الآيات كما في قوله: ﴿**وَلِلّه الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[١] وقوله تعالى ﴿**إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا**﴾؟[٢] فهل انّ المقصود من الأسماء في مثل هذه الموارد هو الحقائق فقط؟ أو ليس المراد من الأسماء الحسنى في الآية الأولى هو عدد الألف من الأسماء الواردة في دعاء الجوشن الكبير أو انّها الأسماء التسعة والتسعون الواردة في بعض الروايات، والمراد من الأسماء في الآية الثانية هو (اللاّت) و(العزّى) و(مناة)؟ وما المانع من القول: انّ الآية محلّ البحث لها ظهر (وهو تلك الأسماء المعهودة في الأذهان، أي الأسماء في مقابل المسمّيات. طبعاً بالبيان المتقدّم وهو أنّ تعليم الاسم بهذا المعنى ليس منفصلاً عن معرفة المسمّى لانّ الاسم طريق إلى المسمّى) ولها بطن أيضاً يقصد به حقائق العالم أو الوجودات النورانيّة والعالية؟

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٨٠.

٢. **سورة النجم**، الآية ٢٣.



لاسيّما إذا رأينا انّ الشيخ الصدوق قد روى بسندين معتبرين عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال: «**انّ الله تبارك وتعالى علّم آدم أسماء حججه كلّها، ثمّ عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال: أنبئوني**»،[1] إذ يظهر من هذه الرواية انّ الذي تمّ تعليمه لآدم هو الاسم في مقابل المسمّى، ولا يوجد ايّ ابهام من هذه الناحية يحتاج إلى توجيه. نعم، قد لا ندرك كنه هذه المسألة وهي كيف تكون معرفة الأسماء بهذا المعنى معياراً للخلافة.

وفي الجواب ينبغي أن يقال: انّ حقيقة الاسم بمعنى ذلك الوجود المحض المأخوذ بتعيّن خاص تتميّز بتفسير معيّن في النصوص الدينيّة، وقد جاء بعضها في دعاء كميل: (وبأسمائك التي ملأت أركان كلّ شيء)، واستنباط حقائق الغيب والشهود من الآية محلّ البحث يتمّ استناداً إلى ظاهر اللفظ، لا باطنه، إذ انّ الألفاظ الاعتباريّة ـ التي لا ثبات لها ولا هي معيار للكمال ـ لا تكون سبباً للخلافة الإلهيّة.

ومعنى تعليم أسماء الحجج عليهم السلام طبقاً للشواهد الداخليّة للحديث هو حقائق أولياء الله[2]، وكما انّه بالاستناد إلى العناصر الأساسيّة في الآية محلّ البحث يمكن القول بانّ المقصود من الأسماء هو الحقائق، كذلك يمكن استناداً إلى ظهور العنصر الأساسيّ في آية: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا**﴾ ان يفهم كون المقصود منها هو الأسماء الاعتباريّة والألفاظ المجرّدة من المعنى.

---

١. **آلاء الرحمن**، ص ١٧٥؛ **اكمال الدين**، ص ٨٩ ـ ٩٠.

٢. راجع نفس هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج٣)، ص ١٨٧، من الترجمة العربية (البحث الروائي، بحث المراد من الأسماء).

٧. وعلى كلّ حال فلا ريب في انّ المراد من الأسماء في الآية محلّ البحث ليس هو الألفاظ المحضة، لانّه أوّلاً: الأسماء اللفظيّة اعتبارات وعقود تتغيّر على طول التاريخ، خلافاً للحقائق، وقد تُترك وتُهجر أحياناً وتحلّ محلّها ألفاظ جديدة، وتعلّم مثل هذا الشيء لا يُعدّ كمالاً حتّى يكون معياراً لخلافة آدم ودرجة يمتاز بها على الملائكة.

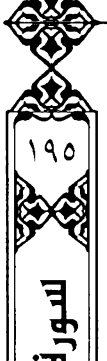
ثانياً: في عالم الملائكة، لا يوجد هناك جعل ووضع للألفاظ، ولا اُنس للملكوتيين والمجرّدات مع هذه العلوم الاعتباريّة.

ثالثاً: انّ الوضع والجعل عند كل قوم وشعب يختلف عمّا هو عليه عند الأقوام والشعوب الاخرى، وما جرى تعليمه لآدم بأيّ لغة كان وأيّ لهجة؟

رابعاً: كما قال العلاّمة الطباطبائي ﵀، من انّه لو كان المقصود من تعليم الأسماء هو العلم باللغات بالنحو المتداول عندنا، للزم من ذلك ان يصبح الملائكة عالمين ايضاً بالأسماء بواسطة إنباء آدم لهم، وعندئذ يكونون مساوين له في الدرجة، مضافاً الى ذلك فانّه لا يكون فضيلة وكرامة لآدم، لانّ الملائكة في هذه الحالة بامكانهم أن يقولوا في مقابل جواب الله لهم: انّك لو كنت علّمتنا تلك الألفاظ لكنّا اهلاً لمقام الخلافة ولما بقي هناك أمر يمكن ان يقنع الملائكة ويبطل حجّتهم في المناظرة التي دارت، يضاف إلى ذلك انّ كمال التعرّف على الألفاظ واللغات هو الوصول إلى مقاصد القلوب، والملائكة لا يحتاجون في ادراكهم مقاصد القلوب إلى التكلّم بالألفاظ واللغات؛ بل انّهم يتلقّون مقاصد القلوب دون وساطة الألفاظ، إذ انّهم يتمتّعون بكمال فوق كمال التكلّم[1].

---

١. راجع **تفسير الميزان**، ج ١، ص ١١٦ ـ ١١٧.



خامساً: انّ المعيار الأصلي في استظهار المسائل من ألفاظ النصوص الدينيّة هو كونها نصّاً أو أظهر أو ظاهراً، وعند تعارض ظواهر الألفاظ، فانّ النصّ أو الأظهر مقدّم على الظاهر. وهذا القانون قائم على ثقافة ومنهج المحاورة، ونظام التفهيم والتفاهم الدينيّ قد أمضى هذا النحو من الحوارات. وإذا حصل التعارض المذكور في كلام واحد، فمضافاً إلى الميزان المذكور، فانّ ظهور صدر الكلام يقدّم على ظهور ذيله، لانّ أساس الكلام هو ما قدّمه المتكلم وجعله صدراً لحديثه أو مقالته.

وفي الآية محل البحث، جاء عنوان التعليم في صدر الحديث وحيث أوّلاً: انّ تعليم مجرّد الألفاظ ليس من الحكمة ولا يكون سبباً للخلافة، وثانياً: عند التعبير عن العرض على الملائكة استعمل ضمير جمع المذكّر السالم المختصّ بالعقول؛ والمهمّ هو انّ مرجع الضمير ليس الأسماء دون شكّ (لانّه لا يمكن القول انّ الأسماء عرضت على الملائكة لانّ الآية قالت: أنبئوني بأسماء هؤلاء، ومن الواضح انّ الأسماء ليس لها أسماء، اذن فانّ المقصود حتماً من مرجع الضمير هو المسمّيات، لا الأسماء)، وعليه فانّ المستفاد من صدر الآية طبقاً للملاحظات المذكورة هو حقائق الأشياء والأشخاص لا أسماؤها، والاّ فانّ ظاهر ذيل الآية عند قوله (أنبئوني بأسماء هؤلاء) هو انّ محور التعليم ومدار العرض هو نفس الأسماء لكن على اساس ترجيح ظهور الصدر على ظهور الذيل واعتماداً على الملاحظات السابقة يمكن القول انّ اضافة الأسماء إلى هؤلاء

هي اضافة تأكيديّة مثل: نفس زيد الذي يفيد تأكيد الأمر ولا يلزم منه محذور اضافة الشيء إلى نفسه.[١]

طبعاً انّ العلم بالحقائق مستلزم لمعرفة الاعتباريّات، اي على الرغم من انّ معرفة الأمور الاعتبارية لا توجب العلم بالحقائق، لكنّ تعليم حقائق الأشياء بعنوان الأسماء الإلهيّة الحسنى يستلزم تعليم جميع الامور والعناوين الاعتباريّة، ويستلزم أيضاً تعليم جميع الأشياء المختلفة في طول التاريخ والمساحة الجغرافيّة، دون ان يهبط المستوى الرفيع لآية تعليم الأسماء إلى منحدر الألفاظ الاعتباريّة واللغات العبريّة والعربيّة والفارسيّة وغيرها.

لذلك فانّ ما رواه ابو جعفر الطبري عن ابن عباس في تفسير تعليم الأسماء من انّه (علّمه كلّ شيء حتى... الفسوة و)[٢] فليس مناسباً لشأن تفسير القرآن الكريم، ويوجد ما يشبهه في تفسير **كشف الاسرار وعدّة الأبرار** المعروف بتفسير الخاجه عبد الله الانصاري.[٣] نعم، انّ الشيخ الطبري يقول: انّ الأسماء التي تمّ تعليمها تختص بأسماء ذريّة آدم

١. بعض هذه المسائل يمكننا العثور عليه في كتاب **الانصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال**. وهو من مؤلّفات احمد بن محمد بن منير الاسكندري المالكي في نقد **الكشاف** لمحمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (راجع **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٥) لكنّ البعض من هذا النقد قائم على قاعدة اتّحاد الاسم والمسمّى، التي يؤمن بها هو ونظراؤه، والزمخشري يتبرأ منها ويحاول أن يبعد الآية عن الحمل على وحدة الاسم والمسمّى. وما ذكر أو يُذكر حول حقيقة الاسم وانّ المقصود منه هو الاسماء الإلهيّة الحسنى ينهي النزاع بين احمد المالكي ومحمود المعتزلي ونظرائه كما ويصحّح ارجاع ضمير جمع المذكّر السالم.

٢. **تفسير جامع البيان**، ج ١، ص ٢٨٣.

٣. **كشف الأسرار وعدّة الابرار**، ج ١، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

وكذلك اسماء الملائكة، ولا يراها شاملة لبقيّة الأجناس فضلاً عن شمولها لأسماء الأشياء، ويستدلّ على هذا الاختصاص باستعمال ضمير جمع المذكر السالم (هم)، ويستند ايضاً إلى غلبة واستفاضة استعمال هذه الضمائر في الملائكة والإنسان[1]، وان كان قد تقدّم النقاش في رأيه ونقده في المباحث السابقة.

٨. يمكن ان يقال: نظراً إلى انّ الاستعداد لتسمية الأشياء هو نفسه موهبة القدرة على البيان التي اعتُبرت في سورة الرحمن اول فضيلة ونعمة للإنسان بعد نعمة خلقه ونعمة تعليم القرآن ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾،[2] فما المانع من ان يكونْ تعليم الأسماء في الآية محلّ البحث عبارة عن استعداد التسمية، أي نفس تعليم البيان المذكور في سورة الرحمن، لاسيّما مع وجود وجوه شبه متعدّدة بين الآيتين وهي:

أوّلاً: في كلتا الآيتين جاء التعبير بكلمة (علّم).

ثانياً: في الآية محلّ البحث ليس المطروح هو شخص آدم وانّما قد ذكر بما هو نموذج ومثال للإنسانية، وكذلك في سورة الرحمن ايضاً، فانّ كليّ الإنسان هو المقصود.

ثالثاً: في الآية محلّ البحث ذكر تعليم الأسماء كأوّل فضيلة لآدم بعد خلقه، وفي آية سورة الرحمن أيضاً ذكر تعليم البيان كأوّل كرامة للإنسان بعد خلقه.

---

١. **جامع البيان**، ج ١، ص ٢٨٤.

٢. **سورة الرحمن**، الآيات ١ ـ ٤.

رابعاً: انّ الأسماء والتسمية ادوات ووسائل للبيان والتبيين، والفرق بين الأسماء والبيان هو كالفرق بين المقدّمة وذي المقدّمة، والتشابه والتقارب إلى هذا الحدّ يؤدّي إلى استعمال أحدهما بدلاً عن الآخر. وعلى كلّ حال فما المانع من ان يقال: انّه كما عُدَّت قدرة البيان في سورة (الرحمن) عاملاً لسموّ الإنسان وأفضليّته على سائر الموجودات وأوّل كرامة له بعد خلقه، فكذلك في الآية محلّ البحث تعتبر تلك القدرة أهمّ فضيلة لآدم ومعياراً لخلافته وامتيازه على الملائكة؟

وجواب هذا التوهم هو أوّلاً: انّ مجرّد الاستعداد للتسمية ليس معياراً للخلافة.

ثانياً: ظاهر الآية محلّ البحث هو فعليّة التعليم والتعلّم وحصول العلم لا مجرّد القدرة والاستعداد.

ثالثاً: انّ قيمة الاستعداد تتبع قيمة الأمر المُستَعدّ له، فإذا كان المُستَعدُّ له هو مجرّد البيان فهو ليس ملاكاً للخلافة الإلهيّة أبداً.

رابعاً: تفسير القرآن بالقرآن الذي ذكر حول هذه المسألة هو (سل القرآن عن القرآن وكفى) له موازينه وضوابطه التي لا توجد في هذا التوهّم.

خامساً: البيان في آية سورة (الرحمن) بعد تحقّق الإنسانيّة، والاّ فانّ صوت البهيمة ـ بسبب الابهام ـ لا يقال له بيان، وتحقّق الإنسانيّة متوقّف على تعلّم معارف القرآن، أي انّ حقيقة القرآن إذا سرت في باطن وجود شخص فذلك هو إنسان وعندها سيكون كلامه بياناً. ومن هنا فانّ الله سبحانه تحدّث أوّلاً عن تعليم القرآن، وبعد ذلك تكلّم عن خلق الإنسان، وبعدها ذكر تعليم البيان للإنسان.

سادساً: إذا كان الأساس هو تفسير الآية بالآية، فيجب أن نعتبر تعليم الأسماء منسجماً مع تعليم القرآن، لامع تعليم البيان، الذي ليس فيه تشابه سوى التشابه في البينونة، إذ انّ كلاً منهما مباين للآخر، وحيث انّ باطن القرآن هو الكتاب المبين والعليّ الحكيم: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[1] لذلك يمكن أن يكون منسجماً مع الأسماء الإلهيّة.

٩. انّ سرَّ اختلاف المفسّرين في تبيين معنى الأسماء يعود إلى سرّ اختلاف هويّتهم العلميّة. فبعضهم من أهل العبارة، فيحملون الأسماء على العبارات والألفاظ، وبعضهم من أهل الاشارة، فيقتبسون البشارة من المعاني الدقيقة، وبعضهم من أهل اللطافة فيخبرون عن اللطائف الإلهيّة. طبعاً انّ الأنبياء الذين هم أهل الحقيقة، لا يخبرون عن الأسماء الإلهيّة بصورة التحقيق فحسب، بل يخبرون عنها وهم متحقّقون بها ومُسمَّون ومتسمَّون بها.

عرض الأسماء على الملائكة

انّ الله سبحانه ومن أجل أن يثبت عجز الملائكة في مسألة الخلافة ويظهر الحكمة في جعل الخلافة لآدم، فقد عرض تلك الأسماء التي علّمها لآدم على الملائكة وقال لهم أنبئوني عن اسماء هؤلاء إذا كنتم صادقين (في ادّعائكم العلم بغيب السماوات والأرض أو ادّعاء الأهليّة للخلافة): ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

---

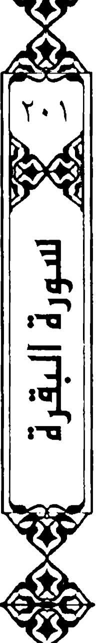
١. سورة الزخرف، الآية ٤.

وكلمة (ثمَّ) هنا في الآية للدلالة على الترتيب الوجودي، لا التأخّر الزمانيّ اي انّ آدمﷺ أخذ الأسماء أوّلاً بواسطة التعليم اللدنيّ وتلقّى تلك الحقائق والمعارف بنحو مباشر، وفي المرتبة اللاحقة عرض الله سبحانه تلك الحقائق على الملائكة.[1]

ويمكن أن يقال: لاشكّ في انّ خلق آدمﷺ قد حصل بعد خلق الأرض والسماء والمخلوقات الزمانيّة، وبالطبع فانّ نفخ الروح في آدم وتعليمه الأسماء قد حصل متأخّراً زماناً ايضاً عن خلقه من التراب. اذن يكون العرض على الملائكة ايضاً متأخراً زماناً عن خلق آدم من التراب. وهنا حيث انّ أصل نفخ الروح وتعليم الأسماء وكذلك اصل العرض على الملائكة قد حصل في برهة زمانيّة معيّنة وفي مجال الارتباط بالموجود الزماني وهو آدم، فما المحذور في ان تكون الفترة الزمانية الخاصّة بتعليم الأسماء أيضاً قبل الفترة الزمانية الخاصّة بالعرض على الملائكة. على الرغم من انّ ماهيّة العملين ماهيّة مجردة وفوق المادّة، كما في قصّة المعراج فمع أنّ عروج الرسول الأكرمﷺ نحو السماوات إلى سدرة المنتهى يمكن ان يكون روحانياً تجردياً، على أقل تقدير طبقاً للاحتمال الذي ذكره العلاّمةﷺ في سورة الاسراء،[2] وهو في نفس الوقت له زمان خاصّ وقد وقع في سنة محدّدة من السنين الهجريّة وساعة معيّنة من الليل، ويقال ايضاً: انّ المعراج الثاني للنبيّ قد وقع بعد المعراج الأول من حيث الزمان مع انّ المفترض أن يكون كلاهما متّصفاً بماهيّة مجرّدة.

---

١. **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ١٦٧ (بالفارسية).
٢. راجع **تفسير الميزان**، ج ١٣، ص ٣٢.



والجواب هو أوّلاً، انّ الإنسان مركّب من بدن ماديّ متزمّن وروح مجرّدة من التزمّن.

ثانياً: انّ الأفعال المتعلّقة بالبدن لها صبغة ماديّة وزمانيّة، والأفعال المرتبطة بالروح لها صبغة التجرّد والنزاهة من الزمان.

ثالثاً: انّ اعطاء كلّ ذي حقّ حقّه يستوجب الفصل بين الشؤون الماديّة للبدن والشؤون المجرّدة للروح بواسطة التحليل العقليّ على الرغم من ارتباطهما.

رابعاً: انّ الإنسان الذي يدرك المسائل العقليّة والمجرّدة بواسطة الحوار والمناظرة والمباحثة والمطالعة والمتابعة البدنية، فهو وان كانت أعماله البدنيّة زمانية، ولكنّ مرحلة تعقله منزّهة عن الزمان.

خامساً: ما يتعلّق بمسألة تعليم الأسماء ببدن آدم فهو زمانيّ، وما يتعلّق بحقيقة الأسماء وكيفيّة الإشهاد والتعليم الحضوري لها وطريقة عرضها على الملائكة المجرّدين وأمثال ذلك، فهو منزّه عن الزمان.

سادساً: في قصة المعراج وأمثالها، كلّ ما يعود إلى الطبيعة فهو زماني، وكل ما هو خارج عن دائرة الطبيعة فليس متزمّناً.

سابعاً: انّ علاقة الاتّحاد بين الروح والبدن تصحّح انتساب حكم كلّ منهما إلى الآخر، لكنّ مثل هذا التجوّز لا ينفع في التحليلات العقليّة الدقيقة.

أقسام العرض وأنواع الحجاب

انّ المقصود من العرض المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ هو الإراءة والإعلام الاجماليّ عن طريق الإلهام وشبهه، لانّ العَرض على

قسمين: احدهما العَرض الجسماني، كمن يعرض جسماً ثقيلاً على شخص يدّعي القوّة والقدرة فيقول له إذا كنت قويّاً قادراً، فارفع هذا الجسم الثقيل، والآخر هو العَرض العلميّ، كمن يعرض على شخص يدّعي العلم وملكة الاجتهاد مسألة ويقول له: إذا كنت مجتهداً، فأجب عنها، وفي الحقيقة انّ المسألة تُعرض على فكره وتُحمل على روحه العلمية. ولاشكّ انّ العَرض في محل البحث هو من القسم الثاني.

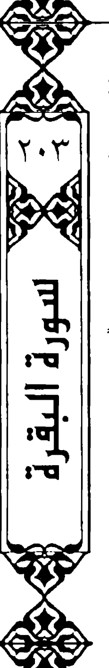
والحجاب والمانع الذي يذكر بعد مسألة العَرض والذي يكون مانعاً عن الفهم والادراك والحلّ والحمل فهو أيضاً على قسمين: احدهما الحجاب الماديّ والظلمانيّ المانع عن حمل الأشياء الماديّة، والآخر الحجاب المعنويّ والنورانيّ المانع عن فهم وادراك المعارف المعنويّة الذي هو في الحقيقة نفس المسألة العلميّة العميقة، وكلّما كانت المسألة أعمق كانت نورانيّتها أكثر وأشدّ، وإذا كانت العين الباطنيّة والبصيرة ضعيفة فهي تمسي أقلّ قدرة على رؤيتها العلميّة.

وهذا هو المقصود من قوله عليه السلام: «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك، حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور»[1] اي نصبح أقوياء إلى الدرجة التي نخترق فيها جميع المسائل العلمية العميقة، والمعارف الدينيّة التي هي حجب نورانيّة، واحدة بعد الاخرى.

والمانع من فهم وادراك الملائكة بعد العَرض عليهم ايضاً هو هذه الحجب النورانيّة التي ما هي الاّ عمق الأسماء الإلهيّة وعلوّ شأنها وارتفاع مستواها، بحيث لم يكن لدى الملائكة تلك القدرة التي يستطيعون بها

---

١. **مفاتيح الجنان**، المناجاة الشعبانية.



الاجتياز من مقاماتهم المحدّدة المعيّنة واختراق تلك الحجب النورانيّة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1] ولذلك قالوا: انّنا بأنفسنا لسنا عالمين، وأنت يا ربّنا لم تعلّمنا، ولذلك فاننا لا نمتلك علماً بهذه الحقائق.

وخلاصة القول هي: اوّلاً: انّ الحجاب عبارة عن المانع.

ثانياً: انّ المانع تارة يكون ماديّاً كالجدار، وتارة مجرّداً ومعنويّاً كالثقل العلميّ للمبادىء التصوريّة والتصديقيّة للمسائل النظرية: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾.[2]

ثالثاً: انّ الاجتياز من المبادئ الثقيلة صعب على الأفراد القاصرين، فهم محجوبون بمثل هذا الحجاب النوريّ العلميّ.

رابعاً: اجتياز الرياضة والتمرين العملي في تحصيل الملكات الراقية للعقل العمليّ، هو أمر صعب على السالكين الضعفاء، فهم محجوبون بهذا الحجاب النوريّ العمليّ.

خامساً: انّ الأسماء الإلهيّة الحسنى هي بمثابة القول الثقيل، وهي مثل ضوء الشمس الشديد مانع عن حصول الرؤية العلميّة لدى الملائكة، أي انّ الحاجب هو نفس شدّة نورانيّة المحجوب عنه لا شيء آخر.

سادساً: انّ المبادئ العميقة وان كانت حاجبة بالنسبة لذي المبادئ، ولكن هي بنفسها حاجب ومحجوب عنه ايضاً، أي انّ صاحب النظر القاصر محجوب ولا قدرة لديه على الرؤية العلمية للمبادئ العميقة حتّى يفهمها اوّلاً، ويجتازها كي يصل إلى النتيجة ثانياً.

---

١. **سورة الصافّات**، الآية ١٦٤.

٢. **سورة المزمّل**، الآية ٥.

كيفيّة عرض الأسماء على الملائكة

انّ مسألة عرض الأسماء أو المسمّيات على الملائكة كمسألة تعليم آدم يمكن تصوّرها على عدّة وجوه، كالعَرض التفصيليّ مع حفظ الكثرة الخارجيّة والعَرض الاجماليّ في حال الكشف التفصيلي بدون الكثرة العينيّة. ويحتمل ان يكون عرض الأسماء على الملائكة هو إراءة حقيقة الإنسان الكامل الذي هو مظهر جميع الأسماء الإلهيّة الحسنى، اي انّ الإنسان الكامل الذي ينطوي فيه العالَم الأكبر قد عُرض على الملائكة، وقيل لهم أخبروا عن الهويّة الجمعيّة واذكروا تعريفاً لهذه الحقيقة التي هي كون جامع ومجمع للأسماء الإلهيّة الحسنى.

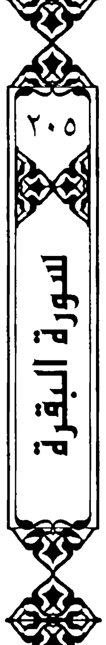
وعلى كلّ حال، فانّ الالتفات إلى هذه الملاحظة مفيد، وهي انّ بعض الأسماء الإلهيّة لها وجود عينيّ، وبعضها يُعدُّ من المعارف والأخلاق ولا وجود لها خارج النفس، لكن يمكن القول: انّ جميع الصفات والمعاني الأخلاقية لها في الملكوت وعالم المثال صورة جميلة أو قبيحة. وعَرض مثل هذه المعاني الأخلاقيّة، يمكن أن يقترن بعَرض صورها المثاليّة.

تنويه: ١. إذا كان العَرض ناظراً إلى المسمّى أولاً، وكان المقصود من الأسماء هو الألفاظ الدالّة عليها ثانياً، والرواية التي نقلها ابن عباس[1] مقصودة ايضاً ثالثاً، والتوجيه المذكور لم يكن مقبولاً رابعاً، فانّ ذروة المعنى القرآني تهبط إلى حقيقة لا يمكن الالتزام بها.

٢. انّ البعض ممّن يجوّزون التكليف بالمحال، استشهدوا بالآية

---

١. راجع نفس هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ١٩٦، من الترجمة العربية.



الكريمة: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ﴾ وقالوا: انّ الملائكة قد اُمروا بالإنباء مع العلم بعجزهم عنه. وجواب هذا التوهّم هو انّ الأمر المذكور من سنخ التعجيز، لا التكليف، اي انّ الغرض منه اظهار عجز المخاطب، لا لأجل طلب شيء منه.

علامة المسافة الوجوديّة الفاصلة بين الإنسان والملك

انّ ما ذُكر حول آدم (الإنسان الكامل) هو التعليم أوّلاً، وحقيقة الأسماء الإلهيّة ثانياً، وما ذكر حول الملائكة فهو الإنباء أوّلاً وأسماء الأسماء الإلهيّة ثانياً، اي قيل للملائكة: انّكم إذا كنتم غيرَ مطّلعين على حقيقة الأسماء ولا تعرفون كنه أسماء الأسماء، فتحدّثوا عنها على الأقلّ بمستوى الإنباء والإخبار عن أسماء الأسماء الحسنى لله: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاءِ﴾.

فكان الملائكة عاجزين عن الإنباء ايضاً، ولم يكن الأمر المذكور تكوينيّاً والاّ لكانوا قادرين عليه، ولم يكن امراً جديّاً، لانّه يمسي حينئذ تكليفاً بالمحال، بل كان تعجيزيّاً، واتّضح للملائكة انّهم بعيدون عن الخلافة بعدّة مراحل ومراتب وذلك لانّهم:

أوّلاً: كانوا عاجزين عن مجرّد الإنباء (فضلاً عن اظهار العلم).

ثانياً: كانوا عاجزين عن الإنباء والإخبار بأسماء الأسماء الإلهيّة ناهيك عن الاخبار بالأسماء الحسنى نفسها.

ثالثاً: من كان عاجزاً عن مجرّد الإنباء والإخبار فكيف يمكن ان يغدو مظهراً لتلك الأسماء، وكيف يحققها في هويّته الجمعيّة ويتحلّى ويتزيّن بها.

رابعاً: انّ أهم شرط يجب توفّره في مدير مؤسسة العالَم والمشرف على ادارة الكون، هو التحلّي والتزيّن بالأسماء الإلهيّة الحسنى. فمن كان فاقداً للركن الأساسيّ للخلافة فكيف يتمّ تعيينه مشرفاً على العالَم؟ ولأجل بيان الحدّ الفاصل الوجودي بين آدم والملائكة فقد استعملت كلمة «ثمّ» وكلمة (الفاء) ايضاً فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ... فَقَالَ أَنبِئُونِي...**﴾.

وما حصل بين الله سبحانه والملائكة وان كان من المحتمل كونه من سنخ المحاورة الحضوريّة التي هي أعلى من العلم الحصولي، لكنّه عندما يتمّ نقله ليُدوّن على هيئة كتاب هداية فانّه حينئذ سيأخذ حتماً صفة العلم الحصولي والقوانين والأحكام. وتطرح هنا مسألة التحدّي والدعوة إلى التجمّع والمبارزة والإتيان بالمشابه في دعوى النبوّة والرسالة والإعجاز وما شابه ذلك. وما تحدّث به الله سبحانه مع الملائكة المستفهمين، وما طلبه منهم من الإنباء بأسماء المظاهر الإلهيّة فهو من سنخ التحدّي حول الخلافة الإلهيّة. وهذا النحو من التحدّي واقتراح الاتيان بالمثل قد ذكر في مسألة المنكرين للنبوّة وهو ممّا تقدّم في تفسير الآية ٢٣ من هذه السورة،[١] كما وذكر هذا التحدّي ايضاً حول الذين ادّعوا انّ الملائكة اناث، وانّهم بنات الله المنزّه من جميع أنحاء التوالد، وقد قال القرآن الكريم في هذا المجال ﴿**أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ... فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.[٢]

تنويه: ١. انّ الملائكة في خلافة الإنسان كانوا مستخبرين لا

١. راجع كتاب **تفسير تسنيم**، ج ٢، ص ٤٩٣، من الترجمة العربية.
٢. **سورة الصافّات**، الآيات ١٥٣ ـ ١٥٧.



مستنكِرين ولا مستكبِرين. ولذلك فانّهم بادروا فور اتّضاح المسألة إلى القبول والاعتراف بقصورهم، لكنّ المشركين الذين وقفوا بوجه رسالة البشر بنحو عامّ ورسالة النبي الأكرم ﷺ بنحو خاصّ، كانوا مستنكِرين ومستكبِرين. ولذلك فانّهم وعلى الرغم من اتمام الحجّة قد استمرّوا وأصرّوا على نكولهم وعنادهم ورفعوا شعار الجهل: ﴿**أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا**﴾[1] بدلاً من الشعور العاقل الذي يؤكّد ان: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾.[2]

٢. كان للملائكة ادّعاءان: احدهما: على نحو الايجاب، وهو أهليّتهم وكفاءتهم للخلافة، والآخر: سلبيّ، وهو نفي كفاءة الإنسان للخلافة. وبعد التحدّي وظهور عجزهم عن الإنباء بالأسماء الإلهيّة فقد بطل ادّعاؤهم الايجابيّ، وبعد إنباء آدم لهم وتعلّمهم منه، وبعد ان ثبت انّ آدم معلّم لهم وهم متعلّمون منه فقد بطل ادّعاؤهم السلبيّ ايضاً. وعليه فانّ كفاءة وأهليّة آدم للخلافة لم تثبت بعجز الملائكة، وانّما ثبتت عندما أصبح آدم معلّماً للملائكة.

ادّعاء الملائكة

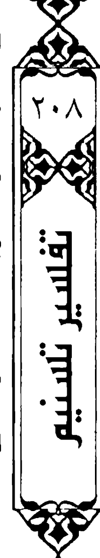
هناك سؤالان يُطرحان حول جملة: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ الأول: ما هو ادّعاء الملائكة الذي كان فيه مجال لإمكان الصدق والكذب، وكان من الممكن ان يكونوا صادقين أو كاذبين في ذلك الادّعاء؟

وفي جواب هذا السؤال توجد عدّة احتمالات: منها انّ المقصود

---

١. **سورة التغابن**، الآية ٦.

٢. **سورة الأنعام**، الآية ١٢٤.



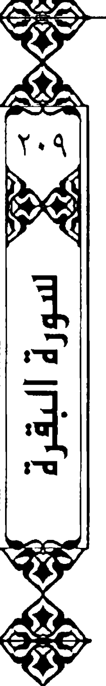
ادّعاء عدم وجود المصلحة في جعل الخلافة لآدم، بمعنى إذا كنتم صادقين في زعمكم بانّ جعل الخلافة لآدم عمل ليس فيه حكمة ولا مصلحة فأثبتوا ذلك... والاحتمال الآخر هو انّ المقصود الادّعاء والظن بانّهم أكفأ للخلافة....[1]

يقول الاستاذ العلاّمة الطباطبائي‌ﷺ: انّ مجيء الجملة المذكورة في ذيل سؤال: ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء**﴾ مشعر بأنّهم قد ادّعوا امراً يلزم منه العلم بالأسماء، وذلك هو كفاءتهم للخلافة وعدم كفاءة آدم لها.[2]

هذا البيان الذي يشبه الاحتمال الثاني مؤيّد برواية عن الإمام الصادق‌ﷺ حيث يقول: «انّ الله تبارك وتعالى علّم آدم أسماء حجج الله كلّها، ثمّ عرضهم وهم أرواح على الملائكة، ﴿**فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ بأنّكم أحقّ بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم... »،[3] لانّ جملة ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ قد طُبّقت على أحقيّة وأفضليّة الملائكة للخلافة: «ان كنتم صادقين بأنّكم أحقّ بالخلافة»، وان كان هذا التطبيق يحتمل فيه ان يكون فقط من باب الجري والتطبيق المصطلح لا التفسير المفهومي، حتّى لا يكون قابلاً للجمع مع الوجه الأوّل، كما انّ صدر الرواية ـ الذي اعتبر الأسماء التي علّمها الله لآدم هي أسماء الحجج الإلهيّة – هو أيضاً من سنخ الجري والتطبيق، ولا منافاة له مع تعليم سائر أسماء وحقائق العالم.

---

١. راجع كتاب **مجمع البيان**، ج ١ ـ ٢، ص ١٨١ ـ ١٨٢.
٢. **تفسير الميزان**، ج ١، ص ١١٦ ـ ١١٧.
٣. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٤؛ **كمال الدين وتمام النعمة**، ص ٨٩ ـ ٩٠.



وهناك وجه ثالث ايضاً يمكن ان يقال في جواب السؤال الأوّل وهو انّ ما كانت تُخبر عنه الملائكة هو اقتران تسبيحهم وتقديسهم بالحمد الكامل ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولاشك أنّ كمال الحمد متوقّف على معرفة جميع حقائق العالم التي هي جميعاً نعم الله، ومن جملة هذه الحقائق والنعم هي المعارف الغيبيّة، والذين هم كالملائكة غير عالمين بهذه المعارف، أو انّ علمهم بها ناقص فليس لديهم القدرة على الحمد في مقابل تلك النعم، وبالنتيجة فانّهم لا يستطيعون ان يدّعوا انّهم يقومون بالتسبيح المقرون بالحمد الكامل. ولذلك قيل لهم: إذا كنتم صادقين في هذا الادّعاء فأخبروني عن هذه المعارف.

ولعلّ هذا هو مقصود البعض عندما ذكر انّ التسبيح يكون في مقابل نعمة تجلّي الأسماء، إذ يقول:

انّ الملائكة في ضمن سؤالهم حول جعل المفسد والسفّاك، كانوا يدّعون التسبيح والتقديس، وكلّ تسبيح فهو بلحاظ الأسماء الخاصّة التي يفيضها الله عليهم، فبعض الأسماء سبب لتجلّي هؤلاء الملائكة أنفسهم وبعض الأسماء الخاصّة سبب لافاضة ذوات الملائكة الذين هم من أصحاب الدرجة الأعلى منهم أو افاضة القلم واللوح المحفوظ الذي هو أعلى منهم، ومادام كون الأسماء المخصوصة غير معلومة، فانّ التسبيح المتناسب معها والتقديس الملائم لها لا يكون متيسّراً.[1]

وعلى كلّ حال، فانّ هذا الجواب يكون تامّاً في حال ثبوت انّ ادّعاء الملائكة هو كون التسبيح مقترناً بالحمد المطلق وبالجملة، لا في

---

١. **رحمة من الرحمن**، ج ١، ص ١١٢.

الجملة، في حين انّه لا يستفاد من كلمة ﴿بِحَمْدِكَ﴾ في جملة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ اكثر من الحمد في الجملة.

تنويه: ١. بالنظر إلى كون الملائكة معصومين عن تعمّد الكذب، فانّ الذي يحصل في الادّعاء المذكور هو الصدق الخبريّ، لا الصدق المخبريّ. إذ انّ الصدق والكذب كما يكونان من صفات الخبر، فانّهما أيضاً قد يصبحان من صفات المخبر (طبعاً هناك اختلاف بين الصدق والكذب الخبري والصدق والكذب المخبري).

٢. انّ الصدق والكذب في القيم والأخلاق الذي يقترن بالحكم التكليفي يُتصوَّر حصوله لدى الملائكة الأرضيّين، لكنّ صدق وكذب الملائكة الذين هم فوق الطبيعة - والذين يتّصفون بالتجرّد التامّ العقليّ ولا مجال لصدور الأحكام التكليفية في حقهم - فهو من سنخ الكمال والنقص الوجودي، وهذا نظير ما يُطرح حول الله سبحانه من أنّ الله صادق وليس كاذباً، اي انّه يتّصف بالكمال الوجودي الذي يجعل كلّ ما يصدر من ذاته المقدّسة من أخبار وقضايا صادقة ومطابقة للواقع، ولا يوجد أبداً أيّ نقص وخلل لديه في مجال العلم والقدرة حتّى تكون بعض أخباره غير مطابقة للواقع. وخلاصة الكلام هي انّ الصدق والكذب في الموجود المجرّد التامّ يرجع إلى الوجود والعدم لا إلى (ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله).

وهناك وجوه اخرى أيضاً يمكن ذكرها في جواب السؤال المذكور.

السؤال الثاني هو ان تحقّق الصدق والكذب، يدور فقط في مدار الخبر وما ابداه الملائكة كان استخباراً وليس خبراً، والاستخبار هو الاستفهام، الذي هو من سنخ الإنشاء لا الخبر، والإنشاء لا يتّصف

بالصدق والكذب، والقرآن الكريم أوضح عنوان الصدق والكذب في موارد الزعم والادّعاء والخبر، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾،[١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.[٢]

وفي جواب هذا السؤال أي في بيان كيفيّة استعمال عنوان الصدق في الآية محلّ البحث، هناك وجوه ذكرت، منها ما يلي:

١. انّ بعض الأخبار لها معنى إنشائيّ وبعض الإنشاءات تتضمّن معنى خبرياً. فتارة تكون الجملة الخبريّة بداعي الإنشاء، واخرى تكون الجملة الإنشائية بداعي الإخبار. وجملة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ بلحاظ الصيغة والصورة هي إنشاء، لكنّ المؤدى الضمني لها هو انّنا أعلم وافضل من آدم، ونحن اكفأ منه للخلافة الإلهيّة، وهذا الادّعاء إخبار ويتّصف بالصدق والكذب، وقد كان الملائكة يعتبرون أنفسهم صادقين في هذا الادّعاء.[٣]

٢. انّ ما أبداه الملائكة لم يكن استفهاماً فحسب، بل انّهم بعد الاستفهام أخبروا أيضاً عن التسبيح والتقديس المقترن بالحمد، ويمكن ان يكون الصدق المأخوذ في الآية هو بلحاظ هذا الخبر لا ذلك الاستفهام.

لطائف وإشارات

١. كيفيّة تعليم الأسماء

انّ تعليم الأمور الكثيرة تارة يتمّ بتعلم جميع هذه الامور بنحو مستقلّ

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٩٤.

٢. **سورة البقرة**، الآية ١١١.

٣. راجع **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٥٩.

ومع المحافظة على كثرتها الخارجيّة، وتارة يتمّ عن طريق طرح وتعليم الاصول والقواعد العامّة وجوامع الكلم التي يُستنبط منها امور كثيرة أو انّ ذلك الأمر العام والجامع في عين بساطته و وحدته يكون شاملاً لجميع المركّبات والأشياء الكثيرة.

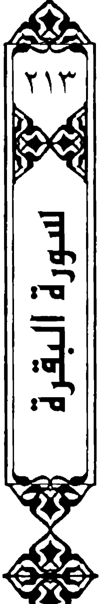
والحديث المعروف عن الإمام علي عليه السلام حول تعليم النبيّ صلى الله عليه وآله له هو مصداق للسنخين الأخيرين. والمضمون الاجمالي لهذا الحديث المعهود هو انّ امير المؤمنين عليه السلام قال: انّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عند رحيله: «**علّمني ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب الف باب**».[1]

وبعبارة اخرى، فبغضّ النظر عن التعليم التفصيليّ، واظهار الكثرة العينيّة فانّ هناك طريقين يتّضح بهما بأحسن وجه كيفيّة انفتاح ابواب العلوم الكثيرة من باب واحد، وهما:

١. القاعدة التي يمكن ان تستنبط منها فروع كثيرة، وحيث انّ قواعد عديدة تتشعّب من قاعدة جامعة وعامّة واحدة، فانّ جميع تلك الفروع المستنبطة ترجع إلى قواعد معيّنة، وجميع تلك القواعد ترجع إلى قاعدة تكون بمثابة امّ القواعد، كما مثّل الشيخ الاستاذ الشعراني رحمه الله بشكل القطاع وشكل المغني حيث تستنبط من كل واحد منهما فروع هندسية كثيرة،[2] طبعاً مع تطور الرياضيات واختراع الجهاز الحاسوب الأعظم، فقد اصبح بالامكان ايضاً الحصول على فروع اكثر من بعض القواعد الهندسيّة واختصار

١. **بحار الأنوار**، ج ٢٢، ص ٤٧٠؛ **الارشاد**، ج ١، ص ١٨٦.
٢. **شرح اصول الكافي**، الشيخ صالح المازندراني، ج ٢، ص ٣٦٧.





الزمن كذلك، فما كان قابلاً للاستنتاج الرياضي في مدّة طويلة، أصبح يُستنتج في أقصر فترة زمنيّة.

٢. انّ يتمّ إشهاد حقيقة بسيطة بواسطة العلم الحضوري، بحيث تكون هذه الحقيقة البسيطة في عين بساطتها و وحدتها شاملة لحقائق كثيرة، مثل ما يقال حول «بسيط الحقيقة كلّ الاشياء وليس بشيء منها»، طبعاً ما يطرح حول واجب الوجود فهو بنحو غير محدود، وما يطرح حول الممكنات البسيطة فهو بنحو محدود. فالمقصود هو انّه إذا تمّ للإنسان الكامل شهود حقيقة اسم عظيم بواسطة العلم الحضوري، وأشهده الله سبحانه كنه وحقيقة اسم كبير، فانّ جميع حقائق الأسماء الحسنى المنضوية تحت مجموعة ذلك الاسم العظيم والداخلة في دائرة هذا الاسم الكبير ستكون مشهودة للإنسان بالعلم الحضوري.

والفرق بين هذين الطريقين يكمن في اختلاف العلم الحصولي عن العلم الحضوري، فالأول من سنخ اندراج الفروع الكثيرة تحت الأصل الجامع وهي فروع تحتاج إلى الاستنباط، والثاني من سنخ الكشف التفصيلي في عين العلم الإجمالي. طبعاً انّ المقصود من العلم الإجمالي في مثل هذه البحوث غير العلم الإجمالي المعروف في علم اصول الفقه.

تنويه: انّ تعليم الأسماء الكثيرة تارة يقع موضعاً للبحث بلحاظ الإجمال والتفصيل، كما تقدّم توضيحه مفصّلاً، وتارة اخرى يقع موضعاً للبحث من ناحية كونه دفعياً وتدريجياً، وذلك انّ صيغة (علَّمَ) سواء كانت قراءتها بصورة المعلوم أو المجهول فهي من باب التفعيل، وهذا

الباب غالباً ما يفيد التدريج، كما يعتبرون الفرق بين انزال القرآن وتنزيله هو في كونه دفعيّاً وتدريجيّاً.

فهل انّ تعليم الأسماء الإلهيّة قد تمَّ بنحو دفعي أم بنحو تدريجي؟ وصحيح انّ ظاهر هيئة التفعيل هو افادة التدريج، لكنّ ظهور السياق وظاهر المقام يدلّان على كونه دفعياً بنحو يرجح على ظهور الهيئة المذكورة. طبعاً من الممكن ان يكون اظهارها الخارجي قد تمَّ بنحو تدريجيّ، كما إذا اعتبرنا نطاق الخلافة الإلهيّة واسعاً ورأينا بانّ هذا الفيض شامل لنوع الإنسان الصالح واعتبرنا انّ العلم بالأسماء الإلهيّة من نصيب الأفراد الصالحين على نحو التوزيع والتنويع والتقسيم فانّه حينئذ لا محذور من القول بالتدريج في تعليم الأسماء، لكنّ ما يستنبط من حوار الله سبحانه مع الملائكة والتعليم الإلهي وتعلّم آدم هو انّ تعليم الأسماء دفعي.

٢. دور العلم بالأسماء في مقام الخلافة

انّ اهمية مقام الخلافة تتّضح اجمالاً من سجود الملائكة وخضوعهم في مقابل آدم بعد تلقّيهم جواب السؤال واطّلاعهم على سرّ الخلافة. ومن بين الأسماء الإلهيّة الحسنى، فانّ اسم (العليم) المبارك، له دور أساسي في الخلافة. ولذلك فان الله سبحانه تحدّث عن العلم في جوابه الإجمالي للملائكة عندما قال ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾، وفي مقام البرهان التفصيلي ايضاً عندما طرح تعليم الأسماء، وذلك يعني انّ الإنسان الكامل يمتاز بخصوصيّة أنتم محرومون منها وهي انّه يعلم أشياءَ لا تعلمون بها.



وبعبارة اخرى: انّ خلافة الانسان تدور مدار علمه، وسائر الأسماء الحسنى مؤهّلة له أو متمّمة لكماله؛ وان كانت الأسماء في مقام ذات الله بعضها عين البعض الآخر. وعليه فكلّما كان الإنسان اعلم فانّه تظهر فيه الخلافة الإلهيّة بنحو افضل.

ومن الجدير بالالتفات، انّه ليس كل علم يكون معياراً للخلافة، وانّما العلم بالأسماء وحده هو الذي يؤثّر ويعطي هذه النتيجة. وعليه فلو كان هناك عالم في مجال طبقات الأرض (الجيولوجيا)، أو في الأحياء أو الفلك وكان بارعاً في تخصّصه ولكنّه لم يكن موحّداً، فبما انّه غير عالم بأيّ اسم من الأسماء الإلهيّة فليس له أي نصيب من الخلافة. فالعالم بطبقات الأرض انّما يحظى بمقام الخلافة إذا اعتبر الأرض (اسم الله)، و(وجه الله) و(آية الله)، والاّ فانّ العلم الذي يتعلق بذات الأرض، لا بارتباط الأرض بالله سبحانه، ليس فقط لا يجعل الإنسان خليفة لله وانّما يبعده عن حظيرة القدس الإلهيّة.

ولذلك فانّ القرآن الكريم قال في ذمّ العلماء الماديين الذين إذا بلّغ الأنبياء الرسالة الإلهيّة إلى الناس اكتفوا وفرحوا بما لديهم من العلوم المادية (كالطب والهندسة وغيرها): ﴿**فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾.[١]

وحول (قارون) يقول: انّ علمه بالاقتصاد بدلاً من ان يجعله شاكراً لنعمة الله فقد دفعه إلى ان يقول: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾،[٢] بل انّ

١. **سورة غافر**، الآية ٨٣.

٢. **سورة القصص**، الآية ٧٨.

هذا المعنى يوجد في باطن الكثير من أفراد البشر بهيئة شرك رقيق وهو يدفعهم للقول: انّهم اصبحوا علماء وبلغوا الكمال نتيجة مساعيهم الشخصيّة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] ولم ينتبهوا إلى انّ هذا الشرك الخافت اللون سيصير يوماً ما قاتماً وشديداً ويبرز من أعماقهم بحيث يوقع صاحبه في الهلكة.[2]

وكذلك التعبير المتداول عند الناس (الله اوّلاً، وأنت ثانياً) فانّ أمثال هذا هو من أنحاء الشرك الخفيّ، والعبارات الشيطانيّة التي تظهر في الظروف الحالكة والابتلاءات الشديدة التي تقع في كلّ عام مرّة أو مرّتين ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[3] فتبتلع الإنسان في داخلها، وهو غافل عن انّ جميع النعم هي من الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ﴾،[4] والموحّد هو الذي لا يرى نفسه مؤثّراً في حصول النعمة ولا يرى الآخرين أيضاً، وكذلك كان الأنبياء عليهم السلام، ولهذا فانّهم يردّدون دائماً ذكر ﴿الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وعلى كلّ حال فانّ الدور الأساسي في الخلافة الإلهيّة هو للعلم، وبقيّة الأسماء تقع في ظل العلم، ولهذا فانّ الله سبحانه في قصّة خلق آدم لم يقُل للملائكة عندما ذكروا التسبيح والتقديس: انّ الإنسان أيضاً من أهل التسبيح والتقديس، بل أكّد على كونه عالماً، وان امتدح ـ في الكثير

---

١. **سورة يوسف**، الآية ١٠٦.

٢. سُئل الإمام الصادق عليه السلام: كيف انّ اكثر المؤمنين مشركون؟ فقال هو في قولهم (لولا فلان لهلكت). **تفسير نور الثقلين**، ج ٢، ص ٤٧٦.

٣. **سورة التوبة**، الآية ١٢٦.

٤. **سورة النحل**، الآية ٥٣.

من المواضع ــ الأنبياء وغيرهم من الأفراد الكاملين بأسماء فعليّة كالمسبِّح والأوّاب والمنيب والشكور، لكنّه لم يذكرها في المحاورة مع الملائكة، لانّ أيّ واحد منها لا يرقى إلى مستوى العلم والمعرفة. وانّ الذي تحصل بيُمنه وبركته جميع هذه الأسماء الفعليّة ويضفي عليها جمالاً وكمالاً لهو العلم، كما انّ قيمة العبادة هي بالعلم والمعرفة أيضاً، لانّ الذي يؤدّي إلى كمال العبادة هو الاخلاص، والذي يؤدّي إلى الاخلاص هو المعرفة.

وعلى هذا الأساس قيل بانّه (لضربة عليّ خير من عبادة الثقلين)[1] لانّ معرفة واخلاص امير المؤمنين علي عليه السلام كانت أعلى درجات المعرفة والاخلاص، وعلى هذا الأساس صار مداد العلماء أعلى من دماء الشهداء، لانّ معرفة العلماء أكثر وبالنتيجة يكون اخلاصهم أشدّ. والعبادة أمر يزول وينتهي لانّ حكم العبادة يرتفع مع انتهاء الدنيا التي هي نشأة التكليف وان كان أثرها باقياً، ولكنّ المعرفة غير قابلة للفناء ولا حدّ لها، لانّ المعرفة هي شهود الله وأسمائه الحسنى، والانسان بقدر ما يرتقي في درجات الشهود تنكشف وتتجلى له مشهودات اكثر، وبهذا اللحاظ فانّ لقاء الله لا حدّ له ولا منتهى.

وإذا ما أراد أحد ان تكون لعبادته قيمة فَلْيسعَ للاخلاص فيها، ولأجل الحصول على الاخلاص لابدّ له من السعي إلى المعرفة، لانّ الإنسان بواسطة المعرفة يستطيع ان يدرك وساوس ابليس ومكره الخفي، وبدونها قد يمسي تحت ولاية الشيطان وهو يحسب نفسه خادماً للدين والمجتمع،

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٣٩، ص ٢، ح ١؛ **الطرائف**، ص ٥١٩.



في حين انّه لو قام بمحاسبة نفسه ومراقبتها لعلم انّه وبسبب عدم المعرفة أو ضعفها، بأيّ دافع ولأيّ هدف شيطانيّ كان يتحرّك. فالتمييز بين العمل الخالص وغير الخالص لا يحصل دون المعرفة العميقة.

وإذا أردنا ان لا يشملنا الخطاب الذي توجّه إلى الشيطان عندما قيل له: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[1] اي ان نصل إلى التواضع والعبودية، ولا نشعر بالاستقلال أبداً بل نعتبر انفسنا رهن لطفه ونطبّق معنى قوله: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ**﴾[2] في جميع شؤون حياتنا، فانّه يجب ان نصل إلى العلم والمعرفة الإلهيّة.

وطريق العزّة هو ان نذهب عند (العزيز)، وطبقاً لما جاء في سورة فاطر فانّ الطريق إلى الرواح إلى العزيز هو الكلمات والعقائد والمعارف الطيّبة: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[3].

فهذه الآية تقول: انّ المعرفة الصحيحة (قائد)، والعمل الصالح (سائق)، فمن أراد العزّة فعليه ان يتقدّم نحوها بقيادة الكلمات الطيّبة وهي المعرفة الحقيقيّة، وبالاستعانة بالعمل الصالح الذي هو بمثابة السائق والقوّة الدافعة التي ترفع الإنسان.[4]

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٣.

٢. **سورة النحل**، الآية ٥٣.

٣. **سورة فاطر**، الآية ١٠.

٤. السائق هو الذي يدفع المتحرّك من الخلف والقائد هو الذي يتحرّك أمام المتحرّك ليقود حركته.

وعلى كلّ حال، فالسرّ في انّ الله سبحانه في جوابه للملائكة بيَّن لهم انّ سند الخلافة الإلهيّة هو العلم والمعرفة بالأسماء - ذلك السرّ هو انّ جميع الأسماء الفعليّة الأخرى لله تنضوي تحت العلم، وانّ قيمة التسبيح والتقديس والعبادة تتبع الاخلاص والعبوديّة التي تتحقق في ظلّ المعرفة.

فاتّضح ممّا تقدّم انّ سرَّ الخلافة هو الاطّلاع على جميع الأسماء والحقائق والمعارف، ايّ التمتّع بالعلم اللدنيّ والتتلمذ المباشر عند الله سبحانه. وانّ التعرّف على جميع حقائق عالم الإمكان هو الذي كان عامل التمييز بين الإنسان الكامل والملائكة، وهو السبب في حرمان الملائكة من مقام الخلافة. فهؤلاء مع انّهم كانوا من أهل التسبيح والتقديس ويتمتّعون بالصفات التنزيهيّة والجلاليّة، لكنّهم محرومون من المقام المحمود والصفات التشبيهيّة والجماليّة.

وانّما ذلك الإنسان الكامل هو الذي يستطيع ان يحكي الجمال الإلهيّ بل يمكنه ان يسأل من الله أن يؤتيه جميع أنحاء الجمال الإلهيّ الظاهر والواصل إلى عالم الإمكان وأن يقول: «**اللّهم انّي أسألك من جمالك بأجمله، وكلّ جمالك جميل**».[1] وكذلك يحكي الجلال الإلهي ويطلب من الله جميع أنحاء الجلال الظاهر في عالم الامكان ويقول: «**اللّهم انّي أسألك من جلالك بأجلّه، وكلّ جلالك جليل**».[2] فالإنسان الكامل هو الذي يستطيع ان يكون خليفة لله في

١. **مفاتيح الجنان**، دعاء السحر.
٢. **مفاتيح الجنان**، دعاء السحر.

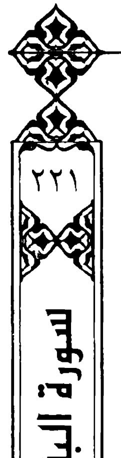
الجمال والجلال وان يبلغ المقام المحمود: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.[1]

خليفة الله هو المدير والمسؤول عن الجهاز والمؤسسة المنظمة لعالم الوجود. وانّ خلق الملائكة وكذلك ايجاد النظام الكوني في ست مراحل وأدوار وتقدير الأرزاق في اربعة فصول وخلق الجنّ والأحياء وسائر الموجودات من ذوات الارواح وغيرها في انحاء الكون، قد كَوّنَ مجموعة منسجمة مترابطة يمكن ان توصف بأنّها مؤسّسة منظّمة، ولكن لم يخطر في بال أحد لا الملائكة ولا غيرهم انّ هذه المجموعة المنسجمة محتاجة إلى مدير يكون خليفة لله في ادارتها وتدبير نظامها، وعلى فرض تصوّر ذلك المعنى فمن هو مصداقهُ والمؤهّل له؟ لأنّه إذا كان الملائكة قد غفلوا عن هذا الأمر المهمّ، فانَّ الآخرين أولى بذلك.

انّ خلق الكون الواسع لأجل اعداد دائرة خلافة الإنسان الكامل، والوجود الآخر ليس مطلوباً في مقام الفعل. ولذلك فانّ الإنسان الكامل إذا انتقل من نشأة الدنيا إلى الآخرة، فانّ الدنيا ستتحوّل إلى آخرة ايضاً، وإذا خلقت دنيا اخرى فانّها تحتاج إلى خليفة آخر. وبالنتيجة فانّ الصراط المستقيم الوحيد في التكامل الوجودي هو طريق خليفة الله والإنسان الكامل. والملك ايضاً إذا أراد ان يبلغ كمال الوجود فيجب عليه أن يحقق القواعد العامّة للإنسانيّة. وكما جاء في بيت شعري رائع للحافظ الشيرازي فقد جاء في شعره الغزلي المعبِّر:

---

١. سورة الاسراء، الآية ٧٩.



اذهب إلى باب حانة العشق ايّها الملك المسبّح

فهناك يتمّ تخمير واعداد طينة آدم

وقد رأيت الملائكة هنا صفاً يطرقون باب الحانة

ليأخذوا من طينة آدم ويضعوها في أوعيتهم

خليفة الله هو المُطّلع بالفعل على جميع حقائق العالم أو انّه يتمتّع بالاستعداد لمعرفتها ومن هو مظهر لجميع أنحاء الجمال والجلال التي ظهرت من قبل الله سبحانه في عالم الإمكان، او انّه مظهر لها بالقوّة، اي يكون مظهراً إجماليّاً لها، في مقابل العالَم (العالم الذي يكون الإنسان الكامل ايضاً جزءً منه) الذي هو المظهر التفصيلي لكلّ الجمال والجلال وجميع الأسماء الإلهيّة.

خليفة الله هو الإنسان الكامل الذي ليس معلماً لأفراد البشريّة فحسب، حيث انّه يعلّمهم اموراً لا يمكنهم تعلّمها بغير تعليمه: ﴿**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ**﴾،[1] بل انّه معلّم الملائكة ايضاً، ويعلّمهم اموراً ليس فقط لم يكونوا عالمين بها بل لا يمكنهم معرفتها بدون تعليمه.

خليفة الله هو الفاروق بين الحق والباطل والفيصل بين الحسن والقبح، اي انّه مظهر: ﴿**لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾،[2] ولو لم يظهر الإنسان الكامل وخليفة الله في صورة آدمعليه السلام، ولو لم يكن الامتحان الإلهيّ في الجنّة لما كان قد اتّضح الفرق بين الحق والباطل ولما ظهرت أحقيّة الملائكة وبطلان الشيطان (الذي كان مخفيّاً بين الملائكة)، اي انّ

١. **سورة البقرة**، الآية ١٥١.

٢. **سورة الأنفال**، الآية ٣٧.

الملائكة ادركوا انّ مقدار وجودهم ووعائهم ليس فيه ما يكفي من شراب الوصال، لذلك كان يتحتّم عليهم اللجوء إلى وعاء آدم ليستمدّوا منه، وفي هذا الطريق فانّ سكّان حرم الستر والعفاف الملكوتي مع البشر وسكّان التراب في وفاق وفي طريق سفر واحد. وقد أنشد البعض في هذا المعنى:

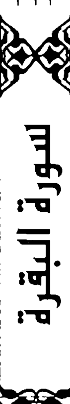
انّ شعاع حُسنك قد تجلّى منذ الأزل
فظهر العشق واحرق جميع العالم
فنظر الملك وراى انّه لا يملك عشقاً
فأصبح كالنار من شدة الحميّة وهجم على آدم[1]

كل ذلك لأجل انّ الملائكة فقط مظهر للأسماء التنزيهيّة لله ولا يمكنهم ان يكونوا مظهراً للاسم الإلهيّ الجامع، ولكنّ آدم، اي خليفة الله والإنسان الكامل بما انّه جامع للتنزيه والتشبيه فانّ بإمكانه ان يكون مظهراً كاملاً لجميع الأسماء. لذلك يقول الشاعر:

ان الملك لا يدرك ما هو العشق فيا أيّها الساقي
اطلب كاساً وصبّ ماء الورد على تراب آدم

تنويه: انّ العلم والقدرة تكوّن العناصر الأساسية للخلافة الإلهيّة، لانّ مَن لم يكن مُطّلعاً على حقائق العالم فانّه لا يملك قدرة تدبيرها واستخدامها الصحيح ووضعها في مواضعها، ومن كان ذا معرفة بها ولكنه لا يتمكّن من استعمالها فانّه لا يحظى بشيء من الخلافة التدبيريّة، والله سبحانه عَرَّف

١. **ديوان حافظ**، الشعر الغزلي، الرقم ١٥٢ (بالفارسية).



نفسه بانّه مستعمر للإنسان: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1] ولـذلك مـن الـلاّزم علـى الإنسان ان يكون: أوّلاً: عالماً بحقائق العالم التي هي مظاهر الأسـماء الإلهيّـة الحسنى، وثانياً: ان تكون له قدرة على ادارتها وتدبيرها.

وفي قصّة الخلافة قد اُشير فقط إلى علم الإنسان بالأسماء ولم يُـشَر إلى قدرتـه وهـذا الاقتـصار امـا لانّ قـدرة الإنـسان واضـحة، والاّ لقـال الملائكة هل تجعل العاجز خليفتك لتدبير العالَم؟! أو لأنّ من خـصائص العلم بالأسماء الإلهيّة هو حصول القدرة. اي انّ العلم المذكور يتميّز فـي أنّ القدرة تقترن معه.

٢. البعض ممّن ظنّ انّ المقصود من تعليم الأسماء هو التعرّف علـى معاني الألفاظ واللغات، قـد أضـفوا علـى علـم اللغـة درجـةً عاليـة مـن الفضيلة بحيث جعلوه أفضل العلوم بعد علم التوحيـد، وقـالوا: انّ أولـى العلوم بالتعلّم بعد علم التوحيد هـو علـم اللغـة، لانّ الله قـد فـضّل آدم بسبب معرفته بعلم اللغة.[2] والملائكة ايضاً ادركوا أفـضليّة آدم عـن هـذا الطريق.

والاستنتاج المذكور قابل للنقد من عدّة جهات، لانّه اوّلاً: ثبـت مـن الناحية العقليّة انّ قيمة العلم تكون امّا برجحان موضوعه ومعلومه أو في اسلوبه وطريقة استدلاله. وعلم الحكمة والكلام يتمتّعان بمكانـة خاصّـة وذلك بسبب شرف موضوعهما ومعلومهما وبلحاظ قوّة برهانهمـا (فيمـا يخصّ مسائلهما البرهانيّة المتقنة)، وعلم الرياضيّات اضـافة إلـى فائدتـه

١. **سورة هود**، الآية ٦١.

٢. **روح البيان**، ج ١، ص ١٠٠.



العمليّة في نطاق الطبيعة فانّه يتّصف بالرجحان بلحاظ قوّة أدلته وبراهينه. امّا علم الأدب واللغة وامثالهما من العلوم التي تنحصر في حدود البحث عن الألفاظ من جهة، وعن معانيها المجعولة لها من جهة اخرى، فانّها لا تتمتّع (بقداسة الموضوع والمعلوم) وليس لها نصيب من قوّة و(وثاقة البرهان)، ولهذا فهي لا تستطيع ابداً ان تمتاز على العلوم ذات الشرف والقدسيّة وقوة البرهان.

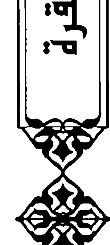
ثانياً: لقد ثبت من ناحية الاستظهار اللفظي، وفي خلال هذا البحث، انّ ما يمكن أن يكون معياراً للخلافة الإلهيّة - بلحاظ تناسب الحكم والموضوع - ويكون عاملاً لترجيح الإنسان الكامل على الملائكة، هو العلم المتّصف بالقدسيّة والشرف وقوّة البرهان ايضاً.

٣. القاعدة الأساسيّة لكمالات الإنسان الكامل:

انّ الصفات والخصائص التي ثبتت لآدم (الإنسان الكامل)، بعضها ايجابية ككونه خليفة الله ومعلّم الملائكة، وكونه مسجوداً له من قِبَل الملائكة، والمتعلّم مباشرة من الله والسامع لكلام الله، والمشاهد بعينه الباطنية جمال الله... والبعض منها صفات سلبيّة مثل كونه مُعادى ومحسوداً من قبل الشيطان وكونه مأموراً بالاستعاذة من الشيطان وطرده.

ويبدو انّ هذه الصفات المتعدّدة ليست في عرض واحد وانّما هي في طول بعضها، وتعود جميعها إلى أصل واحد هو المقام السامي للخلافة الإلهيّة، وحيث انّ السبب الأصلي لخلافة الله هو العلم بالأسماء الحسنى الإلهيّة وأسماء الله طولية وليست عرضيّة فيما بينها، فانّ ما يجعل





الإنسان الكامل كوناً جامعاً وخليفـة مطلقـاً وعامّـاً لله، هـو العلـم بالاسـم الأعظم وصيرورة الإنسان مظهراً لذلك الإسم الأعلى. ولذلك فـانّ القاعـدة الأساسيّة لجميع هذه الكمالات ينبغي البحث عنها في مظهرية ذلك الاسم الأعظم، وحيث انّ الشيطان مضافاً إلى تكبّره القبيح في مقابل آدم، فانّه قد ابتلي بالاستكبار المشؤوم في مقابل الله سبحانه، وجعل من نفسه عـدوّاً لله (في مقام الظهور والفعل) وحيث انّ خليفة الله هـو المظهـر التـامّ لله، فـانّ ابليس بما انّه عدوّ لله فهو سوف يكون عدوّاً مبيناً أيضاً لخليفة الله.

وبيان ذلك: انّ القرآن الكريم يَعُدُّ البعض عدوّاً لله وعدوّاً لأوليـاء الله كما في قوله تعالى: ﴿**يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ**﴾،[1] اي انّ فرعون عدوّ لي وعدّو لموسى عليه السلام، وقوله تعـالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء**﴾،[2] وقوله تعـالى: ﴿**تُرْهِبُونَ بِـهِ عَـدْوَّ اللّـهِ وَعَـدُوَّكُمْ**﴾،[3] وقوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ**﴾،[4] ومعنى العـداوة مـع الله هي نفس العداوة مع الدين، ومعنى العداوة مع اولياء الله، هو بغـضهم بسبب قيامهم بالتبليغ والتعليم والبحث والتحقيق في امور الدين. والمنشأ لجميع الوان العداء من الكفّار والمنافقين والمعاندين هو اغواء الـشيطان. وعليه فانّ ألـدّ اعـداء الإنـسان وأخطـرهم هـو الـشيطان: ﴿**إِنَّ الـشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾.[5]

---

١. سورة طه، الآية ٣٩.

٢. سورة الممتحنة، الآية ١.

٣. سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٤. سورة البقرة، الآية ٩٨.

٥. سورة يوسف، الآية ٥.

وبالتحليل الذي تقدم بيانه حول العلم بالأسماء وما لمعرفتها من دور مؤثّر يتبيّن انّ ما جاء في بعض التفاسير على الرغم من اشتماله على نقطة قوة فانّه لا يخلو من ضعف، حيث قال:

«ان مقتضى لفظ العموم هو انّ كلَّ ما هو من الأسماء فقد تعلّمه آدم، من أسماء الخالق وأسماء المخلوقات ايضاً. اذن فانّ آدم قد تخصّص وامتاز على الملائكة بمعرفة أسماء المخلوقات، وظهرت أفضليّته عليهم حيث لم يكونوا يعلمون بها، وعلمه بأسماء الله كان سرّاً بينه وبين الخالق ولم يطّلع عليه الملائكة. اذن ثمرة العلم باسم المخلوق عند آدم أن أسجَدَ الله له الملائكة، ونتيجة العلم بالخالق انّه صار يرى الحق سبحانه ويسمع كلامه».[1]

انّ ضعف مثل هذا التخصيص لتأثير العلم بأسماء المخلوقات في صيرورة آدم مسجوداً له من قِبَل الملائكة ناشئ من انّ هذا الكلام لم يذكر معه لا دليل عقلي ولا نقلي وليس هناك مناسبة واضحة لهذا الاختصاص.

٤. الوجود الخاص للعلم بالأسماء الإلهيّة:

تكمن حقيقة العلم في انّ له وجوداً خاصّاً وهو غير التعليم والتعلّم، كما انّ حقيقة الحركة هي انّ لها نحواً خاصّاً من الوجود يختلف عن التحريك والتحرّك، وكما انّ توهّم نفي الوجود الخاص للحركة والزعم بانّ الحركة بالقياس مع الفاعل والمحرّك عين التحريك وبالقياس إلى القابل والمتحرّك

١. كشف الأسرار، ج ١، ص ١٣٧.



عين التحرّك، هو قول غير صحيح، كذلك فانّ توهّم كون العلم بالقياس إلى المعلّم عين التعليم وبالقياس إلى المتعلّم عين التعلّم هو غير صحيح، بل انّ للعلم حقيقة مستقلّة بنحو تامّ عن التعليم والتعلّم، كما انّ للحركة حقيقة مستقلّة بنحو تامّ عن التحريك والتحرّك، وان وجدت سويّة.

وحيث انّ حقيقة العلم هي غير التعليم والتعلّم، فمن الممكن ان تكون تلك الحقيقة موجودة من قبل، فيقوم معلّم تلك الحقيقة الموجودة بالقائها إلى المتعلّم، ويمكن ان توجد تلك الحقيقة مقترنة مع التعليم والتعلّم. والعلم بالأسماء الإلهيّة له حقيقة موجودة سابقاً، وآدم (الإنسان الكامل) قد أخذها فيما بعد من معلّمه الحقيقيّ وهو الله سبحانه، ولكنّ علم اللغات والأسماء الأدبيّة واللغويّة للأشياء قد ظهرت مع تعليم الإنسان الأوّل، ولم يكن علم الأدب واللغة موجوداً من قبل، ثمّ تعلّمه الإنسان الأول أيّاً كان، لانّ مثل هذه العلوم الوضعيّة والاعتباريّة توجد مقترنة بوجود الإنسان المضطّر إلى وضعها واستعمالها.

طبعاً بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة يتمّ تعليم هذه العلوم مع المحافظة على سابقتها الوجودية، ولا اشكال في ذلك، لكنّه بالنسبة إلى الإنسان الأوّل، فانّ ظهور وتحقّق هذه العلوم كان مقترناً مع التعليم والتعلّم.

٥. خليفة الله المطلق، هو مظهر مطلق الأسماء

انّ معيار الخلافة ليس العلم بالأسماء فحسب، وانّما هو العلم بجميع الأسماء، أي انّ الخلافة المطروحة في الآية محلّ البحث هي المظهريّة لجميع الصفات مع المحافظة على مراتبها.

والجدير بالذكر هو انّ خليفة الله مظهر لجميع الأسماء الظاهرة، والتي خرجت من مخزن الغيب المحض والغيب المطلق، والاّ فانّ الامور المتعلّقة بغيب الذات وهي من الأسماء المستأثَرة التي لم تظهر ولن تظهر ابداً، أي انّها من باطن ذات الله سبحانه (لا الباطن المقابل للظاهر الذي يُعدّ تعيّناً خاصّاً) ولم تظهر في عالم الإمكان ولن تظهر ابداً، فانّها خارجة عن قدرة الإنسان الكامل، وعليه فلا يمكنه ان يكون مظهراً لها.

خليفة الله (المحيط المطلق) و(العليم بكلّ شيء) و(القدير على كلّ شيء) و(الحيّ الذي لا يموت) يجب ان يتحلّى بهذه الصفات، والاّ فانّ مَن تنزّل إلى دائرة الجهل والضعف والغَيبة فانّه بمقدار ذلك لا يحظى بشيء من الخلافة الإلهيّة.

وبهذا المنظار فانّ الملائكة ليسوا أهلاً للخلافة الإلهيّة، لانّهم مظهر لبعض الأسماء الإلهيّة، لا جميعها، وبعبارة اخرى انّهم لا يستطيعون ان يكونوا الخليفة المطلق والمباشر لله، وانّما يستطيعون ان يكونوا - بمقدار مظهريّتهم بالنسبة إلى الأسماء - خلفاء محدودين وغير مباشرين لله، أي يصبحون خليفةَ خليفةِ الله، وهذا المعنى يصدق أيضاً على عموم الأفراد المتقّين الذي حصلوا على مظهريّة بعض الأسماء، اي أنّ خلافتهم غير مباشرة وتحت ظلّ خلافة الإنسان الكامل وجميع هؤلاء مع جميع الملائكة تحت سيطرة واشراف واحاطة الإنسان الكامل وكلهم عيال عليه. وهم يُطعَمون ويُرزَقون بيُمن وبركة الإنسان الكامل وجميع السماوات

والأرض تستقرّ وتثبت بوجود خليفة الله المطلق: «**بيُمنه رُزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء**».[١]

ويمكن أن يقال انّ الملائكة بعد إنباء آدم، قد اصبحوا عالمين بجميع الأسماء، فكيف لم يرتقوا إلى مقام الخلافة المطلقة؟

وجواب ذلك أوّلاً: انّ الإنباء يعني الإخبار، وهو يختلف عن التعليم. ولذلك فانّ الملائكة بعد إنباء آدم ايضاً، قد اعترفوا بجهلهم.

ثانياً: وعلى فرض انّهم اصبحوا عالمين بعد إخبار آدم لهم، فانّ علمهم علم مع الواسطة وغير لدنيّ ويختلف عن علم آدم المباشر واللدنيّ (لدن = عند وفي محضر) ومثل هذا العلم لا يمكن أن يكون معياراً للخلافة المباشرة، لانّ معيار الخلافة المباشرة هو العلم المباشر.

ويمكن ان يقال: لماذا أصبح الإنسان مظهراً كاملاً لكل الصفات فبلغ مقام الخلافة المطلقة، ولكنّ الملائكة صاروا مظهراً لبعض الصفات فكانت خلافتهم ضيّقة ومحدودة أيضاً؟ فلو كان هؤلاء من البداية ايضاً قد خُلِقوا بشكلٍ يغدون فيه مظهراً لجميع الصفات لكانوا ايضاً أهلاً للخلافة المطلقة.

وجواب ذلك انّ نظام الكون هو نظام (العلة والمعلول) في اصطلاح الحكماء ونظام (التجلّي الأتمّ والتامّ) باصطلاح العرفاء. وعليه فانّ الملائكة امّا أن يكونوا هم التجلّي الأتمّ والظاهر أو الصادر الأوّل، ويكون الإنسان هو التجلّي التامّ والمعلول والظاهر أو الصادر الثاني أو بالعكس، لكنّ مشيئة الله تعلّقت بعكس ذلك.

---

١. **مفاتيح الجنان**، دعاء العديلة.

فقد تعلّقت مشيئة الله بان يتمتّع الإنسان الكامل بالحسّ والخيال والوهم والعقل ويحظى بجميع المظاهر العلميّة والعمليّة، وبالنتيجة تكون له القدرة على فهم جميع الأشياء، وأن يكون متعلّماً بصورة مباشرة من الله سبحانه، وامّا الملائكة، فهم في مجال العلم لا يملكون قوى في مستوى التوّهم والتخيّل والاحساس، ولا في مجال العمل يتمتّعون بقدرات كالشهوة والغضب، وانّما علمهم وقدرتهم متّحدتان مع بعضهما وكل منهما عين الاخرى، وهي في مستوى التجرّد العقلي وفي دائرة مغلقة، وكذلك بقيّة الموجودات التي هي ايضاً مثل الملائكة تكون مشمولة بقانون: ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ**﴾[1] ولديها بعض الأسرار والأسماء الإلهيّة الظاهرة في عالم الخلق.

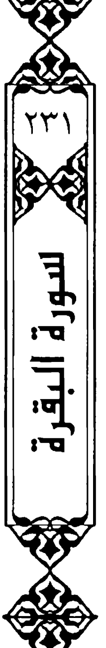
وتعلقت مشيئة الله بان تكون مخلوقات السماء والأرض كل واحد منها امّا مجرّداً أو ماديّاً. فالموجودات الماديّة ليس لديها عمل عقليّ وتجرديّ، والموجودات المجرّدة ليس لديها عمل حسيّ وماديّ، ولكنّ ذلك الموجود الحاضر في نشأة الطبيعة ويقوم بالعمل الطبيعي، وكذلك هو حاضر في نشأة المثال والبرزخ ويؤدّي الأعمال البرزخيّة والمثاليّة، وكذلك هو حاضر في نشأة العقل ويقوم بعمل المجرّد التامّ، فهو الإنسان الكامل.

فالإنسان الكامل هو وحده الذي يقال له: ﴿**يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه**﴾،[2] اي انّك ايّها الإنسان قد بدأت من نقطة: ﴿**لَمْ**

---

١. **سورة الصافّات**، الآية ١٦٤.

٢. **سورة الانشقاق**، الآية ٦.



تكُ شَيْئًا﴾[١] ثمّ تكون نطفة ثمّ علقة وهكذا حتّى تصير: ﴿**إِنَّكَ كَادِحٌ...**﴾ اي انّك ذلك الموجود الذي أحد طرفيه في عالم الطبيعة والآخر مرتبط بلقاء الله، وليس له حدٌّ معيّن ولا مقام معلوم. ومثل هذا الموجود في حال الكمال يستطيع ان يكون مظهراً لجميع الأسماء الفعليّة لله سبحانه. وببيان آخر: انّ ما يظهر في عالم التكوين من خلق وقبض وبسط وشفاء وإحياء وإماتة وامثال ذلك (وهي امور تُنتزع من مقام فعل الله وممكنة الوجود وليست واجبة) تستدعي مظهراً وهو خليفة الله والإنسان الكامل، والإمام الصادق عليه السلام يقول في ذيل الآية الكريمة ﴿**وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى**﴾،[٢] انّنا «**نحن الأسماء الحسنى**».[٣]

مثل هذا الإنسان الكامل يتربّع على ركني العالم، فطرف منه في الأرض ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا من طين**﴾[٤] والطرف الآخر منه هو اللقاء الخاص الذي بيّنته الآية الكريمة ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ**﴾،[٥] اي انّه الموجود الذي يستطيع في حال حضوره في عالم المادّة ومع المحافظة على جميع قواه المتعلّقة بعالم المادّة والسيطرة عليها أن يبلغ مرتبة النفس المطمئنة ويجتازها... وهذا الإنسان الكامل هو الذي يستطيع أن يحمل أمانة الأسماء.

والقرآن الكريم يقول تارة: انّنا عرضنا الأسماء والحقائق على

---

١. **سورة مريم**، الآية ٩.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ١٨٠.

٣. **بحار الأنوار**، ج ٢٥، ص ٤، ح ٧.

٤. **سورة ص**، الآية ٧١.

٥. **سورة الفجر**، الآية ٢٧.

الملائكة ولكنّهم لم يستطيعوا حملها، وتارة اخرى يقول انّنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال (وبقرينة التقابل بينها وبين الإنسان تكون شاملة لجميع الموجودات ماعدا الإنسان) ولكنّها أبت حملها. فالذي يتمكّن ان يكون خليفة الله هو الذي يحمل الأسماء المعروضة على الملائكة ويحمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض. طبعاً يحتمل ان تكون هذه الأمانة جزءاً من تلك الأسماء والحقائق.

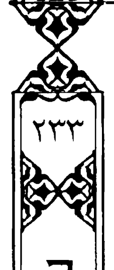
٦. حرمان المفسدين من الخلافة الإلهيّة

إذا كان قد ثبت للإنسان صفات فاضلة كالحريّة والاستقلال والمساواة والمواساة، فانّها من بركات (كرامته)، وإذا كانت الكرامة قد جعلت له فانّما ذلك لأجل (خلافته الإلهيّة)، وإذا كانت الخلافة قد اعطيت له فذلك لأجل (علمه) بالأسماء الحسنى لله سبحانه.

وكما تقدّم بيانه فانّ الخلافة كالنبوّة والرسالة والولاية والإمامة مقولة بالتشكيك، لكنّ الجامع لها كلّها هو (العلم الصحيح) بالأسماء الإلهيّة و(العمل الصالح) في اطار الخلافة. وقد جعل الله (عمران الأرض) جزءاً من الدور الذي عهد به إلى خليفته وقال حول ذلك: ﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾.[1] وكما انّ عمران المساجد ومراكز العبادة يتمّ على أيدي المؤمنين بالمبدأ والمعاد: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾[2]

١. سورة هود، الآية ٦١.

٢. سورة التوبة، الآية ١٨.



كذلك عمران الأرض في المجالات الاخرى المختلفة الاقتصاديّة والثقافيّة والصحيّة ونظافة البيئة وغيرها يتمّ بواسطة خليفة الله.

والبعض يحسبون في عداد البشر ويدخلون في الإحصاء والتعداد السكانيّ، ولكنّهم في مقاييس السيرة والسلوك لا يعدّون من أفراد الإنسانيّة ولا نصيب لهم من الخلافة الإلهيّة بالفعل. والملائكة في بداية طرح مسألة الخلافة قد توجّسوا خيفةً من المفسد السفّاك وقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ وقد لوّح الله بانّ هذه الطائفة محرومة من مقام الخلافة السامي. وبيّن في مواضع اخرى الأحوال المخزية والمؤلمة لهؤلاء بنحو يدلّ على انّه لاحظّ ولا سهم من الخلافة الإلهيّة الفعلية لهذه الجماعة الفاسدة والمفسدة والسفّاكة للدماء، حيث انّ الله قد ذمّ البعض وقال فيهم: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ**﴾[1] وقال أيضاً: ﴿**يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ**﴾،[2] وقال ايضاً: ﴿**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾،[3] وقال ايضاً: ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾،[4] وقال في الفئة المحرومة من فيض التوحيد وفوز العبوديّة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾.[5]

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٢٠٥.
٢. **سورة ابراهيم**، الآية ٦.
٣. **سورة آل عمران**، الآية ٢١.
٤. **سورة النمل**، الآية ٣٤.
٥. **سورة البقرة**، الآية ١٦١.

هذه الفئة السفّاكة للدماء والتي تفتخر بالفساد ستواجه عند الموت ضرب الملائكة حين: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[1] وعندما يحلّ عليهم عقاب يوم المعاد فانّ الملائكة ستقيّدهم بالأغلال وتلقيهم في الجحيم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.[2]

والآيات التي تذكّر بالرذائل النفسية والأفعال المذمومة لهذه الجماعة وتبيّن عواقبهم الوخيمة كثيرة، وما يراد إلفات النظر إليه هنا هو انّ خليفة الله، هو الذي سجدت له الملائكة، وامّا الجماعة الملعونة والمضروبة والمغلولة من قبل الملائكة، فلن تسجد لها الملائكة أبداً، وبالنتيجة فانّها لن تكون خليفة لله.

كما انّ رسالة الله لا تُعطى لأيّ إنسان كان والله يعلم أين يضعها: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3] كذلك الولاية والإمامة والخلافة الإلهيّة ايضاً بنفس النحو، لانّ كلّ واحد من هذه المقامات عهد إلهي، والعهد الإلهي لا يصل إلى الظالمين كما قال تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾،[4] والله سبحانه بريء منهم ﴿أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾،[5] فكيف يمكن ان ينصب المستخلَف عنه شخصاً قد تبرأ منه بعنوان كونه خليفته؟! فبينما هو يُعلن انّه قطع

---

١. سورة محمّد ﷺ، الآية ٢٧.
٢. سورة الحاقّة، الآيات ٣٠ ـ ٣٢.
٣. سورة الأنعام، الآية ١٢٤.
٤. سورة البقرة، الآية ١٢٤.
٥. سورة التوبة، الآية ٣.

علاقته معه: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾[1] يُعلن أيضاً انّه تحت ولايته الخاصّة!!

وبعبارة اخرى كأنّ الله سبحانه قد أجاب الملائكة الذين طرحوا مسألة الإفساد وسفك الدماء من قبل الإنسان من جهة وتسبيح الملائكة وتقديسهم من جهة اخرى، مؤكّداً في جوابه على أمرين: احدهما: انّ الأفراد الذين يصدر منهم الإفساد وسفك الدماء ليس لهم أيّ نصيب من عهدي وخلافتي، والآخر: هو انّ الخلافة الإلهيّة تحتاج إلى معرفة أعلى وأرفع من التسبيح والتقديس، وهذا العلم الخاصّ لا يوجد عندكم يا معشر الملائكة.

٧. الأحكام المختلفة لدرجات الإنسان الكامل

تقدّم انّ الإنسان الكامل معلّم الملائكة، وانّ الفيض الإلهي يصل إلى عالم الإمكان عن طريق الإنسان الكامل، وهذا لا ينافي كون الملائكة واسطة فيض لجميع الناس بما فيهم الإنسان الكامل، حيث انّ جميع الناس بما فيهم الإنسان الكامل يأخذون الحياة من اسرافيل والعلم من جبرائيل والرزق من ميكائيل أو يأخذون هذه الثلاثة من سائر الملائكة الداخلين تحت تدبير هؤلاء الملائكة الثلاثة، لانّ كون الإنسان الكامل مجرى للفيض يختصّ بالمرتبة العالية من الإنسان الكامل وهي درجة كونه عالماً بحقائق العالم ومسجوداً له من قبل الملائكة، وكون الملائكة مجرى للفيض يرتبط بالدرجات المتوسّطة أو النازلة من الإنسان الكامل التي هي من باب ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2] والتي هي درجة أرضيّة.

---

١. سورة محمّد ﷺ، الآية ١١.

٢. سورة الكهف، الآية ١١٠.



فالإنسان الكامل من ناحية كونه ﴿**يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾[1] كباقي الناس الآخرين، يكون تحت تدبير الملائكة، لكنّه من ناحية كونه التلميذ المباشر لله والعالم بجميع حقائق عالم الإمكان، فهو واسطة للفيض في كلّ شيء حتّى في الوحي، أي حتّى الوحي الإلهيّ قبل أن يصل إلى الملائكة فهو يمرّ بالمرحلة العالية للإنسان الكامل ثمّ ينزل ببركة تلك الدرجة السامية على الملائكة.

٨. درجات الخلافة على أساس درجات العلم بالأسماء

بتوضيح محور الخلافة الإلهيّة اي العلم بالأسماء اتّضحت أيضاً درجات الخلافة الإلهيّة اي كما انّ العلم بالأسماء - بالمعنى المتقدّم - له درجات، كذلك الخلافة الإلهيّة لها درجات بحيث انّ كل درجة عالية تُظلّ الدرجة الأدنى منها (وان كان المصداق المعنون في الآية، هو الخليفة المطلق، اي الإنسان الكامل) بمعنى ان الإنسان الكامل العالِم بجميع الأسماء، خليفة الله، والآخرون الأقلّ علماً بالأسماء، خليفة خليفة الله. ولذلك جاء في الحديث عن الرسول الأكرمﷺ انّه قال ثلاثاً: «**اللّهم ارحم خلفائي**» قيل له ومن خلفاؤك؟ قال: «**الذين يأتون من بعدي ويحملون حديثي وسنّتي ويبلغونها إلى الناس**».[2]

ويتّضح من هذا الحديث انّ رسول الله خليفة الله، والعلماء من امّته كل واحد منهم (خليفة الخليفة)، وبعبارة اخرى فهو الخليفة غير المباشر

---

١. **سورة الفرقان**، الآية ٧.

٢. **بحار الأنوار**، ج ١، ص ١٤٤، ح٤؛ **الأمالي للصدوق**، ص ١٥٢.



وبالواسطة لله سبحانه. فالعلم الأقل أو بعبارة اخرى العلم مع الواسطة، هو معيار الخلافة مع الواسطة، أي معيار الخلافة عن خليفة الله، كما انّه هو نفسه معيار الإرث عن خليفة الله، لذا جاء في رواية اخرى: «العلماء ورثة الأنبياء»[1] اي انّ الإرث ايضاً كالخلافة يحتاج إلى علاقة رابطة لا يتحقّق بدونها، لانَّ معنى الإرث هو حلول مالك جديد محلّ المالك السابق (على عكس البيع الذي هو مبادلة مال بمال)، سواء كان الموروث مالاً وأمراً ماديّاً، أو كان علماً وأمراً معنويّاً آخر، والعلاقة المؤدّية إلى هذا الاستبدال ومجيء الوارث مكان المورِّث أو ظهور المورّث في الوارث طبقاً للحديث المذكور هي العلم الذي يشكّل العلم بالأسماء الجانب المهم فيه. وعلى كلّ حال فانّ صيرورة الإنسان خليفة لرسول الله ووارثاً له، خلافة لا تفارق الإنسان في النشآت الثلاث، الدنيا والبرزخ والقيامة، هي بحاجة إلى العلم والمعرفة.

٩. خصائص وصفات الأسماء:

تبيّن من مجموع البحث حول الأسماء في الآية المذكورة انّ لها الخصائص التالية:

أ: انّ المضاف إليه في هذه الأسماء هو كلمة (الله)؛ اي انّ المقصود من الأسماء هو (أسماء الله)، لا (أسماء العالم)، والفرق بين أسماء الله وأسماء العالم هو نفس الفرق بين الايجاد والوجود، فهذه الأسماء من ناحية الايجاد اسم الله، ومن ناحية الوجود اسم الأرض والسماء، وبعبارة

---

١. **بحار الأنوار**، ج ١، ص ١٦٤؛ **الأمالي للصدوق**، ص ٥٨.

أُخرى: بلحاظ اعطاء الفيض والافاضة، اسم الله، وبلحاظ الاستفاضة اسم الإنسان والمَلَك، لا بمعنى انّ هناك حقيقتين منفكتيّن ومنفصمتين عن بعضهما، احداهما تُسمّى العالم والأُخرى أسماء الله، بل انّ أسماء الله عندما تظهر فانّ مظهرها هو أسماء وحقائق العالم. اذن فحقائق العالَم هي الأسماء الإلهيّة الظاهرة.

ب: بقرينة ما جاء في الآيات التالية حيث قال الله للملائكة بعد تبيّن عجزهم عن الاخبار بالأسماء: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ فقد ظهر انّ هذه الأسماء متعلّقة بعالم الغيب، لا الشهادة، لانّ وحدة سياق هذه الآيات، وكما تقدّم، تقتضي ان يكون هذا الغيب هو نفس ﴿**مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ الوارد في ذيل الآية السابقة، وهو نفس الأسماء التي تمّ تعليمها في الآية محلّ البحث، والنتيجة الحاصلة هي انّ الأسماء المعروضة هي التي يتكوّن منها باطن السماوات والأرض (نظراً إلى انّ الاضافة في الغيب لاميّة). طبعاً انّ غيب السماوات والأرض هذا يتضمّن معه ايضاً مرحلة الشهادة، لانّ عالم الشهادة وجميع السماوات والأرض هو المرحلة النازلة لذلك الغيب، وكما قيل (إذا جاءت المائة، جاءت التسعون معها).[1]

جـ: نظراً للعلاقة القائمة بين الآية محلّ البحث وآيتي: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ**﴾[2] و﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ**﴾[3] وقد صرّح بها ايضاً

---

۱. راجع كتاب **تفسير الميزان**، ج ۱، ص ۱۲۰.

۲. **سورة الأنعام**، الآية ۵۹.

۳. **سورة الحجر**، الآية ۲۱.

العلاّمة الطباطبائي رحمه الله[1] فانّه يمكن ان يقال: انّ الأسماء في محل البحث هي نفس «مفاتح الغيب» ونفس «الخزائن» التي بسبب كونها عند الله قد تميّزت بما يلي: اوّلاً: لا يعتريها الفناء والزوال.

ثانياً: هي الوجود الجمعي لكلّ حقائق هذه النشأة.

ثالثاً: بعد التنزّل إلى هذه النشأة أصبحت قابلةً للتحديد والتكثّر.

كما يمكن ان تكون هي التمثال الذي اشار إليه الإمام السجاد عليه السلام في الرواية التي تقول: «**انّ في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البرّ والبحر وهذا تأويل قوله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾**»[2] وذلك الذي لا يدركه سوى الكُمَّل من الناس والذين هم عند الله. ولذلك كان امير المؤمنين عليه السلام يقول: «**وَاللّه لَوْ شئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِه وَ مَوْلِجِه وَ جَميعِ شَأْنه لَفَعَلْتُ**».[3]

طبعاً من الممكن ان يتمتّع أولياء الله ـ تبعاً لما لديهم من درجات مختلفة ـ بالاطّلاع على البعض من درجات الغيب وبعض من الخزائن الغيبيّة، لكن الفرد العالم بجميع المفاتح والخزائن هو الإنسان الكامل، لانّه الصادر الأوّل والفيض الأوّل والتعيّن الأوّل لله سبحانه، ولا يمكن ان يكون هناك شيء في عالم الإمكان ويُعدّ من المخلوقات الامكانيّة ثمّ لا يقع تحت الاشراف العلميّ للصادر الأوّل.

وبعبارة اخرى: انّ الأسماء الإلهيّة التي جرى تعليمها لآدم وتمّ عرضها

---

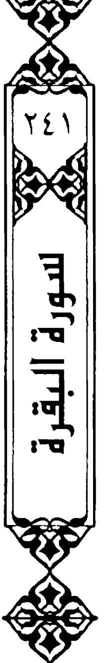
١. **الميزان**، ج ١، ص ١١٧ ـ ١١٨.

٢. **تفسير الصافي**، ج ٣، ص ١٠٥.

٣. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٧٥.

على الملائكة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: حقائق الملائكة أنفسهم وحقائق ما دون الملائكة وحقائق ما فوق الملائكة. وما تمّ تعليمها من قبل إلى الملائكة هي الأسماء من القسم الأوّل والثاني، ايّ انّهم لا معرفة لهم بالقسم الثالث الأعلى منهم في الدرجة الوجوديّة. ولذلك فانّ تسبيحهم وتقديسهم كان يحصل بالنسبة إلى هذين القسمين المعلومين، ولم يكن لديهم تسبيح وتقديس بالنسبة إلى القسم الثالث المجهول لديهم، الاّ بعد الاطّلاع عليه بواسطة تعليم النبي آدمعليه السلام. وذلك ايضاً في حدّ الإنباء والاطلاع غير المباشر ومع الواسطة، في حين انّ ما تمّ تعليمه للنبي آدم وللإنسان الكامل بشكل عام هو جميع الحقائق الثلاث المذكورة، والتسبيح والتقديس الذي يصدر من الإنسان الكامل بالنسبة إلى القسم الثالث يكون أعلى من تقديس وتسبيح الملائكة بالنسبة له، لانّ قيمة التسبيح والتقديس تتبع مقدار العلم والمعرفة، والعلم والمعرفة التي تأتي مباشرة من الاستاذ هي أعلى من العلم والمعرفة التي تأتي بالواسطة عن طريق التلميذ.

د: انّ المقصود من هذه الأسماء، كما تقدم، هو الحقائق، لا الألفاظ ولا المفاهيم، لانّ علاقة الألفاظ بالمفاهيم علاقة وضعية، وما هو من (لدن) الله ومن عند الله فلا مجال فيه للحديث عن الوضع التعييني أو التعيّني وعن العلاقة الاعتباريّة بين اللفظ والمعنى وعن المفاهيم، لانّ العلم بالمفاهيم علم حصولي، ولا مجال في المجرّد المحض للعلم الحصولي والتصوّر والتصديق والمعقولات المنطقيّة، إذ انّ التصوّر والتصديق والقضيّة والقياس توجد على مستوى النفس التي تدبّر البدن، لا على مستوى العقل المحض المنزّه عن تدبير البدن.



وعلى هذا الاساس، وهو انّ (الاسم) حقيقة وليس لفظاً، وهو مشهود وليس مفهوماً وحسب تعبير اهل المعرفة، فانّ الاسم هو نفس الذات مع التعيّن الخاصّ (ويطلق على التعيّن عنوان الوصف ايضاً)، وعندئذ يطرح هذا البحث وهو هل انّ الاسم عين المسمّى أم غيره، والاّ فلو كان المراد من الاسم هو اللفظ أو المفهوم فلا مجال للبحث بانّ الاسم اللفظي هل هو عين المسمّى أم لا، أو هل انّ المفهوم الذهنيّ عين المصداق الخارجيّ أم غيره؟ وما قيل في الجواب بانّ الاسم من ناحية عين المسمّى ومن ناحية اخرى غيره، فانّما كان بلحاظ انّه لا كلام هنا عن اللفظ والمفهوم.

ولذلك جاء في دعاء الجوشن الصغير: «**أسألك باسمك الذي وضعته على السماء فاستقلّت، وعلى الأرض فاستقرّت، وعلى الجبال فرست، وعلى الليل فأظلم وعلى النهار فاستنار**».

وجاء في دعاء كميل ايضاً: «**اللّهم انّي أسألك بأسمائك التي ملأت أركان كلّ شيء**».

هـ : انّ أسماء الله توقيفيّة، والمقصود من التوقيفيّة في الحكمة والعرفان هو كون الحقائق توقيفيّة، اي انّ كلّ اسم وكلّ حقيقة طبقاً لنظام العلّة والمعلول المطروح في الفلسفة ونظام الظاهر والمظهر المطروح في العرفان له درجة وجوديّة أو ظهور خاصّ لا يتعدّاه، وجميع الأسماء أي الحقائق والموجودات مشمولة لقانون ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**﴾[1] وكلّ منها متوقّف في مقامه الخاصّ به، الاّ الموجود الذي هو الاسم الاعظم والمظهر الأتمّ للأسماء، اي الإنسان الكامل فهو غير

---

١. **سورة الصافّات**، الآية ١٦٤.

توقيفيّ، اي ليس له محل معيّن ولا مقام معلوم وليس له (حدّ يقف عنده) وانّما هو يستطيع ان يكون حاضراً في كلّ مكان. طبعاً هذا المعنى في الإنسان هو حدّه الخاصّ الذي لا ينبغي فيه التفريط ولا الافراط.

اذن فكون الأسماء توقيفيّة هو بالمعنى الذي تمّت الاشارة إليه (وعليه فانّ التوقيفيّة غير قابلة للتخصيص) لا التوقيفيّة بالمعنى المطروح في علم الكلام والتي انتقلت من الأبحاث الكلاميّة إلى الفقه حيث تتعامل مع اللفظ والمفهوم ويُسأل فيها انّ الاسم (اللفظ) الذي لم يطلق على الله في الكتاب والسنّة هل يجوز اطلاقه على الله أم لا؟ وفي الجواب يقال: اولاً: انّ الاسم الذي ليس فيه أيّ نقص مفهوميّ فانّ اطلاقه على الله لا مانع منه.

ثانياً: انّ ما يمكن ان يقع فيه الإشكال هو تسمية الله لا وصفه، أي كما قال المحقّق الداماد: انّ وصف الله بصفات مثل (علة العلل) و(واجب الوجود) لا مانع منه، وانّ ما يمكن ان يكون قد ورد المنع عنه هو تسمية الله بأسماء لم ترد في الكتاب والسنّة، إذ ورد مثلاً بدلاً من (علّة العلل) (مسبّب الأسباب).[1]

و: انّ الأسماء الإلهيّة كما تكون مباركة وكثيرة الخير والبركة ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ**﴾[2] كذلك هي مسبَّحة ومنزّهة من كلّ عيب ونقص: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾.[3]

ز: انّ الأسماء الإلهيّة بعيدة عن متناول غير المخلَصين، والمخلَصون وحدهم مأذونون بأن يصفوا الله: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ**

١. **القبسات**، ص ٤٧٩. سوف يأتي البحث بالتفصيل عن توقيفيّة أسماء الله في ذيل الآية الكريمة: ﴿**وَلِلَّه الأَسْمَاء الْحُسْنَى**﴾ **سورة الأعراف**، الآية ١٨٠.

٢. **سورة الرحمن**، الآية ٧٨.

٣. **سورة الأعلى**، الآية ١.

الْمُخْلَصِينَ﴾،[1] لانّ هؤلاء قد بلغوا مقاماً ونالوا معرفة يستطيعون بها ان يصفوا الله مع أسمائه بالنحو الذي لا يُخلّ بالأصل المحكم وهو **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**،[2] وبحيث يكون هذا الأصل ظاهراً في جميع أنحاء الوصف. والظاهر انّ هذا المقام هو أهمّ مقام ذكره القرآن الكريم للعباد المخلَصين، أي انّه أعلى وأسمى ايضاً من المقام الذي وصفوا فيه بـ(المخلَصين) وانّهم بعيدون عن متناول وسوسة الشيطان وكذلك أعلى من مقام وصفهم بأنّهم بعيدون عن الإحضار للمحاسبة: **﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾**.[3]

ويمكن ان يقال: انّ لازم هذا الكلام هو انّ الأفراد العاديّين لا يستطيعون أن يصفوا الله بأوصاف مثل (علّة العلل) أو (واجب الوجود)، في حين انّه قد تقدّم الكلام عن امكان ذلك، ونُقل عن صاحب **القبسات** قوله بانّه على فرض كون الأسماء توقيفيّة (بالاصطلاح الفقهيّ) فانّ عدم الجواز يختصّ بالتسمية ولا يشمل الوصف.

هذه المسألة تصبح قرينة على تفسير قوله تعالى: **﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾**[4] بالنحو التالي:

اوّلاً: أن يعتبر فاعل يصفون هو الكفّار بقرينة وحدة السياق (لاسيّما انّ الآيات السابقة تحدّثت عن انّ الكافرين يقولون بانّ لله البنات).

ثانياً: ان نعتبر استثناء **﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾** استثناءً من قوله

---

١. **سورة الصافّات**، الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠.
٢. **سورة الشورى**، الآية ١١.
٣. **سورة الصافّات**، الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨.
٤. **سورة الصافّات**، الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠.

﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في الآية السابقة، لا استثناء من فاعل ﴿يَصِفُونَ﴾. وبالنتيجة يكون المعنى كالتالي: انّ الجنّ يعلمون انّهم سيُحضرون للحساب في يوم القيامة، الاّ عباد الله الملَخصين الذين يدخلون الجنّة بغير حساب. مضافاً إلى ذلك انّ الآيتين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1] في نفس هذه السورة تصيران قرينة اخرى على هذا المعنى. وبالنتيجة تكون جملة ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ جملة معترضة، وهذا المعنى وان كان خلاف الظاهر، ولكن تُرفع اليد عن هذا الظهور بالقرينتين المذكورتين.

لكنّ جواب ذلك يتمّ بواسطة بعض المبادئ المطويّة المعروفة والمقدّمات التي ثبتت في محلّها وهو كما يلي: أوّلاً: كما انّ ايمان أكثر المؤمنين مشوب بالشرك الرقيق: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2] فانّ وصف هؤلاء ايضاً كذلك.

ثانياً: حيث انّ المخلَصين يصلون نتيجة قرب النوافل إلى الدرجة التي يكون فيها الله سبحانه - في مقام الظهور الفعلي - بمثابة لسانهم: «**وكنتُ لسانه الذي ينطق به**»[3]، اذن المخلَصون يصفون الله بلسان الله، ومثل هذا الوصف يكون صحيحاً في حق الله، لكنّ الآخرين يصفون الله بلسانهم، لذلك فانّ الله منزّه عن وصفهم.

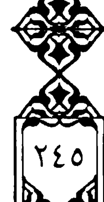
ثالثاً: انّ محور البحث الحالي هو وصف الواصفين، وليس الألفاظ

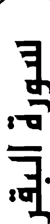
---

١. **سورة الصافّات**، الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨.

٢. **سورة يوسف**، الآية ١٠٦.

٣. **الكافي**، ج ٢، ص ٣٥٢.





والمفاهيم التي تطلق على الله، أي يتعيّن البحث في مقامين: احدهما هو بأيّ لفظ ومفهوم يمكن وصف الله، والآخر: انّ الواصف من هو؟ ومن الذي يصف الله بما يستحقّ من الصفات؟

رابعاً: وبهذه التوضيحات السابقة فقد تبيّن معنى الآيتين: ﴿**سُبْحَانَ اللَّه عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّـه الْمُخْلَصِينَ**﴾ فيبقى اتّصال الاستثناء محفوظاً ولا ينبغي حمل الآية على خلاف الظاهر.

١٠. شرط الظفر بأسماءالله

كما تقدّم فانه من الممكن أن تكون الأسماء محلّ البحث هي نفس (مفاتح) و(مخازن الغيب) التي عند الله، ونتيجة كونها عند الله فانّها محفوظة من التغيّر والزوال. ولهذا فانّه لا يستطيع الظفر بهذه الأسماء إلاّ من صار مجرّداً عن الزمان والحركة والتغيّر، بحيث أصبح موجوداً عند الله، وتمتّع الإنسان الكامل بهذه الأسماء يكون نتيجة لهذه الميزة. طبعاً الفرق بين الإنسان الكامل وبقيّة الناس الواصلين الى حدّ التجرّد ومرتبة عند الله يكون في ان الإنسان الكامل وبسبب تجرّده التامّ فانّه قد ظفر بجميع الخزائن والمفاتح والأسماء، امّا الآخرون فقد نالوا بعض هذه الخزائن. حيث انّ كلمة (الخزائن) بما انها جمع فهي تدلّ على كثرة المخازن، وتعدّدها الطوليّ. ولهذا يصبح فيها مجال للاختلاف التشكيكي.

١١. تعلّم الأسماء لتهدئة ألم الهجران

كما انّ صعود الشيء النازل إلى مقام الكمال عبر اجتياز المنازل مدعاة

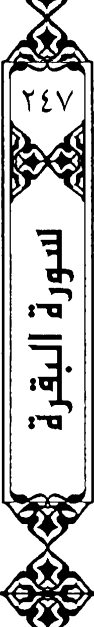
للسرور، كذلك فان نزول الشيء العالي من القمم الشامخة للكمال بالنزول التدريجي يجلب التعب والشقاء. وان كان هذا التعب يأتي احياناً بمغانم كثيرة، وهذه المغانم هي تربية النفوس الزكيّة والأخذ بها للارتقاء نحو مقام الكمال، ثم الرجوع من جديد، هو والمتربّين على يديه، إلى ساحة القدس الإلهي.

والقرآن الكريم كان في مقام الربوبية يتّصف بانّه (العليّ) و(الحكيم) وتنزّل لهداية الأمم والمجتمعات البشرية، وطوى درجات قوس النزول الواحدة بعد الاخرى على نحو التجلّي لا على النحو التجافي، إلى انّ أُفرغَ في قوالب الألفاظ وارتدى ثوب الكلمات وتجلبب بكساء العربي المبين: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾.[1]

كي يعود من جديد في قوس الصعود في هيئة الدعاء والعبادة اللذين يعتبران قرآناً صاعداً إلى أن يبلغ مشهد القدس الربوبي. ولو كان يتسنى لأحد أن يتحدث مع القرآن ويسأل ذلك النور النازل ويقول له ما هو شعورك وانت تهجر وتبتعد عن المشهد الإلهي وتفارق الحظيرة القدسية الإلهية، فلعلّه يجيب قائلاً: بأنّي حزين ومغموم لابتعادي عن الربّ الذي انا كلامه، ولفراقي المتكلم الذي انا حديثه ومن هجرتي عن موطني الاصلي الذي هو (لَدُن) وعند الله سبحانه.

وطبقاً للأصل المذكور فانّ آدم خليفة الله، وان كان له بدن طبيعي، لكن روح ما فوق الطبيعة هي التي تكوّن هويته الأصيلة وهذه الروح لها اضافة

١. **سورة الزخرف**، الآيتان ٣ – ٤.



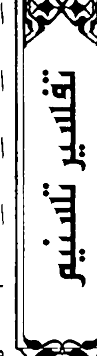
تشريفية لله سبحانه. وشرف هذه الاضافة ثمرة لخصيصة الاضافة الاشراقية لروح آدم الذي هو خليفة الله، والآية الكريمة ﴿... **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾[1] تشير إلى ذلك، وأنّ تنزل هذه الروح الإلهية وبعدها عن مقام القرب وفراق منزلة الوصل تلك مدعاة للتعب والألم، على الرغم من انّها وبعد الوفاء بعهدها واداء دورها في النبوة والرسالة وهداية الأمة وارشادها تعود في قوس الصعود من جديد وترجع إلى مقامها الرفيع السابق.

وما يمكن ان يقلل من حرارة الهجران ويهوّن الخطب ويسكّن ألم الفراق ويعيد ذكريات الوصال الجميلة العذبة، ويجعل بريق ذلك الأصل يشرق ويلمع في الفرع، هو عنوان الخلافة حيث يشعر الخليفة بانه في كنف المستخلَف عنه ويجد انّ قواه الادراكية والحركيّة مظهر ومجلى فيضه العلميّ وفوزه العمليّ. وقد بدأت خلافة آدم منذ تعلّمه الأسماء الإلهية الحسنى، وثُبّت عنوان خلافته لمّا اصبح عالماً بأسماء المستخلَف عنه، عندها قام بمقتضى الخلافة الإلهيّة بإنباء الملائكة واخبرهم بالأسماء الحسنى ثم اصبح مسجوداً بالنسبة لهم، لان كلّ صفة تثبت للخليفة فهي بالأصالة للمستخلَف عنه الاّ ما كان فيه عنوان نقص أو قصور أو فتور أو خلل فانّ ذلك من الصفات السلبية للمستخلف عنه، اذن فانّ اشتغال آدم بتعلّم الأسماء أولاً وبإنبائها إلى الملائكة ثانياً ثمّ سجود الملائكة له ثالثاً وامثال ذلك كلّه كان لأجل تهدئة آلام البعد والهجران وتخفيف نار شوق آدم نحو جمال الله، كما أشار إليها البعض.[2]

---

١. **سورة ص**، الآية ٧٢.

٢. راجع كتاب: **مرصاد العباد**، الباب ٢، الفصل ٥، ص ٨٩ – ٩٦.



وينبغي الالتفات إلى هذه الملاحظة العامّة وهي انّ التنزّل التدريجي من العالي إلى السافل انّما يؤدّي إلى الألم والغمّ اذا كان الموجود المتنزّل لم يهبط من مستوى الشعور والفكر ولم يصل إلى مرحلة الجماد والاّ فانّ القسم الأخير من قوس النزول ليس فيه أثر لألم الهجران، لأنّ الشعور بالألم ومرارة الفراق يعتمد على ادراك الموجود المبتعد والمفارق فاذا كان الموجود فاقداً للادراك المعتاد، ولا يتذكّر حلاوة الماضي ولا يشعر بمرارة الحاضر فليس لديه حنين إلى الماضي ولا ضجر من الحاضر.

وانّ بيان فكرة ابتعاد خليفة الله وتصوير ألمه ومعاناته من فراق جمال الأحديّة يكون سهلاً وفق مبنى كون الروح (روحانيّة الحدوث) الذي يتناسب وينسجم مع قوله تعالى ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾[1] ومثله أحاديث تقدّم الأرواح على الأبدان، لكن من الصعب تبيينه طبقاً لنظريّة كون الروح (جسمانيّة الحدوث) التي تتناسب وتنسجم مع قوله تعالى ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾[2] وأمثاله. الاّ أن يقال: انّه طبقاً لآيات التسبيح،[3] والتحميد، والاسلام،[4] والسجود،[5] والطوع والرغبة[6] وأمثالها فانّ كلّ موجود بقدر درجته الوجوديّة يعرف الله ويعلم بسابقته ولاحقته وماضيه

١. سورة ص، الآية ٧٢.
٢. سورة المؤمنون، الآية ١٤.
٣. سورة الاسراء، الآية ٤٤.
٤. سورة آل عمران، الآية ٨٣.
٥. سورة النحل، الآية ٤٩.
٦. سورة فصّلت، الآية ١١.



وحاضره، ولذلك فانّ الحجر احياناً يهبط من خشية الله ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾،[1] وحيث انّ روح الإنسان في نهاية قوس النزول تحلّ في دائرة الجماد على نحو التجلّي لا التجافي، فانّ اصول معرفة الله وشهود لقائه وامثال ذلك مودعة فيها، وعندما تبلغ في قوس الصعود مقام ﴿**أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾ وينبعث شعورها الكامن يظهر عند ذلك لديها ألم البعد والهجران، وعندها يُشغلُه الله بالرغبات والغرائز من جهة والسهو والنسيان والغفلة من جهة اخرى حتى لا يقعد عن اعمار الطبيعة ولا يؤدّي به استعجاله وشوقه. إلى ما وراء الطبيعة، إلى تحطيم البدن وخراب المعمورة.

وخلاصة القول: ان بيان الكثير من مسائل الخلافة ومباحث النفس الانسانيّة ينسجم مع مبنى كون الروح روحانيّة الحدوث، وتطبيقه على مبنى جسمانيّة الحدوث بحاجة إلى التأمّل والبحث.

١٢. تمثيل أم حقيقة

هل انّ تعليم الأسماء لآدم وعرضها على الملائكة وأمرهم بإخبار الله عنها واظهار عجزهم ثمّ أمر آدم بالإخبار عن الأسماء للملائكة، وفي المجموع انّ جميع ما جرى من محاورة طبقاً لظاهر الآيات بين الله والملائكة وآدم له وقوع خارجي وتحقّق عينيّ أم انّ هذه القصّة ومضامين الآيات تمثيل محض؟

طبعاً ليس المقصود من التمثيل هو انّ القصّة ذهنية بحيث ليس لها

---

١. سورة البقرة، الآية ٧٤.

وجود خارجي وواقعي أصلاً وانّها تُذكر كقصّة رمزيّة، بل بمعنى انها حقيقة معقولة ومعرفة غيبية لها وقوع عيني وقد تمّ بيانها في هيئة المحسوس والمشهود كما سيأتي حول سجدة الملائكة واباء ابليس[1] من انّه اذا لم يكن هناك وجه صحيح لتصوّر ايّ أمر تكويني بالسجدة أو امر تشريعي بها فيجب الإذعان إلى انها مجرّد بيان لحقيقة ما، في هيئة المثل.

بيان ذلك: انّ اعلى مقام في عالم الإمكان هو مقام الانسانية وخليفة الله، الذي يخضع قباله الملائكة، والشيطان يعاديه ويحاول ان يمنع الناس العاديين من سلوك طريقه المستقيم وأن يقطع الطريق عليهم وأن يثبّط بالغفلة عزيمة ذوي الدرجات المتوسطة عن المسارعة والاستباق في هذا الطريق.

ولأجل ان يفهّم الله سبحانه الناس هذه الحقيقة على أحسن نحو فقد أفرغها في قالب المثال، أي أخرجها على هيئة أمر للملائكة وابليس بالسجود لآدم واطاعة الملائكة وتمرّد ابليس على الأمر المذكور. فهل انّ قصّة خلافة وسؤال الملائكة وكذلك تعليم الأسماء ومحاورة الله مع الملائكة وتعلّمهم من آدم من هذا القبيل؟

بعض المفسّرين المعاصرين وبعد ان يبيّن ان للمسلمين في فهم هذه القصة مسلكين: احدهما: مسلك السَلَف وهو اسلوب التسليم والتفويض في المسائل. والآخر: اسلوب الخَلَف القائم على التأويل والتوجيه، وبعد ان يبيّن التأكيد الشديد على وجوب التسليم في قبال ما يتعلق بالله وصفاته وعالم الغيب، وما كان عقلنا قاصراً عن فهمه فيجب

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٣٢٠، من الترجمة العربيّة.



ان نَكل امره إلى الله، لا أن ننكره لمجرّد عدم الادراك، يقول: انني على طريقة السَلَف، لكن في الموارد التي يكون فيها ظاهر النقل مخالفاً للحكم العقلي القطعي، فانّي على طريقة الخَلَف بوجوب رفع اليد عن ظاهر النقل وتوجيهه.[1]

وبعد هذا التصريح، الذي هو في الحقيقة جمع بين طريقتي السَلَف والخَلَف وبعد ذكر عدة مسائل، يحكم بالتمثيل- بالمعنى المتقدم - على قصة تعليم الأسماء والمحاورة بين الله والملائكة، فهو يقول:ـ

«ان سنة الله جرت على أن يبيّن الامور المعنويّة في قالب العبارات اللفظيّة، وأن يوضّح المعارف المعقولة عن طريق الصور المحسوسة، لتصبح قابلة للفهم، ومن هذا القبيل القصّة التي هي محلّ البحث، حيث يستخدم الله عبارات في توضيحها ليعرّفنا على قيمة الإنسان وما زوّده به من رأسمال ذاتيّ، وهو رأسمال قد امتاز به عن سائر المخلوقات...»[2]

لكنّ الحق انّ التمثّل والتمثيل له معانٍ متعددة، فالبعض منها حق وصدق بنحو كلي ومطلق، والبعض منها فيما يتعلق بالوحي الإلهي باطل وكذب بنحو كلي ومطلق. ومنها ما هو حق وصدق في الجملة، لا بالجملة. واثبات الحق والصدق في ايّ منها وتمييزه عن الباطل والكذب بحاجة إلى دليل عقلي ونقلي، وشهادة قرينة داخلية أو خارجية وشهادة الحال والمقال وتأييد السياق وتناسب الحكم والموضوع وامثال ذلك من الأمور التي تساعد المفسّر المجتهد في

١. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

٢. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٦٤.

تمييز التمثيل الصحيح عن غير الصحيح، والبيان الاجمالي لما تقدّمت الاشارة إليه يكون كما يلي:ـ

الأوّل: ان (الوجود اللفظي) للقرآن الكريم المتّصف بالطابع المادي، انّما هو تجسّد وتجسّم عن (الوجود المثالي) للقرآن الكريم الذي هو في نشأة الملكوت يتصف بالتعيّن المقداري مع النزاهة عن الجرم والجسم. وذلك الوجود المثالي تمثّل عن (الوجود العقلي) للقرآن الكريم الذي هو في مرتبة الجبروت يتّصف بالتعيّن المعقول والنزاهة عن المقدار المثالي، وذلك الوجود المعقول هو تجلٍّ وظهور للوجود العلمي للقرآن الحكيم وهو من العلم الذاتيّ لله سبحانه الذي لا يكون متعيّناً بأيّ تعيّن، وهذه المراتب الأربع في القرآن التدويني موجودة ايضاً في القرآن التكويني وكتاب الخلق، والتمثّل بل التجسّد بهذا المعنى حق وصدق بنحو كلّي ومطلق.

الثاني: التمثّل والتمثيل بمعنى الأساطير الموضوعة التي ليس لها أيّ سند حقيقي كي يكون لها ملاكاً في جعلها من الأحكام الاعتبارية والقوانين التشريعية، ولا لها مطابق خارجي كي يكون دليلاً على صدق قصص الأنبياء والأمم المذكورة فيها. كما في الأساطير التي يؤلّفها القصّاصون ويختلقها اصحاب المسامرات والمنادمات وهي باطلة وكاذبة بنحو كلي ومطلق.

الثالث: انّ التمثيل اسلوب لأجل التعريف والتفهيم ويستخدم في علم المنطق. وبيان ذلك: انّ التمثيل في مبحث الحجّة والتصديق في علم المنطق هو نفس القياس المصطلح في الفقه واصول الفقه وهو الاستدلال

من الجزئي إلى الجزئي، وحيث انّه لا يفيد القطع، وان اكثر ما يمكن أن يحصل منه هو الظن، والظن الحاصل من القياس الفقهي غير معتبر، والقرآن الكريم حذَّر من اتّباع الظن غير المعتبر،[1] لذلك فانّه بعيد عن فضاء الوحي والأجواء المقدّسة للقرآن الحكيم. والتمثيل في مبحث المُعرّف والتصوّر احد الطرق لتفهيم وتصوير المعنى؛ لأنّه لأجل تعريف المعنى النظري المطلوب يستفاد امّا من الحدّ التّام والناقص أو من الرسم التّام والناقص، وقد ذكرت شروط هذه التعاريف الأربعة في المنطق بنحو مفصّل. أو أن يُستعان بالتمثيل للحصول فقط على تسهيل في المعرفة النسبية والإجمالية للشيء الذي يكون تصوّره نظرياً؛ كما يقال في تعريف الروح: (من انّ نسبة النفس إلى البدن كنسبة السلطان إلى المدينة والربّان إلى السفينة).[2]

ومؤدّى هذا التعريف التمثيلي هو كما انّ الوالي والمسؤول عن ادارة البلدة والمجتمع وكذلك ربّان السفينة وقائدها يقومان بتدبير أمر البلدة والسفينة وترميم عيوبها وسد حوائجها، كذلك تفعل الروح، وهذا المثل وان لم يكن حدّاً للنفس ولا رسماً لها لكنّه يساعد على معرفتها النسبية، والتمثيل بهذا المعنى له وجود في القرآن الكريم لغرض تفهيم بعض معارفه العلمية.

فالله سبحانه لا يتحرّج من ذكر اصل التمثيل ولا من صغر المثل وحقارته كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً**

١. **سورة النجم**، الآية ٢٨.

٢. **الأسفار**، ج ٧، ص ٢٤٣.



فَمَا فَوْقَهَا﴾[١] والأمثال القرآنية في مثل هذه الموارد تارة بمدح المُمَثّل،[٢] واحياناً بقدحه وذمّه،[٣] وتارة للأشارة إلى أهميّة المُمثّل كما في قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.[٤]

الرابع: التمثيلات القرآنية تارة تكون مقترنة بذكر كلمة (مثل) في صدر أو ذيل الآية وأحياناً تحمل على المثل طبقاً للاستنباط الاجتهادي للمفسّر، ولا خلاف فيما ذكر بعنوان التمثيل، وامّا ما يحمل على المثل من غير أن يُذكر المثل لا في صدر ولا ذيل الموضوع فهو بحاجة إلى التأمل. فقضية تكلّم الله سبحانه مع السماء والأرض في أمرها وطاعتها التي جاءت في قوله تعالى ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[٥] من هذا القبيل، لان البعض حملوها على التمثيل والبعض حملوها على التحقيق، وان كان حملها على التحقيق اولى لا على التمثيل.

الخامس: ما يتعلق بقضية أمر الملائكة بالسجود وطاعتهم وتمرّد الشيطان سوف يأتي بحثه في محله المناسب. لكن يجب الالتفات هنا إلى انّ حمل قصة تعليم الأسماء على التمثيل يصحّ في حالة كون الحمل على التحقيق غير ممكن. والاّ فانّ اصالة التحقيق تمنع الحمل

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٢٦، راجع **تسنيم**، ج ٢، ص ٦٢٦، من الترجمة العربيّة.
٢. **سورة ابراهيم**، الآية ٢٤، **سورة الفتح**، الآية ٢٩.
٣. **سورة الأعراف**، الآية ١٧٦.
٤. **سورة الحشر**، الآية ٢١.
٥. **سورة فصّلت**، الآية ١١.

على التمثيل، لانّ الحمل على التمثيل يقتضي مؤونة وعناية زائدة وهو موجب للتكلّف في الاستظهار، حيث انّ الألفاظ قد وضعت لأرواح المعاني لا لقوالبها، وخصوصيّات المصداق لا تؤثّر على حدود المفاهيم، والمعنى الجامع يمكن ان يكون له مصاديق كثيرة مختلفة، طبيعية، ومثالية، وعقلية، ولهذا يمكن ان تؤخذ للعناوين المطروحة في هذه القصة كعناوين (التعليم) و(الاسم) و(العرض) و(القول) و(الإنباء)... مفاهيم جامعة تكون شاملة للإشهاد الحضوري للملائكة ايضاً، دون ان يلزم من ذلك التجوّز، وعندها فلا يوجد دليل للحمل على التمثيل كي يكون قرينة لصرف النظر عن المعنى الظاهري للكلمات والعناوين المذكورة، حتى يكون مُسوّغاً لترك القول بالتحقيق والميل إلى التمثيل.

السادس: وان كان ظاهر بعض الآيات هو الاستفادة من اسلوب التمثيل في تفهيم المعارف، وقد استُعملت في تلك الآيات التي تكفلت بيان اسلوب التعليم القرآني، الفاظ دالّة على العموم بحيث تُوهِم بان جميع المواضيع القرآنية تمثيلية، لكنّ مفاد هذه الآيات هو الاستفادة من ايّ مثل في الموارد اللاّزمة لا الاستعانة بالتمثيل في جميع الموارد. وبيان ذلك ان قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾[2] وسائر الآيات التي تتضمّن الاستفادة من اسلوب التمثيل بنحو عام، يكون التعميم فيها متعلّقاً بالمثل لا بالممثَّل، اي يستفاد من كل مثل

١. **سورة الاسراء**، الآية ٨٩.

٢. **سورة الزمر**، الآية ٢٧.

ممكن لأجل تفهيم الموضوع القرآني، لا انّ جميع مواضيع القرآن ومعارف الوحي الإلهي قد بُيّنت على نحو التمثيل ولها مثل، ولهذا فإنّ من الممكن ان تكون بعض مواضيع القرآن بدون مثل، وليس من الضروري بيان معارفها باسلوب التمثيل.

تنويه: قصة آدم من بدايتها إلى نهايتها تقترن بالحقيقة ولا مجال فيها لأيّ نحو من المجاز والاسطورة والخيال والسراب وما شابه ذلك، والمهمّ هو كيفية التنسيق بين عناصر القصة التي بعضها طبيعي والبعض الآخر غيبي وخارج عن الطبيعة، وبعضها له تحقق عيني وخارجي وبعضها ظهر عن طريق تمثيل المعنى بالصورة، فهذا يحتاج إلى فحص عميق ودقيق حتى يُبيَّن حق كل واحد من هذه العناصر بحسبه وبما يناسبه، ويتمّ التمييز بين التمثيل والتعيين وحدود كل منهما كي لا يشتبه احدهما بالآخر، وهذا يحصل بواسطة التأمل الصادق، وشواهده موجودة في القرآن الكريم.

١٣. مقام العالم الربانيّ:

روي في فضيلة طلب العلم (... وانّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً به)[١] فاذا كان طالب العلم له هذا المقام فالعالم الربانيّ الذي لديه العلم بالأسماء الحسنى سوف يستحقّ سجود الملائكة ومقام خلافة الله.

تنويه: ذكر الفخر الرازي بمناسبة بحث تعليم الأسماء بحثاً مفصّلاً حول فضيلة العلم،[٢] وجاء البحث المذكور ايضاً بمنظار خاص في تفسير

١. **بحار الأنوار**، ج ١، ص ١٦٤؛ **أمالي الصدوق**، ص ٥٨.
٢. راجع **التفسير الكبير**، ج ١، ص ١٩٤.

صدر المتألهين[1] ولو كان الفخر الرازي لم يفصّل في الأمور غير الضرورية ولم يتّبعه او يوافقه صدر المتألهين لكانت رسالة التفسير وفنّه الشريف محفوظة من الزوائد غير المفيدة ولركّزت على هدفها الأصلي فقد جاء في تفسير صدر المتألهين الكثير من المواضيع التفسيرية للفخر الرازي وتمّ مناقشتها بالمنظار الخاصّ للحكمة المتعالية. كما انّ الكثير من المسائل الكلامية والفلسفية للإمام الرازي قد جاءت في كتبه الفلسفية وتمّ نقدها وتحليلها الواقعي من وجهة نظر الحكمة المتعالية.

البحث الروائيّ

١. سبب تسمية آدم:

عن ابي عبد الله عليه السلام: انّما سمّي آدم آدم، لانّه خلق من أديم الأرض.[2]

ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جواب السائل عن وجه تسمية آدم: لأنّه من طين الأرض وأديمها.[3]

ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام في جواب يهودي سأله: لِمَ سمّي آدم آدم: لانّه خلق من أديم الأرض وذلك ان الله تبارك وتعالى بعث جبرئيل وأمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربع طينات: طينة بيضاء وطينة حمراء وطينة غبراء وطينة سوداء وذلك من سهلها وحزنها ثمَّ أمره الله أن يأتيه بأربعة

---

١. راجع **تفسير القرآن الكريم**، صدر المتألهين، ج ٢، ص ٣٣.

٢. **علل الشرائع**، ج ١، ص ٢٦؛ **نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٨، ح ١٠٤، المراد من أديم الأرض وجه وسطح الأرض.

٣. **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٨٢؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ١٠٥.

مياه: ماء عذب وماء مالح وماء مرّ وماء منتن، ثمّ أمره أن يفرغ الماء في الطين وأدمه الله بيده فلم يفضل شيء من الطين يحتاج إلى الماء ولا من الماء شيء يحتاج إلى الطين فجعل الماء العذب في حلقه وجعل الماء المالح في عينه وجعل الماء المرّ في اذنيه وجعل الماء المنتن في أنفه.[1]

ـ عن الباقر عليه السلام في جواب السؤال بقوله: لِمَ سمّي آدم آدم؟ قال: لأنّه رفعت طينته من أديم الأرض السفلى.[2]

اشارة: هناك وجوه حول اشتقاق أو جمود كلمة آدم يُشار فيما يلي إلى بعضها:

أ: كلمة (أدم) عربية وأصلها كان فعلاً، وهو (اَدَم) مثل «اَحْمَدَ» و«اَسْعَدَ» حيث سمّي الأشخاص بهذه الأفعال ولذلك فانّ هذه الألفاظ غير منصرفة ومعنى كلمة اَدم هو اَدَمَ الملك الأرض، اي بلغ أَدَمَها.[3]

ب: القول باشتقاق آدم من (أديم الارض) شبيه بالقول باشتقاق يعقوب من العقب وادريس من الدرس وابليس من الابلاس، وكلّه مبني على كونها عربية، ولكن اذا كانت أعجمية كما هو مختار الزمخشري، فسوف تكون مثل آزَر وعابَر وشالَخ وفالَغ،[4] ويرى القرطبي صحة اشتقاق آدم من (أديم الأرض) ويؤيّد قوله بكلام يرويه عن سعيد بن جبير فيقول: انّ السرّ في تسمية آدم بهذا الاسم هو انّه خلق من (أديم الأرض).[5]

---

١. **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٨٢؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٦، ح ٩.
٢. **الاحتجاج**، ج ٢، ص ١٨٧؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٧.
٣. **جامع البيان**، ج ١، ص ٢٨٢؛ **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٥.
٤. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٥.
٥. **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٦٥.

٢. المراد من الأسماء:

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: انّ الله تبارك وتعالى علّم آدم عليه السلام أسماء حجج الله كلّها ثمّ عرضهم، وهم أرواح، على الملائكة، فقال ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ...**﴾[1]

ـ سئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية فقال: **الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمه.**[2]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **انّ الله مثّل لي امتي في الطين وعلّمني أسماءهم كما علّم آدم الأسماء كلّها.**[3]

ـ علي بن ابراهيم في قوله ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ قال: **أسماء الجبال والبحار والأودية والنبات والحيوان.**[4]

ـ عن العسكري عليه السلام ـ قال الله عزّ وجلّ: **يا آدم أنبئ هؤلاء الملائكة بأسمائهم أسماء الأنبياء والأئمة، فلمّا أنبأهم فعرفوها أخذ عليهم العهود والميثاق بالإيمان بهم والتفضيل لهم.**[5]

ـ عن الفضل بن العباس عن ابي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ ما هي؟ قال: **أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض.**[6]

---

١. **كمال الدين وتمام النعمة**، ص ٨٩ – ٩٠؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ٨٦؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٤، ح ٨٧

٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥١، ح ١١؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٨.

٣. راجع **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢١؛ **الكافي**، ج ١، ص ٤٤٣.

٤. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٥، ح ٩٢؛ **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٥.

٥. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٦٣؛ **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري**، ص ١٧٧.

٦. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥١، ح ١٢.

ـ عن داود بن سرحان العطار قال: كنت عند ابي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغدّينا ثم جاءوا بالطشت والدست سنانه، فقلت: جعلت فداك قوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ الطشت والدست سنانه منه؟ فقال: والفجاج والأودية وأهوى بيده كذا وكذا.[1]

ـ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾، قال: علّم الله في تلك الأسماء ألف حرفة من الحرف وقال له: قل لولدك وذريتك يا آدم؛ ان لم تصبروا عن الدنيا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدين، فانّ الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين، ويل له.[2]

ـ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ قال: أسماء ذريته أجمعين ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ قال أخذهم من ظهره.[3]

ـ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ قال أسماء الملائكة.[4]

ـ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ قال: **علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه، ثم قال: ما لم تعلم الملائكة، فسمّى كل شيء باسمه وألجأ كل شيء إلى جنسه.**[5]

ـ عن ابن عباس في قوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ قال: علّم الله آدم الأسماء كلّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: انسان

۱. **تفسير العياشي**، ج ۱، ص ۵۱، ح ۱۳.
۲. **الدر المنثور**، ج ۱، ص ۱۲۱.
۳. **الدر المنثور**، ج ۱، ص ۱۲۱.
٤. **الدر المنثور**، ج ۱، ص ۱۲۱.
۵. **الدر المنثور**، ج ۱، ص ۱۲۱.

، دابة وأرض وبحر وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم
، غيرها).[1]

ـ عن العسكري عليه السلام «... **بل محمّد وآله أفضل منكم، الذين أنبأكم آدم بأسمائهم**».[2]

اشارة: أ: (الدست سنانه) من المحتمل ان تكون كلمة فارسية معربة بمعنى (غسالة اليد) ويقصد بها الإبريق وإناء الغسل والتطهير القديم.

ب: اختلاف كلام الأئمة الأطهار• حول «الأسماء» نظراً لاختلاف مستويات وظروف المخاطَبين، ولذلك فان بعض المفسرين من ذوي النظرة الأرضية وبسبب رؤيتهم الضيقة فقد نظروا إلى الكلام الابتدائي والسطحي في أحاديث الأئمة، والبعض الآخر من المفسرين من ذوي التفكير العالي السماويّ قد تلقّوا التفاسير العميقة، وبهذا يكون الاختلاف في نظرات الباحثين في القرآن مقبولاً وموجّهاً.

ج: اختلاف مضمون الروايات يكون تارة بلحاظ اختلاف وجوهها التفسيرية فيما بينها، وأحياناً لأجل اختلاف وجوهها التطبيقية (لا التفسيرية) وتارة ايضاً بلحاظ اختلاف التفسير المفهومي مع التطبيق المصداقي، ولهذا فانّ شاهد الجمع في كلّ قسم من الروايات هو المخرج لحل التنافي المتوهم فيما بينها.

د: انّ اغلب المعاني التي تمّ بيانها في اطار قصة آدم صالحة للانطباق على مصاديق متعددة، حتى مسألة تعليم الأسماء، كما جاء

---

١. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢١.

٢. **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري**، ص ١٧٧؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٦٣، ح ١.

حول بعض اولياء الله الكُمّل بانّه قد اُوتي تعليم الأسماء. مثلاً انّ علي بن ابي طالب عليه السلام قال «**عُلّمت الأسماء**»،[1] طبعاً اذا اختص قسم من هذه القصة الواسعة بشخص آدم ووجدت قرينة على هذا الاختصاص، فانّه لا مجال لتعميم ذلك القسم.

١.. **بصائر الدرجات**، ج ٤، ص ٢٢٠.

قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

خلاصة التفسير

انّ الملائكة الذي دأبوا في سيرتهم وسريرتهم على التسبيح المقترن بالحمد والثناء ومن أدبهم مع الله انّهم يبتدئون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتسبيح أو التحميد، فهم بعد ان تلقّوا الجواب التفصيلي والعملي من الله على سؤالهم حول خلافة آدم، وبعد أن ادركوا جهلهم وعجزهم وعدم كفاءتهم لهذا المقام؛ وفي الحقيقة انهم وقفوا على علم الله وحكمته في جعل هذا المقام لآدم وعدم جعله لهم، فانّهم في هذه الآية أيضاً، وفي بداية الحوار لهم كلام عن التنزيه (سبحانك) وكذلك في ختامه لهم كلام عن التحميد: **﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** وفي المجموع فانّهم كما يعترفون بعلم وحكمة الله ونزاهته من العيب فكذلك يقرّون بعجزهم في قولهم **﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾**.

التفسير

قالوا: مقتضى النظم الأدبي في رواية كلام الآخرين هو ان لا يذكر حرف العطف، ولذلك جاء لفظ (قالوا) بغير حرف عطف، كما انّ في قوله تعالى ﴿**قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا**﴾ وكذلك في الموارد القادمة لم يُذكر حرف العطف.

سبحانك: كلمة (سبحان) التي تستعمل لأول مرة في هذه الآية، تعتبر عند الخليل وسيبويه مصدراً ومفعولاً مطلقاً لفعل (نسبّح) المقدّر، اي (نسبّحك تسبيحاً).[1]

ووافقهما على هذا القول الأديب النيسابوري صاحب (شرح النظام) وقال: (سبحان) مصدر وغير منصرف، ونُصب بناء على المصدرية، وفعله يحذف وجوباً، وعندما يستعمل بصيغة كونه غير مضاف فهو عَلَم للتسبيح، لانّ العلَميّة كما تأتي في الأعيان، كذلك تأتي في المعاني أيضاً.[2]

طبعاً هناك من يعتبره بنحو مطلق علَماً للتسبيح ويقول ايضاً:(انّ استعمال هذه الكلمة يتم على نحو المضاف، واستعمالها على نحو غير مضاف شاذ وعدم انصرافها يعود لعاملين هما التعريف والألف والنون الزائدتان).[3]

تنويه: حيث انّ معنى السَبْح هو الجريان والحركة والاشتغال كما في قوله تعالى ﴿**إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً**﴾[4] فكأن المسبّح لديه جريان واشتغال وحركة دائبة.

---

١. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٧٢.

٢. **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ج ١، ص ٢٢٣.

٣. **تفسير ابي السعود**، ج ١، ص ١٠٤.

٤. **سورة المزمّل**، الآية ٧.

تناسب الآيات:

بعد الجواب التفصيلي والعملي لله (لسؤال الملائكة حول خلافة آدم) عن طريق تعليم الأسماء إلى آدم ومن ثمّ عرضها على الملائكة، وبعد ان أدرك الملائكة استعداد آدم وكفاءته لمنصب الخلافة وجهلهم وعجزهم وعدم كفاءتهم لهذا المقام وايقنوا بعلم وحكمة الله في جعل الخلافة لآدم وعلموا انّهم عاجزون حتى عن الإخبار بالأسماء اذا لم ينبئهم آدم بها، عند ذاك قالوا: انت منزّه!

مورد تنزيه الملائكة:

بالنظر إلى انّ (سبحانك) معناه تنزيه الله من العيب والنقص، فحينئذ يطرح هذا السؤال: ما هو هذا النقص الذي ينزّه الله عنه في هذا المجال؟ وبعبارة أُخرى ما هو الشيء المنزّه منه بالضبط؟

وفي الجواب يمكن أن يقال: انّ مورد التنزيه هو ترجيح المرجوح على الراجح أو ترجيح احد المتساويين على الآخر والتمييز غير الصحيح، لانّ الملائكة بعد الاستنباء من الله ووضوح أهلية آدم وعدم قدرتهم واستعدادهم، أدركوا انّ عدم تعليم الأسماء لهم ليس من باب منع الفيض، بل هو لأجل عدم امتلاكهم لتلك القدرة التي تؤهلهم ليكونوا تلامذة لله بنحو مباشر وبغير واسطة. فقولهم (سبحانك) يعني انّك منزّه من البخل بالخلافة أو بالعلم ومن عدم منحهما لمن تعلم انّه مستعدّ ومؤهّل لهما.

كما يوجد هذا الاحتمال ايضاً وهو انّ (المنزّه منه) هو علم الملائكة



بالغيب (الأسماء) بدون تعليم الله. اي انّك منزّه من أن نكون عالمين بالأسماء بدون تعليمك لنا.[١]

ويحتمل ايضاً ان (المنزّه منه) هو الفعل بغير حكمة؛ اي انهم بعد أن وقفوا بواسطة استنباء الله على حكمة الله في جعل الخلافة لآدم قالوا: انّك منزّه عن ايّ عمل بلا سبب وفعل غير حكيم.[٢] والمؤيّد لهذا الاحتمال ايضاً هو عبارة ﴿**أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ في ذيل الآية الكريمة.

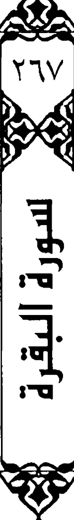
طريقة الملائكة في التسبيح

تقدم عن بعض المفسرين[٣] في بحث هل انّ الاستفهام في قوله ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا**﴾ اعتراضي ام لا، قولهم: انّ كثرة التأكيدات في هذه الآية[٤] دليل على كون سؤال الملائكة انكارياً واعتراضياً. وحيث قد صدر منهم ترك الأولى لذلك فقد جاءوا بكل هذه التأكيدات في الحمد والثناء والتنزيه لأجل تدارك وجبران ما حصل.

لكنّه وكما تقدم فانّه لا الاستخبار السابق كان مقترناً بالاستنكار ولا الثناء والتنزيه الفعليّ دليل على التدارك، لانّ سيرة الملائكة وسريرتهم مبنيّة على التقديس الإلهي والتسبيح المقترن بالثناء.

---

١. **راجع جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٣.
٢. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٣.
٣. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٦٤.
٤. ١. التعبير بـ(سبحانك) تأكيد معنوي. ٢. نفي العلم الذاتي عنهم وحصر علمهم بالمقدار الذي منحه الله لهم. ٣. التأكيد بـ(انّ). ٤. الاتيان بالجملة الاسمية. ٥. الاتيان بضمير الفصل (انت). ٦. الاتيان بصيغة المبالغة (عليم) و(حكيم).



تنويه: السرّ في اختلاف الاعلان الإلهي عن جعل الخليفة الذي ورد بصيغة الاسم المفيد للثبات والاستمرار ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ**﴾، عن استفهام الملائكة الذي جاء بصيغة الفعل (أتجعل) هو انّ الملائكة سألوا عن أصل الحكمة في جعل الخليفة ولم ينظروا إلى مسألة الانقطاع أو الاستمرار، ولذلك بيّنوا سؤالهم بصيغة الفعل.

أدب الملائكة في التكلّم مع الله:

كما اشير في آية الخلافة في ذيل جملة ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ إلى ادب الملائكة مع الله، حين بدأوا كلامهم بالتسبيح وختموه ايضاً بالتسبيح والتقديس والتحميد وبين هاتين البداية والنهاية قدّموا سؤالهم وهذا هو الأدب الذي دأب عليه الانبياء كذلك، فهذا الكليم موسى يقول ﴿**سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾،[1] وهذا يونس ايضاً يقول ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾.[2]

وفي الآية محل البحث نرى الملائكة في ابتداء حوارهم يتكلمون عن تنزيه الله ويقولون (سبحانك) وكذلك في نهايته يتحدثون عن التحميد قائلين ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾، وفي المجموع فانهم في وقت واحد يعترفون بحكمة الله وعلمه وتنزيهه من العيب والنقص كما يقرّون بعجزهم أيضاً بقولهم ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾.

وجملة ﴿**قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا...**﴾خبريّة، وهي اضافة إلى

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

٢. سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

مفادها الأصلي قد جيئ بها لتدل على غرض خاص، وقد اُختلف في تعيين هذا الغرض، فقد توهم البعض ممن ينكر عصمة الملائكة، انّ الغرض هو اظهار الندم والتوبة مما حصل في الماضي. لكنّ المحققين ممن يعتقدون بعصمة الملائكة يرون انّ الغرض هو اظهار العجز والتأدب في المشهد الإلهي، وقد عبّروا عن هذا الهدف بنحو يراعي جميع الجوانب الأدبية في التعبير لأنّهم اوّلاً: التفتوا إلى جعل التنزيه في مقدمة كلامهم.

ثانياً: اعترفوا بالعجز والجهل.

ثالثاً: نسبوا جميع أنحاء العلم والتعليم إلى الله.

رابعاً: اعتبروا الحكمة مختصة بالله.

خامساً: قدّموا العلم على الحكمة، كما هو المعتاد في القرآن الكريم حيث يقدّم ذكر العلم على الحكمة، لانّ اتّصاف العليم بالحكيم من قبيل اتّصاف الخطيب بالمُصقع والشاعر بالمُفلِق أي من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

سادساً: اعتبروا حظهم وحصيلتهم العلمية قليلة لأنّ ظاهر ﴿... **إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ هو قلّة العلم التي تستظهر من كلمة (ما) في مثل هذه الموارد.

سابعاً: اعتبروا الله معلّماً ولم يعدّوه مدرّساً وهذا نحو آخر من الأدب، لأنّ هناك فرقاً بين التعليم والتدريس، حتى أنّ الفخر الرازي قال إذا تمّت الوصية بشيء إلى المعلّمين، فانّه لا يشمل المدرّسين.[1]

---

١. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ٢٢٦.

لطائف واشارات

١. علامة الرسوخ في العلم

طبقاً لكلام امير المؤمنين علي عليه السلام فانّ الاعتراف بالعجز عن بلوغ الأمور التي احيطت بالكتمان، يعدّ من العلم، كما انّ الاقرار بكون جميع ما حجب عن الإنسان من الغيب حقاً، يدفع الانسان إلى تجنّب التشبّث بالسعي لفتح ابواب العلم المسدودة، فقد قال عليه السلام: «**واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السّدد المضروبة دون الغيوب الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخاً**».[1]

ويظهر من الآية محل البحث انّ الملائكة عرفوا درجتهم الوجودية ومكانتهم واستعدادهم واعترفوا بانّ الكثير من الأمور مكتومة عليهم وهم عاجزون عن ادراكها وفهمها وهذا دليل على رسوخهم في العلم وكمالهم.

٢. امكان زيادة علم الملائكة

يمكن ان يقال: انّ المستفاد من عبارة ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ في الآية محل البحث وكذلك الآية الكريمة ﴿**وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**﴾[2] هو ان كل مَلَك له درجة معينة لا يتعداها، وبعبارة اخرى: انّ بَدءهم وحشرهم

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ٩١، المقطع ٩ - ١٢.

٢. **سورة الصّافات**، الآية ١٦٤.

واحد وليسوا كالنفس الانسانية التي هي «جسمانية الحدوث روحانية البقاء» حتى يكونوا من أهل التكامل والحركة.

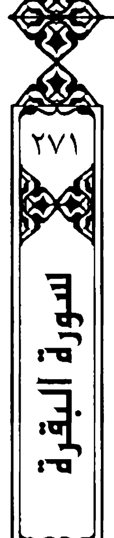
لكن يمكن ان يقال في الجواب: انّه يحتمل كما انّ روح الإنسان على رغم تجردها فانّه يمكن أن يزداد علمها نتيجة تعلقها التدبيري بالبدن، كذلك الملائكة مع تجردهم النفساني، فانَّ المجال مفتوح امامهم لتعلّم العلوم الجديدة أيضاً، وذلك لانهم مدبّرات السماوات والأرض وهم بمنزلة ارواح السماوات والأرض، وبعبارة اخرى يحتمل أنَّ بعضاً من الملائكة على الأقل يتّصفون بالتجرد النفسي (مقابل التجرد العقلي) يعني مثل روح الإنسان، تكون لديهم القوة التي تستطيع عن طريق آلة البدن (وهي عبارة عن السماء والأرض أو بدنهم الخاص بهم) أن تصل إلى مرحلة الفعلية.

تنويه: ١: انّ ما هو مصون من الزيادة والنقص هو الموجود المجرد التام العقلي المنزّه من مرتبة القوة، وتطبيقه على ايّ مَلَك بحاجة إلى البرهان. ٢: من جهة اخرى فانّ التكامل ليس منحصراً في الموجود المركّب من النفس والبدن، بل انّ الميزان في القابلية للتكامل، هو امتلاك القوة وعدم التجرد العقلي التام، حتى وان كان ذلك الموجود فاقداً للبدن.

امّا جملة ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ فلا ملازمة لها مع عدم زيادة العلم حتى ولو كان من جانب الله، بل انها فقط تنفي العلم الذاتي للملائكة، وامّا آية ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**﴾[1] فهي اوّلاً: يمكن ان تكون غير متعلقة بجميع الملائكة.

---

١. **سورة الصّافات**، الآية ١٦٢.



ثانياً: انّ المقصود من المقام المعلوم هو الدور المعيّن والمحدّد لكل فرد من الملائكة؛ اي انّ على عاتق كل واحد منّا مهمة وتكليفاً خاصّاً.

ثالثاً: يمكن ان يكون المقام المعلوم هو الدرجات التي يمكن ان يبلغها بعض الملائكة لا كلّهم، اي مع انّ تكامل ورشد الملائكة له مستوى وحدّ معلوم لكنّ المجال مفتوح للتكامل والرقي تحت ذلك المستوى لأجل نيل المراتب الأعلى.

٣. اختصاص العلم المباشر بالصادر الأول:

كيف أنّ تعليم الأسماء لآدم قد عُدَّ درجةً له، مع انّ الملائكة ايضاً لو تمّ تعليمهم لكانوا مثل آدم يتعرفون على الأسماء؟ فكيف انّ آدم الذي لم يكن يعلم بشيء من ذاته قد صار خليفة لله ولكنّ الملائكة لم يصيروا كذلك؟

هذا الاشكال تقدم ذكره مع اختلاف قليل في (مبحث لطائف وإشارات) في الآية السابقة واجيب عليه بالتفصيل.[1] ومختصر ذلك الجواب هو: انّ العلم بالأسماء علم لدنّي ومباشر من الله، ومثل هذا العلم يُعطى للموجود الكامل الذي ليس بينه وبين الله واسطة ولا حجاب؛ اي المخلوق والفيض الأول، والمخاطَب الأول بخطاب «كن» وهذا الموجود (سواء كان بلحاظ الترتيب الوجودي والنظام العلّي والمعلولي الذي يفهمه الفلاسفة أو بلحاظ ترتيب الأسماء والتجليات المختلفة التي يراها العرفاء) فقط هو الإنسان الكامل. فالانسان الكامل هو المجلى الأتمّ

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٢٢٩، من الترجمة العربية.



والتجلّي الأول، والمَلَك هو التجلّي الثاني، الإنسان الكامل هو أول مرآة، والملائكة هم المرآة الثانية لـ(نور السماوات والأرض).[1]

والنتيجة هي انّ الإنسان الكامل معلّم الملائكة والخليفة المباشر لله، والملائكة تلامذة الإنسان الكامل والخليفة غير المباشر لله، اي انّهم تلامذة يتلقون علوم ومعارف حقائق العالم من الواسطة ومن معلّمهم الذي هو الانسان الكامل. وبعبارة اخرى نظراً إلى انّ الملائكة يتصفون بدرجة وجودية اقل، فلا يمكنهم تلقي حقائق الأسماء مباشرة من الله وان يكونوا خليفة الله بلا فصل، فلا مجال للإشكال بانّ الله لو كان يعلمهم ايضاً لأصبحوا خليفة له.

٤. الاعتراف بالجهل:

ينقل القرطبي كلاماً عن ابن هرمز وهو انّه يجدر بالعالم أن يترك ارثاً لمحاوريه وندمائه وهو عبارة عن قول (لا ادري) حتى يبقى هذا الارث الثقافي في أيديهم، فاذا ما سُئلوا عن أمر لم يعرفوه اجابوا به وقالوا: (لا ادري). يقول هيثم بن جميل: رأيت مالك بن انس وقد سألوه ثمانياً واربعين مسألة فأجاب على اثنتين وثلاثين منها قائلاً: لا اعلم، ومصدر ترك (لا ادري) حبّ الرئاسة وعدم مراعاة الانصاف في العلم، ومن لم يكن من اهل الانصاف فهو ليس من أهل الفهم والتفهّم.[2]

ويروي القرطبي: انّ رجلاً سأل الإمام عليّاً عليه السلام مسألة، فأجابه عنها،

---

١. **سورة النور**، الآية ٣٥.

٢. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٧١.



فقال الرجل: يا أمير المؤمنين ليس كذلك، ولكن هكذا، فقال الإمام علي عليه السلام: لقد نطقت انت بالصواب، وانا تكلمت بالخطأ، وفوق كلّ ذي علم عليم آخر.[1]

تنويه: وان كان علم الممكن محدوداً بالنسبة إلى علم الله سبحانه، لكنّ صاحب مقام «**سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي**»[2] العالي منزّه عن مثل هذه الحالات.

---

١. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٧١.

٢. **نهج البلاغة**، الخطبة ٩٣، المقطع ٢.

قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾

خلاصة التفسير

بعد أن ادرك الملائكة جهلهم وعجزهم، وكذلك عدم كفاءتهم لمقام الخلافة، ولأجل أن يعرفوا أيضاً علم وكفاءة آدم، فانّ الله سبحانه قال لآدم: اخبر الملائكة بأسماء حقائق العالم.

والتعبير (بالإنباء) مع انّ التعبير في مورد آدم كان هو (التعليم) فهو يشير إلى انّ ما يحصل عن طريق إنباء آدم للملائكة هو غير ذلك الشيء الذي حصل بعد تعليم الله لآدم. فما أعطاه الله لآدم هو العلم وادراك حقائق الأشياء، ولكن ما حصل عليه الملائكة فهو مجرد نبأ واخبار عن الأشياء.

واضافة الغيب إلى السماوات اضافة (لام) لا اضافة (من) ومعنى ذلك انّ هذا الغيب (وهو نفس الأسماء) خارج وغائب عن السماء



والأرض لا هو من جنسهما ولا هو جزء منهما (سواء كان جزءاً من باطنهما أو جزءاً من ظاهرهما). كما انّ جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ناظرة إلى الغيب النسبي والتحذير بانّ ظاهر الملائكة وباطنهم سواء في الوضوح لدى الله.

والمقصود من ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ هو نفس ما اظهره الملائكة في ضمن قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾، وجملة ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ اشارة إلى رغبتهم الخفيّة بسلب الخلافة عن آدم واعطائها لهم، أو اشارة إلى استكبار ابليس في قصة الأمر بالسجدة، أو اشارة إلى بعض الخواطر القلبية التي حدثت عندهم بعد اعلان جعل الخلافة المتمثلة في انّه كيف يمكن للموجود الأرضي السيادة على كلّ شيء حتى على الملائكة أنفسهم. والجمع بين الاحتمالات الثلاثة ممكن ايضاً.

التفسير

قال: حذف حرف العطف وذكر كلمة قال دون أن يذكر قبلها حرف عطف انّما هو لأجل الانسجام، والترابط الموجود في الحوار والمحادثة، وكما تقدّم.

فلمّا: كلمة الفاء في ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ﴾ ليست دليلاً على تأخر انباء آدم عن أمر الله، بل انّ امر الله سبحانه واطاعة الإنسان الكامل لا يفترقان، كما انّ الانسان اذا اراد النظر إلى شيء فهو يراه فوراً، واذا اراد ان يقول شيئاً فهو يقوله فوراً، بل انّ ارادة النفس اذا حصلت حصلت معها طاعة



وامتثال الجوارح، هنا ايضاً عندما يريد الله من آدم أن يكون معلّماً للملائكة فانّ تعليم آدم يحصل بنفس تلك الارادة.

تناسب الآيات:

بعد أن طلب الله من الملائكة الإنباء بالأسماء، فاظهروا عجزهم وجهلهم واعترفوا بضعفهم، ولأجل أن يتعرّفوا على علم آدم اي على كفاءته وكماله، فانّ الله سبحانه قال لآدم أن اخبر الملائكة بأسماء حقائق العالم، وعندما أخبر آدم الملائكة قال الله للملائكة: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ ولا شيء منكم يخفى عليّ، وباطنكم وظاهركم عندي سواء. فأنا عالم بما اعلنتم من انّ الانسان يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وما كتمتموه من أنّكم أحقّ بالخلافة، (أو استكبار البعض منكم أي ابليس وعدم سجوده لآدم).

التعليم والإنباء:

كما تقدم في الأبحاث السابقة ايضاً، فانّ التعبير بقوله (**أَنبِئْهُم**) بدلاً من (علِّمْهم) وكذلك التعبير بقوله (أنبأهُمْ) بدلاً من (علّمهُمْ) مع انّه قد عبَّر في مورد آدم بقوله ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء**﴾ ولم يقل (أنبأ آدمَ الأسماء)، يدلّ على انّ ما حصل لآدم بتعليم الله له يختلف عمّا حصل للملائكة بإنباء آدم، فما اوتي آدم هو علم وادراك حقائق الأشياء، ولكنّ ما اعطي للملائكة فهو مجرد نبأ وخبر عن الأشياء. والسبب الذي جعل الملائكة طبقاً لما جاء في الآية السابقة ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء**﴾ عاجزين حتى عن الإنباء (مع ان

الإنباء علم رقيق باهت اللون) هو انّه على الرغم من كون النبأ علماً رقيقاً وباهت اللون لكنّ الإنباء والإخبار يتفرع على وجود نوع من العلم. فالذي يستطيع الإنباء عن شيء هو الذي قد تعلّم ذلك الشيء في مرحلة سابقة، وحيث انّ الملائكة لم يكونوا قد حصلوا على قدرة وأصل ومنشأ الإنباء لذلك فانهم أظهروا العجز عن الإنباء لمّا قيل لهم ﴿**أَنبِئُونِي**﴾.

وحتى اذا لم يكن هناك فرق بين التعلّم والإنباء (من باب انّ النبيّ يقال له نبيّ لانّه يتلقى أنباء الغيب على نحو العلم) فهناك على الأقل فرق مهمّ وهو انّ علم آدم مباشر وبغير واسطة وعلم الملائكة مع الواسطة، والعلم مع الواسطة في هذه الموارد مرتبة نازلة ورقيقة ورشحة للعلم بغير واسطة، اي انّ الفرق بين الاثنين هو الفرق بين الحقيقة والرقيقة، لانّ التقدم للواسطة على ذي الواسطة في مثل هذه الموارد هو تقدم رتبي، ومن قبيل تقدّم العلّة على المعلول والظاهر على المظهر، وفيه يكون المتقدم متصفاً بحقيقة، يفقدها المتأخر، وانما تكون لديه رشحة ورقيقة منها، وليس التقدم هنا تقدماً زمانياً، كالذي يحصل عندما يقوم زيد باخبار عمرو بمسألة ما فيقوم عمرو بنقل تلك المسألة إلى بكر بكامل ما فيها من مفهوم ودرجة علمية ودون اي فرق واختلاف. وبالنتيجة فانّ العلم الذي حصل لبكر لا يختلف عن العلم الذي حصل لعمرو، بل قد يحصل احياناً أن يكون استيعاب التلميذ مع الواسطة للمسائل المنقولة إليه ادقّ واعمق من استيعاب التلميذ بغير واسطة كما قال الرسول الأكرمﷺ (**ربّ حامل فقه الى من هو أفقه منه**).[1]

---

١. **الكافي**، ج ١، ص ٤٠٤.

وهذا بنفسه شاهد آخر على انّ العلم بالأسماء ليس مجرد علم بالمفهوم اللغوي للأشياء الذي يتكفّله الوضع اللغوي، والاّ لكان هذا المقدار حاصلاً بالإنباء ايضاً. بل انّ العلم بالأسماء عبارة عن تعليم الحقائق والكشف عن اعيان الموجودات؛ وهي تلك الحقائق والأعيان التي تتصف بما يلي: اولاً، انّها غيب وباطن السماوات والأرض.

ثانياً: انّ بلوغها والحصول عليها غير متيسر الاّ للانسان الكامل (الذي هو الكون الجامع) فقط.

ثالثاً: انّ لمعرفتها وشهودها دوراً في الخلافة الإلهية.

تنويه: انّ نبوة آدمعليه السلام ظهرت بعد الهبوط إلى الأرض، وقبل ذلك لم يكن هناك شيء من التشريع المصطلح والرسالة المعروفة، اذن فأمر آدم بإنباء الأسماء لم يكن امراً تشريعياً. وعليه فان ما قاله البعض[1] من احتمال رسالة آدمعليه السلام للملائكة وذكر مسألة علمهم بنبوة آدم غير صحيح. نعم توجد في نشأة الملائكة رسالة خاصة تختلف عن النبوة التشريعية، وخلاصة القول هي ان اسلوب قصة آدمعليه السلام والأمر بإنباء الأسماء ذكر على نحو التشريع ولكنّه ليس من التشريع الاصطلاحي.

غيب السماوات والأرض:

انّ مقتضى قرينة المقام، اي مقام اظهار قدرة واحاطة الله وعجز وجهل الملائكة، هو ان تكون اضافة (الغيب) إلى (السماوات) في جملة ﴿إِنِّي

---

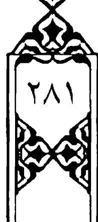
١. **كشف الأسرار**، ج ١، ص ١٣٨.

﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ اضافة (لام) لا اضافة (من)، اي الم اقل لكم بأنني أعلم غيب السماوات والأرض، لا غيباً من السماوات والأرض؟ ولا غيباً من جنس السماوات والأرض، ولازم ذلك انّ هذا الغيب (الذي هو الأسماء نفسها) خارج وغائب عن السماء والأرض لا هو من جنسها، ولا هو جزء منها (سواء كان جزءاً من باطنها أو جزءاً من ظاهرها)، وبعبارة اخرى هو غيب مطلق وليس غيباً نسبياً واضافياً، لانّ الذي يوجد في الفضاء أو على الأرض انّما هو موجود من عالم الحسّ والشهادة وليس من عالم الغيب، ولازم ذلك ان العلم بهذا الغيب لا يستخرج بالبحث والتنقيب في الأرض، ولا يُنال بالتحليق في الفضاء وانّما يحصل من قبل الله العالم بالغيب والشهادة.

ويمكن ان يقال: نظراً إلى انّ المقصود من السماوات والأرض في هذه الآية هو السماوات والأرض المادية والظاهرية، والملائكة جزء من السماء المعنوية، ومن الذين يتلقون ويأخذون الأمور المعنوية، اي الوحي الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾،[1] وليسوا جزءاً من السماء المادية التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ﴾،[2] (بناء على كون المقصود من الرزق هو خصوص الرزق المادي) ونظراً إلى انّ السماء والأرض المعنوية باطن السماء والأرض الماديّة والظاهريّة، فتكون النتيجة هي انّ الملائكة ايضاً جزء من باطن وغيب السماوات والأرض، اي انّهم ايضاً مصداق من مصاديق

١. **سورة فصلت**، الآية ١٢.
٢. **سورة الذاريات**، الآية ٢٢.





﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وحيث انّهم عارفون بحقيقتهم وشؤونهم الغيبية، فكيف يكونون غير عالمين بهذا الغيب؟

والجواب هو انّ الملائكة وان كانوا جزءاً من الغيب والباطن لكن لاشكّ انّ عالم الغيب والموجودات الغيبية لها درجات متعددة طوليّة؛ وهي درجات بعضها اعلى من بعض، وما تمّ تعليمه لآدم كان من أعلى مراتب عالم الغيب والموجودات العالية فيه، ولم يكن من درجاته المتوسطة والنازلة.

والملاحظة الاخرى هي انّ المقصود من ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾ هو الأسماء نفسها، اي ان ما كان يجهله الملائكة هو وجود حقائق بعنوان الأسماء لا معرفة آدم بالأسماء حتى يتصور بانّ الملائكة كانوا عالمين بالأسماء، ولكن لم يكونوا على علم بانّ آدم عارف بالأسماء، ولذلك اعترضوا، لانه لو كان الأمر هكذا، لكان يكفي أن يأمر الله آدم بأن يخبرهم بالأسماء، لكي يعرفوا انه عالم بها، ولم تكن هناك ضرورة أن يخاطبهم الله بنفسه ويقول لهم ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء﴾.

وبعبارة اخرى: انّ المقصود من هذا الحوار والسؤال والجواب امران: احدهما: عدم معرفة الملائكة بالأسماء، وبالتالي عدم كفاءتهم لمنصب الخلافة الإلهية، والآخر: معرفة آدم بالأسماء وكفاءته للخلافة. ولذلك ورد الخطابان، خطاب ﴿أَنبِئُونِي﴾ وخطاب ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم﴾.

تنويه: ١. انّ التعبير ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ في جملة ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ بصيغة اسم الظاهر مع امكان الاكتفاء بالضمير (ها) هو لأهميّة مسألة علم الأسماء.

٢. كما تقدمت الاشارة إليه في بعض المباحث السابقة، يظهر من عبارة ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُمْ﴾ انّ ما يذكر في هذه الآية بعنوان ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو عين ما اشير إليه على نحو الإجمال في ذيل آية الخلافة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، لانّه طبقاً لما في قصة الخلافة وتعليم الأسماء التي جاءت في ظاهر الآيات، فانّ ما قاله الله في هذه القصة ويصدق عليه عبارة ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُمْ﴾ ليس شيئاً سوى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ...﴾.

وخلاصة القول هي انّ ما تنطبق عليه العناوين الثلاثة، ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ و﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ و﴿الأَسْمَاء﴾ هو أمر واحد، وهو كما تقدم يمكن أن يكون مفاتح الغيب وخزائن الأشياء اللّذين ذُكرا في الآيتين الكريمتين: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[1] و﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾.[2]

العلم الإلهيّ بظاهر وباطن الملائكة

انّ جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ليست تكراراً لمضمون ﴿... أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بل هي تحذير للملائكة بانّ ظاهرهم وباطنهم سواء في علم الله.

وبتعبير السيد الاستاذ العلامة الطباطبائي فانّ التقابل بين هاتين الجملتين مع الجملة السابقة، يقتضي أن يكون مضمون هاتين الجملتين متعلقاً بالغيب النسبي (الذي هو جزء من باطن السماوات والأرض)،

---

١. سورة **الأنعام**، الآية ٥٩.

٢. سورة **الحجر**، الآية ٢١.

حتى يكون مفاد المجموع هو انني عالم بالغيب بكلا قسميه، الغيب المطلق الذي يُعدّ خارجاً عن ظاهر وباطن العالم الأرضي والسماء المادية ومحيطاً بهما ومشرفاً عليهما، وكذلك الغيب النسبي الذي هو جزء من باطن العالم الأرضي والسماء الماديّة.[1]

والمقصود من ﴿**مَا تُبْدُونَ**﴾ هو نفس ما أبداه الملائكة ضمن قولهم ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...**﴾، والمقصود من ﴿**مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ انّهم كانوا يكنّون في انفسهم انّهم احقّ بالخلافة، أو الرغبة في سلب الخلافة من الإنسان، ولكنّهم أخفوا ذلك ولم يُظهروه، ويؤيّد هذا الاحتمال اسناد الفعل إلى جمعهم.

ويحتمل ايضاً أن يكون المقصود من ﴿**مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ هو ذلك الاستكبار الذي بدر من ابليس عند أمره بالسجود لآدم، والذي كان قد أخفاه، طبعاً سيرد سؤال وهو: لماذا قد نسب الكتمان إلى جميع الملائكة؟ وجوابه ان اسناد فعل الفرد إلى الجماعة التي ينتمي إليها ظاهراً والذي يصعب تمييزه منها، أمر معتاد ومتداول عند اهل الأدب.

ويؤيّد هذا الاحتمال انّ الملائكة قد أفصحوا عن جميع ما في باطنهم بجملة ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ...**﴾ والتي هي استفهام محض. والملائكة لا يخفون في سريرتهم شيئاً مخالفاً للحق لانّهم ﴿**لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾.[2] اذن فالأمر المكتوم لابدّ أن يكون هو استكبار إبليس.

---

١. **الميزان**، ج ١، ص ١١٨، مع بعض التغيير.

٢. **سورة الأنبياء**، الآية ٢٧.

والاحتمال الثالث هو انّ اعلان جعل الخلافة لآدم بعبارة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ﴾ والتي يظهر منها انّ خلافة آدم سارية حتى على الملائكة (والذي يؤيده تعلّمهم من آدم وتلقّيهم الأمر بالسجود له أيضاً) أدّى بالملائكة إلى أن يخطر في قلوبهم شيء، اذ انّهم لم يظنّوا أبداً انّ موجوداً أرضياً تتمّ له السيادة على كل شيء حتى عليهم.

هذا الاحتمال يذكره السيد العلامة الطباطبائي‌ﷺ في ذيل الآية التي هي بعد هذه الآية ويقول: ان بعض الروايات ايضاً تؤيّد ذلك.[١] ويقول في البحث الروائي ايضاً: لا منافاة بين هذا الوجه والوجه الأول (وهو انّ الأمر المكتوم هو امتناع ابليس عن السجود) لانّ الجمع بين الوجهين واستفادة كليهما من الآية أمر ممكن.[٢] كما أنّه لا يوجد دليل على الحصر. وعلى هذا الأساس تتيسّر ارادة الجامع بين جميع هذه الاحتمالات بحيث يُطرح موضوع تندرج فيه جميع تلك الاحتمالات (وهو الجامع بينها).

وبناء على انّ الأمر المكتوم هو امتناع ابليس عن السجدة فان التعبير بـ(كنتم) وانه بدلاً من أن يقول (ما تكتمون) كما قال (ما تبدون) جاء بجملة ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ على نحو الماضي المستمر يدلّ على انّ

١. **الميزان**، ج ١، ص ١٢٢، المقصود رواية العياشي عن الإمام الصادق ﷺ حيث يقول (لمّا أن خلق الله آدم أمر الملائكة ان يسجدوا له، فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنّا نظن انّ الله خلق خلقاً اكرم عليه منّا. فنحن جيرانه ونحن اقرب خلقه إليه، فقال الله: ألم أقل لكم اني أعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فيما ابدوا من أمر بني الجانّ وكتموا ما في انفسهم. فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش) تفسير العياشي، ج ١، ص ٥١.

٢. **الميزان**، ج ١، ص ١٢٤.





سجدة الملائكة وامتناع ابليس عنها، قد وقعت بعد قضية الاعلان عن جعل الخلافة وقول الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وقبل قوله ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وان كان ظاهر قوله: ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ...﴾ هو وقوع القول المذكور مباشرة بعد إنباء آدم، لا بعد الإنباء والأمر بالسجدة لكنّه يمكن نفي مثل هذا الظهور، لان كلمة (قال) ذكرت دون حرف ترتيب (كالفاء)، ولهذا فانّ من الممكن أن يكون وقوعها بعد فصل.

طبعاً هذه الملاحظة تتمّ فقط في حال كون جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ معطوفةً على ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وليست معطوفةً على قوله ﴿أَلَمْ أَقُل﴾، لانّه في هذه الحالة فان جملة ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُمْ﴾ تتعلق بـ(أعلم) الثانية ايضاً، ويكون المعنى: ألم اقل لكم: اني اعلم بظاهركم وباطنكم (وطبعاً تكون ناظرة إلى قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ المذكورة في ذيل الآية السابقة) وبذلك تحصل النتيجة التالية وهي: انّ الله فهّمَ الملائكة بعد سؤالهم الاستفهامي على نحو الإجمال وبجملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، انني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم باطنكم وظاهركم، ولكي يثبت ذلك جاء بتعليم الأسماء وبها أماط اللثام عن الأسماء وكفاءة آدم لتعليم الملائكة، وجاء ايضاً بقصة السجدة لآدم ليكشف بها النقاب عن استكبار ابليس ويُظهرَ ما كان مكتوماً عنده، وبعد هذا الكشف والتعرية قال: ألم اقل لكم: انّي أعلم غيب السماوات والارض؟ (اشارة إلى مسألة الأسماء) وألم اقل لكم: انّي أعلم بظاهركم وباطنكم؟ (اشارة إلى مسألة السجدة وامتناع ابليس)، لكنّه

على الفرض الثاني، وهو بناء على عطف (أعلم) الثانية على (ألم اقل) فمن الواضح انّه لا يمكن استفادة هذه الملاحظة.

وعلى الوجه الأوّل، فان جواب السؤال عن السبب في عدم ذكر قصة السجدة وامتناع ابليس عنها في هذه الآية، وذكرها في الآية بعدها سيأتي بنحو مستقل في ضمن تفسير الآية التي تأتي بعد هذه الآية.[1]

تنويه: انّ علم الله بالظاهر والباطن لا يختص بالملائكة؛ كما جاء في آيات اخرى مثل قوله تعالى ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ**﴾.[2] ولذلك فان في هذا المعنى تحذيراً لأجل الالتفات إلى المعاد.

□لطائف وإشارات

١. العصمة من الخطأ في تعليم الأسماء:

لو انّ الملائكة قد تلقّوا العلم بالأسماء أو الإخبار بها مباشرة من الله وبغير واسطة، لم يكن هناك مجال للسؤال أو احتمال الخطأ والخلاف، لكن حيث انّ الإنسان الكامل قد صار واسطة في البين، وعن طريقه تلقّوا الاخبار بها، فهنا يطرح هذا السؤال وهو:كيف انّ الملائكة عرفوا انّ آدمعليه السلام لم يقع في الخطأ عندما قام بعملية الإنباء؟ وقد أثار هذا السؤال السيد المرتضىرحمه الله وقال: بانّه لم يسبق لأحد طرح هذا الاشكال، ولأجل حلّه

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٣٠٨، من الترجمة العربية.

٢. **سورة البقرة**، الآية ٢٨٤.

فقد اشار إلى نبوّة آدمعليه السلام.[1] ولم يقبل امين الإسلام الطبرسيرحمه الله في جواب هذا السؤال القول بضرورة العلم بنبوّة آدمعليه السلام في هذا المقطع الخاص،[2] وذكر صدر المتألهين اجوبة أمين الإسلام من دون ذكر اسم المجيب.[3]

والجواب الحاسم هو انّ نشأة الملائكة وحريم علم الأسماء وما هو اعلى منه هو المحل الذي لا مجال فيه للخطأ، لانّ المحل الذي يكون فيه الخطأ ممكناً هو المحل الذي فيه مجال لأدوات ووسائل الشيطان والشيطنة وهي الوهم والخيال وجعل الباطل مكان الحق. وفي الدائرة التي يوجد فيها الحق والباطل معاً، تتوفر الأرضية لحصول الشك في أمر ما هل انّه حقٌّ ام باطل؟ ولكنّ المحل الذي لا يوجد فيه سوى الحق فلا مجال للشك فيه أبداً. وعلى هذا الأساس جاء في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليعليه السلام (**مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ**).[4]

وطبقاً لهذا المبنى، ففي محل البحث وبعد إنباء آدم الأسماء، فقد امضى صحتها الله سبحانه وقال ﴿**فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ**...﴾ أي انّ اخبار آدم كان صحيحاً، وقد قام بإنباء الأسماء على حقيقتها وكما هي، واطّلع عليها الملائكة.

ويمكن أن يقال: انّ الملائكة قد اخطأوا في معرفة مقامهم وشأن ومنزلة آدم، وهذا يعني امكان وقوع الخطأ في تلك النشأة. لكن ينبغي الالتفات إلى انّه طبقاً للتحقيق المعقول والمقبول، فانّ ما صدر

---

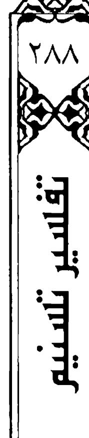
١. **الأمالي**، السيد المرتضى، مج ٢، ج ٣، ص ١٦١.

٢. **مجمع البيان**، ج ١، ص ١٥٨– ١٥٩، ذيل الآية ٣٣ من **سورة البقرة**.

٣. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألهين، ج ٢، ص ٣٧٠.

٤. **نهج البلاغة**، الحكمة ١٨٤.





من الملائكة كان من سنخ الإنشاء لا من الإخبار، اذ انّ سؤالهم كان استفهامياً، ولم يكن اعتراضياً، فلم يصدر منهم اخبار بشيء، وحيث انّ حقيقة كلامهم كانت انشاءً، والإنشاء لا مجال فيه للصدق والكذب والخطأ والصواب، لذلك فلا مجال هناك لوقوع الخطأ المصطلح. نعم انّ الجهل بمعنى القصور وعدم العلم ممكن في كل مرتبة قياساً بالمرتبة الأعلى منها، وهذا غير الكذب، والخطأ والاشتباه وامثال ذلك.

٢.التحذير من الخواطر ولزوم مراقبتها

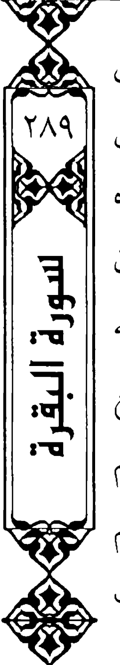
وان كان الله سبحانه قد اهتمّ كثيراً بالعلم واعطاه قيمة ومكانة كبيرة لكنّه حذّر دائماً من الغفلة عن تهذيب النفس إلى جانب طلب العلم، كما في الآية محل البحث حيث يقول: ﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ وهي التي يمكن الاستظهار منها لزوم مراقبة الخواطر والهواجس.

فالله سبحانه يتحدث احياناً عن درس التوحيد وعن احاطته العلمية والعملية كما في قوله ﴿**وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[١] وقوله ﴿**أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾[٢] وفي محل البحث يقول ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ وتارة يتكلم عن المعاد ويقول: بانني أعلم ظواهر وبواطن الجميع وبالتالي فسوف احاسبهم جميعاً، وقوله تعالى ﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ كناية عن هذا الأمر.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٢. سورة فصلت، الآية ٥٤.



وهذه الملاحظة ليست إنذاراً وتحذيراً للملائكة فحسب، بل لجميع العلماء، لاسيّما اذا التفتنا إلى ان الله سبحانه لا يقتصر على حساب الجميع في يوم القيامة بل ربّما يفتح للبعض حساباً في هذه الدنيا فيكشف حقيقتهم وأسرارهم، ويُصيبهم اضافة إلى هوان وخزي الآخرة،[1] بخزي وهوان الدنيا أيضاً، كما اخبر عن ذلك بقوله ﴿**لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.[2] لاسيّما مع الالتفات إلى انّ البعض يخفون في باطنهم شركاً ويغطّونه بما لديهم من تفنّن بحيث يغيب عنهم شيئاً فشيئاً حتى يشتبه الأمر عليهم انفسهم ايضاً فلا يعلمون أيّ شرك قد اخفوا في أنفسهم، لكنّ ذلك الشرك الخفي سيظهر ويندلع شرره يوماً عند الكثير من الناس ويكون سبباً لفضيحتهم.

ولذلك فانّ الله سبحانه يحذّر دائماً ويقول: ﴿**أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾.[3] أو بمعنى ادق من ذلك عندما يقول ﴿**وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[4] اي انني لست عالماً بما تكنّون في انفسكم فحسب، بل انّني سوف استخرجه واظهره، وفي موضع آخر يقول بان الله اذا أمركم بالانفاق في سبيله بَخِلتم، والله يخرج اضغانكم

١. انّ خزي وفضيحة القيامة مهمة للغاية بحيث انّ الله سبحانه أخبر عن حفظ النبي واتباعه المهتدين به منها بقوله ﴿**يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**﴾ **سورة التحريم**، الآية ٨.

٢. **سورة البقرة**، الآية ١١٤؛ **سورة المائدة**، الآية ٤١.

٣. **سورة البقرة**، الآية ٧٧.

٤. **سورة البقرة**، الآية ٧٢.



وعداوتكم بهذا الامتحان: ﴿**إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ**﴾،[١] وفي موضع آخر يقول بنحو كلي ومن دون ان يشخّص مرضاً معيناً أو يسمّي مرضى معيّنين: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ**﴾.[٢]

وهذا تحذير بانّه في يوم الامتحان يظهر كلّ ما يخفيه الانسان في باطنه، وذلك اليوم هو يوم الخزي والفضيحة، فاذا لم يخزن الإنسان في باطنه العلم الخالص، وانّما كان الهوى والانانيّة الى جانب العلم، فانّه لابدّ سيوقعه في الفضيحة يوماً، لانّ الله يخرج الخفايا، ﴿**وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[٣] واذا اردنا ان نبلغ الكمال، فيجب أن نعلم انّ الانسان الكامل هو الذي يكون، اضافة إلى علمه بالأسماء، باطنه نقياً من جميع الأضغان، اي انّ علمه منزّه من التلوث والأدران، وهو علم لا يُرى فيه سوى المعلِّم، لا المتعلِّمُ وأهواؤه القبيحة.

كما يجب أن نعلم بأنّ الله سبحانه لا يفيض العلم تارة، ويمنعه اخرى، وانّما هو ينزل ويفيض العلم باستمرار، وهذا هو الانسان الذي يفتح باب قلبه لاستقبال الفيض تارة ويغلقه اخرى، وامّا الله سبحانه فانّه ليس دائم الفيض فحسب وانّما هو باسط يديه الكريمتين (باسط اليدين بالعطية)، والحجاب الذي يمنع الانسان من تلقّي الفيض هو ذلك الشرك الخفي والرقيق الذي يمكن أن يخفى ويستتر عن الإنسان نفسه، والقرآن

---

١. **سورة محمد**ﷺ الآية ٣٧.
٢. **سورة محمد**ﷺ الآية ٢٩.
٣. **سورة البقرة**، الآية ٧٢.



الكريم يقول في هذا الشأن: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[١] اي انّ الله سبحانه يعلم السرّ بل ما هو أعمق وأدّق واخفى من السرّ.

تنويه: ذكر بعض المفسرين اربعة وجوه لترجيح العلم على العمل،[٢] وكلّ ما ذكره حول أصل المسألة وما اورده من ادلة عليها قابل للنقد ومحل للتأمّل، ولعلّه سيأتي البحث فيها في الموضع المناسب.

٣. توهّم التقدم الزمانيّ للملائكة

يمكن أن يتوهّم من التعبير بصيغة الماضي الاستمراري في قوله ﴿كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ انّ الملائكة متقدمون زماناً على الانسان الكامل، وانّه قد مضى على الملائكة زمن كانوا جاهلين فيه، وكانوا يكتمون في باطنهم شيئاً ثم جاء زمن بعده صاروا فيه عالمين وكشف فيه عمّا في سرائرهم.

والحق انّ التعبير المذكور يقتضيه بيان الحقيقة الملكوتية باللسان الطبيعي والاّ فانّ نشأة الملائكة وارواح الأولياء والافراد الكاملين نشأة فوق الزمان ولا مجال فيها للماضي والحاضر والمستقبل، وفي تلك النشأة يكون للملائكة مرتبة يتمتعون فيها ببعض العلوم، والمرتبة الأعلى منها هي مرتبة الانسان الكامل، اي الفرد الذي عن طريقه وبواسطته يصل الفيض العلمي إلى الملائكة. طبعاً وجود الملائكة متقدم على الوجود المادي والعنصري للانسان الكامل، لكن ينبغي الالتفات إلى انّ المتأخر وان كان موجوداً زمانياً، لكنّ المتقدم منزّه من التحديد الزماني، ولذلك فانّ تقدمه ليس زمانياً.

---

١. **سورة طه**، الآية ٧.

٢. **كشف الأسرار**، ج ١، ص ١٣٩.

٤. الأفضلية المطلقة للانسان الكامل على الملائكة

جاء في تفسير بعض كبار اهل المعرفة:

مع انّه لا يوجد بين المخلوقات مخلوق أعلى رتبة من الانسان سوى الملائكة، ومع ذلك فانّ الملائكة تتلمذوا عند آدم في مسألة تعلّم الأسماء، لكنّ هذا التعلّم والتلقي لا يدلّ على انّ الانسان افضل من الملك، لكنه دليل على انّ الانسان بلحاظ النشأة أكمل من الملك.[1]

والملاحظات التي يمكن ان تسجّل حول الفصل بين الخير والكمال هي:

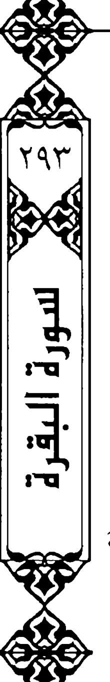
أ: العلم كمال وجودي، وان امكن في دائرة الطبيعة أن لا ينتفع العالم غير العامل بعلمه من ذلك الكمال، لكن في خارج حدود الطبيعة فانّ العلم لا ينفصل عن العمل أبداً، والعلم يكون دائماً عاملاً للكمال الوجودي.

ب: انّ المقصود من عنوان (الخير) في مثل هذه المباحث هو الخير الوجودي لا الخير الأخلاقي والقيمي، ولذلك لا يمكن أن يُعتبر الشيء كمالاً وجودياً دون الحكم عليه بانّه خير، اذن فالشيء الذي يكون أكمل من غيره سوف يكون خيراً منه ايضاً.

ج: من الممكن أن يكون العلم في بعض الموارد مقترناً بالخير والكمال النسبي والاضافي، لا النفسي والمطلق، وقصة موسى والخضر عليهما السلام من هذا القبيل. ولذلك لا يمكن الحكم بأفضلية الخضر على موسى بنحو مطلق، لكن في قصة النبي آدم عليه السلام والملائكة التي جرى فيها تعليم

١. **تفسير رحمة من الرحمن**، ج ١، ص ١١٤.





أو إنباء جميع الأسماء الحسنى لا بعضها، فانّ مثل هذا التعليم أو الإنباء يقترن بالخير المطلق والكمال النفسي، وعلى هذا الأساس فانّ معلّم الأسماء الحسنى، أي آدم عليه السلام افضل بنحو مطلق من متعلّمها، أي الملائكة.

د: للانسان مصاديق مختلفة، كما انّ الملائكة ايضاً لهم افراد متعدّدون مختلفون، ولأجل التقييم وتمييز الأفضل والأكمل عن سواه ينبغي ملاحظة التكافؤ والمساواة.

هـ : انّ اطلاق الآية الكريمة ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] شامل للناس وللملائكة، اي انها تشمل باطلاقها الفردين من الانسان، والفردين من الملائكة، والفرد من الانسان والفرد من الملائكة.

٥. اللّسان الناطق للسالك المحبوب:

انّ ايّ كمال يذكر في مسألة الخلافة، في ناحية صفات المستخلَف عنه وتعريف الخليفة وتفاصيل افعاله وسيرته وسريرته وسنته، فانّ خليفة الله واجد لذلك الكمال، الاّ ان يؤتى بشاهد يدل على انّ تلك الصفة الوجودية قد ذكرت استطراداً، ولها جهة خارجية، لا داخلية. والله سبحانه بعد أن أمر آدم بإنباء الأسماء وبعد تحقق اخباره الصادق للملائكة قال: انّني أعلم غيب السماوات والارض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وذكر مثل هذا العلم بعد نقل مسألة انباء آدم الذي هو خليفة الله يمهّد لاستنباط مسألة اخرى، وهي انّ الخليفة الكامل لله العالم

---

١. سورة الزمر، الآية ٩.



بغيب السماوات والأرض يمتلك القدرة على تعلّم مثل هذا العلم، وخليفة العالم بالسرّ والعلن يستطيع ادراك مثل هذه المعرفة، والمثال على ذلك، هو تلك الأسماء الإلهية الحسنى التي قد حصل آدم لا على معرفتها فحسب، بل انّه علّمها للملائكة ايضاً بمقدار استطاعتهم. ومقتضى معرفة تلك الأسماء الحسنى هو الاطّلاع على أسرار السماوات والأرض من جهة، والتعرّف على بواطن الناس كما يعرف ظواهرهم من جهة اخرى.

وعليه فانّه يمكن استناداً إلى حديث قرب النوافل الصحيح الدال على انّ الله هو اللسان الناطق للسالك الواصل والشاهد المحبوب،[1] أن يقال بانّ الله سبحانه في هذا الحديث كان لسان خليفته، ودلّ على ان خليفة الله مطّلع باذن الله وتعليمه على غيب السماوات والأرض من جهة، وعلى ظواهر الناس وبواطنهم من جهة اخرى.[2]

٦. تبيين مقام خليفة الله ومعلّم الملائكة:

انّ الفرق المهم بين خطاب الله لآدم وخطاب الله للملائكة، بعد غضّ النظر عن شكل الخطاب حيث استعمل حرف النداء في الحوار مع آدم، ولم يستعمله في الحوار مع الملائكة، هو انّ حوار الله مع الملائكة كان بعنوان الامتحان والتحدّي، حين قال لهم (أنبئوني)، ولكن في قضيّة آدم عليه السلام قال: (انبئهم)، لانّ المقصود من هذا الخطاب، لم يكن هو امتحان

١. **الكافي**، ج ٢، ص ٣٥٢.
٢. راجع **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألهين، ج ٢، ص ٣٦٧.

آدم فحسب والاّ لقال (أنبئني)، وعندئذ كانت تتضّح افضلية آدم عند قيامه بالإنباء، بل انّ المقصود اضافة إلى بيان افضلية آدم تبيين مقام التعليم وانّ الميزان في الخلافة الإلهيّة هو في كونه معلّماً، اي انّ آدم عليه السلام ليس عالماً بأسماء الله فحسب، بل هو باذن الله معلّم للأسماء الحسنى ايضاً، وانّ الملائكة ليسوا فقط غير عالمين بالأسماء الإلهيّة، وانّما هم مأمورون في أن يتعلّموا الأسماء في مستوى الإنباء والاخبار العلمي من استاذهم آدم عليه السلام.

٧. الايجاز والاتقان ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾

لقد جيء بجملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ...﴾ في غاية الاتقان والايجاز غير المخلّ، اذ لم يُذكر العلم بشهادة السماوات والأرض، لانّ من كان عالماً بغيب السماوات والأرض، فهو مطّلع على شهادتها قطعاً؛ وبالنسبة إلى الماضي فقد ذكر المكتوم، وبالنسبة إلى المستقبل فقد ذكر الشيء البادي والظاهر ولم يذكر المكتوم، لانّه مع العلم بالمكتوم السابق يمكن العلم بالشيء العلني والظاهر السابق، والمكتوم المستقبلي هو من الأسرار الخفية التي هي مشهودة عند الله ايضاً.

تنويه: انّ جملة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ مع اتقانها وشمولها، ليست جامعة لكل اقسام ومراتب النص السابق، لانّ ما سبق ذكره هو قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، والبعض من ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يعود إلى غيب الهويّة المطلقة والأسماء المستأثَرة وامثالها التي هي أعلى من غيب السماوات والأرض وليست مشمولة بقوله: ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

البحث الروائيّ

ظاهر وباطن الملائكة:

ـ ...قال الله تعالى عند ذلك ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ وما كان يعتقده ابليس من الإباء على آدم اذ أمر بطاعته واهلاكه أن سلّط عليه ومن اعتقادكم انّه لا أحد يأتي بعدكم الاّ وانتم افضل منه، بل محمّد وآله افضل منكم الذين انبأكم آدم بأسمائهم.[1]

ـ عن علي بن الحسين عليه السلام فسجدوا وقالوا في سجودهم في انفسهم (**ما كنّا نظن أن يخلق الله خلقاً اكرم عليه منّا، نحن خزّان الله وجيرانه واقرب الخلق**). فلما رفعوا رؤوسهم قال الله: (**يعلم ما تبدون من ردّكم عليّ وما تكتمون ظنّاً ان لا يخلق الله خلقاً اكرم عليه منّا...**).[2]

ـ ﴿**تَكْتُمُونَ**﴾ فيما ابدوا أمر بني الجانّ وكتموا ما في انفسهم....[3]

ـ عن ابن عباس قال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ يقول: انّي قد اطّلعت من قلب ابليس على ما لم تطّلعوا عليه من كبره واغتراره.[4]

ـ قوله ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ يعني ما اسرّ ابليس في نفسه من الكبر.[5]

ـ في قوله ﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ قال: ما اسرَّ ابليس من الكفر في السجود.[6]

---

١. **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري**، ص ١٧٧؛ **البرهان**، ج ١، ص ٧٣، ح ١.
٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٩؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٦٦، ح ٦.
٣. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥١؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٦٦.
٤. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١١١.
٥. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٢.
٦. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٢.

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: لمّا ان خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنّا نظنّ انّ الله خلق خلقاً اكرم عليه منّا، فنحن جيرانه ونحن اقرب خلقه اليه، فقال الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.[1]

ـ عن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ قال: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول أعلم السرَّ كما أعلم العلانية.[2]

ـ في قوله ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ يعني قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ و﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني قول بعضهم لبعض نحن خير منه واعلم.[3]

ـ عن الحسن خطاباً لحسن بن دينار: يا أبا سعيد! ارأيت قول الله للملائكة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ما الذي كتمت الملائكة؟ قال: انّ الله لما خلق آدم، رأت الملائكة خلقاً عجبا، فكأنّهم دخلهم من ذلك شيء قال: ثم أقبل بعضهم على بعض فأسّروا ذلك بينهم. فقال بعضهم لبعض: ما الذي يهمكم من هذا الخلق؟ انّ الله لا يخلق خلقاً الاّ كنّا اكرم عليه منه، فذلك الذي كتمت.[4]

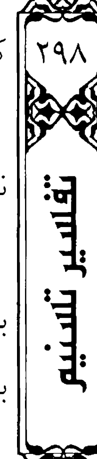
اشارة: انّ كتمان الملائكة يختلف عن كتمان ابليس من عدة جهات هي:

أ: ان الأمر الذي كتمه الملائكة هو كونهم افضل من بقية المخلوقات، والسبب في هذا التوهم هو قصورهم العلمي، وامّا ما كتمه ابليس فهو طبعه الاستكباري وسجيته المعارضة للحق.

---

١. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥١، ح ١٤.
٢. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٢.
٣. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٢.
٤. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٢ و١٢٣.





ب: كتمان الملائكة يعود إلى قصورهم العلمي كما ذكر، ولكنّ كتمان ابليس يعود إلى تقصيره العملي، فكتمانه يُعدّ من النفاق.

ج: كتمان الملائكة زال بتعليم الله، لكنّ كتمان ابليس استمر والتهب ناراً عندما جاءه الأمر الإلهي بالسجود.

تنويه: انّ القصور العلمي للملائكة كان من عدة جهات: احداها: بلحاظ مقام الانسان. والاخرى: بلحاظ مقام الملائكة انفسهم، والثالثة: بلحاظ المكانة النازلة لابليس وخفاياه الباطنية، واختلاف سرّه عن علنه.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

خلاصة التفسير

هذه الآية الكريمة ايضاً كالآيات الثلاث السابقة تتحدث عن عظمة آدم وأهليته لمقام الخلافة، والآيات الثلاث السابقة بيّنت علم خليفة الله، وهذه الآية تتحدث عن كرامة آدم وحرمته ومنزلته العالية التي حصل عليها بسبب مقامه العلمي.

وسجدة الملائكة كانت تحية واحتراماً واكراماً لآدم، وخضوعاً وعبادة لله، كالذي حصل امام يوسف عليه السلام من قبل والديه واخوته، كما انّ هذه السجدة لم تكن توبيخاً للملائكة، لانّ السؤال الاستفهامي لا يستوجب العقوبة.

وان كان بعض المفسرين يرون انّ الأمر بالسجود قد حصل قبل تعليم الأسماء، والبعض الآخر يرون انّه قد جاء مباشرة بعد نفخ الحياة والروح في آدم، لكنّ نسق وترتيب آيات قصة آدم في سورة البقرة التي

تهيمن وتلقي بظلالها على آيات السور الاخرى، يقتضي أن تكون السجدة لآدم قد حصلت بعد جعل الخلافة له وبعد تعليمه الأسماء وبلوغه درجة المعلّم.

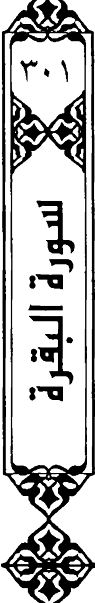
واستثناء ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ في الآية وان كان في الظاهر، متصلاً، لأنّ ابليس كان في الظاهر جزءاً من الملائكة، لكن في الحقيقة، هو استثناء منقطع، لانّه قد ورد التصريح في موضع آخر بانّه من الجنّ.

والاتيان بكلمة ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ بعد ﴿أَبَى﴾ تدلّ على الامتناع بسبب استكبار ابليس، لا من قبيل امتناع السماوات في مسألة عرض الأمانة الذي كان من باب الاشفاق والخوف من عدم القدرة على التحمّل، وأمّا الذي يؤدي إلى الهبوط من المقام الشامخ فهو (الامتناع الاستكباري) وليس (الامتناع الاشفاقي).

(**كان**) في جملة ﴿كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ تدل على انّ هناك كفراً مخفياً ومستوراً كان في باطن الشيطان، فـ(كان) هنا ليست بمعنى (صار).

التفسير

وإذ: حيث انّ الأمر بالسجود لآدم يحظى بأهميّة خاصة وتستفاد منه ملاحظات مهمّة، لذلك فقد جيئ به مع تكرار كلمة (**اذ**) وبعنوان عطف القصة على القصة ولم يُكتف بالعطف بالواو، اي انّ هذه القضية بنفسها بمستوى التذكرة المستقلة، ويكون معنى الآية المذكورة كالتالي، واذكر امرنا للملائكة... ولم يكتف بذكر الضمير، وانّما صرّح بالاسم الظاهر وبدّل الفعل المفرد (قال) إلى الجمع (**قلنا**) كي يكون مناسباً لأمر السجود.



قلنا: انّ الأمر بالسجود في هذه الآية لم يتمَّ بواسطة الملائكة؛ لانّ جميع هذه الوسائط ظاهراً مأمورة بامتثال هذا الأمر[١]، ولم تبق واسطة أو مبعوث في البين حتى يكون وسيطاً فلا يكون مخاطباً أو مأموراً. وعليه فان سبب التعبير بصيغة الجمع (**قلنا**) بدلاً من (قلت) هو عظمة الأمر وعظمة الشخص الآمر، فليس هناك دور لتدخل أو وساطة مدبّرات الأمر، (كما يقال هذا المعنى في آيات اخرى مثل ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[٢] و﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ**﴾[٣])، الاّ ان يقال: انّ التعبير بالجمع يمكن أن يقصد به انّ بعض الملائكة من الملأ الأعلى والمقرّبين واسطة في ابلاغ الرسالة، وهم ايضاً بازاء بقيّة الملائكة مشمولون بالخطاب، كما في وساطة الانسان الكامل في ابلاغ الرسالة التي يكون هو ايضاً بازاء سائر الناس مشمولاً بخطابها وحكمها. وطبقاً لهذا الاحتمال فانّ المقصود من (**قلنا**) هو انّني مع ملائكتي المقربين المأمورين من قبلي بابلاغ أمري قد أمرنا جميع الملائكة بالسجود.

استكبر: واصلها الكبر وهي تستعمل في مجالي الاستكبار والتكبّر وكلاهما بمعنى طلب الزيادة. نعم، الاستكبار مثل «الاستقرار»

---

١. المأمورون بالسجود هم جميع الملائكة، وهذا العموم يستفاد من الجمع المحلّى بالألف واللام في (**الملائكة**) اذ ليس هناك ملائكة معهودون ومن نوع خاص، ويستفاد ايضاً من قوله تعالى ﴿**كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾ في الآية الكريمة ﴿**فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾ (**سورة الحجر**، الآية ٣٠) والتي هي صريحة بهذا المعنى، وان كان بعض المفسرين يرى انها غير شاملة لملائكة الملأ الأعلى، واقام شاهداً على هذا الاستثناء.

٢. **سورة القدر**، الآية ١.

٣. **سورة الحجر**، الآية ٢٢.

و«الاستجابة» يتضمن معنى المبالغة؛ وان كان لا ينافي الطلب والدعوة نحو جهة الكبر.

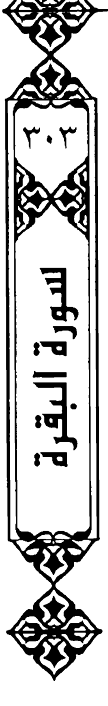
والاختلاف بين الكِبر والعُجب هو انّ الكِبر يحتاج إلى متعلق، بخلاف العُجب، لانّ العُجب هو (نظر إلى النفس) والكبر هو (نظر إلى كبر النفس) والكبر معنى مضاف، ولابدّ له من متعلق، اي انّ صاحب الكبر يرى نفسه اكبر من الآخرين أو يرى نفسه كبيراً ويحسب الآخرين صغاراً.

تناسب الآيات

الظاهر من ترتيب الآيات انّ هذه الآية ايضاً كالآيات الثلاث السابقة تدل على عظمة آدم عليه السلام واهليته لمقام الخلافة الإلهية، وبعبارة اخرى فانّ الآيات الثلاث السابقة كانت ناظرة إلى المقام العلمي لخليفة الله، وهذه الآية ناظرة إلى مقام اكرامه واحترامه، والمقام الثاني مترتب على المقام الأوّل، لانّه لما اتّضح انّ آدم هو ذلك الانسان الكامل الذي هو خليفة الله في جميع مراتب عالم الوجود، وهو الحاضر في كل مكان والعالِم بكل شيء باذن الله، فلذلك صدر الأمر إلى الملائكة بالسجود احتراماً وتكريماً له.

ولكنّ الأمر ينعكس بالنظر إلى الآية ٢٩ من سورة «الحجر» والآية ٧٢ من سورة «ص» حيث ذكر فيهما انّ قصة السجود قد حصلت بعد نفخ الروح، اي انّ الملائكة سجدوا لآدم، وبعد ذلك تمّ تعليم الأسماء له. وعندئذ فما هو السبب في عدم ذكر هذه الآية في محلها وعدم مجيئها بعد آية الخلافة؟ سؤال سوف يأتي الجواب عليه في بحث مقبل.

وعلى كل تقدير، فانّ الله سبحانه يقولُ لنبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الآية:



واذكر عندما قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجد الجميع الاّ ابليس امتنع وتكبّر وهو منذ السابق قد كان من الكافرين.

كما ينبغي الانتباه إلى ملاحظة وهي انّ سجيّة الاستكبار التي ورثّها (امام المتعصبين)[1] لأتباعه المنحرفين الذين سلكوا ويسلكون منهجه الشيطاني، توضح ايضاً تناسب الآيات محل البحث مع الآيات المقبلة التي تتحدث عن نكول بني اسرائيل وامتناعهم عن قبول رسالة الرسول الأكرمﷺ لانّ اولئك ايضاً مثل ابليس الذي ابى وامتنع مستكبراً من الخضوع والسجود للانسان الكامل على رغم معرفته بمقامه الشامخ وانّه عالم بالأسماء الإلهيّة الحسنى، ومعلّم الملائكة وانه قادر على اخبارهم بالأسماء، كذلك هم امتنعوا مستكبرين عن الخضوع والتسليم امام وحي خاتم الأنبياء والايمان بنبوته، وكان اعراضهم وتمردهم استكباراً منهم ولم يكن لديهم عذر ولا حجة وانّما كانوا يسلكون اساليب المكر والكذب والتزوير، فهم في الحقيقة يعتبرون من شياطين الانس.

السجود لغير الله:

انّ سجود الملائكة امام آدم كان تحية واكراماً واحتراماً له وعبادة وخضوعاً لله، لانّهم رضوا بهذا التكريم للانسان الكامل امتثالاً لأمر الله، كالذي حصل من قبَل اخوة يوسف وامه وابيه امام يوسف حيث يقول القرآن الكريم ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا**﴾.[2]

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢ (القاصعة)، المقطع ٥.

٢. **سورة يوسف**، الآية ١٠٠.

وهنا يطرح سؤال، وهو اذا كان السجود في ذاته عبادة، وكانت العبادة مختصة بالله سبحانه، فكيف يصح السجود لغير الله؟ وقد اجاب الكثير من المفسرين على هذا السؤال، ومن جملتهم العلامة الطباطبائي‌رحمه‌الله،[1] فقالوا: انّ السجود ذاتا ليس عبادة، بل انّ العبادة تتحقق فيه اذا جيئ به بنيّة العبادة، ولذلك يمكن ان يحصل السجود بعنوان السخرية والاستهزاء احياناً، لا العبادة. وعلى هذا الأساس يمكن القول: انّه ليس هناك منع ونهي ذاتي من السجود لغير الله، بل انّ النهي عنه يصدر من الشرع ويثبت بدليل العقل أو النقل، والثابت بعد البحث والتحقيق هو انّ المانع العقلي أو النقلي يثبُت اذا كان الساجد لغير الله ينوي بسجوده الشهادة للمسجود له بالربوبيّة والمعبودية، امّا اذا كان السجود بنية الاكرام والاحترام المحض فلا دليل على المنع منه. نعم انّ الذوق الديني ومذاق المتشرّعين ـ الحاصل بفضل الأُنس بالظواهر الدينيّة ـ يقتضي اختصاص السجود بالله سبحانه، حتّى اذا كان بقصد التحيّة والتكريم فحسب.

طبعاً انّ تحريم السجود لغير الله بنية التعظيم والتكريم في الشريعة الاسلامية المقدسة طبقاً للمذاق الديني المذكور، لا يلازم النهي عنه في الشرائع السابقة،[2] كما نقل عن قتادة في ذيل الآية الكريمة ﴿**وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا**﴾[3] قوله: انّ الناس في زمان يوسف كان يحيّي احدهم الآخر

---

۱. **الميزان**، ج ۱، ص ۱۲۲.

۲. راجع: **آلاء الرحمن**، ص ۱۷٦.

۳. **سورة يوسف**، الآية ۱۰۰.

ويسلّم عليه بالسجود، واختلاف التقاليد والعادات باختلاف الأزمنة والأوقات أيضاً أمر ممكن.[١]

وعلى كل تقدير فانّه لاشك في الأمور التالية:

اوّلاً: انّ آدم عليه السلام في هذه القصة كان (مسجوداً له)، ولم يكن قبلة ولا (هو مسجود إليه)؛ كما قال البعض، وفسروا عبارة (لآدم) بمعنى (إلى آدم)[٢]، لانّ المقصود من قضية السجدة هو تعظيم آدم واظهار افضليته على الملائكة، ولاشك بان جعل الشيء أو الفرد قبلة لا يدل على افضلية على الساجدين.[٣] نعم يمكن ان يقال: انّ المسجود له هو مقام الآدمية، ايّ الإنسان الكامل، وصورة آدم وشكله جعل قبلة ومسجوداً إليه، اي انّ البدن الترابي لآدم جعل قبله بأمر الله، والمسجود له في الحقيقة والواقع هو مقام خليفة الله.

ثانياً: انّ السجود لآدم كان تحيّة، ولم يكن عبادة ولا طاعة، كما صرّحت بذلك رواية تحف العقول عن الإمام الصادق عليه السلام ورواية الاحتجاج عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام،[٤] وببيان آخر انّ المعبود الحقيقي للملائكة في هذا السجود هو الله فقط، وانّما سجدوا لآدم طاعة لأمر الله لا غير، اي انّهم لمّا وجدوا انّ آدم مظهر لله سجدوا له، لا انّه معبود لهم، وكما قال حافظ الشيرازي:ـ

---

١. **تفسير غرائب القرآن**، ج ١، ص ٢٤١.

٢. راجع **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٢٧٧ – ٢٧٨.

٣. **تفسير غرائب القرآن**، ج ١، ص ٢٤٠.

٤. راجع **الميزان**، ج ١، ص ١٢٤.

ان الملك عندما سجد لآدم قبّل الأرض وقصدك

لانّه رأى في جمالك شيئا اعلى من مستوى الإنسان

واذا كان ابليس قد رُجم ولُعن فانّ جريمته هي انّه لم يرَ في مرأة آدم صورة الله سبحانه، وكما عبّر عن ذلك الاستاذ الإلهي القمشئي رحمه الله:

كانت جريمته انّه لم ير صورة الله في المرآة

والاّ فانّ ترك السجود لابي البشر ليس مهماً إلى هذا الحد

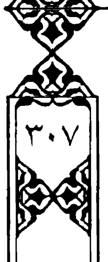
ثالثاً: مع ملاحظة المذاق الشرعي المذكور ونظراً لاحتمال اختصاص جواز السجود بالشرائع السابقة، فلا يصح الاستنتاج من بعض الموارد في القرآن كالسجود لآدم ويوسف عليهما السلام جواز السجود لغير الله في شريعة الإسلام بعنوان التكريم والاحترام، بل انّ جواز ذلك يعتمد على اذن الشارع.

رابعاً: كل ما مضى من كلام وبحث انّما هو في حال كون سجود الملائكة امراً تشريعياً، والاّ فاذا كان تكوينياً، فلا محل للبحث حول حرمته أو جوازه تشريعاً، وسوف يأتي في مبحث لطائف وإشارات هل كان هذا السجود تشريعياً أم تكوينياً، أو انّه لم يكن تشريعياً ولا تكوينياً بل هو تمثيل للاطاعة والخدمة.[1]

تنويه: ان ظاهر الآية محل البحث، انّ آدم مسجود له لا مسجود إليه، ولكنّ البعض لا يسلّم بانّ السجود كان لآدم ويزعم بان آدم كان مسجوداً إليه، ويعتبر انّ الآية المذكورة تشبه الآية الكريمة ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ**

---

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٧٩، من الترجمة العربية.



الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾[١] اي اسجدوا لله عند آدم وفي حضوره كما يجب انّ تصلّوا لله عند زوال الشمس.

تكريم لآدم أم توبيخ للملائكة؟

انّ السجود لآدم كان عبادة لله وتكريماً لآدم، ولم يكن توبيخاً للملائكة، لانّ سؤالهم لم يكن الاّ استفهاماً، ومثل هذا السؤال لا يستوجب العقاب، وعليه فلا اصل السؤال لأجل الاستعلام والاستيضاح وَهَن وعارٌ، ولا السائل المستفهم مذموم على فعله، لكنّ بعض اساطين المعرفة قال:

ان دعوى ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ اخلّت بطهارة وقدسية الملائكة، وهذا الادّعاء بمثابة سهو المصلي في صلاته، الذي يجبر بسجدة السهو، والملائكة ايضاً قد اُمروا بالسجود لأجل اصلاح ما صدر منهم من ادّعاء، فالسجدة كانت لأجل جبران وتعديل فكرتهم الخاطئة، وليست لأجل ارغامهم.[٢]

كما انّ استغفار الملائكة للمؤمنين لعلّه لأجل جبران قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾.

تنويه: ١ـ انّ نعمة كون آدم مسجوداً له هي النعمة الرابعة التي اعطيت لآدم بعد نعمة الخلافة ثم موهبة تعليم الأسماء ثم حصوله على وسام معلّم الملائكة.

٢. لم يتحدث القرآن عن كيفية سجود الملائكة لآدم، وقد شبّهها

---

١. **سورة الاسراء**، الآية ٧٨.

٢. **رحمة من الرحمن**، ج ٢، ص ٤٥٤، في ذيل الآية ٢٩ من **سورة الحجر**.

البعض بسجود الصلاة،ورأى بانّها وضع الجبهة على الأرض، والبعض رأى انّها عبارة عن التذلل والخضوع الكامل، وعلى كلّ تقدير فان مما لاشك فيه انّ السجود لآدم لم يكن من سنخ العبادة له، لانّ آدم نفسه كان عبداً خالصاً لله، بل يمكن القول انّه كان اماماً للملائكة في العبادة الخالصة لله.

٣. انّ للسجود اقساماً، والمعنى الجامع لهذه الأقسام جاء في الآية الكريمة ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ من شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾،[1] حيث ذكر فيها سجود المجرد والمادي، والمدرك وغير المدرك، وبالنتيجة سجود الجماد والنبات والحيوان والانسان والملائكة.

الترتيب بين تعليم الأسماء والخلافة والسجود:

انّ مقتضى نسق وترتيب الآيات هو انّ السجود لآدم قد حصل بعد جعل الخلافة له وبعد تعليم الأسماء، لكنّ مقتضى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[2] هو انّ الأمر بالسجود جاء بعد تسوية آدم ونفخ الروح فيه. وعليه فانّ السجود قد حصل من الملائكة بعد نفخ الحياة والروح مباشرة،[3] الاّ أن يقال: انّ تعليم الأسماء كان مقترناً مع نفخ الروح.

---

١. **سورة النحل**، الآيتان ٤٨ – ٤٩.

٢. **سورة ص**، الآية ٧٢.

٣. راجع: **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ج ١، ص ٢٤٠.

كما وتقدّم أيضاً خلال المباحث التفسيرية حول الآية السابقة وفي ذيل جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ عن العلامة الاستاذ الطباطبائي﵀ قوله: انّه اذا كان الأمر المكتوم في هذه الجملة هو نفس استكبار ابليس وتصميمه على عدم السجود لآدم، وانّ جملة ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ...﴾ عطف على ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ...﴾ وليست عطفاً على ﴿أَلَمْ أَقُل...﴾ فالنتيجة هي الأمر بالسجود قد صدر قبل تعليم الأسماء، ولذلك فانّ العلامة﵀ يجيب على السؤال عن السبب في عدم ذكر الآية محل البحث بين آيتي الخلافة وتعليم الأسماء، وعدم مراعاة الترتيب الواقعي للقضايا ويقول: «فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾؛ كالجملة المستخرجة من بين الجمل ليتخلص بها إلى قصّة الجنّة. فانّ هذه الآيات كما عرفت انّما سيقت لبيان كيفية خلافة الانسان وموقعه وكيفية نزوله الى الدنيا وما يؤول اليه امره من سعادة وشقاء. فلا يهم من قصة السجدة هاهنا الاّ اجمالها المؤدّي إلى قصة الجنّة وهبوط آدم هذا. فهذا هو الوجه في الاضراب عن الاطناب إلى الايجاز».[1]

كما ويمكن الاستدلال على تقدم السجود على تعليم الأسماء بما يلي: انّ الأمر بالسجود لو كان بعد اتّضاح مقام آدم فانه لا يعدّ فخراً وكمالاً مهمّاً للملائكة، لانّ مقام آدم في حينها قد اصبح واضحاً للجميع، لكنّ جواب ذلك هو انّ سجود الملائكة لآدم واحترامهم وتعظيمهم له بعد تبيّن مقامه ومنزلته العالية يمكن ايضاً أن يُعدّ فخراً ومنقبة لهم، لانّه يكشف عن تبعيتهم للارادة الإلهيّة وانّهم لم يحسدوا آدم ابداً، ولم

١. **الميزان**، ج ١، ص ١٢٢.

يصدر منهم اي كبر في مقابل الأمر الإلهي، ومن الواضح ان نزعة الحسد تبرز بعد اتّضاح عظمة المحسود وعلّوه.

ومهما كان فانّ تشخيص مقام سجود الملائكة ونضده وترتيبه القرآني، وهل انّه قبل تعليم الأسماء أم بعده، يحتاج إلى بحث عميق وفحص دقيق للآيات المتعلقة به. والآيات الواردة حول هذا الموضوع متعددة، فالبعض منها يتعلق بأصل أمر الملائكة بالسجود، ولا تتعرض لشيء عن الخلافة والخلق وتعليم الأسماء لآدم وصيرورته معلّماً للملائكة، كقوله تعالى **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾**.[1] والبعض منها يتحدث عن خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود، وترتب السجود على الخلق الذي يظهر منه تقدّم السجود على تعليم الأسماء، كما في قوله تعالى **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِين * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾**.[2]

ظاهر هذه الطائفة من الآيات ترتب السُجود على التسوية ونفخ الروح وعدم الفصل بين نفخ الروح وأمر الملائكة بالسجود، وبعض منها ناظر الى كثير من المسائل المتعلقة بأصل الخلافة وجعل الخليفة في الأرض وتعليم الأسماء وعرضها على الملائكة وعجز الملائكة عن الإخبار بها وصيرورة خليفة الله معلّماً للملائكة في الإنباء بالأسماء وأمر الملائكة بالسجود لآدم والأمر لآدم بالسكن في الجنّة مع زوجه وبقية المسائل المتعلقة بها. وهذا القسم من الآيات وان كان غير مقترن بحرف التفريع

---

١. **سورة الاسراء**، الآية ٦١؛ **سورة الكهف**، الآية ٥٠.

٢. **سورة ص**، الآيتان ٧١ – ٧٢؛ وكذلك **سورة الحجر**، الآيتان ٢٨ – ٢٩.

مثل كلمة (الفاء) كي يدلّ على ترتيب الحوادث، لكنّ التدبّر في معاني القرآن والتأمل في معارفه المميّزة هو فن واسلوب بارع يتمّ بواسطته ترتيب وبناء وهيكلة معالم تفسير القرآن بالقرآن. وما ذكره الفخر الرازي والآلوسي[١] حول هذا المعنى يبيّن المقصود النهائي لجميع آيات السجدة بالاستعانة بالآية ٢٩ من سورة (الحجر) والآية ٧٢ من سورة (ص) اللتين ظاهرهما تفرع السجود وترتبه على نفخ الروح. ولكن في تناسب الحكم والموضوع والنظم السياقي للآيات محل البحث من الظهور ما يكفي لتفسير الآيات الاخرى، وحيث انّ آيات سورة (الحجر) و(ص) ليست ناظرة إلى بيان جميع الحوادث المتعلقة لآدم، لذلك فقد ذكرت وقوع السجود بعد نفخ الروح بشكلٍ إجماليّ، وليس في هذا منافاة مع حصول بعض الحوادث المهمة الممهّدة لتكريم آدم بعنوان السجود له. كما انّ ظاهر الآية الكريمة ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ**﴾[٢] انّ نداء يونس واستغاثته مترتبة على ذهابه الغاضب وظنّه عدم التضييق، في حين انّ هناك اموراً كانت قد وقعت في البين، مثل مسألة الاقتراع والمساهمة،[٣] ومسألة التقام الحوت.[٤] وعليه فانّ مقتضى تفسير الآية بالآية هو ان تكون آيات سورة البقرة مهيمنة ومبيّنة لآيات السور الاخرى. فيستنتج من ذلك انّ سجود الملائكة قد وقع بعد تعليم الأسماء وبعد ان صار آدم معلّماً لهم.

---

١. **روح المعاني** ج ١، ص ٣٦٩؛ **والتفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ٢٣٠.
٢. **سورة الأنبياء**، الآية ٨٧.
٣. **سورة الصّافات**، الآية ١٤١.
٤. **سورة الصّافات**، الآية ١٤٢.

هل الاستثناء متّصل أم منقطع؟

ان الاستثناء في هذه الآية بواسطة (الاّ) وان كان في الظاهر استثناءً متصلاً، لانّ ابليس في الظاهر كان جزءاً من الملائكة وكان يمكث فيما بينهم (وكما تقدم في ذيل جملة ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فيما يتعلق بسبب نسبة كتمان الشيطان إلى جميع الملائكة، حيث ذكر انّه من الممكن ان يكون احد الوجوه هو انّ الشيطان في ذلك الحين كان يعدّ ظاهراً من الملائكة)[1] لكنّ الاستثناء في الواقع منقطع، لانّ القرآن قد صرّح في موضع آخر بانّ ابليس من الجنّ في قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾.[2]

وبعبارة اخرى، فانّ استثناء ابليس، كاستثناء الظنّ من العلم في قوله تعالى ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾[3] من سنخ الاستثناء المنقطع لا المتصل. نعم اذا قلنا بالتغليب فانّ عنوان المَلَك يصدق على ابليس من باب الغلبة، وحينئذ سوف يكون الاستثناء متّصلاً.

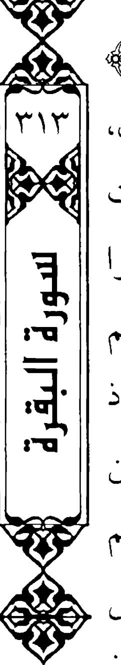
ويمكن ان يطرح هذا السؤال، وهو انّ ابليس اذا كان من الجنّ فكيف دخل بين الملائكة، مع انّ الملائكة معصومون، والجنّ غير معصومين وغير المعصوم لا مجال له للنفوذ إلى دائرة المعصومين؟

---

١. ولذلك فانّ الشيخ الطبرسي﵀ يقول: حتى عند الذين يعتبرون ابليس من الجنّ فانّ الاستثناء متصل أيضاً لانّه كان بين اظهر الالوف من الملائكة مغموراً بهم، ثم استثني منهم استثناء واحد منهم. نعم هو يقول في اخر كلامه ويجوز ان يكون منقطعاً. (**جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٣).

٢. **سورة الكهف**، الآية ٥٠.

٣. **سورة النساء**، الآية ١٥٧.



وجوابه هو انّ للملائكة درجات: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فالبعض منهم في عالم التجرّد التام، وبعضهم في عالم المثال، وطائفة ثالثة في عالم المادة وتشرف على الأرض والموجودات الأرضية. وملائكة عالم المادة والموجودون في الأرض وان كانوا كملائكة عالمي التجرد العقلي والمثالي لا يعصون الله، لانّهم معصومون ويتصفون بالتجرد الروحي، لكنّ هناك مجالاً لنفوذ الشيطان والمعصية إلى محلّ تواجدهم؛ كما انّ المعصومين (صلوات الله عليهم) وعلى رغم انهم ليسوا من اهل المعصية، لكنّهم يعيشون في دار الدنيا التي هي مكان للمعاصي، ولذلك فانّ تغلغل غير المعصوم فيما بينهم ممكن. وعليه فانّ من الممكن أن يكون ابليس قد اندسّ ضمن طائفة خاصة من الملائكة، وليس مع المقرّبين منهم والحاملين للعرش الالهيّ.

تنويه: هناك من يعيش في عالم الطبيعة وهو في نفس الوقت يتصف بالتجرد العقلي والمثالي، لما له من مقامات عالية، ومثل هذا الموجود لا ينحصر في الانسان والجنّ، لانّه لم يقم دليل على هذا الحصر.

الامتناع الاستكباريّ لإبليس:

انّ مجيء كلمة «**استكبر**» بعد كلمة (**أبى**) تدل على امتناع ابليس من باب الاستكبار، لا من باب الخوف والاشفاق الذي كان سبباً في مسالة امتناع السماوات والأرض والجبال عن حمل الأمانة والذي بيّنته الآية الكريمة ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا**

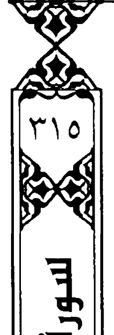


﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[١] طبعاً هناك فرق بين اباء السماوات والأرض التي هي غير مكلّفة في الظاهر مع إباء ابليس الذي يستطيع ان يكون مكلّفاً. والذي يؤدي إلى الهبوط والتسافل من المقام الشامخ هو الإباء الاستكباري أي ادّعاء استقلال الموجود الذليل في مقابل الله العزيز، لا الإباء الاشفاقي الناشئ من خوف عدم القدرة على التحمل. وخلاصة القول هي انّ الإباء تارة يكون من تقبّل وتحمّل الشيء واخرى من تنفيذ عمل معيّن، ومهما كان فهو تارة يكون محموداً واخرى يكون مذموماً.

الكفر المخفيّ لدى إبليس:

انّ كلمة (**كَانَ**) في جملة ﴿**كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ اشارة الى انّ في باطن الشيطان كفراً مخفياً، وقد انكشف على أثر الامتحان الإلهي وتحول من القوة إلى الفعل، ولذلك يقول تعالى في سورة الأعراف ﴿**لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾؛[٢] اي انّه من الأساس لم يكن من اهل السجود، لا انّ (**كَانَ**) بمعنى «صار»، كما في قوله تعالى ﴿**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾،[٣] لانّ الكلمة لا تستعمل في غير معناها الاّ مع وجود القرينة، وفي قصة غرق ابن نوح بعد رفضه طلب ابيه وعدم الركوب معه في السفينة، توجد قرينتان على انّ «**كان**» هي بمعنى (صار): الاولى: انّ ابن نوح قبل وقوع القصة لم يكن قد غرق حتى يتم الاخبار عن غرقه الماضي، والثانية هي الفاء في

١. سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
٢. سورة الأعراف، الآية ١١.
٣. سورة هود، الآية ٤٣.



قوله (**فكان**) التي تدلّ على ترتب الغرق على الإباء الاستكباري، ومعناها هو انّ هذه الصفة لم تكن والآن أصبح كذلك.

ولا قرينة كهذه في محل البحث، بل توجد قرينة لفظية منفصلة على خلاف ذلك، ألا وهي جملة ﴿**مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ في ذيل الآية السابقة، حيث يقول العديد من المفسرين انّ المقصود من الكتمان هو عزم وتصميم الشيطان على مخالفة الأمر بالسجود، وهذا يدلّ على انّه كان يخفي في باطنه كفراً واستكباراً منذ السابق، كما انّ هناك قرينة لُبيّةً على خلاف ذلك؛ وهي انّ الشيطان لو لم يكن يخفي في داخله كفراً مسبقاً، وانّه اصبح كافراً في لحظة ابائه واستكباره وامتناعه عن السجود، فهنا يطرح السؤال التالي: ما هو السبب الذي ادّى إلى اغواء الشيطان وتمرده؟ في حين انّ القول بان الشيطان يستبطن الكفر والخيانة من الأول لا يبقي مجالاً لاثارة هذا السؤال.

ويمكن ان يقال حول القرينة الأولى:انّ مجرد التصميم على الاستكبار والمعصية، لا يكون سبباً لحصول الكفر الفعلي، في حين انّ (**كَانَ**) اذا اُخذت بمعناها أصبحت الآية ظاهرة في الدلالة على وجود الكفر الفعلي عند الشيطان منذ السابق. كما ويمكن القول أيضاً حول القرينة الثانية (القرينة اللبيّة)، بانّ مجرد اثارة السؤال عن سبب كفر الشيطان اذا اُخذت (**كَانَ**) بمعنى (صار)، لا يكون دليلاً على انّ (**كَانَ**) ليست بمعنى (صار)، والاّ فما المانع عن طرح مثل هذا السؤال؟ ثمّ اذا كان ابليس مختاراً فما المحذور في السؤال عن سبب استكباره وكفره، أولَيس يلزم الجبر عن القول بأنّ عدم سجود ابليس معلول لخبثه الباطني والذاتي؟

وعلى كلٍّ حال ونظراً إلى انّ الشيطان كان من المؤمنين، بل هو على ما جاء في الخطبة «القاصعة»، قد عبد الله ستة آلاف سنة،[1] فهذه بنفسها قرينة تؤدي إلى رفع اليد عن ظاهر الآية، وحينئذ يتمّ اختيار احد الوجهين: فامّا ان يقال بانّ (**كَانَ**) هي بمعنى (صار) أو يصار إلى القول الذي عليه جمهور مفسّري العامّة وهو ان تقدّر جملة (في علم الله) فيصبح معنى الآية (فكان في علم الله من الكافرين)،[2] نظراً إلى الحديث النبوي: (**وانّما الأعمال بالخواتيم**)[3] أي انّ ابليس كان في علم الله من الكافرين، لانّ الله تعالى كان يعلم بعاقبة امره.

والجواب على هذا الكلام هو اوّلاً: انّ العزم الفعلي على المعصية والمخالفة في ظرف الأمر يعدّ كفراً فعلياً بلحاظ الاعتقاد، وكفراً شأنياً بلحاظ العمل، والذي كان مكتوماً في باطن ابليس هو الكفر الفعلي بلحاظ الاعتقاد لا الكفر الشأني، وهذا المقدار يكفي لصحة اطلاق (**كَانَ**) بمعناها الأصلي. طبعاً هذا النحو من الكفر، هو من اقسام الكفر المستور التي سوف يأتي توضيحها.

وثانياً: انّ اصل طرح السؤال المذكور هو أنّه اذا كانت معصية الانسان تأتي من وسوسة ابليس فأيّ عامل خارجي وسوس لابليس وأوقعه في المعصية؟ ويمكن الجواب على السؤال المذكور بانّه لا يصحّ قياس الجنّ بالانسان؛ أي انّ معصية الانسان اذا كانت مسبوقة

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢، المقطع ١٠.
٢. راجع، **المنار**، ج ١، ص ٢٦٦.
٣. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٨١.



بالوسوسة الخارجية لابليس، فلا يلزم من ذلك أن تكون أيضاً معصية ابليس الذي هو من الجنّ وبالتالي فهو نوع آخر غير الإنسان مسبوقة بعامل ومؤثّر خارجي.

ثالثاً: انّ العامل الداخلي لا يستلزم الجبر اذا كان تأثيره وغلبته في حد الاقتضاء، اي انّ ابليس يتمكّن من دون مؤثّر خارجي أن يقع في المعاصي والمفاسد، وانّ خصلة الطغيان والتمرّد في باطنه كافية لحصول المعصية، وليست حتمية. وعليه فانّها لا تحتاج إلى العامل الخارجي، كما أنّها ليست بالدرجة التي تستلزم الجبر.

واستثناء ابليس لا يدلُّ على أكثر من تركه السجود، اي انّه لا يبيّن السر في ذلك وهل انَّ تركَ السجود كان عن عذر أم لا، وكلمة (**أبى**) ايضاً وان كانت تدلّ فقط على امتناع ابليس وانّ تركه السجود لم يكن عن سهو أو نسيان أو جهل بالحكم أو الموضوع، ولا تدلّ على انّ الإباء المذكور كان عن عذر «كما في قوله تعالى ﴿**فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا**﴾[1] لانّ الإباء الاشفاقي هو عن عذر» أم انّه لم يكن مستنداً إلى عذر، لكنّ كلمة (**استكبر**) تدل على انّ إباء ابليس كان مستنداً إلى استكباره ولم يكن قائماً على حجّة أو دليل أو عذر.

والاستكبار رذيلة نفسية وعاهة خلقية، وابليس اضافة إلى مرضه النفسي فانّه كان يعاني من ضعف العقيدة ايضاً، وهذا المعنى تدل عليه عبارة ﴿**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ اي انّ ابليس كان كافراً وجاحداً من السابق، وكان مستكبراً في داخل نفسه، وهذا يشبه ما ورد في الآية الكريمة

---

١. **سورة الأحزاب**، الآية ٧٢.

﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾،[1] والاستكبار يقترن بالاستخفاف بالحق وتحقير الخلق. وهذه الرذيلة التي اُبتلي بها ابليس جعلت سيرته وسلوكه واستفهامه يختلف عن سلوك السماوات والأرض بإبائها وامتناعها الاشفاقي وكذلك يختلف أيضاً عن سؤال الملائكة ومعصية آدم (بالمعنى الذي سوف يأتي).

وكفر ابليس وان كان مخفياً وظهر بامتحان السجود، ولكنه لم يكن فطرياً ابداً، أي انّه لم يكن بفطرته صاحب رؤية الحادية أو ميل إلى الكفر والزندقة، اذ ليس هناك من موجود مكلّف ومسؤول عن عقائده واخلاقه وأعماله واحكامه وحقوقه، يُخلق من دون فطرة ورؤية توحيدية، حيث انّ آية أخذ الميثاق على ربوبية الله وعبودية الفرد قد جاء ذكرها في بني آدم خاصة، لكنّ التعليل المذكور فيها عام وشامل لغير الانسان، كالجنّ ومن جملتهم ابليس، لانّ الموجود المكلّف والمختار اذا كان بفطرته غافلاً عن ربوبية الله وغير عارف بعبوديته امام الله، فانّه يمكن أن يحتجّ في يوم المعاد ويقول: انني كنت غافلاً عن التوحيد أو إنّ آبائي وأسلافي اشركوا وانني تبعتهم واقتفيت أثرهم بسبب التربية العائلية والبيئة والمحيط الذي كنت اعيش فيه.[2]

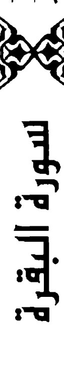
فالقصد هو أنّه ينبغي أن يخلق كلّ موجود مختار ومكلف على فطرة التوحيد لا على فطرة الشرك والكفر، وعلى الأقل أن يكون ذهنه

---

١. **سورة النحل**، الآية ٢٢.

٢. خلاصة مضمون الآيتين ١٧٢ – ١٧٣ من **سورة الأعراف**.





فارغاً وخلوا من الجانبين، لتكون العلوم التوحيدية مساوية للعلوم الحصولية التي يكون ذهن الإنسان بالنسبة إليها كالصفحة البيضاء وكما ذكرت الآية الكريمة ﴿**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾.[1]

وعليه فلا يمكن القول إنّ فطرة إبليس كانت على الكفر، وانّ جملة ﴿**وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ دليل على سابقة كفره الفطري؛[2] بل يمكن أن يقال: انّ التعبير ﴿**أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾ يظهر بانّ الكبر لم يكن فطرياً وذاتياً فيه، وانّما هو الذي سعى بنفسه نحو الكبر، لانّ حرفي (السين) و(التاء) تفيدان مثل هذا المعنى، وانّ خصلة الطغيان والتكبر هذه في ابليس لها سابقة طويلة، ويمكن التعرف على قدم هذا المرض المزمن من الفعل الماضي (**كان**).

وعلامة رسوخ هذا المرض واستقراره في باطن ابليس انّ الآية لم تقل (كان كافراً) بل قالت ﴿**كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾، كي يفهمُ من هذا التعبير انّه كان عضواً ضمن مجموعة من نوع واحد يحتمي بها وتربطه بها روابط الحميّة والعصبية، وهذا الأمر يشبه ما ورد في قوله تعالى: ﴿**أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾،[3] وقوله تعالى ﴿**أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ**﴾.[4] كما ان رعاية فواصل الآيات التي خُتمت كلّها بصيغة الجمع السالم وبـ(الواو) و(النون) أو (الياء) و(النون) تحتوي على لطائف أدبية،

---

١. **سورة النحل**، الآية ٧٨.
٢. **بيان السعادة**، ج ١، ص ٧٨.
٣. **سورة النمل**، الآية ٢٧.
٤. **سورة النمل**، الآية ٤١.

لكنّ الملاحظة المهمّة هي انّ ابليس يدافع دائماً عن عضويته في جماعة الكفر، على الرغم من انّه لم يكن قد وُجد كافر غيره بعد، وكان ينأى بنفسه عن الانتماء إلى طائفة اهل الايمان والطاعة وامتثال الأمر الإلهي، وجملة: ﴿أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[1] شاهد على ذلك؛ لأنه لم يكن قد امتنع عن السجود فحسب، بل انّه كان يتجنّب أن يكون عضواً في جماعة الساجدين.

لطائف وإشارات

١. أحقيقة أم تمثيل؟ أتشريع أم تكوين؟

انّ الأمر بالسجود لا يمكن ان يكون أمراً حقيقيا، لانّه على هذا الفرض لا يخرج عن حالتين: فإمّا ان يكون امراً مولوياً وتشريعياً كما في قوله تعالى ﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾،[2] أو ان يكون امراً تكوينياً كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾،[3] وكلا القسمين فيه محذور، فمحذور الأمر التكويني هو انّه غير قابل للعصيان، ويقترن بالطاعة دائماً؛ لانّ ما يريده الله سبحانه تكويناً فانّه يتحقق قطعاً ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛[4] اذ ان (كُن) هنا ليست لفظاً أو صوتاً، وانّما هي ايجاد، وكما قال امير

---

١. سورة الحجر، الآية ٣١.

٢. سورة البقرة، الآية ٤٣.

٣. سورة فصلت، الآية ١١.

٤. سورة يس، الآية ٨٢.

المؤمنين علي عليه السلام في توصيف كلام الله (...**لاَ بِصَوْتٍ يُقْرَعُ وَ لاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَ إِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ**).[1]

ويستفاد ايضاً من الآيات التي تتحدث عن الأمر التكويني كآية ﴿... **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[2] ان الأمر التكويني ليس فقط غير قابل للعصيان، بل انّه غير قابل للكراهة ايضاً.[3]

ومحذور الأمر التكليفي والتشريعي ايضاً، هو انّ الملائكة ليسوا من اهل التكليف، ولا يتصور في حقهم الوحي، الرسالة، الأمر والنهي المولوي، الوعد والوعيد، الجنّة والنار، وبالنتيجة لا توجد في شأنهم طاعة في قبال المعصية، لانّ الموجود المعصوم المحض الذي لا مجال فيه للمعصية، تكون طاعته ضرورية، واذا كانت الطاعة ضرورية امتنع صدور الكفر والاستكبار والمعصية منه، وحينئذٍ يكون التكليف، والوحي والرسالة، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والتبشير والانذار وبقيّة العناوين التي تتعلق بالأوامر والنواهي التشريعية والاعتبارية اموراً لا مقتضيَ لها. ولذلك لم يذكر في القرآن الكريم للملائكة قوانين واحكام اعتبارية وتشريعية عن طريق ارسال الأنبياء وانزال الكتب، والآيات التي تحدثت عن العبادة والتكليف أيضاً كقوله تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[4] لم تتطرق لذكر الملائكة.

ويمكن أن يقال: انّ هناك اموراً لاريب فيها وهي:

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٨٦، المقطع ١٦.
٢. **سورة فصلت**، الآية ١١.
٣. راجع **التفسير الموضوعي**، ج ٦، ص ١٨٢ (وهو باللغة الفارسية ـ وللمؤلّف).
٤. **سورة الذاريات**، الآية ٥٦.

اوّلاً: انّ هذا النحو من العناوين يمكن تصوره في شأن الجنّ؛ أي انّهم كالانسان لديهم قوانين واحكام تشريعية واعتبارية وتنزل عليهم الكتب وتأتيهم الرسل.

ثانياً: انّ ابليس من الجنّ.

ثالثاً: انّ الأمر بالسجود قد صدر إلى ابليس على نحو التشريع، ولذلك فقد اطلقت في حقه عناوين كالمعصية والمخالفة والاستكبار.

رابعاً: انّ الملائكة وابليس قد توجه إليهم خطاب موحَّد وصدر في حقهم أمر واحد. ومع الأخذ بنظر الاعتبار هذه المقدمات الأربع فكيف يكون أمر (**اسجدوا**) تشريعياً في حق ابليس وغير تشريعي بالنسبة للملائكة؟

وجواب ذلك **اوّلاً**، انّ المخاطبين الأصليين في أمر السجود هم الملائكة، وابليس كان معدوداً في ضمنهم، وحيث ان المخاطبين الأصيلين واصحاب الأكثرية الغالبة غير مشمولين بالحكم المولوي والتشريعي، اذن فانّ اصل الحكم لا يكون من السنخ التشريعي.

ثانياً: انّ مجرد إمكان صدور الأمر التشريعي في حق ابليس لا يوجب حمل الأمر المذكور على التشريعي.

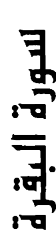
ثالثاً: اثبات صدور أمر مستقل بحق ابليس يحتاج إلى دليل، ولم تتمّ اقامة مثل هذا الدليل إلى الآن، وان كان البعض لم يستبعد مثل هذا الاحتمال استناداً إلى قوله تعالى ﴿**إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾.[1]

رابعاً: ان تجزئة وتحليل الأمر الواحد إلى التشريعي والتمثيلي هو

---

١. سورة **الأعراف**، الآية ١٢.





خلاف الظاهر ويحتاج إلى برهان ودليل على صحة هـذه التجزئـة، ولـم تتمّ اقامة مثل هذا الدليل إلى الآن.

وخلاصة القول هي انّ المحذور يلزم على القول بان الأمر للملائكـة حقيقي، علـى كـلا قـسميه، وحيـث انّـه لا يمكـن الـتخلص مـن هـذا المحذور، وليس هناك قسم ثالث يتصور للأمـر الحقيقـي، لـذلك يجـب رفع اليد عن القول بان الأمر بالسجود واقعي وحقيقي، ولابدّ مـن حملـه على التمثيل، لانّ التشريع والتكوين وان كـان احـدهما لا يلائـم الآخـر، لكنهما غير متناقضين حتى يكون ارتفاعهما محالاً.

طبعاً انّ كون الأمر بالسجود تمثيلياً ليس بمعنـى ـ معـاذ الله ـ ان اصـل الأمر بالسجود لم يقع، وانّه قد ذكر بعنوان قصة خيالية ورمزيـة مـن نـسيج الخيال وليس لها ما يطابقهـا فـي الخـارج، بـل انّ كيفيّـة التمثيـل تعنـي ان الحقيقة المعقولة والمعرفة الغيبية تبيّن بصورة المحسوس والمشهود، ونظيـر هذا ما جاء في سورة (**الحشر**) حول نـزول القـرآن علـى الجبـل، وتـصدع الجبل وتفتته، حيث قال تعالى **﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾**[1] حيث لاشك في انّ هذا مثل يقصد بـه انّ الجبـال لا تستطيع تحمل مثل هذا الوحي المنزل، والاّ، فلا القرآن نزل علـى جبـل، ولا انّ هناك جبلاً قد تفتت بسبب نزول القرآن. ولـذلك يقـول تعـالى فـي آخر الآية نفـسها **﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**، اي انّ هـذا مثل نبيّنه للناس كي يدركوا عن طريقه اهميّة القرآن.

وفي نهاية سورة الأحـزاب يقـول ايـضاً: **﴿إِنَّـا عَرَضْـنَا الأَمَانَـةَ﴾**، اي

---

١. **سورة الحشر**، الآية ٢١.

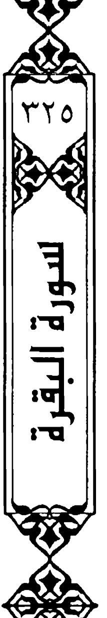
المعرفة، الولاية، القرآن، الدين، التكليف، المعارف الإلهية أو أصل أداء الأمانة بمعناها المطروح في الحقوق بعنوان كونه احد الأحكام الشرعية، ﴿عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[1] ومن المسلّم به انّ المقصود ليس هو العرض الواقعي للأمانة المعهودة،وان السماوات والأرض والجبال عجزت عنها، بل انّها كناية محضة عن انّ الأمانة ثقيلة إلى درجة انّ السماوات عاجزة عن حملها، وانّ الإنسان بما لديه من سعة وجودية وتجرد روحي وقدرة متميزة هو أعلى واشدّ قوة من السماء والأرض والجبال.

تنويه: انّ الأمر بالسجود يختلف عن عرض الأمانة، ولذلك فانّ في قضية السجود نرى انّ البعض قد امتثل الأمر (مهما كان المعنى الذي يُفسّر به الامتثال في مثل هذه الموارد) والبعض أبى، فصار المطيع الممتثل ممدوحاً، والممتنع مذموماً. لذلك فلا يُتوهّم بانّ مسألة السجود تشبه مسألة عرض الأمانة من جميع الجهات، اذ انّ التشبيه يُقرِّب من جهة ويُبعِّد من جهة أو جهات اخرى.

وعلى كلّ حال، فان المقصود من القصة في محلّ البحث انّ مقام الانسانية عال ورفيع بحيث لا المَلَك يبلغه ولا سائر الموجودات (وهو العلو الذي جاء من الروح المجردة للانسان، لا من بدنه أو روحه المتعلقة بالمادّة) اي انّ اعلى واسمى مقام في عالم الإمكان، هو مقام الانسانية وخليفة الله الذي يخضع امامه الملائكة، والشيطان ايضاً كقاطع الطريق الذي يسعى لمنع الناس العاديّين من سلوك الصراط المستقيم،

---

١. سورة الأحزاب، الآية ٧٢.



والله سبحانه ومن اجل أن يبيّن هـذه الحقيقـة علـى أحـسن وجـه فقـد صاغها في قالب المثال، اي جعل هذه الحقيقة بصورة المثـل، واخرجهـا في قالب أمر الملائكة وابليس بالسجود لآدم، واطاعة الملائكة لهذا الأمر وتمرّد ابليس عليه.

طبعاً انّ مجرد حمل آية مّا على التمثيل لأجل وجود بعض القرائن ولزوم بعض المحـاذير، وكـذلك مجـرد تأييـد القـرآن لوجـود المثـل والتمثيل كما في قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**﴾،[1] لا يُبرِّر لنا حمل آية اخرى، لهـا ظهـور فـي واقعيـة وخارجيـة القصّة التي تتحدث عنها، على التمثيل، بل انّ مثل هذا الحمـل بحاجـة إلى قرائن وشواهد اُخرى تؤيده.

وعليه فانّ كلام السيد شرف الدين العاملي حول حمل بعض الآيات مثل قوله تعالى ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾[2] على المثل والتمثيل استناداً إلى الآيات الدالـة علـى وجـود التمثيـل فـي القرآن، غير صحيح،[3] وذلك لانّ الأمر التكويني في هذه الآية والقول بـانّ طاعة السماوات والأرض هنا امر حقيقي، لا محذور فيه، حيث انّ القرآن يؤيّد كون جميع الموجودات مسبّحة وانّها ذات شعور وادراك: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[4].

تنويه: ١. انّ العصمة التي لا يمكن معها صـدور التكليـف المولـوي

---

١. **سورة الزمر**، الآية ٢٧.
٢. **سورة فصلت**، الآية ١١.
٣. **فلسفة الميثاق والولاية**، ص ٣.
٤. **سورة الاسراء**، الآية ٤٤.

هي تلك العصمة الضرورية التي تمتنع معها المعصية، وأما العصمة التي يمكن معها صدور المعصية ولكنها لا تقع، كما في عصمة البشر المعصومين، فالتكليف المولوي يجتمع معها.

٢. اذا كانت عصمة الملائكة من القسم الأول فانّ التكليف المولوي لا يجتمع معها، ولكن اذا كانت من القسم الثاني فهي تجتمع مع التكليف المولوي.

٣. انّ جميع الملائكة ليسوا معصومين في درجة واحدة، لانّ من كان من الملائكة مجرداً تاماً وعقلاً محضاً فلا المعصية ممكنة منه، ولا تكليفه الاعتباري ميسور، ولكن من كان من الملائكة في درجة التجرد النفسي ولم يكن مجرداً تاماً وعقلاً محضاً، فهو وان كان معصوماً لكنّ المعصية ممكنة منه، وكذلك التكليف المولوي صحيح في حقّه.

٤. انّ حمل مسألة الأمر بالسجود على التمثيل نشأ من كون الملائكة المأمورين هم من ذوي العصمة التي يمتنع معها صدور المعصية، والاّ لأمكن حمل المسألة المذكورة على ظاهرها، وحينئذ سوف يكون امتناع ابليس عن الامتثال ايضاً معصية اصطلاحية متعارفة، ولم يكن هناك حاجة للحمل على التمثيل.

٢. خصائص سجود الملائكة

انّ الآيات التي تحدثت عن الأمر بالسجود على قسمين: فالقسم الأوّل منها يفهم منه الأمر بالسجود فقط، والقسم الثاني قد تضمّن مضافاً إلى الأمر بالسجود، كيفية السجود والسرعة والوثوب. امّا القسم الأوّل فكما هو

في الآية محل البحث وآيات سور «**الأعـراف**»،[1] «**الاسـراء**»،[2] «**الكهـف**»،[3] و«**طه**»،[4] حيث ذكر فيها الأمر بأصل السجود، واما القسم الثـاني فكمـا فـي قوله تعالى: ﴿**فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ الذي جاء في سـورة «**الحجـر**»[5] و«**ص**»[6] اي انّه يتحتّم ان يكون السجود على نحو الهويّ والوقوع، كالـذي حـصل من ابوي يوسف واخوته حيث قال تعالى: ﴿**وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا**﴾[7] وكما ورد في نعت المؤمنين الموحّدين بانّهم ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾،[8] وكما ورد حـول الـسحرة التـائبين ذوي العاقبـة الحـسنى حيث قال القرآن عنهم ﴿**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾،[9] وحيـث انّ الملائكـة بادروا إلى امتثال الأمر الإلهي، ولم يتماهلوا في تنفيذه، لانّ القـرآن الكـريم ذكر امتثال الأمر باستعمال (الفاء) التي تدل على الترتب الفـوري للامتثـال، فيُفهم من ذلك أنّ الملائكة التزموا بالبدار والمسارعة ونفّـذوا الأمـر علـى نحو الوقوع والخرير، حيث امتثلوا ما أُمروا بـه دون ايّ تبـاطؤ اي اطـاعوا أمر ﴿**فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ على نحو السرعة.

تنويه: كما انّ الأمّة الإسلامية مدعوة ليس للاعتصام بحبل الله المتـين

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١١.
٢. **سورة الاسراء**، الآية ٦١.
٣. **سورة الكهف**، الآية ٥٠.
٤. **سورة طه**، الآية ١١٦.
٥. **سورة الحجر**، الآية ٢٩.
٦. **سورة ص**، الآية ٧٢.
٧. **سورة يوسف**، الآية ١٠٠.
٨. **سورة مريم**، الآية ٥٨.
٩. **سورة الأعراف**، الآية ١٢٠.

فحسب، وانّما هي مأمورة بان يكون اعتصامها بشكلٍ جماعيّ ودون تفرق، كذلك الملائكة عندما سجدوا، لم يسجدوا فحسب، وانّما سجدوا بنحو جماعي ولم يكونوا متفرّقين، وهذا المعنى يمكن استظهاره من كلمتي (**كلُّهم**) و(**اجمعون**) حيث الاولى تفيد العموم والثانية تفيد معنى الاجتماع واداء السجود بواسطة الملائكة جماعة وسويّة.

٣. مسجود الملائكة:

بعد ان ثبت أنّ آدم عليه السلام كان مسجوداً له ولم يكن قبلة ومسجوداً إليه، يطرح سؤال، عن الذي سجدت له الملائكة ما هو؟ وهنا يوجد احتمالان، احدهما:انّ الذي سجدت له الملائكة هو الشخص الحقيقي لآدم، والآخر: هو انّ المسجود له هو الشخصية الحقوقية لآدم، أي مقام الانسانية.

وظاهر بعض كلمات الآية محل البحث يؤيّد الاحتمال الأول، وذلك هو كلمة (آدم)، لكنّ الاحتمال الثاني (اي السجود لمقام الانسانية ولمن هو مصداق لهذا المقام في كل عصر ومصر) عليه شواهد كثيرة:

أ: ذكر مسألة السجود بعد قصة الخلافة، حيث يظهر من ذلك انّ من جُعل له مقام الخلافة فهو مسجود له من قبل الملائكة، وقد تقدّم خلال المباحث التفسيرية للآية (٣٠) انّ الخلافة جُعلت للانسان الكامل وان كان غير آدم.

ب: الآية الكريمة ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ**﴾[1] حيث انّ المخاطب

---

١. سورة الأعراف، الآية ١١.



في هذه الآية هو جميع الناس، وبدلاً من أن يقول: اننا خلقنا آدم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا له، قال: (نحن خلقناكم ثم صورناكم ثم امرنا الملائكة بالسجود لآدم). وظاهر هذا النحو من التعبير هو انّ آدم بما انّه مثال ونموذج للانسانية قد صار مسجوداً له.

ويمكن ان يقال: ان لازم هذا الكلام هو انّ جميع الناس (لا الأفراد الكاملين منهم فقط) قد اصبحوا في عداد المسجود لهم من قبل الملائكة، لانّ المخاطب في هذه الآية دون شك هو جميع الناس وضمير (**كم**) شامل لهم جميعاً.

وجواب ذلك، **أوّلاً**: انّ بعض آيات القرآن حاكمة على الآيات التي تتحدث عن معنى الإنسان، ومن باب تضييق الموضوع، فقد اعتبرت البعض اُناساً في الشكل والمظهر وهوية الأحوال الشخصية فقط، وانّهم في الواقع خارجون عن حقيقة الانسانية؛ كما في قوله تعالى ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[1] وآية ﴿**شَيَاطِينَ الإِنسِ**﴾،[2] وآية ﴿**فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾[3] حيث انّ مفاد هذه الآيات هو خروج الطائفة المذكورة من حقيقة الانسانية.

ثانياً: انّ للملائكة درجات، كما انّ السجود والخضوع والطاعة والتسليم له درجات. ولجميع الناس المؤمنين نصيب من طاعة بعض

---

١. **سورة الفرقان**، الآية ٤٤.
٢. **سورة الأنعام**، الآية ١١٢.
٣. **سورة البقرة**، الآية ٧٤.

الملائكة، كما ورد حول طالب العلم النافع والصحيح من انّ الملائكة تخفض اجنحتها وتضعها لأجله.[١]

ج: مفاد الآية الكريمة ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[٢] ومضمون الآية الكريمة ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[٣] لانّ تصريحات الشيطان بعد الاستكبار والاستنكاف في مقابل الأمر بالسجود تبيّن حقده الدفين وبغضه لجميع الناس، وهذا يدل على انّ سبب هذا الحقد ليس هو آدم، وانّ مسألة السجود أيضاً ليست متعلقة بشخص آدم. طبعاً يمكن أن يقال بانّ هذه الآية كالآية السابقة تدل على انّ السجود كان لجميع افراد الانسانية، ولم يكن للناس الكاملين فقط. والجواب هو نفس ما ذكر من انّ كلّ انسان حقيقي له نصيبه من خضوع وطاعة بعض الملائكة.

٤. طاعة الله، عبودية ومسؤولية ام رغبة وغريزة؟

انّ من الدروس التي نتعلمها من هذه القصة هي انّ المهم لدى الله سبحانه هو عبودية الانسان وامتثاله التكليف، وأن نكون كما يريد لنا الله، لا كما نحن نريد. ولذلك فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال: انّ ابليس بعد أن امره الله بالسجود لآدم قال لله سبحانه وعزّتك (**لأعبدنّك عبادة ما عبدك احد قطّ مثلها**) فأجابه الله سبحانه (**انّي احبّ أن اطاع من**

١. **الكافي**، ج ١، ص ٣٤، باب ثواب العالم والمتعلم.
٢. **سورة الأعراف**، الآية ١٦.
٣. **سورة الحجر**، الآية ٣٩.

حيث اريد).[1] واذا لم يكن الانسان على هذا النحو فهو ليس عبداً لله، بل هو عبد لأهوائه واسير انانيّته، وبدلاً من أن يكون في خط العبودية والتكليف فانّه واقع في فخ النزوات وورطة الهوى.

٥. نقد كلام الشيخ الطبرسيّ:

يرى الشيخ الطبرسي انّ الآية محل البحث دليل افضلية آدم على جميع الملائكة، لأنّ الأمر بالسجود يبيّن بانّ آدم مقدّم على جميع الملائكة، اذ لا يجوز تقديم المفضول على الفاضل. ولذلك فانّه يقول بعد ذلك: لو لم يكن سجود الملائكة لآدم لأجل التعظيم والتفضيل فانّه **اولاً**، لم يكن هناك وجه لامتناع ابليس عن السجود ولقوله: ﴿**هَـٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ**﴾[2] وقوله ﴿**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾،[3] **ثانياً**، كان واجباً على الله أن يفهِّم ابليس انّ هذا الأمر لم يكن لأجل تعظيم وتفضيل الانسان حتى لا تتكون لديه دوافع الامتناع والتمرد فيقع في المعصية،[4] اي كان من الواجب الحيلولة دون اغراء ابليس بالجهل وايقاعه في المعصية حيث انّ معصيته في هذه الحالة قد نتجت من فهمه الخاطىء للأمر بالسجود.

وهذا الكلام الأخير غير تام ومخدوش، لانّ العبد الكامل لله سبحانه، هو الذي يطيع أمر الله، سواء فهم الداعي الى ذلك الأمر ام لم يفهمه.

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٢، ص ٢٦٢.
٢. **سورة الاسراء**، الآية ٦٢.
٣. **سورة ص**، الآية ٧٦.
٤. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٣، ٤٤.

٦. هل انّ ابليس من الجنّ أم انّه ملك؟

هناك قولان للمفسرين حول كون الشيطان من الجنّ ام انّه ملك واشتهر عند الامامية انّه من الجنّ، وقد ذكر الشيخ المفيد ومؤيدوه (رضوان الله عليهم) عدداً من الأدلة على ذلك وهي:

أ: تصريح القرآن ﴿**كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾[1] اذ لاشكّ بانّ (**كان**) هنا ليست بمعنى «صار» كي يقال بانها تدل فقط على انّ الشيطان وبعد تمرده على الأمر بالسجود صار من طائفة الجنّ، لانّ معصية الله والتمرد على اوامره لا تغيّر ماهية العاصي والمخالف من الملك إلى الجنّ، حيث انّ هناك اختلافاً ماهوياً ونوعيّاً بين الملك والجنّ، ومجرد وجود الجامع الانتزاعي بينهما ايضاً لا يستلزم حصول الوحدة النوعية بينهما.

ب: انّ الله سبحانه جعل لنوع الجنّ احكاماً لم يجعل أيّاً منها لنوع الملائكة، فمثلاً انّه تعالى ساواهم واردفهم مع الإنسان في آيات مثل ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾،[2] و﴿**فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾،[3] ومثل اتصافهم بالتناسل والتوالد وهو ما يظهر من آيات مثل قوله تعالى: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء**﴾[4] ومثل تقسيم الجنّ إلى طائفتين، مؤمنة وكافرة حسبما جاء في سورة الجنّ. ومثل هذه الأحكام والخصائص لا توجد عند الملائكة. وعليه فلا يمكن اعتبار الجن قسماً أو صنفاً من اقسام واصناف الملائكة.

---

١. **سورة الكهف**، الآية ٥٠.

٢. **سورة الذاريات**، الآية ٥٦.

٣. **سورة الرحمن**، الآية ١٣.

٤. **سورة الكهف**، الآية ٥٠.

ج: هناك مميزات خاصة بالملائكة، ولا توجد عند الجنّ، كما في صفة العصمة التي تستفاد من قوله تعالى ﴿**لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾،[1] لانّه نظراً إلى معصية ابليس، وعلى أساس الشكل الاول من القياس نستنتج انّه ليس من الملائكة وذلك كما يلي: ابليس عصى، وكلّ من يعصي فليس مَلَكاً، اذن ابليس ليس مَلَكاً. كما ويمكن استخراج هذه النتيجة على أساس الشكل الثاني من القياس ايضاً وذلك بان يقال: ابليس عصى، وكل مَلَك لا يعصي، اذن ابليس ليس مَلَكاً.

وكذلك صفة وميزة الرسالة التي ذكرت في الآية الكريمة ﴿**الْحَمْدُ للّه فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئكَة رُسُلاً**﴾[2] (ونظراً إلى الألف واللاّم في الملائكة) فهي تتعلق بجميع الملائكة، ومن الواضح انّ مقام الرسالة لا يتناسب مع المعصية.

هذه الوجوه التي تنفي كون ابليس ملكاً نقلها ايضاً الشيخ الطوسي (رضوان الله عليه)، ثم أجاب عليها بوجوهٍ لا تتناسب مع المقام والمكانة العالية لهذا المفسّر الكبير.

فهو يقول حول الوجه الأول انّ (**كان**) بمعنى (صار) (وهذا يدلّ على انّ ابليس كان من الملائكة سابقاً) وعلى فرض انّ (**كان**) قد استُعملت بمعناها الأصلي فانّ كون ابليس من الجنّ لا ينافي كونه ملكاً، لانّه قيل: انّ الجنّ يُعَدّون طائفة من طوائف الملائكة اذ انّهم مثل خزنة الجنّة أو انّ غطاءً وجُنّة تحجبهم عن رؤية العيون، ولذلك اطلق عليهم

---

١. **سورة التحريم**، الآية ٦.

٢. **سورة فاطر**، الآية ١.

اسم الجنّ.[١] وهذا الكلام غير مقبول لما تقدم من انّ هناك اختلافاً ماهوياً بين الجنّ والملائكة.

وحول الوجه الثاني يقول: **اوّلاً**، انّ امتلاك ابليس للذرية قد ثبت بالخبر الواحد،[٢] وعلى فرض صحة هذا الطريق (هذا الخبر)، فهو لا يمنع من ان الله قد اختصّ احد الملائكة، أي ابليس، بشهوة النكاح، لأجل تشديد التكليف، ولا وجه لاستبعاد ذلك.[٣]

وجواب النقد المذكور: انّ ما دل على امتلاك ابليس للذريّة ليس هو الرواية فقط، بل انّ الذي يدل على ذلك، بالدرجة الاولى، هو الآية الكريمة ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء**﴾.[٤] امّا اتّصاف احد الملائكة بشهوة النكاح دون أن يتصف سائر الملائكة ولو بدرجة ضعيفة منها فانّه لا يتناسب مع الوحدة الماهوية بين الملائكة، اي انّ امتلاك الذريّة نفسه، دليل على انّ ابليس يتميز بماهية مستقلة.

وحول الوجه الثالث يقول في عصمة الملائكة: انّ ما يدلُّ على عصمة الملائكة يتعلق بخزنة النار ولا علاقة له بنوع الملائكة، لانّ الله سبحانه يقول في اول الآية ﴿... **عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ**﴾ ثم يقول: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ**﴾[٥]

---

١. **التبيان**، ج ١، ص ١٥٢.

٢. هذا النحو من البيان اي التقابل بين صحة الخبر وكونه خبراً واحداً، يدل على عدم صحته واعتباره في رأي الشيخ الطوسي. وعليه فلا يمكن على ما بُيّن في اصول الفقه، أن ينسب إلى شيخ الطائفة انه يقول بحجيّة الخبر الواحد الثقة بنحو مطلق.

٣. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٥٣.

٤. **سورة الكهف**، الآية ٥٠.

٥. **سورة التحريم**، الآية ٦.

وحول رسالة الملائكة يقول: انّ عموم آية ﴿**جَاعِلِ الْمَلاَئِكَة رُسُلاً**﴾ تخصصه الآية ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَة رُسُلاً**﴾،[1] لان كلمة (**من**) تقتضي التبعيض،[2] أي انّ بعض الملائكة، لا جميعهم. وعليه فانّ قضية رسالة الملائكة سوف تكون على نحو الموجبة الجزئية، لا الموجبة الكليّة، والقياس الفاقد للقضية الكليّة ليس منتجاً.

وجواب القسم الأول من هذا الوجه هو انّه اذا سلّمنا كون الآية ﴿**عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ**...﴾ تدل فقط على عصمة خزنة جهنم، فانّ الملائكة المشرفين على الجنّة الحسيّة وما فوقها، سوف يكونون معصومين حتماً، لانّ درجتهم الوجودية اعلى من خزنة جهنم، ومن جهة اخرى فان الآية الكريمة ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[3] كليّة وشاملة لجميع الملائكة.

ويمكن النقض على هذه الكليّة بقصّة «فُطرس»، لكنّ هذه القصة، لا سندها معتبر، ولا دلالتها قويّة، لانّ هذا النحو من الروايات على فرض صحتها، فهي غير معتبرة في المسائل العقائدية، واذا كانت حجة في نفسها ايضاً فيجب عرضها على القرآن كسائر الروايات غير القطعية، وفي حال مخالفتها مع الاصول الكليّة للقرآن، فانّها تترك جانباً، ويوكل علمها إلى اهله.

وجواب القسم الثاني، اي الآية الكريمة ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَة**

---

١. **سورة الحج**، الآية ٧٥.
٢. راجع: **التبيان**، ج ١، ص ١٥٢ – ١٥٣.
٣. **سورة الأنبياء**، الآيتان ٢٦ – ٢٧.

رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ هو كما يلي: أ: انّ تكرار كلمة (**من**) في (**ومن الناس**) يؤدّي إلى وجود احتمال انّ (**من**) الاولى نشوية والثانية تبعيضية، ويكون معنى الآية انّ الله يصطفي جنس الملائكة للرسالة، ولكنه يختار البعض من الناس لهذا المقام.

ويمكن الاشكال على هذا الكلام بانّه **اولاً**، ما الدليل على أنّ (**من**) الاولى نشوية و(**من**) الثانية تبعيضية؟ **ثانياً**، ان كون (**من**) نشوية يدل فقط على انّ الله يجتبي من جنس الملائكة رسلاً، ولا يدلّ على انّ جميع الملائكة يكونون رسلاً، بل انّ لازم الاصطفاء والاجتباء هو ما ذكرناه.

والجواب على ذلك **اولاً**، انّ تكرار كلمة (**من**) دلالة على اختلاف معانيها أو احتمال ذلك والاّ فلا وجه للتكرار. **ثانياً**، انّ الكلام كان منصباً على نقد كلام الشيخ الطوسي‏ؒ حيث استنبط التبعيض من الآية المذكورة ولم يكن الكلام مسوقاً لاثبات الايجاب الكليّ. والمقصود انّه من المحتمل انّ الآية المذكورة لا تدل على التبعيض لا انّ الآية تدلّ على الكليّة. **ثالثاً**، انّ اجتباء جميع الملائكة من بين المخلوقين لا ينافي لازم الاصطفاء، لانّ جميع الملائكة جزء من المخلوقين وبعض منهم.

ب: انّ الرسالة التي ذُكرت في الآية الكريمة **﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾** هي الرسالة في الوحي وابلاغه، واختصاصها ببعض الملائكة لا ينافي مطلق الرسالة المذكورة في الآية الكريمة **﴿جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً﴾** التي تدلّ على أنّ جميع الملائكة رسل ويتصفون بمطلق الرسالة؛ سواء كانوا كإسرافيل (سلام الله عليه) والملائكة المنضوين تحت امرته، والذي هو رسول في شؤون الحياة، أو



كميكائيل (سلام الله عليه) والمأمورين بـأمره، وهـو الموكّـل بـالرزق أو كعزرائيل (سلام الله عليه) والمبعوثين الخاضعين لأمـره والـذين بيـدهم مهمة قبض الأرواح والذين اشارت إليهم الآية الكريمة ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُـلُنَا﴾[1] أو مثل الكرام الكاتبين المسؤولين عـن كتابة عقائـد وأخـلاق وأعمـال الناس، أو مثل جبرائيل والملائكة التـابعين لأمـره والـذين علـيهم مهمـة ابلاغ الوحي، وقد ذكر الله سبحانه هذه الطائفة الأخيرة بنحو خـاص مـن التجليل والثناء فقـال ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَـرَرَةٍ﴾.[2] فـي حـين انّ الآيـة الأولى تتعلق فقط بالنوع الأخير من الرسالة، اذن فلا تنافي بـين الآيتـين، حتى تكون إحداهما مخصّصة بالاخرى. نعم يجب الالتـزام بـانّ مطلـق الرسالة الإلهية حتى وان كانـت فـي غيـر ابـلاغ الـوحي فانهـا مـستلزمة لعصمة الرسول، والاّ فانّه لا يمكن اثبات العـصمة العامّـة للملائكـة مـن الآية الكريمة ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً﴾.

٧. السبب في مخالفة الشيطان:

انّ امتناع ابليس عن السجود، كما تقدم، كان امتناعاً استكبارياً، ولم يكـن امتناعاً اشفاقياً، بمعنى كونه ناشئاً من عـدم قـدرة المـأمور علـى امتثـال وتنفيذ المأمور به، ولذلك يقول القرآن الكريم فـي الآيـة محـل البحـث ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

امّا السبب الذي دفع ابليس إلى هذا الاستكبار ما هـو؟ يـستفاد مـن

---

١. **سورة الأنعام**، الآية ٦١.

٢. **سورة عبس**، الآيتان ١٥ – ١٦.

بعض الآيات انّ سبب استكبار ابليس هو نظرته المادية وقياسه الجاهل وعصبيته وانانيّته، التي ظهرت في شكل الامتناع عن السجود، وبدت وظهرت للعيان تحت شعار ﴿**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّار وَخَلَقْتَهُ مِن طِين**﴾،[1] وجملة ﴿**كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ تدل على انّ هذه الأنانيّة والتفاخر كان كفراً رقيقاً مخفياً في باطن ابليس منذ قديم الزمان، وقد ظهر في الامتحان، يعني انّ الشيطان وان كان في الظاهر مع الموحّدين في صف واحد وعبد الله ستة آلاف سنة[2]، ولكنّه في نفس الوقت لم يكن موحداً ومخلصاً في البداية، ثم عرض عليه الكفر والاستكبار فجأة بعد الأمر بالسجود، بل انّه كان ينطوي على كفر باطني ومخفي، وهو وان كان قد حشر نفسه في الظاهر مع عباد الله، الاّ انّه كان في باطنه وحقيقته في زمرة الكافرين.

ويمكن أن يقال، انّ تعبير امير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (القاصعة) يدل على انّ الشيطان كان موحداً حقيقة، وانّه أصبح كافراً بلحظة من الاستكبار، حيث يقول (**فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَ جَهْدَهُ الْجَهِيدَ وَ كَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَة لاَ يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ**)، فالكلام هنا عن حبط العمل، وحبط العمل يصدق في الموضع الذي كان قد تحقق فيه عمل خالص ومقبول. وكلام الإمام علي عليه السلام هذا، يُعدُّ قرينة منفصلة على انّ (**كان**) في جملة ﴿**كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ بمعنى (صار).

---

١. **سورة ص**، الآية ٧٦.

٢. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢ (القاصعة)، المقطع ١٠.



والجواب هو انّ هناك فرقاً بين النفاق والكفر المستور، والارتداد، والكفر المشهور، حيث انّ النفاق هو الكفر القلبي والفعلي والايمان الظاهري والبدني، والكفر المستور يعني التمرد على وجوب الطاعة والعبودية الموجود في باطن الانسان في الحال الحاضر ولكنه خفيّ ومستور بنحو لا يعلم به، لا الشخص نفسه ولا الآخرون، ويظهر للعيان في يوم الامتحان، لا انّه يحدث في ذلك اليوم، و(الارتداد) عبارة عن الكفر الحادث، لا الكفر الظاهر، أي ان اصل الكفر يحدث وينشأ في ظرف الامتحان والبلاء، لا انّه كان موجوداً ومخفياً وقد ظهر الآن. و(الكفر المشهور) في قبال الكفر المستور وهو الذي يظهر بنحو واضح للشخص نفسه وللآخرين. وما يمكن به الجمع بين ظاهر الآية والخطبة (القاصعة) وامثالها هو انّ كفر ابليس كان من سنخ الكفر المستور ولم يكن من سنخ النفاق ولا الارتداد ولا الكفر المشهور.

وعلى كلّ حال، فانّ السبب في مخالفة الشيطان لأمر السجود، لم يكن من وسوسة عامل خارجي، أو من اغواء الآخرين له، وانّما كان من العامل الذاتي الذي كان يحمله في باطنه، وهو النزوع إلى الكبرياء والمكر الذي كان يخفيه في اعماقه، ولمّا خُلق الإنسان الكامل، الذي هو الميزان والمحك الذي به يتبيّن المؤمن الحقيقي عن غيره ويتميز الخبيث من الطيّب، عندها ازيل الستار عن ذلك الأمر الباطن وظهر وجهه الحقيقي، واذا هو كما وصفه امير المؤمنين عليه السلام **(إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ)**[1] فهو لم يكن مأموماً لأحد حتى يكون محتاجاً لامام أو لعامل خارجي.

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢، المقطع ٥.

ومن الجدير بالذكر؛ انّ قصة ابليس تدل على انّ التكبّر والاستكبار على الله سبحانه هو اعظم الذنوب؛ لأنّه يؤدي إلى الكفر. فترك سجدة أو صلاة واحدة، وان كان معصية كبيرة؛ ولكنّه لا يؤدّي إلى الكفر. والذي يُبيّن كفر الشخص بنحو واضح وجلي، هو عندما يُسأل لماذا لم تطع؟ فيقول: على الرغم من أنّ الله قد أمر بذلك، ولكنّه برأيي لا ينبغي اطاعة هذا الأمر. فالله سبحانه قد انتزع من ابليس الاعتراف والاقرار فقال له: انّني امرتك وانّك سمعت أمري ايضاً، فما الذي منعك من تنفيذ امري: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾،[1] ولم يكن الجواب من ابليس انّ الأمر لم يبلغني وانّي كنت جاهلاً به، لانّ مثل هذا الجواب لا يوجب الكفر، بل كان الجواب هو انّه لا ينبغي برأيي أن يصدر منك مثل هذا الأمر! وهذا اجتهاد في مقابل النص الإلهي. ومع انّ ابليس والملائكة، كانوا جميعاً جاهلين بالمقام الرفيع للانسانية (بناء على انّ الأمر بالسجود كان قبل تعليم الأسماء)، لكنّ ابليس بدلاً من أن يكون كالملائكة فيسأل ربّه بالاستفهام الحقيقي، ويعترف بتنزيه الله من كل عيب ونقص وعمل لغوي وأمر جزاف لا حكمة فيه، فانّه اعترض وهو مستكبر ومستنكر وقال: أنا خير من آدم! لكنّ الملائكة كانوا في مأمن من الاستكبار، وكان لديهم استفهام حقيقي واعتراف ايضاً.

تنويه: انّ الحفظ من الاستكبار ليس صفة مختصة بالملائكة ﴿**...وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[2] بل انّ كل شخص يبلغ المرتبة التي

١. سورة الأعراف، الآية ١٢.

٢. سورة النحل، الآية ٤٩.



يكون فيها عند الله فهو في مأمن من آفة الاستكبار طبقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِه﴾،[1] طبعاً انّ هذا المقام الذي يسمّى بمقام العنديّة (اي الكون عند الله) فيه ثمرات كثيرة وهذه الثمرات والمعطيات على نحوين، سلبي وايجابيّ، فنحوها السلبي هو النزاهة من الاستكبار في مقابل جميع أشكال الحق والعدل، ونحوه الايجابي هو العديد من صفات الكمال التي تذكر في موضعها.

وينبغي الالتفات إلى انّ مقام العنديّة يحصل تارة بأن يكون العبد عند الله، ويحصل تارة اخرى بانّ يكون الفيض الخاص الإلهي عند العبد الذي هو من الخواص، والحديث الذي يقول بانّه: (سُئل صلى الله عليه وآله أين الله؟ فقال: **عند المنكسرة قلوبهم**)[2] ناظر إلى ذلك. فمن كان عند الله فانّه يحظى بقوة وقدرة خاصة اذ انّه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3] ومن كان الله عنده فهو ينعم بالحنو والعطف الخاص.

٨. تمييز القبح التشريعي عن الحسن التكويني:

مسائل القرآن الكريم تتحدث تارة عن البناء التكويني المحض، كالآيات التي تتكلم حول خلق السماء والأرض والمعادن والنباتات، حيث يجري الحديث في هذه الموارد عن النظام التكويني لها، دون أن يكون فيها كلام عن المدح والقدح والثواب والعقاب التشريعي، وتارة يدور

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠٦.

٢. **دعوات الراوندي**، ص ١٢٠؛ **بحار الأنوار**، ج ٧٠، ص ١٥٧.

٣. **سورة القمر**، الآية ٥٥.

الحديث حول محور الأحكام التشريعية المحضة، كما في الآيات التي تحدثت حول الصلاة والصيام وشروط صحتهما، حيث في هذه الموارد يجري الكلام عن النظام الفقهي الأعم من التكليفي والوضعي وفي هذا النطاق لا يتم التحدث بصراحة عن المصالح والمفاسد الخفية والباطنة التي تكون ملاكاً لتشريع الأحكام الخاصة، وتارة يتمُّ الحديث حول محور التكوين والتشريع بنحو منسجم ومتوازن بحيث يصعب التمييز والفصل بينهما.

وقصة آدم عليه السلام من جهة وقصة ابليس من جهة اخرى يمكن أن تندرجا في القسم الثالث من اقسام المسائل القرآنية؛ لانّ آدم عليه السلام من جهة كونه انساناً، وابليس بلحاظ انّه من الجنّ، كلّ منهما سوف يكون محكوماً بالأحكام التكليفية الخاصة، فضلاً عن انّ كلّ واحدٍ منهما له دور مهمّ في البناء التكويني.

والذي يزيد قصتي آدم وابليس صعوبة وتعقيداً هو اقتران السعادة التكوينية مع الشقاء التشريعي في تكوّن القصة المذكورة، ومالم يتمّ الفصل بين القسمين المذكورين ويذكر سهم كلّ منهما بنحو مستقل، ويتمّ الحيلولة دون حصول الاختلاط المشؤوم بين القسمين المذكورين، فليس من السهل الوصول إلى المعنى الصحيح في هذا المجال.

مثال ذلك، كون ابليس آية تكوينية إلهية من جهة، واستحقاقه الرجم واللعن التشريعي من قِبَل الله من جهة اخرى، حيث انّ ابليس مخلوق الله سبحانه، وكل مخلوق لله فهو آية وعلامة له. وعليه، فانّ ابليس كسائر المخلوقات من الآيات الإلهية، فضلاً عن اتصافه بالحسن والجمال الخاص

به، لأنّ الله قد خلق كلَّ شيءٍ جميلاً، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[1] وعليه فانّ ابليس آية لله ويحظى بحسن خاص. وهذا التحليل الذي تمّ بلحاظ التكوين، لا يتنافى مع كونه رجيماً ولعيناً بلحاظ التشريع، لان ابليس موجود مختار ومفكّر ومكلّف ومسؤول عمّا يصدر منه من سيئات تجاه الشريعة، وقد استحق الرجم واللعن، نتيجة لاستكباره وتمرده.

وبواسطة تمييز «القبح التشريعي» عن «الحسن التكويني» وفصل جمال الآية التكوينية الإلهية عن قبح مرتكب المعصية التشريعية، يمكن أن ندرك عمق ما انشده بعض شعراء الحكمة حول هذا المعنى. فأحدهم انشد عن لسان ابليس وهو يصف ابتلاءه بالرجم واللعن ووقوعه في مصيدة المكر الإلهي فقال ما معناه:

لقد نصب في طريقي مصيدة مكره الخفيّة
وكان آدم طُعماً بين حلقاتها (شباكها)
لقد كان يريد ان يوقعني في لعنته
ففعل ما اراد، وكان آدم الترابي ذريعة[2]

وان كان في نظر البعض، وطبقاً للتوحيد الأفعالي المنزّه من الجبر والمبرّء من الحلول والاتحاد، فانّ كلّ شيء ذريعة وتبرير والشيء الوحيد الذي يتلألأ في مشكاة روح الانسان الكامل هو نور وجهه الذي ينتشر من هناك ويضيء الآفاق، كلٌّ بحسبه.

---

١. **سورة السجدة**، الآية ٧.

٢. ديوان الحكيم السنائي من قصيدة في الغزل العرفاني (بالفارسية) وبيتها الأول معناه:

قلبي بالمحبة والمودة متحد معه قلبي كان عُشاً لعنقاء الحبّ (العشق).

النديم والمطرب والساقي جميعهم هو

وخيال الماء والطين في الطريق ذريعة[1]

وعليه، فانّ البعض من اهل النظر يقولون: ان اسناد الإغواء إلى الله يجب ان يُحل بلسان التكوين، اذ انّ ابليس مظهر الإضلال الجزائي لله، لا الإضلال الابتدائي، الذي هو من الصفات السلبية للباري تعالى، وانّ مسألة الرجم واللعن الإلهي يجب ان تُبرّر بلسان التشريع، ولكلّ من المسألتين موضعها الخاص بها، كما انّ القول الفصل والحكم النهائي بين هذه الآراء يُحال إلى موطن آخر.

البحث الروائيّ

١. الكفر والاستكبار، أول ذنب:

ـ عن... قال: سألت ابا الحسن عليه السلام عن الكفر والشرك أيّهما اقدم؟ قال فقال لي: **ما عهدي بك تخاصم الناس** (ما كنت اظنّ انّك تخاصم الناس) قلت: أمرني هشام بن سالم أن اسألك عن ذلك. فقال لي: **الكفر اقدم وهو الجحود.** قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾.[2]

---

١. معنى بيت شعري في الغزل العرفاني للشاعر حافظ الشيرازي من كتاب ديوان حافظ، الغزل المرقّم ٤٢٨.

٢. **البرهان**، ج ١، ص ٧٩، ح ١٧ وص ٧٦، ح ٢، **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٣، ح ١٩؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٧، ح ٩٩.

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام **انّ أول كفر كفر بالله حيث خلق الله آدم، كفر ابليس حيث ردَّ على الله أمره.**[1]

ـ عن مسعدة بن صدقة قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام وسُئل عن الكفر والشرك أيّهما اقدم؟ فقال: **الكفر أقدم وذلك أنّ ابليس أول من كفر، وكان كفره غير شرك لانّه لم يدع إلى عبادة غير الله، وانّما دعا إلى ذلك بعدُ فأشرك.**[2]

ـ عن الصادق عليه السلام: **أول من قاس ابليس واستكبر والاستكبار هو اوّل معصية عصي الله بها.**[3]

اشارة أ: باسناد اول ذنب إلى ابليس يتبيّن ان ما صدر قبله من الملائكة كان سؤالاً استفهامياً لا يشوبه ايّ شيء من المعصية.

ب: ان استكبار ابليس واباءه كان مسبوقاً بالكفر الخفيّ، ولذلك لم يُعدّ الإباء والاستكبار اول ذنب، بل اعتُبر الكفر هو الذنب الاول.

ج: حيث انّ اول ذنب هو كفر ابليس، اذاً فالكافر الأول هو ابليس.

د: المقصود من الذنب الأول، هو اول ذنب بلحاظ الجيل الحاضر المنتهي إلى آدم وحواء لا بلحاظ جميع العصور الأعم من الماضية والحاضرة.

٢. تكبّر ابليس على آدم عليه السلام

ـ عن الباقر عليه السلام... **فخلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوّراً، فكان يمرُّ به ابليس اللعين فيقول: لأمر ما خلقت؟**

---

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ٧٩، ح ١٥؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٢، ح ١٧.

٢. **البرهان**، ج ١، ص ١٧٠، ح ٣؛ **الكافي**، ج ٢، ص ٣٨٦.

٣. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٣؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ٧٧، ح ٥.

فقال العالم: **فقال ابليس لعنه الله لئن أمرني الله بالسجود لهذا لأعصينّه...**[1]

ـ لما خلق الله آدم ألقى جسده في السماء لا روح فيه. فلمّا رأته الملائكة راعهم ما رأوه من خلقه. فأتاه ابليس، فلمّا رأى خلقه منتصباً، راعه فدنا منه فنكته برجله، فصلّ آدم فقال: هذا اجوف لا شيء عنده.[2]

اشارة: انّ الأنانيّة وعبودية الذات والهوى عند ابليس كانت هي الأساس في صدور الأمر والنهي الخاص. فمن يتخذ هواه الهاً ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[3] فانّه يكتب شريعة مشؤومة طبقاً لما يُمليه هواه، والأمر الذي صدر من وحي هوى ابليس هو أن يقول ﴿**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾[4] والنهي الذي انزله عليه إله الهوى هو أن لا يمتثل أمر الله. وترك اطاعة أمر الله سبحانه قد اقترن برذيلتين اخريين: إحداهما الاستكبار على الله، والاخرى التكبر في مقابل آدم، وما تقدم حول الكفر الخفيّ في ابليس فانّ مقدماته قد استنبطت من الحديث المذكور.

٣. تحليل حول سجود الملائكة لآدم عليه السلام

ـ عن الحسين بن علي عليه السلام... **ولئن أسجد الله لآدم ملائكته فانّ سجودهم لم يكن سجود طاعة (والاّ لكانوا) عبدوا آدم من دون الله عزّ وجلّ ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له ومحمد** صلى الله عليه وآله **اعطي ما هو افضل من**

---

١. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤١.
٢. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١١٩.
٣. **سورة الجاثية**، الآية ٢٣.
٤. **سورة الأعراف**، الآية ١٢.

هذا. انّ الله عزّ وجلّ صلّى في جبروته والملائكة بأجمعها وتعبّد المؤمنون بالصلاة عليه فهذه زيادة له.[1]

ـ عن الرضا عليه السلام... **انّ الله تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا واكراماً، وكان سجودهم لله تعالى عبودية ولآدم اكراماً وطاعة لكوننا في صلبه، فكيف لا نكون افضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلّهم اجمعون.**[2]

ـ عن ابن عباس: أمرهم أن يسجدوا فسجدوا له كرامة من الله اكرم بها آدم.[3]

ـ عن العسكري عليه السلام: **ولم يكن سجودهم لآدم انّما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عزّ وجلّ، وكان بذلك معظّماً مبجّلاً ولا ينبغي لأحد أنْ يسجد لأحد من دون الله يخضع له خضوعه لله...**[4]

اشارة أ: الخضوع المقترن بالاعتقاد بالربوبيّة والالوهية هو العبادة، وهذا المعنى غير مأخوذ في حقيقة السجود، وعليه فانّ السجود بذاته لا يكون عبادة.

ب: سجود الملائكة لآدم لم يكن طاعة ولا عبادة له، بل كان طاعة لله وعبادة له، وان كان لآدم اكراماً وتعظيماً.

ج: اعلى درجات السجود، وكذلك سجود المقرّبين، يتمُّ بلحاظ اعلى درجات الانسان الكامل، والذي مثاله ومصداقه اهل البيت المعصومون عليهم السلام.

---

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٨، ح ١٠٠؛ **الاحتجاج**، ج ١، ص ٤٩٨.
٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٨؛ **عيون اخبار الرضا**، ج ١، ص ٢٣٨.
٣. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٣.
٤. **التفسير المنسوب للإمام العسكري**، ص ٣٠٤؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٨٢، ح ٦.



د: انّ ما ذكر من جعل آدم قبلة، فالغرض منه دفع شبهة احتمال العبادة والاّ فانّ آدم كان مسجوداً له ولم يكن مسجوداً إليه. نعم السجود العبادي لا يصح الاّ لله سبحانه.

٤. خضوع الملائكة أمام الانسان الكامل

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: لمّا اسري برسول الله صلى الله عليه وآله وحضرت الصلاة، أذّن جبرئيل واقام الصلاة فقال: يا محمد تقدم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: تقدّم يا جبرئيل، فقال له: انّا لا نتقدم على الآدميين منذ امرنا بالسجود لآدم.[1]

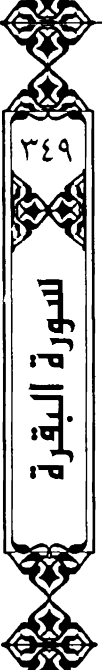
اشارة أ: لم تكن قصة آدم بعنوان قضية شخصية زمانية، بل انّها ميزان لاظهار خضوع وطاعة الملائكة في حضرة الانسان الكامل أو المتكامل وتمرد ابليس وقطعه الطريق على السالكين نحو قمم الكمال الانساني. ولذلك دأب الملائكة على تكريم وخدمة افراد الانسانية العالين والمتسامين والاحسان إليهم، وما برح الشيطان وذريته في صدد الافساد والهدم والتهديد والتخويف، واغواء واضلال السالكين المنحرفين.

ب: ما ينقل في قصة الإسراء والمعراج فهو يستند إلى الأصل المذكور، ولذلك ذكر بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار حيث قال: «انّا لا نتقدم».

ج: انّ عرض الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الإمامة على جبرئيل، لا لأجل تصحيح تقديم المفضول على الفاضل، بل هو نحو من التربية الخلقية وتعليم أدب التعامل.

---

١. **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٩؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٨، ح ١٠٣.



د: كلام جبرئيل، فيه عموم تحليلي، اي انّ كل واحد منّا لا يتقدّم على الفرد الانساني الذي هو اعلى منّا، لانّه كما انّ الأنبياء والمرسلين لهم درجات، فالملائكة ايضاً لديهم مراتب ﴿**وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**﴾[1] والناس المؤمنون الرساليون، والذي يسعون في منازل الكمال الإلهي بين الخوف والرجاء والقبض والبسط، هم ايضاً لديهم مراتب ﴿**لَهُمْ دَرَجَاتٌ**﴾،[2] ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ**﴾[3] ولذلك فانّ توزيع مراتب الملائكه و تقسيم درجات الناس ملحوظ تماماً في مضمار التقدّم والتأخر.

هـ: ظاهر الحديث الأخير هو عدم خروج الملائكة المقرّبين من الأمر بالسجود.

٥. كيفيّة الخطاب والأمر بالسجود:

سئل الصادق عليه السلام عمّا ندب الله الخلق اليه أدَخَلَ فيه الضُّلاّل؟ قال عليه السلام: نعم والكافرون دخلوا فيه. لانّ الله تبارك وتعالى امر الملائكة بالسجود لآدم فدخل في أمره الملائكة وابليس. فانّ ابليس كان مع الملائكة في السماء يعبد الله، وكانت الملائكة تظن انّه منهم ولم يكن منهم... فقيل له: كيف وقع الأمر على ابليس وانّما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ فقال: كان ابليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة.[4]

١. سورة الصافات، الآية ١٦٤.
٢. سورة الأنفال، الآية ٤.
٣. سورة آل عمران، الآية ١٦٣.
٤. تفسير القمي، ج ١، ص ٣٥؛ البرهان، ج ١، ص ١٧٠، ح ٤؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٦، ح ٩٣.

ـ عن جميل: كان الطيار يقول لي: ابليس ليس من الملائكة، وانّما أمرت الملائكة بالسجود لآدم! فقال ابليس: لا اسجد. فما لابليس يعصي حين لم يسجد وليس هو من الملائكة؟ فدخلت أنا وهو على ابي عبد الله عليه السلام قال فأحسن والله في المسألة! فقال: جعلت فداك! ما ندب الله عزّ وجلّ اليه المؤمنين من قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أدخل في ذلك المنافقون معهم؟ قال: نعم والضلاّل وكلّ من اقرّ بالدعوة الظاهرة وكان إبليس ممّن أقرّ بالدعوة الظاهرة معهم.[1]

ـ عن ابن عباس... ثم قال للملائكة الذين كانوا مع ابليس خاصة دون الملائكة الذين في السماوات ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾.[2]

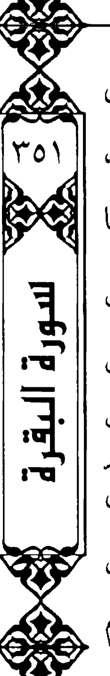
ـ خلق الله آدم في سماء الدنيا وانّما اسجد الله له ملائكة سماء الدنيا ولم يسجد له ملائكة السماوات.[3]

اشارة أ: لا محذور في مقام الثبوت من تكليف الكافر والمنافق والعاصي، لانّ جميع هؤلاء يتمردون على الأوامر الإلهية مع الاختيار، لا بالاضطرار والاجبار، واثبات التكليف على هؤلاء يحتاج في كل مورد إلى دليل لفظي أو لبّي، وتوجد في الكتاب والسنّة ادلة لفظيّة ولبيّة معتبرة تدل على الاشتراك في التكليف بين المطيع والعاصي، المؤمن والكافر، المخلص والمنافق.

ب: تكليف ابليس تارة يطرح في ضمن شموله بالأمر المتعلّق

---

۱. **تفسير البرهان**، ج ۱، ص ۱۷۵، ح ۷؛ **الكافي**، ج ۲، ص ٤۱۲.
۲. **الدر المنثور**، ج ۱، ص ۱۱۲.
۳. **الدر المنثور**، ج ۱، ص ۱۱۹.



بالملائكة كما في قوله تعالى ﴿**قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ**﴾ وتارة اخرى يذكر بنحو مستقل، لكنّ اثبات الأمر الاستقلالي يحتاج إلى دليل معتبر، واستفادة ذلك من الآية الكريمة ﴿**إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾[1] ليس بالأمر السهل. وما يستفاد من الحديث المذكور هو وحدة الأمر واندراج ابليس في ضمن ذلك الأمر الواحد الموجّه للملائكة، لكنّ سند مثل هذه الأخبار ليس متقناً. واذا كان لا يُمكن اثبات مقاصد القرآن في مجال المعارف العقائدية وامثالها بواسطة الخبر الواحد، فانّ اثباتها بالأخبار التي هي اقلّ اعتباراً من الأخبار الآحاد، سوف يكون صعباً بطريق اولى. والحالة التي يمكن فيها رفع اليد عن عموم واطلاق عنوان الملائكة هي ما اذا قام دليل معتبر على الاختصاص بملائكة السماء الدنيا.

٦. محل سجود الملائكة:

ـ عن امير المؤمنين عليه السلام: أول بقعة عبد الله عليها ظهر الكوفة، لمّا أمر الله الملائكة أن تسجدوا لآدم، سجدوا على ظهر الكوفة.[2]

اشارة: انّ اثبات المعارف غير الفقهية بالخبر المسند صعبة، فكيف بالخبر المرسل. وما يمكن أن تحمل عليه مثل هذه الأحاديث على فرض اعتبارها هو التمثّل، اي انّ خضوع الملائكة في مقابل الانسان الكامل تمثّل بصورة السجود في مكان معيّن وزمان خاص. ومن جهة اخرى يمكن النظر إلى المكان والزمان المعيّنين على انهما مظهران لما

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٢.

٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٣، ح ١٨.



وقع في عالم الملكوت، ولأجل ذلك تكتسب بعض الأماكن والأوقات شرفاً واحتراماً وبركة خاصة.

٧. ماهية ابليس وسابقته:

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام:... **فانّ ابليس كان مع الملائكة في السماء يعبد الله وكانت الملائكة تظن انّه منهم ولم يكن منهم. فلمّا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، اخرج ما كان في قلب ابليس من الحسد، فعلمت الملائكة عند ذلك انّ ابليس لم يكن منهم. فقيل له عليه السلام: فكيف وقع الأمر على ابليس وانّما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ فقال عليه السلام: كان ابليس منهم بالولاء ولم يكن من جنس الملائكة، وذلك انّ الله خلق خلقاً قبل آدم، وكان ابليس منهم حاكماً في الأرض، فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله الملائكة فقتلوهم وأسروا ابليس ورفعوه إلى السماء، فكان مع الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله تبارك وتعالى آدم.**[1]

ـ عن العالم عليه السلام:... **فخلق الله آدم فبقي اربعين سنة مصوّراً، وكان يمرّ به ابليس اللعين فيقول: لأمر ما خلقت! لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته.**[2]

ـ عن جميل بن دراج: سألت ابا عبد الله عليه السلام عن ابليس، أكان من الملائكة أو كان يلي شيئاً من أمر السماء؟ فقال: **لم يكن من الملائكة، ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء ولا كرامة.**[3]

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٦، ح ٩٣؛ **تفسير القمي**، ج ١، ص ٣٥.
٢. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤١؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٦.
٣. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٧، ح ١٣؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥١.

ـ عن الصادق عليه السلام: انّ الملائكة كانوا يحسبون أنّ ابليس منهم، وكان في علم الله انّه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحميّة والغضب فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.[1]

ـ عن امير المؤمنين عليه السلام:... وسأله عن اسم ابليس، لمّا كان في السماء، فقال: كان اسمه الحارث. وسأله عن اول من كفر وانشأ الكفر، فقال: ابليس لعنه الله.[2]

ـ عن الرضا عليه السلام: انّ اسم ابليس الحارث، وانّما قول الله عزّ وجلّ: يا ابليس، يا عاصي وسمّي ابليس لانّه ابلس من رحمة الله عزّ وجلّ.[3]

ـ الآباء ثلاثة: آدم، ولد مؤمناً والجانّ ولد مؤمناً وكافراً، وابليس ولد كافراً وليس فيهم نتاج، انّما يبيض ويفرخ وولده ذكور ليس فيهم اناث.[4]

ـ ايّاك والغضب فانّه مفتاح لكلّ شرٍّ وانّ ابليس كان مع الملائكة، تحسب انّه منهم وكان في علم الله انّه ليس منهم. فلمّا أمر بالسجود لآدم، حمي وغضب، فأخرج الله ما كان في نفسه بالحميّة والغضب.[5]

ـ عن الباقر عليه السلام في جواب السائل بقوله: لِمَ سُمّي ابليس ابليس؟ قال: لانّه أبلس من رحمة الله عزّ وجلّ فلا يرجوها.[6]

ـ عن ابن عباس: كان ابليس من حيّ من أحياء الملائكة، يقال

---

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٧، ح ٩٧؛ **الكافي**، ج ٢، ص ٣٠٨.
٢. **عيون اخبار الرضا**، ج ١، ص ٢١٩؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٧.
٣. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٧، ح ١٢؛ **معاني الأخبار**، ص ١٣٨.
٤. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٩، ح ١٠٩؛ **كتاب الخصال**، ص ١٥٢.
٥. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٥، ح ٨
٦. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٥؛ **الاحتجاج**، ج ٢، ص ١٨٧.

لهم الجنّ، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث فكان خازناً من خزّان الجنّة، وخلقت الملائكة كلهم من نور، غير هذا الحيّ... فأول من سكن الأرض الجنّ فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتلوا بعضهم بعضاً، فبعث الله إليهم ابليس في جند من الملائكة فقتلهم حتى الحقهم بجزائر البحور واطراف الجبال. فلمّا فعل ابليس ذلك اغترّ بنفسه وقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. فاطّلع الله على ذلك من قلبه ولم تطّلع عليه الملائكة، فقال الله للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ فقالت الملائكة ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ كما افسدت الجنّ. قال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾؛ انّي قد اطّلعت من قلب ابليس على ما لم تطّلعوا عليه من كبره واغتراره.[1]

ـ عن ابن مسعود: لما فرغ الله من خلق ما احبّ، استوى على العرش فجعل ابليس على ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجنّ وانّما سمّوا لانّهم خزائن الجنة وكان ابليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره كبر، وقال: ما أعطاني الله هذا الاّ لمزيد أو لمزيّة لي، فاطّلع الله على ذلك منه، فقال للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ قالوا ربّنا ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء...**﴾ قال ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.[2]

ـ ... وكان ابليس اميراً على ملائكة سماء الدنيا، فاستكبر وهمّ

---

١. الدرّ المنثور، ج ١، ص ١١١.

٢. الدرّ المنثور، ج ١، ص ١١٢.

بالمعصية وطغى، فعلم الله ذلك منه، فذلك قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وانّ في نفس ابليس بغياً.[1]

ـ عن النبي ﷺ: ان الله لمّا اراد أن يخلق آدم... ثم دعا ابليس واسمه يومئذ في الملائكة حباب، فقال له: اذهب فاقبض لي من الأرض قبضة، فذهب حتى أتاها. فقالت مثل ما قالت للذين من قبله من الملائكة. فقبض منها قبضة، ولم يسمع لحرجها. فلمّا أتاه قال الله تعالى: ما أعاذت بأسمائي منك؟ قال: بلى، قال: فما كان من اسمائي ما يعيذها منك؟ قال: بلى ولكن امرتني فأطعتك، فقال الله: لأخلقن خلقاً منها يسوء وجهك...[2]

اشارة أ: مع غض النظر عن الارسال وضعف السند ومع الاغماض عن صعوبة اثبات المعارف غير الفقهية بواسطة مثل هذه الأخبار والروايات، فانّ بعض المفسّرين كالطبري وصاحب (**المنار**) يرون بانّ الاختلاف بين الملَك والجنّ، هو صنفيٌّ وليس نوعيّاً. وعليه، فانَّ ابليس وان كان يعتبر من الجنّ، لكنّه من نوع الملك.[3] والبعض يرون انّ الاختلاف بينهما ماهوي ونوعي، ولكنّهم يعتبرون ابليس من نوع الملائكة، ويستدلون على ذلك بأمر الملائكة بالسجود وامتثالهم باستثناء ابليس، حيث يعتبرون الاستثناء متصلاً، ويفسرون قوله تعالى ﴿... كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[4] بحمل الجنّ على المعنى الجامع للجنّ الشامل لكلّ موجود مغطّى ومستور ومخفي. كما

١. الدرّ المنثور، ج ١، ص ١١٣.
٢. الدرّ المنثور، ج ١، ص ١١٩.
٣. جامع البيان، ج ١، ص ٢٩٨، تفسير المنار، ج ١، ص ٢٦٥.
٤. سورة الكهف، الآية ٥٠.



ويستعينون ايضاً بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّة نَسَبًا**﴾[1] بهذا النحو حيث يقولون: انّ المشركين كانوا يزعمون انّ الملائكة بنات الله، ولهذا قالوا: انّ بين الله والملائكة نسباً، واطلقوا على المَلَك اسم الجنّ، وذلك لانّه لم يتوهّم أحد انّ الجنّ بنات الله. اذن فالجنّ معنى جامع، وقابل للجمع مع الملائكة ويطلق الجنّ ايضاً على الشيطان كما في قوله تعالى ﴿**مِنَ الْجِنَّة وَ النَّاسِ**﴾.[2] وتفصيل هذا البحث يمكن تتبعه في تفسير الفخر الرازي.[3]

ب: انّ الأخبار والروايات الواردة في بيان ماهية ابليس ليست متشابهة، لكن حيث انّ المرجع النهائي في مثل هذه الموارد هو القرآن الكريم، وظاهر الآية الكريمة ﴿... **كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ هو انّ ابليس من سنخ الجنّ، والمعنى الجامع الذي يستفاد من آيات القرآن هو الاختلاف الماهوي بين الملَكَ والجنّ، والتباين الموجود بين آثار وافعال الاثنين، يؤيّد التباين الماهوي بينهما، لذلك فانّ القول بانّ ابليس من الجنّ وانّه مغاير لنوع الملائكة، اقرب إلى الواقع.

ج: انّ اختلاف أسماء ابليس في السماء عمّا هي في الأرض، لا تأثير له على تغيير ماهية ابليس، كما انّ كون كلمة ابليس عربية، أمر مشكوك فيه، وان ذكر في بعض الأخبار المرسلة، انّ وجه تسميته بإبليس، هو ابلاسه ويأسه من الرحمة الإلهيّة.

---

١. **سورة الصافات**، الآية ١٥٨.

٢. **سورة الناس**، الآية ٦.

٣. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ١، ص ٢٣٢.

٨. إمهال الله ابليس:

ـ عن زرارة عن ابي عبد الله عليه السلام: بماذا استوجب ابليس من الله أن اعطاه ما اعطاه؟ فقال: **شيء كان منه، شكره الله عليه.** قلت: وما كان منه جعلت فداك؟ قال: **ركعتين ركعهما في السماء أربعة آلاف سنة.**[١]

ـ عن ابن عباس: كان ابليس اسمه عزازيل، وكان من اشرف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة ثمّ ابلس بعد.[٢]

ـ كان ابليس قبل أن يركب المعصية، من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض، وكان من اشد الملائكة اجتهاداً واكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر وكان من حيّ يسمّون جنّا.[٣]

ـ كان ابليس من خزّان الجنّة وكان يدبّر أمر السماء الدنيا.[٤]

ـ كان ابليس من اشرف الملائكة من اكبرهم قبيلة وكان خازن الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض. فرأى انّ لذلك له عظمة وسلطاناً على أهل السماوات، فأضمر في قلبه من ذلك كبراً لم يعلمه الاّ الله، فلمّا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم خرج كبره الذي كان يسر (ستر).[٥]

ـ عن النبي صلى الله عليه وآله: **انّ الله أمر آدم بالسجود فسجد، فقال: لك الجنّة ولمن**

---

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٧٤، ح ٦؛ **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٢.

٢. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٢٣.

٣. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٢٤.

٤. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٢٤.

٥. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٢٤.

سجد من ذريّتك، وأمر ابليس بالسجود فأبى أن يسجد، فقال: لك النار ولمن أبى من ولدك أن يسجد.[١]

ـ عن ابن عمر: لقي ابليس موسى فقال: يا موسى! أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وكلّمك تكليماً اذ تبت وأنا اريد أن أتوب. فاشفع لي إلى ربّي أن يتوب عليّ. قال موسى: نعم، فدعا موسى ربّه، فقيل يا موسى! قد قضيت حاجتك. فلقي موسى ابليس، قال: قد امرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك. فاستكبر وغضب وقال: لم اسجد له حيّاً، أسجد له ميّتاً؟[٢]

ـ عن النبي صلى الله عليه وآله: **انّ الله عزّ وجلّ حين أمر آدم أن يهبط، هبط آدم وزوجته وهبط ابليس ولا زوجة له وهبط الحيّة ولا زوج لها. فكان أول من يلوط بنفسه ابليس لعنه الله فكانت ذريته من نفسه.**[٣]

ـ كان ابليس اوّل من تغنّى وأول من ناح وأول من حدا لمّا أكل من الشجرة تغنّى فلمّا هبط حدا فلمّا استقر على الأرض ناح يذكره ما في الجنّة.[٤]

اشارة أ: ليس من اليسير توجيه بعض الأخبار على الرغم من غض النظر عن سندها، فمثلاً تعليل اعطاء الله سبحانه المهلة لابليس بانّه مكافأة له في مقابل ركعتين متميزتين صلاهما، فهذا موضع تأمّل، حيث لا ابليس عبد الله عبادة خالصة، ولا الله سبحانه أحسن إليه بهذا، اذ انّ امهاله لإغواء واضلال الناس كان انتقاماً منه ولم يكن نعمة عليه.

---

١. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ٢١٥.
٢. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٢٥.
٣. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٦، ح ١٣٧؛ **علل الشرائع**، مج ١، ج ٢، ص ٢٦٧.
٤. **البرهان**، ج ١، ص ١٩٢، ح ١٧؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٨.



ب: القول بان تناسل ابليس قد تمّ من نفسه بغير نكاح واتخاذ امرأة، يحتاج إلى تأمل زائد وتكلّف شديد، كما انّ نسبة اول غناء وحداء ونياحة إلى ابليس يحتاج إلى دليل معتبر، وان كان الاعتبار يناسب ما جاء في الحديث المذكور.

٩. طريقة وأدب العبادة والعبودية:

ـ عن الصادق ﷺ: **قال ابليس: ياربّ اعفني من السجود لآدم، وانّما أعبدك عبادة لم يعبدكها ملَكَ مقرب ولا نبيّ مرسل. فقال الله تبارك وتعالى: لا حاجة لي إلى عبادتك. أنا اريد أن أُعبد من حيث اريد لا من حيث تريد.** [1]

اشارة: انّ تعيين الطريق وتشخيص الاسلوب للعبودية هو كأصل العبوديّة يكون بيد المعبود، لا العبد. والذي يرى لنفسه طريقاً خاصاً واسلوباً معيّناً لعبادة الله، فانّه قد اوقع نفسه في الشرك العلني وابتُلي بتعدد الآلهة، لانّه أوكل ما هو شأن الله سبحانه إلى هوى نفسه، ومثل هذا الفرد قد اتخذ الهه هواه، وطبقاً للحديث المذكور، فان ابليس ايضاً كان قد ابتلي بهذه الثنوية والشرك. وقد تقدّم بعض هذه المسائل في بحث لطائف وإشارات.

---

١. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٢؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٧٤.

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

خلاصة التفسير

هذه الآية تشير إلى المرحلة التعليمية والتمهيدية لآدم كي يبدأ الحياة في الأرض. وتشير أيضاً إلى كون المعصية امراً طبيعياً للانسان وإلى الآثار الوضعية للمعصية.

والمقصود من (**الجنّة**) ليس هو جنّة الخلد ولا هي بستان من بساتين الأرض، كما انّ الألف واللام في (**الجنّة**) هما للعهد الخارجي، لا للجنس أو الاستغراق. وهذا يعني انّ هذه الجنّة جنّة برزخية وما بين الدنيا والآخرة، فهي تتصف ببعض مواصفات جنّة الآخرة كالسرور الدائم وعدم وجود آلام الجوع والعطش والبرد والحر، كما انّ فيها بعض مواصفات الدنيا. فهي الجنّة التي قد وعد بها آدم والمعهودة بالنسبة إليه والتي لم يكن محلّها في الأرض.

والمقصود من «الأكل» في قوله ﴿وَكُلاَ مِنْهَا﴾ ليس خصوص تناول الطعام، بل هو كناية عن مطلق التصرف.

والنهي عن القرب، في جملة ﴿لاَ تَقْرَبَا﴾ كناية عن النهي عن الأكل أو مطلق التصرف، وهو بمنزلة التقييد لإطلاق اباحة الأكل، والتعبير بالقرب هنا يُشبه قوله تعالى ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾[1] للدلالة على اهميّة المسألة، كما انّ النهي ارشادي، وليس مولوياً وتشريعياً، حتى يبحث في حرمته أو كراهته، أو انّه ينافي او لا ينافي عصمة الأنبياء.

والشجرة الممنوعة ليست كأشجار الدنيا حتى تكون ذات ثمرة واحدة، بل نظراً لكونها برزخية، فلها القابلية على انتاج العديد من الثمار، كما انّها تمتاز بالتنوّع من جهة اخرى ايضاً، فهي تحتوي على الثمر المادي وغذاء الجسم، وعلى الثمر المعنوي وغذاء الروح ايضاً. والميزة الاخرى لهذه الشجرة هي انّها خاصة بمحمّد وآل محمد (صلى الله عليهم اجمعين) وليس للآخرين طريق إليها الاّ باذن الله. ومن اذن الله له وتناول منها فانّه يحصل على علم الأولين والآخرين، ومن تناول منها بغير اذن الله فانّه عصى ربّه ولم يبلغ مراده وأمله.

﴿الظَّالِمِينَ﴾ في هذه الآية بمعنى الظلم لا بمعنى الظلام، كما انّ المظلوم فيها هو نفس آدم وحواء، أي انّ المقصود من الظلم هو ظلم النفس (والذي استعمل في معناه اللغوي، اي مطلق النقص والحرمان) لا ظلم الله ولا ظلم الآخرين.

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

التفسير

قلنا: جاءت (**قلنا**) بصيغة المتكلم مع الغير لأجل التفخيم والتعظيم، وحسب الاصطلاح فانّ ضمير «نا» للعظمة، لا للجمع. كما ويمكن أيضاً ان يكون بهذا الاعتبار وهو انّ مدبّرات الأمر كانت واسطة في ابلاغ هذا الأمر وكأنّ الله سبحانه يقول: انّا والملائكة قلنا لآدم كذا.

اسكن: السكن في (اسكن) يعني ما يقابل الاضطراب الحاصل من حالة فقدان المأوى وامثالها وهو بمعنى الاطمئنان، وليس بمعنى ما يقابل الحركة. وجملة «اسكنا هنا» بمعنى كونا في الجنّة مرتاحين فارغي البال، كما في أمر الله تعالى لنبيّه بأن يأخذ الزكاة من الناس ويدعو لهم لانّ دعاءه مصدر راحة واطمئنان لهم ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**﴾،[1] وكقوله تعالى ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ**﴾[3] والآية ١٠٤ من سورة (الاسراء)، وليس السكن هنا من سنخ ﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ**﴾[4] بمعنى عدم الحركة.

تنويه: بعض المفاهيم كمفهوم (الخلود) تفيد معنى الاستمرار والدوام، وبعض المفاهيم لا تتنافى مع معنى الاستمرار، مثل (اللبث)،

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٣.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٨٩.

٣. سورة الأعراف، الآية ١٦١.

٤. سورة الشورى، الآية ٣٣.

و(المكث)، و(الاقامة)، لكن هناك بعض المفاهيم قال بعض المفسرين انّها منافية للدوام والاستمرار ومستلزمة للانقطاع؛ مثل (السكنى) الذي يعني انّ له نهاية محددة، ويستلزم خروج الساكن من المسكن المألوف. كما انّ اصطلاح (السكنى) في مقابل (الرقبى) و(العُمرى) في الفقه هو كذلك؛ لأنّه في (السكنى) تكون الدار السكنية ليست ملكاً للساكن، ويتعيّن عليه أن يتركها بعد فترة معيّنة. وبناء على ذلك فانّ أمر (**اسكن**) يقترن بانذار ضمني بالخروج من الجنّة، لانّ دخول آدم وحواء إلى الجنّة كان من سنخ السكنى لا من قبيل الاقامة.[1]

والذي يبدو لنا هو: **اوّلاً**: لا ينبغي فرض الاصطلاحات الفقهية على المعاني التفسيرية المتداولة، واعتبار أمر (**اسكن**) متناسباً مع السكنى المعروفة في الفقه وبلا قرينة.

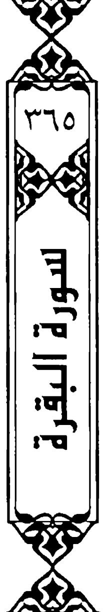
ثانياً: اذا كانت بعض الاستعمالات لا تفيد معنى الاستمرار والبقاء، فذلك ليس لأجل انّ الانقطاع والخروج وامثال ذلك مأخوذ في معنى السكنى، أو هو من لوازم الوجود الخارجي لمصداقها، بل هو من قبيل خصوصية المورد.

ثالثاً: لقد اطلق عنوان المسكن على الجنّة الخالدة والأبدية كما في قوله تعالى ﴿**وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ**﴾[2] ومعلوم بانّ المسكن العَدْن هو الذي يبقى فيه ساكنه دائماً.

---

١. راجع: **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٨٣.

٢. **سورة الصف**، الآية ١٢.



زوجك: انّ التعبير بـ(الزوج) بدلاً من (الزوجة) (مع انّ المقصود هو «حواء» زوجة آدم) لأجل انّ كلمة الزوج أفصح من الزوجة (على الرغم من انّ الطبري يقول: انّ اكثر العرب يستعملونها مع الهاء)[1] والفصحاء يسمّون الزوج المؤنّث زوجاً لا زوجة، لانّ هذه الكلمة اسم وليست صفة، لذلك لا تقبل علامة التأنيث، ومن هذا الباب فقد انتُقد الفرزدق لأنّه استعمل في شعره كلمة (زوجة).[2]

واطلاق عنوان الزوج على الرجل الزوج باعتبار ان الرجل والمرأة كليهما، وبانضمام احدهما إلى الآخر يكوّنان زوجاً. وبهذا اللحاظ فانّ جمع الزوج المؤنث في القرآن هو «أزواج» بهيئة جمع التكسير، لا زوجات، كما في قوله تعالى ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾.[3]

تنويه: لم يذكر اسم زوج آدمعليه السلام اي حوّاء في القرآن، وانّما ذكر في الروايات، وذكرت فيها وجوه لهذه التسمية.[4]

رَغَداً: كلمة (**رغداً**) عند بعض المفسّرين بمعنى (واسعاً هنيئاً)؛[5] وعند بعض اللغويين بمعنى (طيّباً واسعاً)؛[6] اي انّها تتضمّن مفهومي السعة (الكثرة) والهناء.

طبعاً يوجد هنا احتمالان حول «**رغداً**»: احدهما: أنّها صفة لموصوف

---

١. **جامع البيان**، ج ١، ص ٣٠٢.

٢. **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤١٤.

٣. **سورة البقرة**، الآية ٢٥.

٤. **علل الشرائع**، ج ١، ص ١٢؛ **بحار الأنوار**، ج ١٠، ص ١٣، ج ١١، ص ١٠٠.

٥. راجع: **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٧٣؛ **تفسير الماوردي**، ج ١، ص ١٠٥.

٦. **معجم مقاييس اللغة**، «ر غ د».

مقدّر هو كلمة «أكلاً» اي (أكلاً رغداً)، والاحتمال الآخر: أنّها مصدر بمعنى اسم الفاعل وبالنتيجة فهي حال لفاعل «كُلا» بمعنى (كُلا منها راغدين حيث شئتما) اي كُلا من أيّ مكان أردتم في الجنّة وانتم في حال الرفاه والهناء.

وقد ذكر كلا هذين الاحتمالين كثير من المفسّرين، لكنّ البعض رجّحوا الاحتمال الثاني، لظنّهم بانّ (الرغد) بمعنى الرفاه والتنعّم في العيش وانّ الرفاه الحقيقي صفة للآكل لا للأكل.[1]

في حين انّ اول موصوف يلاحظ في كتب اللغة لصفة (رغد) هو كلمة (عيش)، فيقال: (رغُدَ العيش: اتّسع ولان)[2] و«عيش رَغَدٌ ورغيد اي طيّب واسع».[3] كذلك استعملت كلمة «رغد» في القرآن في مجال الرزق في قوله تعالى ﴿**يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ**﴾[4] وأيّ فرق بين الموصوفات الثلاثة، «العيش»، «الرزق» و«الأكل» في الاتصاف بصفة «الرغد» فكما يقال (عيش طيّب وهنيء) أو (رزق واسع وهنيء) كذلك يقال: (أكل طيّب وهنيء) (كما يقال في كلام العرف: كُل هنيئاً لك)، (اي ليكن هذا الأكل هنيئاً لك). مضافاً إلى ذلك، كما انّ كون الموصوف مقدّراً خلاف الظاهر، كذلك فانّ القول بكون المصدر بمعنى اسم الفاعل هو خلاف الظاهر أيضاً.

وعلى كل تقدير فانّ معنى جملة ﴿**وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ هو كُلا من ايّ مكان اردتما واسعاً وهنيئاً.

---

١. **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، «ر غ د».
٢. **المصباح المنير**، «ر غ د».
٣. **معجم مقاييس اللغة**، «ر غ د».
٤. **سورة النحل**، الآية ١١٢.

حيث: كلمة (**حيث**) ظرف مكان، في مقابل كلمة (حين) التي هي ظرف زمان، و﴿**حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ بمعنى من أيّ مكان اردتما، وليس بمعنى «بأيّ شكل أردتما».

نعم، اذا كانت هناك قرينة، ولاسيّما في الموارد التي تكون فيها حيث مسبوقة بكلمة (**مِنْ**)، فانّه يمكن أن تكون حيث بمعنى (أيّ نحو) أو بمعنى (على النحو الذي) كما في قوله تعالى ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[1] و﴿**وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم**﴾[2] وفي خصوص محل البحث يوجد هذا الاحتمال أيضاً، لانّه جاء في سورة الأعراف الآية ١٩ فيما يرتبط بهذه المسألة قوله تعالى ﴿**مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ بحيث اذا قبلنا انّ (**من حيث**) لها ظهور في الحال لا في المكان، فانّ الآية ١٩ من سورة الأعراف تكون قرينة على انّ ﴿**حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ في محل البحث أيضاً تكون بمعنى (اي نحو اردتما) واستثناء شجرة معيّنة من ﴿**حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ قرينة اُخرى ايضاً على ذلك.

لا تقربا: قال بعض المفسّرين المختصّين في مجال الأدب،[3] انّ هناك فرقاً بين «تَقْرَبُ» بفتح الراء و«تَقرُبُ» بضمّ الراء، فالأول بمعنى التلبّس الفعلي بالشيء، والثاني بمعنى القرب إلى الشيء، وحيث انّها قد جاءت في الآية محل البحث بفتح الراء لا بضمّها، فيكون معنى الآية هو النهي عن التلبس الفعلي، وهو نفس الأكل، لا النهي عن

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٨٢؛ **سورة القلم**، الآية ٤٤.

٢. **سورة يوسف**، الآية ٦٨.

٣. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٨٧.

التقرب. وقد أثار هذا القول استغراب البعض الآخرين؛[1] لانّ كلتا الكلمتين هما بمعنى القرب.

فتكونا: «كان» في قوله ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بمعنى صار اي (فتصيرا من الظالمين)، لانّ كلمة «فاء» دليل على ترتب صفة الظلم على الأكل وعدم وجود هذه الصفة في وقت سابق، أي انها دليل على انّ صفة الظلم لم تكن موجودة وحدثت الآن، وانّه قد جرى تغيير حال إلى حال، وهذا هو مفهوم كلمة «صار».

التناسب بين الآيات:

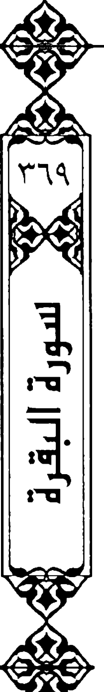
اتّضح من الآيات السابقة انّ آدم قد خلق للسكن في الأرض، وصارت الأرض وعالم المادة والطبيعة بنحو عام سكناً ومكاناً لنشوء ونموّ وتطور وتكامل هذا الخليفة، ومن جهة فانّ الأرض أو العالم المادي يمتاز بخصائص وظروف خاصة بحيث لا يمكن لآدم أو يصعب عليه أن يواجهها دون تمرين واستعداد مسبق واجتياز مرحلة تمهيدية وتدريبية يتعرف آدم فيها على حاجات هذا العالم وما فيه من مواطن النقص والكمال والضعف والقوة وتشخّص له أعداءه من اصدقائه. والآية المذكورة اعلاه والآيات بعدها تشير إلى هذه المرحلة التمهيدية والتمرينية.

كما انّ في هذه الآية وما بعدها من الآيات عزاء للرسول الأكرم ﷺ كي لا يقلق أو يتأذى من كفر الكافرين ونفاق المنافقين ومواقفهم العدائية، لانّ

---

١. **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤١٧ – ٤١٨.





هذه الآيات تدل على انّ الدافع إلى المعصية أمر طبيعي في الإنسان وقد اقترن به منذ ابتداء خلقه، وانّ هذه سنّة إلهية غير قابلة للتغيير.

كما انّ هذه الآيات تريد بيان الآثار الوضعية للمعصية، وهي الشقاء والتعب والهبوط والسقوط، وان رُفعت الآثار التكليفية والعذاب الاخروي (في حالة المعصية المولوية) وبعض الآثار الوضعيّة عند قبول (التوبة).

وعلى كل حال، فانّ هذه الآية تنقسم إلى قسمين: القسم الأوّل، هو الأمر بالسكن في الجنة والتنعم بها، والقسم الثاني، هو النهي الارشادي لله سبحانه.

الأمر بالسكن في الجنّة والتنعّم فيها:

ليس المقصود من (**الجنّة**) الجنس أو الاستغراق، بل هي جنّة خاصة ومعهودة في الخارج، وهناك اقوال عديدة ذكرت حول تلك الجنّة الخاصة، مثل: جنة الخلد، جنّة برزخية، بستان معيّن من بساتين الدنيا، وكذلك توقّف البعض عن تعيين المقصود منها، مع القول بجواز وامكانية اي واحد من الأقوال المذكورة، ولكنّ الذي يبدو لنا هو أنّه ليس المراد منها جنّة الخلد أو جنّة الآخرة، لانّه **اوّلاً**: انّها المحل الذي هو (دار الخلد) وأنّ من يدخل فيه لن يخرج منه أبداً، **ثانياً**: انها واقعة خارج نطاق الشيطان والشيطنة والمعصية وليس للشيطان قدرة على اختراق حريمها والوصول إليها، بل ليس هناك مجال للخيال الباطل اصلاً، وكما قال تعالى في وصفها ﴿**لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ**﴾[1] وانّ افرادها

---

١. **سورة الطور**، الآية ٢٣.

يعيشون فيما بينهم بصفاء تام ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾،[1] وان كان البعض لم يقبل مسألة عدم امكان المعصية في جنّة الآخرة كما سيأتي بحثها ومناقشتها في مبحث لطائف وإشارات.

كما انّ الجنّة المذكورة لم تكن بستاناً من بساتين الدنيا، لأنّه:

اوّلاً: انّ وجود الإنسان في بستان من بساتين الدنيا لا يُعدُّ مقاماً حتى يُتّصور الهبوط والسقوط منه. وفي الدنيا كلّما كانت وسائل الرفاهية اكثر، استطاع الشيطان النفوذ إلى الانسان بسهولة وكانت قدرته على الإغواء اكبر ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ...﴾.[2]

ثانياً: الألف واللام في (**الجنّة**) هما للعهد الخارجي، والدليل على ذلك انّ هذه الجنّة كانت جنّة معهودة لآدم، ولا يوجد في القرآن جنّة معهودة سوى الجنّة المعنوية والاخروية (لا خصوص جنّة الخلد) حتّى تُذكر مع الألف واللام، الاّ في موارد خاصة يوجد فيها عهد ذكري وأمثاله، اي توجد هناك قرينة على انّ المقصود هو جنّة الدنيا كما في قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾.[3]

ثالثاً: المفروض انّ آدم عليه السلام لم ينزل بعد من حياته المعنوية تلك، إلى الأرض (وان كان بدنه في الأرض) حتى يأتيه الأمر بالسكنى في بستان أرضي، وذلك لانّ الهبوط إلى الأرض أساساً يتمّ بعد هذه المرحلة.

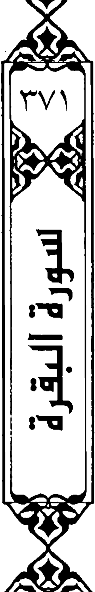
رابعاً: انّ الصفات التي ذكرت لهذه الجنّة، كخلوها من الآلام الداخلية

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٤٣.

٢. **سورة آل عمران**، الآية ١٤.

٣. **سورة الكهف**، الآية ٣٥.



(الجوع والعطش) والآلام الخارجية (البرد والحر)، ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[1] لا تتناسب مع بساتين وحدائق الدنيا، لانّ الانسان في بساتين الدنيا يجوع ويظمأ ولا يرتفع جوعه وظمأه الاّ بتناول الطعام والشراب، كما ويوجد فيها الحرُّ والبرد، ولابدّ للانسان من مأوى يحتمي به عن حرارة الشمس، ولباسٍ يحفظه من البرد، فهذه الصفات الأربع ليست منتفية من الأساس في جنان الدنيا وبساتينها، كما هو الحال في جنّة آدم طبقاً لظاهر هذه الآيات.

ويمكن الإشكال بانّ جملة ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قرينة على انّ الجنّة في الآية، جنّة يُتصور فيها الجوع، لكنّ هذا الجوع يرتفع بسبب توفير انواع الطعام في جميع انحائها، وجعله في متناول يد من يريد الأكل منه، وهذا بنفسه قرينة على انّ ظاهر (ان لا تجوع...) اي انّك بالأكل من ثمار هذه الأشجار لن تبقى جائعاً أبداً.

والجواب على ذلك: انّ اصل تناول الطعام والشراب ليس دليلاً على الجوع والظمأ، لانّه وان كانت جميع لذائذ الطعام والشراب في الدنيا وما في حكمها مسبوقة بألم الجوع والعطش، ولكنّ اللذات في الآخرة أو الجنّة المعنوية الاخرى، مستمرة، وليست مسبوقة بألم الجوع والعطش. وما يظهر من آيات سورة «طه» هو دفع الامور الأربعة المذكورة لا رفعها، أي انّ الأمور المذكورة لا توجد أصلاً في جنّة آدم لا انّها ترتفع بتناول الطعام والشراب.

وعلى كل حال، وبعد أن ثبت انّ هذه الجنة لم تكن جنّة الخلد

---

١. **سورة طه**، الآيتان، ١١٨ – ١١٩.

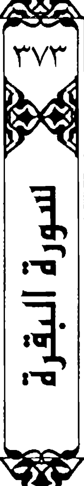
وليست بستاناً من بساتين الدنيا، فهي اذاً جنّة برزخية، أي انّها جنّة ما بين الدنيا والآخرة، بحيث تتصف بجانب من صفات جنّة الآخرة كالسرور الدائم والخلوّ من آلام الجوع والعطش والحرّ والبرد، وفيها ايضاً جانب من صفات جنان الدنيا، وبعبارة اخرى انها لا تتصف ببعض مواصفات جنة الخلد، كالحصانة من الشيطان ووساوسه، لانّ الشيطان وان كان لا سبيل له إلى جنّة الخلد وجنّة اللقاء، ولكنّه يستطيع التسلل إلى الجنان المثالية والبرزخية (وهي الجنان التي تتصف بالجسم والمقدار والشكل والحجم) والوسوسة فيها.

ومن الطبيعي ان لا تكون الأرض محلاً لهذه الجنّة، لانّ الأرض جزء من عالم المادة والدنيا، وهي مرحلة دون عالم المثال، والمفروض هو انّ استقرار آدم في الأرض قد حصل بعد الهبوط من هذه الجنّة كما في الآية الكريمة ﴿**اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾.[1]

تنويه: ١. انّ جنّة آدم اذا كانت جنّة من جنان الدنيا وبساتينها فانّ دخول آدم فيها ببدنه الطبيعي أمر عاديّ وليس فيه ايّ محذور، كما انّ دخول ابليس فيها لا يلزم منه اي اشكال، لكنّ اذا كانت جنّة آدم برزخيّة، فانّ ذلك يثير الكثير من الشبهات التي تقدم ذكر بعضها مع الجواب المناسب عليها في ثنايا البحث السابق، ومن هذه الشبهات انّ آدم كيف دخل إلى البرزخ ببدنه الطبيعي، والبرزخ سواء كان نزولياً أم صعودياً يقع فوق عالم الطبيعة، وان كان بلحاظ الدرجة الوجودية يقع اسفل من جنّة الخلد.

---

١. سورة البقرة، الآية ٣٦.



والجواب على ذلك وفقاً لرأي من يقول بانّ جنّة آدم برزخية ويستبعد حملها على جنّة من جنان الدنيا، هو انّ ورود الانسان إلى البرزخ يكون على نحوين احدهما يحصل بالموت الطبيعي والخروج من دائرة الطبيعة وهذا النحو من الورود البرزخي هو الغالب في الأذهان، والنحو الآخر هو الورود الذي يحصل بغير الموت الطبيعي، وانّما يتحقّق بالموت الارادي والهجرة الاختيارية، وهذا النحو من الورود البرزخي في بعض جوانبه شبيه بالمعراج النبوي للرسول صلى الله عليه وآله لا من جميع الجوانب، اي انّ الإنسان السالك تعرض له حالة احياناً، يرى نفسه وهو في حال الحياة والسلامة واليقظة وقد ورد في مرحلة عالم أعلى من نطاق الطبيعة، حيث هناك توجد الحقائق العينية، لا المتوهمة، وفيها يمكن الوقاية من وسوسة ابليس، كما ان امكان تسلله إلى هناك موجود فيها ايضاً، لانّ تلك المرحلة الوجودية تقع دون مرحلة المُخلَصين، التي لا مجال فيها لتسلل ابليس. وببيان آخر، كما انّ ورود الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الجنّة في المعراج قد حصل له وهو في بدنه الطبيعي، فانّ ورود آدم عليه السلام إلى الجنّة البرزخية قد تم ايضاً ببدنه الطبيعي.

وعلى كلّ تقدير فانّ المفسّر الذي لا يرى محذوراً في حمل جنّة آدم عليه السلام على جنّة من جنان الدنيا وبساتينها ويعتبر صدور بعض الروايات شاهداً على ذلك، يتخلص من مثل هذه الاشكالات العسيرة واجوبتها الصعبة.

٢. وان كانت جنة آدم بنفسها تعتبر مصدراً للسكينة والاطمئنان، حيث ان مقتضى المسكن، لاسيّما اذا كان مقترناً بالعيش المرفّه والرغيد أن يكون عاملاً لايجاد الاطمئنان، لكنّ سكينة آدم وتحرّره من جميع

انواع القلق والاضطراب قد حصل ببناء الأُسرة والبيت الزوجي باقترانه مع المرأة التي كانت اهلاً أن تكون مستودعاً لسرّه، وكما قال الله سبحانه ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[1] ولأجل ذلك فقد ذكر زوجه في الآية محل البحث قبل أن يذكر الاستقرار في الجنّة، وذلك من باب انّ (**الرفيق قبل الطريق**)[2] لينالَ الانسان سكينة الزوجة شريكة الحياة ومستودع الأسرار قبل سكينة الدار والمسكن.

٣. تارة يكون اصل الخطاب موجهاً إلى السكن، فيبيّن لآدم انّ الزوج الرجل مسؤول عن توفير المسكن والنفقة، ومن هذا المنظار يتوجه الخطاب بأمر (اُسكن) وكذلك خطاب التحذير من العواقب الوخيمة لارتكاب المعصية ﴿**فَتَشْقَى**﴾ إلى شخص آدم.

هذا التحليل مبني على قياس النشأة الاولى لخلق آدم وحوّاء، والتي لم يتمَّ فيها الوحي التشريعي بعد، على النشأة الحاليّة التي نحن نعيش فيها، وهي ميدان الشريعة والرسالة، ولكن اذا كان الحكم الاعتباريّ للشريعة لم يظهر بعد اصلاً، ولم تكن هناك احكام حول الاسرة كوجوب أنفاق الزوج على المرأة، فانّ مثل هذا التفسير لقصة آدم وحوّاء لن يكون صحيحاً.

نعم انّ الأصل في هذه القصة، هو آدم، لكنّ هذا لا يعني تفضيل القرآن للرجل، بل انّ المقصود هو انّ آدم عليه السلام هو محور الخلافة، ولو كان المخلوق مع آدم فرداً آخر غير حوّاء، لكان الخطاب الإلهي متوجهاً ايضاً

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٨٩.

٢. **بحار الأنوار**، ج ١٣، ص ٤٢٨؛ **الاختصاص**، ص ٣٣٧.

إلى آدم عليه السلام، ولوصل حكم الله إلى ذلك الفرد بواسطة آدم عليه السلام. والمقصود من الحكم طبعاً ليس هو الحكم المرتبط بالشريعة الاعتبارية المولوية.

٤. لكل واحد من عوالم الطبيعة والمثال والعقل وكذلك عوالم الدنيا والبرزخ والقيامة حكمه الخاص به، أي انّ الجنّة مثلاً ليست مجرد مكان للرفاهية والتنعّم بحيث انّ ساكنيها مختلفون، فبعضهم ينال قسطاً وافراً من نعمها، والبعض الآخر يكون نصيبه منقوصاً، وكأنّ المعصية ممكنة هناك، ولا خصوصية للمكان أي الجنّة، بل انّ الجنّة نشأة خاصة لا مجال فيها اصلاً لوجود (اللغو) ولا (التأثيم)، ولا يسمح لساكني دار الخلد أن يدخلوها الاّ من بعد تصفيتهم وتطهيرهم من آفات وشوائب الهوى والانحراف.

وقد تحدث القرآن الكريم عن نقاء حريم الجنّة ودار الخلد من دنس المعاصي فقال تعالى ﴿**لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ**﴾،[1] وكذلك طهارة أهل الجنّة وساكني دار الخلد من قذارة الذنوب فقال تعالى ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾،[2] أي انّ قلوب أهل الجنّة نقية ومصفّاة من جميع اشكال الغلّ والخيانة، سواء منها ما كان يتعلق بالأحكام الإلهية أو السنّة النبوية أو حقوق الآخرين وممتلكاتهم، أي انّ جميع أنواع الخيانة لله والنبيّ وأمانات الناس التي نهى الله تعالى عنها بقوله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ**﴾[3] قد ازيلت تماماً من قلوب أهل الجنّة. وعليه فلا يمكن القول بانّ جنّة آدم كانت نفس

---

١. **سورة الطور**، الآية ٢٣.
٢. **سورة الحجر**، الآية ٤٧.
٣. **سورة الأنفال**، الآية ٢٧.

جنّة الخلد مع حمل المعصية على معناها الظاهري، والقول بانّ الجنّة بما هي مكان ومسكن يمكن فيها المعصية، وليست بذاتها طاهرة، وانّما تختلف الجنّة عن غيرها من الأماكن باختلاف اهلها وساكنيها لا بما هي محل ومسكن.[1]

٥. لقد أجاب الشيخ الطوسي على السؤال عن سبب دخول آدم إلى الجنّة اذا كان قد خلق لأجل الخلافة في الأرض بجوابين: **الأوّل**: انّ جنّة آدم لم تكن جنّة الخُلد وانّما كانت بستاناً من بساتين الدنيا كأنّه الجنّة. **والآخر** هو ان الله لمّا كان يعلم بمعصية آدم وانّ أمره سيؤول إلى الهبوط نحو الأرض والسكن فيها، ولذلك فقد قال سبحانه طبقاً لهذا العلم الغيبي ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾.[2]

ويمكن ان يقال أيضاً، انّ الإسكان في الجنّة كان منذ البداية إسكاناً مؤقتاً ولأجل اجتياز دورة تدريبية واختبارية، ولكي يطّلع آدم على اساليب مكر وخداع عدوّه ويذوق مرارة المعصية ونتائجها المؤلمة، ويتعلّم ايضاً طريق التوبة والعودة، ومثل هذا الإسكان المؤقت لا يمنع من صحة التعبير القرآني ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾.

المقصود من الأكل:

ليس المراد من «الأكل» في جملة ﴿**وَكُلاَ مِنْهَا**﴾ هو تناول الطعام خاصة، بل هو في معنى الأكل الوارد في قوله تعالى ﴿**وَلاَ تَأْكُلُوا**

---

١. **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤١٣ ـ ٤١٨.

٢. راجع: **التبيان**، ج ١، ص ١٣٥.





أمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[١] الذي هو كناية عن مطلق التصرف، كما انّ عبارة (أكل مال الناس) شائعة عند العرف ويراد بها مطلق الغصب، سواء كان المال المغصوب طعاماً أم لباساً أم سكناً ام غير ذلك.

ويمكن أن يقال: انّ المستثنى، اي الأكل من الشجرة المنهي عنها، قرينة على انّ المستثنى منه هو خصوص الأكل من ثمار الجنّة لا مطلق التصرفات.

والجواب هو: انّ السكن في الجنّة يأتي بمواهب ومكاسب كثيرة، اغلبها يعود إلى الأكل. كما انّ الشرب من عين مائها الزلال ايضاً من مصاديق الاباحة. والدليل على عدم الاختصاص بالأكل أنّهما بعد التذوق والأكل من الشجرة المنهي عنها وظهور سوآتهما فقد اكتسبا فائدة اخرى من اشجار الجنّة المعهودة وراحا يغطّيان نفسيهما بأوراقها، وقد ذكر القرآن ذلك دون ذمّ ومنع فقال: **﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾**،[٢] اذن فانّ التستّر بأوراق الجنّة أيضاً هو من موارد الاباحة التي دلّ عليها الاذن في التصرف في قوله تعالى: **﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾**.[٣]

اضافة إلى ذلك فانّ هناك شاهداً قرآنياً آخر في هذا المضمار، على انّ جنّة آدم كانت تتضمن فوائد اخرى غير الأكل، وهو ظاهر قوله تعالى: **﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾**[٤] وعليه فانّ المقصود هو رفع الحوائج الموجودة، لا انّ الحاجة

---

١. **سورة البقرة**، الآية ١٨٨.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ٢٢.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ١٩.

٤. **سورة طه**، الآيتان ١١٨ – ١١٩.

منتفية أصلاً، فإباحة الاستفادة من الطعام لأجل سدّ الجوع، والاستفادة من اللباس لأجل الستر، والاستفادة من الماء لاجل ازالة العطش، والانتفاع بالظل لأجل الاحتماء من الحرّ والهجير. وعليه فانَّ جنّة آدم قد حوت منافع اخرى غير تناول الطعام، وقد اطلق عليها جميعاً عنوان الأكل، الذي هو تعبير عرفي.

النهي الارشاديّ لله:

بعد الاذن الإلهي لآدم وزوجه بأنواع التصرّف في الجنّة، بيّن الله تعالى مورد الاستثناء بهذا النحو ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾.

وفيما يتعلق بجملة ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا**﴾ والنهي عن الاقتراب، ينبغي الالتفات إلى أمرين: ١. هذا النهي يشبه النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1] فهو كناية عن النهي عن الأكل، لا التقرب بمعنى المرور أو العبور من الشيء، والتعبير بعدم التقرّب بدلاً عن عدم الأكل أو عدم التصرف لأجل اهميّة المسألة؛ كما يقال «لا تقربوا من الحيّة» اشارة إلى وجود خطر جدّي وحقيقي، ولذلك يجب النهي عن الاقتراب منها حتى يكون احتمال الابتلاء بها في أقلّ درجة ممكنة.

ولذلك (اي لانّ الاقتراب كناية عن الأكل) يقول سبحانه في موضع آخر ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**﴾،[2] ﴿**فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا**

---

١. سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

٢. سورة الأعراف، الآية ٢٢.



سَوْآتُهُمَا﴾[1] حيث انّه لو كـان المنهـي عنـه هـو مطلـق الاقتـراب إلـى الشجرة لكان يقول: (فلما قربا...) ولم يقل: (فلمّا ذاقا، أو فلمّا أكلا).

وببيان آخر: انّ الأمر بالسكنى في الجنّة مطلق، ويفيد اطلاق الاباحة، وحيث لم يعرض عليه تقييد أو تخصيص لـم تكـن هنـاك حاجـة إلـى التصريح بالاطلاق، لكنّ الأمر بالأكل من ثمار الجنّة على الرغم من كونه يفيد اطلاق اباحـة المـأكولات، لكـن لمّـا كـان فـي معـرض التقييـد أو التخصيص واستُثني منه الأكل مـن ثمـرة الـشجرة المعينـة، لـذلك فـانّ الآيتين القرآنيتين وباختلاف يسير، قد منحتا آدم وحواء الاختيار المطلـق في الأكل، فقال تعالى في الآية محل البحـث ﴿كُـلاَ مِنْهَـا رَغَـداً حَيْـثُ شِئْتُمَا﴾ وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾،[2] وأمّا النهي في قوله ﴿لاَ تَقْرَبَا﴾ فهو بمثابة تقييد اطـلاق اباحـة الأكـل، اي انّ التناول من ثمار جميع الأشجار مباح، الاّ هـذه الـشجرة المعيّنـة التـي لا يجوز الأكل منها، وعليه فانّ النهي المذكور تقييد وتحديد لاطلاق الأكل.

لكنّ بعض الأساطين من اهـل المعرفـة اعتبـر هـذا النهـي تحجيـراً وتحديداً بلحاظ الاطلاق المستفاد من قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وقال:

انّ الذي نهي عنه هو الاقتراب إلى الشجرة المعيّنة، وآدم وحـواء لـم يأكلا من الشجرة المعهودة، الاّ بعد الاقتراب إليها، اذن فـانّ مؤاخـذتهما تمت بسبب (القرب لا بسبب الأكل).[3]

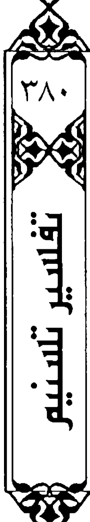
---

١. **سورة طه**، الآية ١٢١.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ١٩.

٣. **رحمة من الرحمن**، ج ١، ص ١١٨.





وهذه دعوى لم تقترن بدليل، بل انّ هناك شاهداً قرآنياً على خلافها، لانّ ظاهر الآية الكريمة ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**﴾،[1] والآية الكريمة ﴿**فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا**﴾[2] انّ سبب المؤاخذة هو الأكل من ثمر الشجرة المعهودة، وان كان الأكل في حدود التذوّق، وعليه فانّ التحديد المذكور كان بلحاظ الأكل، لا من ناحية القرب، والتعبير بالقرب لأجل اهميّة المسألة؛ كما جاء مثل ذلك في الآيات الكريمة ﴿**لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى**﴾،[3] ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ**﴾،[4] ﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ**﴾[5] و﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى**﴾.[6]

وهذا هو ما قبله بعض كبار علم التفسير، وهو انّ التهديد لآدم وحواء وتقييد اختيارهما كان بلحاظ الأكل، لا بلحاظ القرب، كما انّ الشيخ الطوسي[7] ومن وافقه في الرأي قد اختار نفس هذا القول.

٢. نظراً إلى انّ محلّ صدور النهي ﴿**لاَ تَقْرَبَا**﴾ هو الجنّة، ووقته قبل الهبوط إلى الأرض والاستقرار فيها حيث انّ الأمر ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾[8] قد صدر بعد الأكل من الشجرة، ولم يكن هناك بعد رسالة ولا وحي ولا

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٢.

٢. **سورة طه**، الآية ١٢١.

٣. **سورة النساء**، الآية ٤٣.

٤. **سورة الأنعام**، الآية ١٥١.

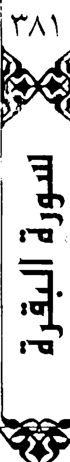
٥. **سورة الأنعام**، الآية ١٥٢.

٦. **سورة الاسراء**، الآية ٣٢.

٧. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٥٩.

٨. **سورة طه**، الآية ١٢٣.





تكليف، ولذلك فانّه بعد الأمر بالهبوط يقول: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾.[1] فمن ذلك يتبيّن انّ النهي ﴿لاَ تَقْرَبَا﴾ لم يكن نهياً مولوياً تشريعياً، كي يناقش فيه هل انّه نهي تحريمي أم تنزيهي، أو يقال: كيف انّه يتناسب مع عصمة الأنبياء؟ بل هو نهي ارشادي. ولذلك جاءت الاشارة في آيات عديدة إلى الآثار السيئة الدنيوية لمخالفة هذا النهي، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾،[2] ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[3] اي اذا رمت البقاء في الجنّة واردت النجاة من آلام الجوع والعطش والحر والبرد، فلا ينبغي لك ان تقترب من هذه الشجرة والاّ فسوف تظلم نفسك وتوقعها في الشقاء والتعب والعناء، وهذا الكلام يشبه قول الطبيب حينما يقول: لا تأكل هذا الطعام والاّ مرضت، أو قول المعلّم حينما يقول للتلميذ: خفّف طعامك في الليل كي تستطيع النهوض وقت السحر لأجل المطالعة. في حين انّ النواهي المولوية غالباً ما تتحدث عن النار والعقوبات الاخروية.

والشاهد الثالث على كون النهي المذكور ارشادياً، هو انّه بعد قبول توبة آدم عليه السلام لم يرجع إلى حالته السابقة، بل انّ الآثار الوضعية للمخالفة وهي (الهبوط إلى الأرض ومواجهة أتعاب وآلام عالم المادة) بقيت على حالها.

---

١. سورة البقرة، الآية ٣٨.

٢. سورة طه، الآية ١١٧.

٣. سورة طه، الآيتان ١١٨ – ١١٩.

طبعاً هناك تأمل في صحة هذا الشاهد، لانّه من الممكن ان لا ترتفع بعض الآثار الوضعية للذنب التكليفي، وان حصلت التوبة الخالصة.

والشاهد الرابع، هو انّ معصية آدم عبّر عنها بالغواية فقال تعالى ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[1] والغواية هي الضلالة والتيه عن الطريق،[2] في حين لو كان الحكم هنا مولوياً للزم التعبير بالغضب، ولكان العاصي من ﴿**المَغضُوبِ عَلَيهِمْ**﴾ لا من ﴿**الضَّالِّينَ**﴾.[3]

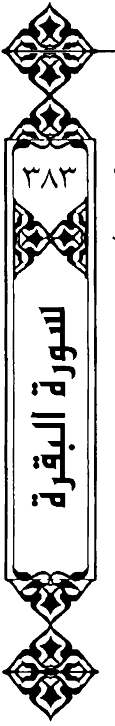
تنويه: ١. صحيح انّه فيما يتعلق بالنهي في قوله تعالى ﴿**لاَ تَقْرَبَا**﴾ قد ذكرت وجوه من قبيل التحريم، والتنزيه والارشاد، لكن لم يذكر حول أمر (**اُسكن**) وأمر (**كُلا**) شيء سوى الاباحة، الاّ ما ذكره بعض المفسرين من احتمال دلالة أمر (**اسكن**) على الوجوب.[4] والتفكيك بين كون احد الحكمين الزامياً والآخر غير الزامي أمر معهود ومتعارف في مثل هذه الموارد، لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ المقصود من الاباحة في محل البحث ليس هي الإباحة المصطلحة في الأحكام المولوية الخمسة، لانّ الجامع والقاسم المشترك لها، هو الحكم المولوي الذي يذكر في مجال

١. **سورة طه**، الآية ١٢١.

٢. مع هذا الفرق وهو انّ الضلالة تستعمل في المورد الذي يتذكّر الهدف وينسى الطريق فقط، امّا الغواية فتستعمل في المورد الذي ينسى الهدف والطريق معاً.

٣. النهي المذكور ليس نهياً تكوينياً كذلك، لانّ النهي التكويني لله يعني الامساك التكويني، وكما أنّ تعلق الأمر التكويني لله بشيء معناه ايجاد ذلك الشيء في الخارج ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (**سورة يس**، الآية ٨٢) فانّ النهي التكويني لله بالنسبة للشيء لا ينفكّ عن امساكه ﴿**وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ**﴾ (**سورة فاطر**، الآية ٢)، فلا الأمر التكويني قابل للتخلّف ولا النهي التكويني قابل للمعصية.

٤. **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٧١.



النبوة التشريعية، واذا كان أصل الرسالة والنبوة التشريعية لم يوجد بعد، فانّ مسألة الإباحة الاصطلاحية في ذلك الجو غير قابلة للطرح، فلا مناص من القول بالإباحة الارشادية في مقابل النهي الارشادي، لانّ الارشاد إلى المنفعة والتحذير من الاضرار بالنفس، لا يحتاج إلى وجود فضاء تشريعي.

٢. انّ منفعة الاستفادة من نعم الجنّة المعهودة لآدم لم تكن بحاجة إلى دليل، لكنّ ضرر الأكل من الشجرة المعيّنة المنهيّ عنها كان بحاجة إلى تعليل، لذلك قال ﴿**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾.

ما هي الشجرة الممنوعة؟

هناك آراء واقوال متعددة حول انّ المقصود من (الشجرة) ما هو؟ فقد جاء في التفاسير انها الحنطة، النخلة، الكرم، الكافور، الحسد وعلم آل محمد عليهم السلام...، وحول ذلك يقول ابو جعفر الطبري:

انّ اصل الشجرة كان معلوماً لدى آدم عليه السلام، ولم يقم دليل على تعيينها، ولو كان الله يرى ضرورة ذلك لأقامه، فلا العلم به نافع ولا الجهل به مضر.[١]

وسئل الإمام الرضا عليه السلام عن التفاسير المذكورة للشجرة أيّها حق؟ فقال عليه السلام: (**كلّ ذلك حقّ**) وعندما سأل الراوي عن كيفية توجيه هذا الاختلاف والتعدد، قال: (انّ شجرة الجنّة تحمل انواعاً وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب، ليست كشجرة الدنيا)،[٢] اي انّ الشجرة المذكورة

---

١. **جامع البيان**، ج ١، ص ٣٠٧.

٢. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٣.

ليست كشجرة الدنيا لها ثمرة واحدة بل انّ شجرة الجنّة تعطيك أيَّ نوع من الثمار شئته.

ويظهر من ذيل هذه الرواية انّ ما دفع آدم وحواء إلى الأكل من تلك الشجرة وادّى إلى خروجهما من الجنّة والهبوط إلى الأرض هو نظرة التمنّي المشوبة بالحسد للمقام الشامخ لمحمد وآل محمد صلى الله عليه وآله؛ أي انّ الحسد قد مهّد الأرضية لمعصيتهما وحرمانهما، ويظهر من رواية عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام انّ الشجرة المنهيّ عنها، هي شجرة علم محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله والتي هي خاصة باولئك الكرام، وهي شجرة ذات ثمار معنوية وثمار ماديّة ايضاً، ومن تناول منها باذن الله حظي بعلم الأولين والآخرين، ومن أكل منها بغير اذن الله لم يبلغ مراده وكان من أهل المعصية.[1]

وسوف يأتي بيان هاتين الروايتين وسرّ الاختلاف في تفسير الشجرة المذكورة في البحث الروائي.

الظلم الذي فعله آدم بنفسه:

لاشك انّ كلمة ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾ في هذه الآية، هي من الظلم لا من الظلام، وافضل شاهد على ذلك، هو كلام آدم عليه السلام نفسه في مقام التوبة عندما قال: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا...**﴾.[2]

ومما تقدم (كون النهي ارشادياً) يظهر انّ المظلوم في جملة ﴿**فَتَكُونَا**

---

١. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٣.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ٢٣.

من الظَّالمينَ﴾ هما آدم وحواء، والظلم في هذه العبارة هو، الظلم للنفس، لا ظلم الله سبحانه أو الآخرين، لانّ ما يلاحظ في ارتكاب النواهي الارشادية أو ترك الأوامر الارشادية هو الضرر والخسران الذي يصيب الفرد العاصي، كما انّ الشخص المريض اذا لم يأبه بنصائح الطبيب، فانّه يضرّ نفسه ويظلمها. ولذلك نرى في سورة طه عندما تحدث القرآن عن هذه القصة نفسها، فهو بدلاً من ان يذكر بعد النهي عبارة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمينَ﴾، قد ذكر عبارة ﴿فَتَشْقَى﴾؛ اذ انّ الشقاء هو بمعنى التعب والألم الذي فُسِّر في الآيتين التاليتين بالجوع والظمأ والحرّ والبرد فقال ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾[1] ولو كان المقصود من الظلم في الآية محل البحث هو المعصية الاصطلاحية المعروفة للزم ان يذكر في سورة (طه) ـ حيث يُذكر البديل عنه ـ لوازم وآثار المعصية الإلهيّة، اي العقاب والعذاب الاخروي.

فالظلم في الآية نظير الظلم المذكور في قوله تعالى ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾[2] الذي استعمل في معناه اللغوي، أي مطلق النقص والحرمان، فكما انّ معنى ﴿لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ انّ اشجار كلتا الجنتين لم تكن ناقصة أو عديمة الثمر، كذلك عبارة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمينَ﴾ لها نفس المعنى، أي انّكما اذا اكلتما من هذه الشجرة فسوف تضيّعان هدفكما، وسوف تسلب منكما النعم التي اعدت لكما في الجنّة. ولذلك عبّر في سورة (طه) عن نتيجة المعصية بالغواية، التي تعني تضييع

---

١. **سورة طه**، الآيتان، ١١٨ – ١١٩.

٢. **سورة الكهف**، الآية ٣٣.

الهدف، لا المغضوبية فقال ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1] اي الضلالة وتضييع الطريق، في حين لو كان المراد هو الظلم والمعصية الاصطلاحية لصارا موضعاً للغضب الإلهي وفي عداد المغضوب عليهم لا من الضالين.

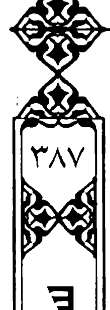
وتعبير ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يبيّن رسوخ الظلم المذكور، لانّ كلمة (الكون) بمعنى الصيرورة وكلمة ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دليل على استحالة الشخص وثباته في زمرة الراسخين في النقص والظلم للنفس، والمراجعة إلى الآيات المشابهة التي ذكرت هذا المعنى في جانبي الايجاب والسلب تؤيد المدّعى المذكور اعلاه.

لطائف وإشارات

١. التفات سكان الملكوت إلى النداء الإلهي

وان كان النداء والوحي الإلهي يأتي دائماً معه بشيء جديد، لكنّ الاعلان حول خليفة الله، العالم بالأسماء والمعلّم ومن تسجد له الملائكة له اهميته البالغة. ولذلك فقد جلب إليه أنظار سكان الملكوت والخواصّ المقربين من ساحة الكبرياء الإلهي، وأصغت إليه اسماعهم كي يعلموا بالأمر المهمّ الذي سوف يعلن لهم. ولذلك، فليس آدم عليه السلام وحده الذي كان يعيش أقصى حالات الترقب والاستماع والإنصات، بل انّ جميع المتعلّمين الساجدين ايضاً عندما علموا بالنداء الإلهي هبّوا لتلقّي الفيض والعطاء الجديد.

١. سورة طه، الآية ١٢١.



٢. هل انّ رغد العيش كمال أم اهانة؟

انّ نظام العالم العيني الذي هو المرآة التي تحكي النظام العلمي لله سبحانه، قد شُيِّد على النحو الذي يتوفر فيه العيش الرغيد والحياة المرفهة التي يكون فيها الحلال اكثر من الحرام والطيب اكثر من الخبيث، للجميع لاسيّما للعقول المفكرة في المجتمع، والتي همُّها الشاغل هو البناء الفكري والتطور العلمي للناس، وان كان هؤلاء انفسهم قد أُمروا بالزهد والقناعة لا العيش المرفّه والحياة المترفة.

وما توفر في جنّة آدم وزوجه كان مثالاً لسعة النعمة، من حيث كثرة المباح والجائز، وقلة الحرام والممنوع.

طبعاً توفير العيش المرفّه وتوسعة التنعّم والملذات، ليس فقط لا يعتبر دليلاً على الكمال، بل هو في نظر الانسان الكامل كمولى الموحّدين علي بن ابي طالب عليه السلام دليل على النقص والاحتقار، فهو عليه السلام يصف الحياة البسيطة والعيش الزهيد للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ويقول: «**قد حقّر الدنيا وصغّرها واهون بها وهوّنها، وعلم انّ الله زواها عنه اختياراً وبسطها لغيره احتقاراً...**»[1] فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من حيث انه مصطفى ومختار ومجتبى من قبل الله الحكيم، فانّ الدنيا لم تبسط له. ومن تلوّث بالعيش المرفّه خلافاً لسنّة وسيرة الرسول، فليعلم بانّ الله سبحانه قد أهانه واحتقره، عندما فرش له بساط العيش الرغيد والحياة المترفة.

٣. الفرق بين النبوّة الكلاميّة والعرفانية:

انّ النبوّة لغةً وكذلك اصطلاحاً عند أهل العرفان تختلف عن النبوة عند

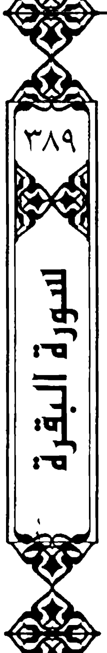
---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٠٩، المقطع ٣٥..

أصحاب علم الكلام والفلسفة، والتي تدور حولها ابحاث التفسير؛ لانّ النبوة لغة تعني مطلق الإنباء وابلاغ النبأ، وكلّ من يقوم بابلاغ خبر مهمّ وخطير فهو (نبي) فيما يتعلق بذلك النبأ. والنبوة التعريفية والإنبائية التي يذكرها أصحاب علم العرفان فهي اضافة إلى النبوة المعروفة عبارة عن الإنباء عن الأخبار الملكوتية المهمّة سواء كانت تتعلق بالشريعة أم لا، ويعبّرون عن هذا النحو الخاص من النبوّة (بالنبوة الإنبائية). و(النبوّة الكلاميّة والفلسفية) هي نفس النبوة التي تذكر في الأبحاث التفسيرية، وصاحبها يقال له النبي المعهود والمعروف الذي يأتي معه بمجموعة من العقائد، والأخلاق، والفقه والحقوق التي تحتوي على ما ينبغي فعله وما لا ينبغي، وفيها بيان للحدود الخاصة والحقوق المخصوصة والخصائص الاعتبارية.

ومن الصعب اثبات مثل هذه النبوة لآدمعليه السلام ، من مجرد النداء الإلهي وايحاء بعض المسائل والمعلومات إليه، فلا اصل الحوار والنداء والخطاب مستلزم لنبوّة المخاطب، ولا أصل الايحاء والالهام، اذ انّ جميع هذه الأمور أو اكثرها قد حصلت لأُمّ موسى كليم الله وأُمّ عيسى المسيح روح الله، مع انّ كلتيهما لم تكن نبيّة بالمعنى المصطلح، على الرغم من انّ كلّ واحدة منهما قد تلقّت خطاباً غيبياً وعملت بما فيه. اذن فانّ مجرد أمر (**اسكن**) وأمر (**كُلا**) ونهي (**لا تقربا**) لا يكفي دليلاً على النبوّة المعهودة لآدمعليه السلام في حدود هذه الخطابات، لانّ كلاً من أمّ موسى الكليم وعيسى المسيح قد تلقّت العديد من الأوامر والنواهي والبشائر والوعود[1] من الله سبحانه مع انّ تلكما السيدتين الكريمتين لم تكونا نبيتين، كما انّ النبوة

١. سورة مريم، الآيات ٢٤ – ٢٦؛ سورة القصص، الآية ٧.



الإنبائية والتعريفية لآدم التي ذكرت في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ...﴾[1] ليست دليلاً على تحقق النبوّة الكلاميّة والفلسفية والتفسيرية لآدم عليه السلام في حدود إنباء الملائكة بالأسماء. وعليه فانّ ما ذكره القرطبي في الجامع ليس تامّاً.[2]

٤. قداسة وعصمة آدم

هناك عدد من الوجوه يمكن تصورها لأجل المحافظة على قداسة آدم عليه السلام وعصمته، من ارتكاب ما يؤدي إلى تسافل مستوى الروح وهبوطها التبعيدي من ذلك (المقام المُشرّف) إلى (معترك التكليف)، وفيما يلي بعض هذه الوجوه:

أ: انّ القصة المذكورة قد حصلت في ظرف لم يظهر فيه بعدُ اصل النبوة التشريعية، ولم ينزل بعدُ ايّ نحو من الوحي الحامل للشريعة والمنهاج. وفي هذا الجوّ لم يكن هناك ايّ حكم مولوي وتكليفي في البين، كي يكون هناك حديث عن حرمته أو كراهته، وكما تقدم القول في مسألتي أم موسى وأم عيسى عليهما السلام من انّ مجرد الوحي لا يستلزم التشريع، كما انّ مجرد الهداية والأمر والنهي والوعد والوعيد، لا يوجب التكليف، لانّ جميع هذه الأمور قابلة للطرح في المسائل الارشادية، كما انّ الأمر والنهي الموجّهين إلى امّ موسى عليه السلام[3] كانا من هذا السنخ.

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٣٣.
٢. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٢٩٠.
٣. **سورة القصص**، الآية ٧.

ب: انّ القصّة المعهودة وترك العزم على المقاومة والمبادرة إلى الأكل من ثمرة الشجرة المنهيّ عنها، كلّ ذلك قد حصل وآدم عليه السلام لا يزال بعدُ لم يبلغ مقام النبوّة، وارتكاب بعض الصغائر جائز للأنبياء قبل النبوّة. هذا الوجه دلّت عليه بعض الأحاديث.[1] لكنّ اثباته يعتمد على امور ليس من السهل احرازها؛ لانه **اولاً**: يجب إثبات انّ مثل هذا الحكم قد صدر في فضاء الشريعة في حين أنّ آدم عليه السلام الذي هو أول نبي لم يكن قد بلغ مقام النبوّة، كما في الفرض. اذن فمن الذي كان حاملاً للوحي التشريعي ومن هو ذلك النبيّ الذي جاء بتلك الشريعة؟

ثانياً: يجب إثبات ان الحكم المذكور اي نهي ﴿**لاَ تَقْرَبَا**﴾ كان مولوياً ولم يكن ارشادياً.

ثالثاً: يجب إثبات انه كان نهياً تحريمياً لا نهياً تنزيهياً.

رابعاً: يجب إثبات انّ ارتكاب الصغيرة جائز للأنبياء قبل النبوّة.

وعلى الرغم من انّ اثبات بعض هذه الامور الأربعة ليس بالأمر الصعب ولكن احراز بعضها لاسيّما الأمر الأول والأمر الرابع ليس سهلاً.

ج: ان هذه القضية قد وقعت في حال نسيان آدم عليه السلام ، ولا محذور على ما يُرتكب في حال النسيان. وقد ذكر هذا الوجه استناداً إلى بعض الاحتمالات الواردة في تفسير قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[2] وعليه فلا حاجة إلى حمل النهي على التنزيه

---

١. **عيون اخبار الرضا**، ج١، ص ١٧٤؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٣٢٨، ح ٩٨.
٢. **سورة طه**، الآية ١١٥.

أو الارشاد، وحمل الظلم على نقصان الحظ والنصيب، وحمل ارتكاب الصغيرة على زمن ما قبل النبوّة وغير ذلك من المحامل.[1]

لكنّ اهمّ ما يرد على هذا الوجه، اضافة إلى عدم احراز معنى آية ﴿... فَنَسِيَ﴾ هو انّ النبي اذا اخطأ في العمل بالحكم الشرعي، وارتكب ما يخالف الشرع سهواً، فكيف يعتمد على سنّته التي هي أعم من القول والفعل والتقرير، لانّ من يُبتلى بالنسيان في تكليفه الشرعي والشخصي، لا يمكن الاحتجاج بقوله وسيرته وسكوته التقريري. ومن الممكن أن يكون بعض اهل النظر قد جوّزوا سهو النبي في الموضوعات غير الشرعية، لكنّهم لا يصحّحون ولا يبرّرون سهوه في ارتكاب المعصية والعمل غير المشروع.

تنويه: انّ البحث عن العهد المنسي لآدم ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ...**﴾،[2] في هل انّه النهي عن القرب من الشجرة أو التحذير من عداوة ابليس، أو انّه الميثاق في آية ألستُ بربّكم، أو إنّه الميثاق الخاص بالأنبياء أو هو محتمل آخر، يرجع في ذلك إلى سورة «**طه**».

د: انّ هذا الفعل كان من سنخ ارتكاب المكروه، لا الحرام، لكنّ اثبات هذا الوجه يتوقف على احراز امور؛ منها: احراز تحقق اصل الوحي التشريعي والنبوّة المصطلحة، واحراز انّ آدمعليه السلام كان نبيّاً في حال الأكل، واحراز انّ النهي المذكور كان مولوياً، لا ارشادياً واحراز انّ النهي المذكور كان تنزيهياً ولم يكن تحريمياً. طبعاً وكما تقدم ذكره فانّ من

---

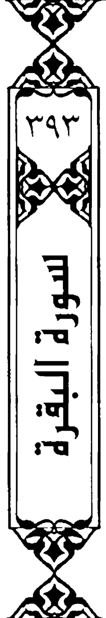
١. **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٧٤.
٢. **سورة طه**، الآية ١١٥.

الممكن أن لا يكون من الصعب احراز بعض هذه الأمور، لكنّ اثبات جميعها لا يخلو من صعوبة.

هـ : انّ العمل المذكور كان من قبيل ترك الأولى فيما يتعلق بالنصائح الارشادية، لا المولوية، مع القبول بانّ اصل النبوة واتّصاف آدم عليه السلام بمقامها الشامخ كان متحققاً في نفس الوقت، أي إنّ ارتكاب الأكل قد حصل لآدم في حال وجود النبوّة التشريعية، وكان هو وقتئذٍ قد اتّصف بها أيضاً وصار نبيّاً؛ لانّه وان كانت جميع الأوامر قبل التشريع وظهور النبوّة ارشادية حتماً، وليس فيها أمر مولوي، لان الفرض مبني على عدم أصل التشريع، لكنّ جميع الأوامر والأحكام الحادثة بعد أصل التشريع ليست بالضرورة مولوية، اذ يمكن أن تصدر توصيات ونصائح ارشادية أيضاً بعد أصل التشريع، فيمكن احياناً ان تصدر في منطقة الفراغ التي لا يوجد في افعالها محذور من جهة الثواب والعقاب الاخرويين ولأجل اليُسر والعُسر وسهولة وصعوبة الأعمال المتعلقة بالأفراد، أن تصدر أوامر ارشادية لا يكون في امتثالها ثواب اخروي ولا في معصيتها عقوبة اخروية.

واحراز هذا الوجه يتوقف على امكان حمل عناوين (المعصية)، و(الغواية)، و(الظلم)، و(التوبة) على ترك الأولى بالمعنى المذكور.

تنويه: انّ الوجوه المذكورة وكذلك الوجوه الاخرى التي يمكن أن تذكر، كلّ واحد منها فيه نقاط قوة ونقاط ضعف. ولأجل مراعاة عصمة آدم عليه السلام، يجب ترجيح الوجوه اللبيّة والعقليّة على الشواهد اللفظيّة والنقلية، كي لا يتدنس مقام اصل النبوّة بقذارة الذنب وان كان صغيراً،



لانّ المفسرين الكبار كالطوسيّ والطبرسي[1] قد افتوا بانّ جميع المعاصي كبيرة، وكون بعضها (صغيرة قياسية) لا ينافي كونها (كبيرة نفسية)، أي انّ كلّ معصية كبيرة في نفسها، وان كانت بالقياس إلى المعصية الأكبر والأخطر منها تعتبر صغيرة.

٥. تساوي المرأة والرجل في مقام الولاية:

انّ البحث عن حكم الرجل والمرأة تارة يكون طبقاً لنظرية اصالة المادة وانحصار الوجود بها، ووفقاً لأصالة الحس وحصر المعرفة بالإحساس والتجربة الحسيّة، وتارة يكون طبقاً لأصالة الوجود التشكيكيّ الجامع بين الماديات والمجردات وعدم انحصار الوجود في المادة، وعلى محور اصالة العلم واتساع دائرة المعرفة، إلى الإحساس والتخيّل والتوهم والتعقل وشهود القلب، وعدم حصرها في الحس والتجربة الحسيّة.

وعلى المبنى الأول الناقص، يمكن أن يقع الفرد في الافراط أو التفريط فيحكم بالتساوي أو الاختلاف المفرط بين الرجل والمرأة، ويستدل على حكمه بعلم النفس المعتمد على التجارب الحسيّة وأصالة الحس، ويعتبر الاختلاف في خصائص علم النفس بين الرجل والمرأة دليلاً على الاختلاف التام بين هذين الصنفين ويصدر حكماً بالتساوي الكامل أو الاختلاف والتباين بينهما.

وعلى المبنى الثاني التام فيمكن بعيداً عن الإفراط والتفريط اثبات التساوي بين المرأة والرجل في المعارف العقائدية، والقيم الأخلاقية وما

---

١. **تفسير التبيان**، ج ١، ص ١٥٩؛ **مجمع البيان**، ج ١، ص ١٦٩.

شابهها، واختلافهما في الأمور التنفيذية التي يختص ببيانها وتوضيحها علما الفقه والحقوق وشبههما؛ حيث انّ الروح تكوّن هويّة الانسان وحقيقته الأصلية، والروح الانسانية لا تتصف بالتذكير ولا بالتأنيث، لانّ تلكما الصفتين ليستا متناقضتين حتى يكون ارتفاعهما عن الموجود المجرد محالاً. وعليه فليس من الصحيح الحديث عن تساوي أو اختلاف حقيقة الانسان.

طبعاً اذا اعتبرنا انّ الروح جسمانية الحدوث وروحانية البقاء فمن الممكن القول بوجود الاختلاف في حقيقة الروح، لانّ الروح طبقاً لهذا المبنى مسبوقة بالمادة ومتّصفة بالصبغة المادية بلحاظ الزمان والمكان والعوامل الكثيرة الاخرى التي منها التركيبة الداخلية لبدن المرأة والرجل، وللبدن احكامه الخاصة، ولذلك فانّ علم نفس الأطفال، والنساء، والرجال، وسكنة المناطق الباردة، والحارة، والمعتدلة والأقوام والأعراق المختلفة، له تخصّصات مختلفة بحيث انّ كل واحد من هذه التخصّصات له مبادئه التصورية والتصديقية، ونتائجه الايجابية والسلبية الخاصة، لكنّ جميعها في حدود الاحتمال والإمكان، وليس في مستوى الجزم العلمي والعزم العملي.

وعلى كلّ حال، فكلّما قام دليل معتبر عقلي أو نقلي على فقدان ايّ واحد من هذه الأصناف بعض الكمالات العلمية أو العملية، فانّه يمكن عن طريق البرهان الإنّي اقامة الدليل على انّ من المؤكد ان تركيبة النظام الداخلي للبدن، أي المادّة التي سبقت الروح المجردة وساقتها نحو الوجود، طبقاً لمبنى جسمانية الحدوث وروحانية البقاء، كان لها الأثر في

تربية وايجاد نحو خاص من الروح الانسانيّة، والاّ فانّ مجرد الاحتمال والإمكان لن يكون أبداً دليلاً للحكم القطعي بالاختلاف الجوهري بين هذه الأصناف.

والبحث في الشواهد النقلية وكذلك التأمل في أقوال المفكرين الفلاسفة وسلوك أصحاب الرؤية الشهوديّة العرفانية يدور حول هذا المحور وهو انّه ليس هناك اختلاف بين المرأة والرجل في مقام الولاية الذي هو أساس الكمال الانساني. نعم لكلّ منهما دوره المحدّد في الأعمال التنفيذية التي يتكفل ببيانها علم الفقه وعلم الحقوق. والمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة يمكن ان تأتي في التفسير أو يُرجع فيها إلى مؤلّفات المصنّف[1] او غيرها من مؤلّفات الآخرين.

٦. السرّ في جعل آدم محوراً في بعض الخطابات:

على الرغم من انّ الخطاب الإلهي في الكثير من الآيات المتعلقة بآدم وحواء جاء موجهاً إلى كليهما بنحو متساوٍ؛ ومن ضمنها الآية محل البحث في اربع عبارات هي ﴿**كُلاَ**﴾، ﴿**شِئْتُمَا**﴾، ﴿**لاَ تَقْرَبَا**﴾ و﴿**فَتَكُونَا**﴾ كما انّ التعبير بصيغة الفعل الغائب ذكر بنحو متساوٍ أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾،[2] ﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾،[3] لكنّه في بعض الموارد توجه

١. راجع: **المرأة في مرآة الجلال والجمال** (الترجمة العربية)، ص ٣٤٧ وما بعدها.
٢. **سورة البقرة**، الآية ٣٦.
٣. **سورة الأعراف**، الآيتان ٢١ – ٢٢.

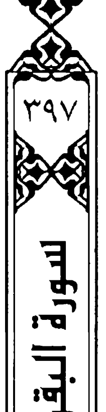
الخطاب بالأصل إلى النبيّ آدمعليه السلام وذكرت حواء عليها السلام بالتبع، كما في صدر الآية محل البحث حيث قال تعالى: ﴿**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ**﴾ وهذا التعبير بنفسه تكرّر ايضاً في الآية التاسعة عشرة من سورة الأعراف، وكذلك يلاحظ في مواضع متعددة من الآيات المتعلقة بآدم وحواء في سورة (طه) وفي تعابير مثل: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ...**﴾، ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ**﴾، ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾، ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ**﴾، ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾، ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**﴾.[1] ولذلك يطرح هنا هذا السؤال وهو لماذا قد جُعل آدم أصلاً في الخطاب؟ وهل يمكن أن يستفاد من ذلك تبعية جنس المرأة لجنس الرجل بنحو عام؟

والجواب الصحيح هو انّ حوّاء عليها السلام كانت تحت تدبير آدمعليه السلام ومع غضّ النظر عن الزوجية، فانّ آدم كان امام حواء ونبيّها المستقبلي. ولو لم يتأثر آدم من الوسوسة لبقيت حواء سليمة ولم تصب بشيء، فآدمعليه السلام كان المحور والأساس سواء من جهة الفضيلة أو من جهة الوسوسة والخروج من الجنّة. وبهذا اللحاظ جُعل آدم اصلاً في الكثير من الخطابات والتعابير.

والحق انّ مثل هذه الخطابات ليس فيها أيّة دلالة على تبعية جنس المرأة وكونها فرعاً بالنسبة إلى جنس الرجل، وكلّ ما لدى الانسان من انواع الكمال ترتبط بانسانيته، وانسانية الانسان بنفسه، لا بكونه رجلاً أو مرأة، لانّ الذكورة والانوثة لا مجال لها في الروح الانسانيّة المجردة، وانّما هي ترتبط ببدنه وتركيبة جسمه.

---

١. سورة طه، الآيات، ١١٥ - ١٢٢.



ولذلك فلا يوجد في الاسلام أيٌّ كمال مختص بالرجل، ولم تحرم المرأة من ايّ كمال، بل انّ الميزان في الكمال هو الاخلاص، فمن كان اخلاصه أشدّ كان قربه من الله اكثر، ولربَّ امرأة كانت في مقام الامومة، اشدّ اخلاصاً من زوجها في مقام الابوّة فكانت افضل من الرجل بعدة درجات، لانّ الاخلاص والفضيلة والكمال تابعة للعقيدة والأخلاق، والعقيدة والأخلاق تابعة للروح التي لا تقبل التذكير ولا التأنيث.

وحتى في درجات الكمال العالية، مثل الوصول إلى درجة وليّ الله أيضاً، فلا الذكورة شرط، ولا الانوثة مانع. ولذلك تذكر مريم عليها السلام في عداد أولياء الله، وذلك عندما يبدأ الله بها ضمن اوليائه وكبار عباده الربانيين ويذكرهم بعبارات مثل ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ...**﴾ في سورة (مريم)، وفي خلال ذلك يقول ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾،[١] وكذلك نرى فاطمة (عليها آلاف التحية والثناء) في أعلى درجات اولياء الله وافضل حتى من الكثير من الأنبياء.

طبعاً في الامور التنفيذية، تم توزيع الأدوار بين المرأة والرجل، فمنعت المرأة من بعض الأعمال الشاقّة كالجهاد بسبب تركيبتها البدنية الخاصة، وان كان يمكنها أن تتواجد خلف الجبهة وتعمل ايضاً بإخلاص اكثر، أو في جبهة القتال نفسها وتشتغل بمداواة الجرحى واسعافهم. كذلك مُنعت من مثل النبوّة والرسالة التي لها صبغة وشأن تنفيذي (وان كان باطن الرسالة والنبوّة وأساسها وهو الولاية التكوينية غير مختصّ بالرجل).

وكذلك مُنعت من المرجعية في التقليد التي هي عمل تنفيذي أيضاً،

١. سورة مريم، الآية ١٦.

وان كانت المرأة تستطيع أن تكون فقيهة ومجتهدة أو مرجعاً للنساء لكن مرجعيتها للرجال التي تستلزم الكثير من الاختلاط والاحتكاك مع الرجال الأجانب عنها لا يخلو من محذور واشكال، فاذا ما ارتفع هـذا المحـذور بواسطة التطور العلمي والتقني فان جواز مرجعية المرأة للرجال أيـضاً لا يخلو من قوّة.

البحث الروائيّ

١. جنّة آدم وحواء

ـ عن الحسن بن بشار عن ابي عبد الله عليه السلام: سـألته عـن جنّـة آدم، فقـال: **جنّة آدم من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر ولو كانت مـن جنـان الخلد ما خرج منها أبداً.**[1]

ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام... ثُمَّ أَسْكَنَ الله سُـبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَـدَ فِيهَـا عَيْشَهُ وَ آمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ...[2]

ـ عن الصادق عليه السلام: انّما كان لبث آدم وحواء في الجنّة حتـى خرجـا منها سبع ساعات من ايام الدنيا حتى اهبطهما تعالى من يومهما ذلك.[3]

اشارة أ: الدنيا في مقابل الآخرة، ولذلك فهي تشمل الموجـودات السماويّة، لانّ الدنيا ليـست مرادفـة لـلأرض، لـذلك فـانّ الموجـود

---

١. **علل الشرائع**، ج ٢، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٨٠؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٢، ح ١١٧.

٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٢، ح ١٢٢؛ **نهج البلاغة**، الخطبة ١، المقطع ٣١.

٣. **كتاب الخصال**، ج ٢، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٢.

السماويّ الذي لا يوجد في الأرض يعتبر مصداقاً للموجود الدنيوي وان هبط إلى الأرض.

ب: طلوع الشمس والقمر الذي يقترن بوجود الليل والنهار ممكن في غير القيامة الكبرى، أي انّ الموجود الذي ليس اخروياً بمعنى القيامة الكبرى يمكن أن يكون له ليل ونهار، كما جاء في الآيات ١٠٧ و١٠٨ من سورة (هود) حيث يظهر من بعض الوجوه في تفسير الآيتين انّ السماء والأرض موجودتان بالنسبة للموجود البرزخي الذي ليس هو في القيامة الكبرى.

ج: انّ الخروج من الجنّة المعهودة لآدم، يدلّ على انّ تلك الجنّة ليست هي جنّة الخلد التي توجد في القيامة الكبرى، ولكنّه لا يدلّ على انّها كانت في الدنيا الماديّة. وخلاصة القول هي انّ طلوع الشمس والقمر موجود في البرزخ، كما انّ الخروج من الجنّة البرزخية معقول وممكن، بل هو متحقق.

طبعاً ينبغي أن يذكر للدنيا في مقابل القيامة الكبرى معنىً شاملٌ للبرزخ أيضاً، ومثل هذا المعنى قابل للاستنباط من القرآن الكريم، وسوف يشار إليه في محله.

د: الموجود البرزخي قابل للانقسام إلى البرزخ النزولي والبرزخ الصعودي وغير ذلك، واذا كانت جنّة آدمعليه السلام برزخية فلا يراد بذلك حصراً البرزخ الواقع في ما بعد الموت الذي يكون بين الدنيا والقيامة الكبرى.

٢. ارادة الله:

عن ابي الحسنعليه السلام: **انّ لله ارادتين ومشيئتين: ارادة حتم وارادة عزم، ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء، أو ما رأيت انّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا**

من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيتهما مشيئة الله، وأمر ابراهيم أن يذبح اسحق (اسماعيل خ ل) ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيئة ابراهيم مشيئة الله.[١]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: **أمر الله ولم يشأ وشاء ولم يأمر، أمر ابليس أن يسجد لآدم وشاء ان لا يسجد، ونهى آدم عن أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها ولو لم يشأ لم يأكل.**[٢]

اشارة أ: الفرق بين الارادة والمشيئة وعدم الفرق بينهما يحتاج إلى بحث خاص وهو لا ضرورة له فعلاً، والروايات المذكورة ايضاً ليست ناظرة إلى التفريق فيما بين هذين الاثنين.

ب: اختلاف الارادات فيما بينها، وكذلك اختلاف المشيئات فيما بينها، هو الذي اشارت إليه الأحاديث المذكورة، ومن الواضح انّ الارادة التشريعية لا تجتمع مع عدم الارادة التشريعية، كما انّ المشيئة التشريعية لا تجتمع مع عدمها، والاّ للزم محذور الجمع بين النقيضين، ولكنّ الارادة التشريعية قابلة جداً للجمع مع عدم المشيئة التكوينية، وكذلك المشيئة التكوينية قابلة للجمع مع الكراهة التشريعية أو مع عدم الارادة التشريعية، ولا يوجد أيُّ محذور في البين.

٣. نوع الشجرة المنهيّ عنها:

ـ عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام يا ابن رسول

---

١. **الكافي**، ج ١، ص ١٥١؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٢، ح ١٢٠؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٨٤.
٢. **الكافي**، ج ١، ص ١٥٠؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٨٤، ح ٩.

الله! أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها فمنهم من يروي انّها الحنطة، ومنهم من يروي انّها العنب، ومنهم من يروي انّها شجرة الحسد. فقال عليه السلام: **كلّ ذلك حقٌّ**. قلت فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟ فقال: **يا ابا الصلت! انّ شجرة الجنّة تحمل انواعاً، وكان شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدنيا...**[1]

ـ عن علي عليه السلام: **هي شجرة الكافور.**[2]

ـ عن العسكري عليه السلام: **﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِه الشَّجَرَةَ﴾ شجرة العلم شجرة علم محمد وآل محمد** عليهم السلام **الذين آثرهم الله عزّ وجلّ به دون سائر خلقه. فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِه الشَّجَرَةَ﴾ شجرة العلم فانّها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله الاّ هم، ومنها ما كان تناوله النبي** صلى الله عليه وآله **وعليّ وفاطمة والحسن والحسين** عليهم السلام**، بعد اطعامهم اليتيم والمسكين والأسير حتّى لم يحسّوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نصب، وهي شجرة تميّزت بين أشجار الجنّة. انّ اثر اشجار الجنّة كان كلّ نوع منها يحمل نوعاً من الثمار والمأكول، وكانت هذه الشجرة تحمل البرّ والعنب والتين والعنّاب وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة. فلذلك اختلف الحاكون لذكر الشجرة فقال بعضهم: هي بُرّة، وقال آخرون: هي عنبة، وقال آخرون: هي تينة، وقال آخرون: هي عنّابة...**[3]

---

١. **عيون اخبار الرضا**، ج ١، ص ٢٧٤؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٨٧، ح ١٣؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٠، ح ١١٢.

٢. **مجمع البيان**، ج ١، ص ١٩٥؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٠، ح ١١٣.

٣. **التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري**، ص ١٨١؛ **البرهان**، ج ١، ص ١٧٨.

ـ عن ابن عباس: الشجرة التي نهى الله آدم عنها، السنبلة (أو البُرّ).[١]

اشارة: حول الشجرة المنهيّ عنها في هذه الآية والسرّ في اختلاف الروايات المذكورة، فمن الممكن أن تكون بعض الروايات ناظرة إلى التفسير المفهومي، وبعضها تبيّن التطبيق المصداقي والبعض منهما من سنخ التنزيل، والبعض من باب التأويل أو انّ بعضها من قبيل التفسير بالظاهر والبعض من باب التفسير بالباطن. وهذه المسألة الخاصة تدل على انّ الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا يتكلمون مع كل أحد على قدر ادراكه وفهمه، كما في التفاسير الروائية الواردة في ذيل الآية الكريمة ﴿**ن وَالْقَلَمِ**...﴾ حيث انّ بعض الروايات فسّرت القلم بهذه الأداة المعروفة التي تستخدم للكتابة، ورواية اخرى فسّرته بانه النهر الجاري الذي أمر الله بأن يجمد ويتحول إلى مداد،[٢] وفسّر ايضاً في موضع بالنور الساطع،[٣] وجاء في بعض الروايات في معنى اللوح والقلم (**هما ملكان**)،[٤] ثمَّ يقول الإمام عليه السلام في ذيل رواية اخرى، قم فانّني لا أستطيع أن أتحدث معك بأكثر من هذا، وهذا المكان ليس آمناً ايضاً. وهذا يدلّ على انّ الإنسان اذا كان يملك استعداداً أعلى وقابلية اكبر للفهم، فانّ الإمام عليه السلام يغدق عليه بمعارف الطف واعمق.

وأثناء العصر الذي كانت فيه الحكومة العباسية متّفقة مع الأشاعرة كان ادراك هذا النحو من المعارف صعباً جداً، وكان نشرها وترويجها

١. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٢٩.
٢. **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٠٥؛ **البرهان**، ج ٨، ص ٨٤ – ٨٥.
٣. **الاختصاص**، ص ٤٩؛ **بحار الأنوار**، ج ٩، ص ٣٤٢.
٤. **معاني الأخبار**، ص ٣٠؛ **البرهان**، ج ٨ ص ٨٥

اصعب، لأنّ الأشاعرة كانوا يؤكدون على الاكتفاء بظواهر الألفاظ فقط، وكانت حكومة العصر وبسبب جمودها وتحجرها واعتقادها بالجبر، تؤيدهم وترعاهم وكانت تؤكد بشدة على عدم طرح المسائل التي تُشمُّ منها رائحة الولاية والمعنوية والتعقل والفهم.

والقرآن الكريم هو بمثابة الحبل الذي طرف منه بيد الله، والطرف الآخر منه بيد الناس، والطرف الذي بيد الله (عليّ) و(حكيم)، ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1] وهناك لا محلّ للألفاظ والكلمات والوضع والجعل، ولا حديث عن العبرية والعربية والفارسية أو غيرها، لانّ تلك الحقيقة كانت موجودةً قبل خلق السماء والأرض والبشر وقبل نشوء اللغات، واللغات هي من العلوم الاعتبارية التابعة لاعتبار الواضعين والادباء. ولذلك فقد يكون اللفظ الذي وضع في لغة معيّنة لعدد من المعاني مهملاً ولا معنى له في لغة اُخرى. وعندما يخرج الانسان من نطاق الاعتبار والوضع فانّه سوف يرى وجهاً آخر للقرآن وهو الذي بيّنته الآية الكريمة ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.[2]

طبعاً لأجل الوصول الى ذلك الوجه وتلك الحقيقة، لابدّ من اجتياز مرحلة الظواهر والعبور من دائرة قوانين واحكام اللغة العربية، لانّ الذي يستطيعه البشر هو هذا العربي المبين ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾،[3] ولأجل

١. سورة الزخرف، الآية ٤.

٢. سورة النمل، الآية ٦.

٣. سورة الزخرف، الآية ٣.

الوصول الى باطن وحقيقة القرآن فانّه لا يتيسّر للإنسان أن يغضّ الطرف عن الظاهر، وانّما يصل الانسان الى باطن القرآن عن طريق الظاهر ومراعاته فقط.

وبعد هذه المقدمة نصل الى تبيين الروايات الواردة في تفسير الشجرة الممنوعة، والتي نقلها المحدث والحكيم، الفيض الكاشاني رحمه الله.

الرواية الاولى نقلها عن تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام، والتي تقول انّ الشجرة المنهي عنها هي شجرة علم محمد وآل محمد التي اختصهم الله بها، «**انّها شجرة علم محمد وآل محمد، آثرهم الله تعالى بها دون سائر خلقه لا يتناول منها بأمر الله الاّ هم**».

ثم يقول: ومن هذه الشجرة تناول النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة عليهما السلام والحسن والحسين عليهما السلام بعد اطعامهم المسكين واليتيم والأسير، وبواسطتها اصبحوا لا يشعرون بالجوع والعطش ولا بالتعب والضنا «**ومنها ما كان يتناوله النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام بعد اطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسّوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نَصَب**»[1] ثم يقول: «**وهي شجرة تميّزت من بين سائر الأشجار بانّ كلاّ منها انّما يحمل نوعاً من الثمار، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البرّ والعنب والتين والعنّاب وسائر انواع الثمار والفواكه والأطعمة**» ثم يقول: «**فلذلك اختلف الحاكون بذكرها فقال بعضهم: بُرّة، وقال آخرون: هي عنبة، وقال آخرون: هي عنّابة**».

---

١. كما ورد في حق امير المؤمنين علي عليه السلام لما دعا له الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فلم يحس بعدها بألم البرد والحر وكان يرتدي ثوباً واحداً في الصيف والشتاء (**بحار الأنوار**، ج ٨٩، ص ٨٦).

وفي آخر الحديث يقول «**وهي الشجرة التي من تناول منها باذن الله ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلّم، ومن تناول بغير اذن الله خاب من مراده وعصى ربّه**».[1]

والروايتان الثانية والثالثة اللتان ذكرهما الفيض رحمه الله على نحو الاشارة تؤكّد إحداهما وتقول: بان الشجرة الممنوعة تنطبق على الحسد والاخرى تقول بانها شجرة الكافور.

والرواية الرابعة من كتاب «**عيون الاخبار**» عن الإمام الرضا عليه السلام لمّا سُئل الإمام: انّ الناس اختلفوا في الشجرة المنهي عنها، فقال البعض: انها الحنطة، وقال البعض: انها العنب،وبعض قال: انها الحسد، فأجاب الإمام عليه السلام : «**كلٌّ ذلك حقّ**» فسأله الراوي (ابو الصلت الهروي) في سرّ الاختلاف في التفسير، فقال الإمام عليه السلام: انّ شجرة الجنّة (خلافاً لشجر الدنيا) تحمل انواعاً مختلفة من الثمار، والشجرة الممنوعة كانت حنطة وتحمل معها العنب ايضاً، وعندما أكرم الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له وأدخله الجنّة، قال آدم في نفسه: هل خلق الله بشراً خيراً منّي؟ فأتاه الخطاب من قبل الله (الذي يعلم بما تحدّث به آدم في نفسه) ياآدم ارفع رأسك وانظر الى ساق العرش، فنظر آدم الى ساق العرش فرأى مكتوباً عليه «**لا اله الاّ الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن ابي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة**».

فقال: يارب! من هم هؤلاء؟ فقال تعالى «**هؤلاء من ذريّتك وهم خير**

---

١. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٢؛ **بحار الأنوار**، ج ١١، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

منك ومن جميع خلقي، ولولاهم ما خلقتك ولا خلقت الجنّة والنار ولا السماء ولا الأرض».[١]

ثم قال «**فايّاك أن تنظر إليهم بعين الحسد، فاخرجك عن جواري**» لكنّ آدم نظر اليهم بعين الحسد[٢] وتمنى مقامهم، فكانت عاقبته أن تسلط الشيطان عليه، وكان نتيجة سلطة الشيطان، هو الأكل من الشجرة الممنوعة، ومن ناحية اخرى فانّ حواء ايضاً وبسبب نظرها بعين الحسد للسيدة فاطمة عليها السلام، فقد تسلّط عليها الشيطان فأوقعها فيما وقع فيه آدم من الأكل من الشجرة المذكورة وبالنتيجة فانّ الله اخرجهما كليهما من الجنّة، وأهبطهما من جواره الى جهة الأرض:

«**فنظر اليهم بعين الحسد، وتمنى منزلتهم فتسلّط عليه الشيطان حتى أكل من الشجرة، التي نهي عنها وتسلّط على حواء لنظرها الى فاطمة بعين الحسد، حتى أكلت من الشجرة كما أكل آدم، فأخرجهما الله تعالى عن جنّته، واهبطهما عن جواره الى الأرض**».[٣]

ومن مجموع هذه الروايات المذكورة تظهر بعض المميزات والخصائص للشجرة الممنوعة والتي لابدّ من توضيحها وتوجيهها كما يلي:-

---

١. هذه العبارة أعلى درجة أيضاً من عبارة الحديث المعروف «**لولاك ما خلقت الأفلاك**» (بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٢٨) لانّ في ذلك الحديث ذكرت الأفلاك فقط، لكن في هذا الحديث ذكرت جميع الموجودات).

٢. أي بمعنى الغبطة، لانّ آدم تمنى أن يبلغ هو ذلك المقام أيضاً، لا أن يسلب هذا المقام الرفيع منهم ويعطى له. وهذه الغبطة ممدوحة، وهي شبيهة بالنزاع الموجود بين الملائكة في الملأ الأعلى. والشاهد على هذا الادّعاء هو الجملة التالية حيث يقول (**وتمنّى منزلتهم**) اي تمنى مثل مقامهم ولم يتمنّ زوال مقام اولئك وتحويله اليه.

٣. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، **معاني الأخبار**، ص ١٢٤.

١. هذه الشجرة من مختصّات محمد وآل محمدﷺ ولا سبيل للآخرين اليها الاّ باذن الله.

٢. من وصل الى هذه الشجرة «باذن الله» وتناول منها فقد حصل على علم الأولين والآخرين.

٣. كلّ من تناول منها بغير اذن الله فقد عصى ربّه ووقع في الخيبة والحرمان.

٤. انها شجرة تختلف عن اشجار الدنيا لانّ فيها ثماراً متنوعة.

٥. اضافة الى تعدد انواع ثمارها، فانّ ثمارها مختلفة من ناحية اخرى، فكما انّها ثمار مادّية فكذلك هي معنوية أيضاً، وكما انّ فيها العنب والعنّاب فكذلك فيها ثمرة العلم.

وبسبب هذه الخصائص والتنوّع، فانّ الشيخ الفيض‏رحمه الله وبعد نقله لهذه الروايات فقد انبرى لتفسيرها وتوضيحها فقال:

كما انّ لبدن الانسان غذاء من الحبوب والفواكه، كذلك لروحه غذاء من العلوم والمعارف، وكما انّ لغذاء بدنه أشجاراً تُنتجه، فكذلك لغذاء روحه اشجار تُنتجه. ولكلّ صنف منه ما يليق به من الغذاء والأشجار؛ فانّ من الانسان من يغلب فيه حكم البدن على حكم الروح، فهو يتمتّع بالغذاء الجسميّ والماديّ، ومنه من هو بالعكس، أي يغلب فيه حكم الروح على حكم البدن، فهو يتمتّع بالغذاء والأشجار المعنويّة، ولهم في ذلك درجات يتفاضل بها بعضهم على بعض ولأهل الدرجة العليا كل ما لأهل الدرجة السفلى وزيادة، ولكلّ فاكهة في العالم الجسماني مثال في العالم الروحاني مناسب لها.

ولهذا فسِّرت الشجرة تارة بشجرة الفواكه (باعتبار الوجـود المـاديّ) وأخرى بشجرة العلوم (باعتبار تحقّقها في العالم الأعلى)، وكـأن شـجرة علم محمد ﷺ إشارة إلـى المحبوبيـة الكاملـة عنـد الله، وهـي المثمـرة لجميع الكمالات الإنسانية المقتضية للتوحيد المحمّدي، الذي هو الفنـاء في الله والبقاء في الله المُشار اليه بقوله ﷺ: **«لي مع الله وقـت لا يـسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل»**[١] فإنّ فيها من ثمار المعارف كلّها وشجرة الكافور إشارة إلى بـرد اليقـين الموجـب للطمأنينـة الكاملـة المـستلزمة للخلق العظيم الذي كان لنبيّنا ﷺ ودونه لأهل البيت عليهم السلام. وشجرة الحـسد أيضاً باعتبار أنّ منشأ الاقتراب إلى تلك الشجرة الرفيعة هو الحسد، ومن هنا ذهب أهل التأويل إلى أنّ الشجرة هي شـجرة الهـوى والطبيعـة. إذن فلا منافاة بين الروايات ولا بينها وبين مـا قالـه أهـل التأويـل ومـع أنّهـا شجرة الهوى والطبيعة لأن قربها إنما يكون بالهوى والشهوة الطبيعية.[٢]

و ممّا تقدم ومن البيان اللطيف الذي أدلى بـه الـشيخ الفـيض يظهـر كيف أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول لأبي حنيفة **«وما ورثّك الله مـن الكتـاب حرفاً»**،[٣] وذلك لأنّ المعارف القرآنية إذا كانـت بهـذا النحـو مـن العمـق والدقّة فإنّ إرثها يحتاج إلى ارتباط معنـوي بـالقرآن والعتـرة، لأنّ الإرث يستند إلى اللُحمـة والارتبـاط، وأبـو حنيفـة محـروم مـن هـذه اللُحمـة والقرابة، ولو كان مقصود الإمام هو الاعتباريات والعلوم المدرسـيّة، فـإن

١. **بحار الأنوار**، ج ٧٩، ص ٢٤٣.
٢. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٣.
٣. **علل الشرائع**، ج ١، ص ١١٢؛ **بحار الأنوار**، ج ٢، ص ٢٩٣.



ابواب المدرسة مفتوحة للجميع، وابو حنيفة الفقيه والمرجع في الفتوى لأهل السنة لم يكن صفر اليد منها.

ويمكن أن يقال: انّ آدم كان عالماً بجميع الأسماء، فكيف لم يحظ بهذه العلوم؟ والجواب هو انّ آدم وان كان عالماً بجميع الأسماء، لكنّ درجات العلم بهذه الأسماء مختلفة ايضاً، فجميع الأنبياء كانوا عالمين بجميع الأسماء، لكنّ اعظم وأعلى درجة للعلم بجميع الأسماء كانت لمحمد وآل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين)، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾،[1] ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾[2] وروى الشيخ المفيد في عدّة مواضع من كتاب **الأمالي** عن الإمام علي عليه السلام انه قال: انني أول من آمن برسول الله وصدق به، وآدم لم يكتمل بعد من الناحية الجسدية ولم تسجد له الملائكة: «**صدّقته وآدم بين الروح والجسد**».[3]

تنويه أ: مع غضّ النظر عن سند هذا النحو من الروايات، وعدم ملاحظة انّ الاحاديث المذكورة على فرض صحة سندها، فليس لها أثر عملي في المسائل غير الفقهية، مع ذلك يمكن القول انّ الروايات الواردة في هذا الباب اذا كانت تقصد الشجرة المادّية الدنيوية، فهي تعدّ متعارضة فيما بينها حتماً، ولكن اذا كانت تقصد الشجرة البرزخية والجنّة المعهودة لآدم، فهي من سنخ المثبتات ولا تعارض بينها، لانّ

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٢٥٣.

٢. **سورة الاسراء**، الآية ٥٥.

٣. **الأمالي**، للمفيد، المجلس الأول ٣٦؛ **بحار الأنوار**، ج ٦، ص ١٧٩.

الشجرة غير المادية وكما جاء في الحديث المذكور قادرة على أن تعطي عدّة انواع من الثمار.

ب: انّ مراتب أولياء الله مختلفة أيضاً كدرجات الأنبياء والمرسلين، فمن الممكن ان تكون بعض أشجار طوبى مختصة بالأولياء العظام بحيث لو امتدت اليها يد غيرهم لصعقوا و﴿**بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**﴾،[1] كالذي حصل لموسى الكليم عليه السلام عندما تمنّى فدهش وصعق كما قال تعالى: ﴿**خَرَّ موسَى صَعِقًا**﴾.[2] طبعاً هذا المعنى ممكن ثبوتاً، لكن ليس من السهل تطبيقه مع الآيات النازلة في هذا الموضوع.

---

١. سورة الأعراف، الآية ٢٢.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

خلاصة التفسير

بعد النهي الإلهي عن التناول من الشجرة الممنوعة، تحرك الشيطان واستطاع بواسطة الوسوسة أن يوفّر الأرضية والأجواء التي أدّت الى هبوط آدم وحواء من المنزلة التي كانا فيها، والتي اشير اليها في القسم الأول من الآية. وتحدث القسم الثاني من الآية عن عدم أهليتهما للبقاء في الجنّة وبالنتيجة هبوطهما من ربوع الراحة والأمان وأجواء الجنّة الخالية من الآلام والأتعاب الى دار التعب والضنا ومحل النزاع والعداء أي الأرض.

والوجه في مجيء الخطاب في صيغة الجمع (**اهبطوا**) هو شموله لأبليس، وهذا دليل على انّ ابليس وان كان قد اخرج من الجنّة على اثر تمرده واستكباره عن السجود لآدم، فانّه تسلل اليها ثانية، وعليه يكون

لابليس نحوان من الهبوط، هبوط من مقام ومحلّ الملائكة، وهبوط من الجنّة التي تمكن من دخولها بنحو مؤقت لأجل اغواء آدم وحواء.

والمقصود من عداوة البعض للآخر في عبارة ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ هو عداوة الناس بعضهم للآخر بسبب وسوسة الشيطان واغوائه أو المقصود هو العداء الأصلي للشيطان مع الإنسان، أو انّ المقصود هو كلا النوعين من العداوة.

كلمة ﴿**إِلَى حِينٍ**﴾ دليل على عدم الاستقرار الدائم في الأرض وعدم استمرار تمتع الإنسان بالحياة الدنيا. وعبارة ﴿**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ علاوة على كونها تدلّ على جعل الأرض مقراً ومحلاً لتمتّع الإنسان فهي تفيد بانّ جميع انواع العداء والنزاع سوف تنتهي الى يوم فصل الخصام وتفضّ بالاحتكام الى محكمة العدل الإلهي.

التفسير

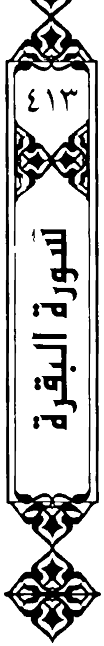
فأزلّهما: (الازلال) من الزلّة بمعنى التسبيب في الوقوع في الزلل، وقد عبَّر في موضع آخر عن أساس الازلال (بالوسوسة) فقال ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**﴾،[1] وامّا كيف تمَّ الازلال والوسوسة، وفي الأصل ما هو السبيل الذي من خلاله يخدع الشيطان الإنسان ويوقعه في الزلل والانحراف، فسوف يأتي الحديث عنه في مبحث لطائف وإشارات.[2]

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠.

٢. راجع نفس هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٤٣٩ـ٤٤٦، من الترجمة العربية.





فأخرجهما: انّ الوجه في اسناد الاخراج الى الشيطان مع انّ الله قد اخرجهما من المقام الذي كانا فيه، هو انّ الشيطان كان سبباً للاخراج حيث انّ وسوسته هي التي أدّت الى حصول الاخراج.

ممّا: المقصود من (ما) في قوله ﴿**مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ هو تلك النعمة والمقام الذي كان فيه آدم وحواء، والتعبير يفيد التفخيم والتعظيم، ونظراً الى انّ عبارة **كانا** تدل على استقرارهما في المقام والنعمة، فانّ رسالة التحذير التي تستفاد من هذه العبارة هي انّ الشيطان استطاع ان يُزِلَّ اللّذين كانا مستقرين في الجنّة ويوقعهما في الانحراف، اذن من السهل عليه أن يُضلّ ويغوي غيرهم، اي اذا كان الفرد الذي اصبحت الفضيلة ملكة عنده لا يأمن خطر الزلل والاغواء، فانّ من كانت الفضيلة لديه في مستوى الحال، سوف لن يكون حتماً في أمن من الزلل والانحراف.

عدوّ: أصل العداوة من التعدّي والتجاوز، وسُمّي الركض «عدواً» بسبب تجاوز القدم فيه، وكلٌّ من يتجاوز حده، ويصل الى الحريم القانوني للآخرين فهو يعتبر عدوّاً، ومثل هذا التجاوز هو السجيّة المتأصلة في ابليس في مقابل الإنسان. وكما سبق بيانه، فانّ كلّ ما يظهر لدى بني آدم من تجاوز وعداء فهو نتيجة لاغواء الشيطان وهذه العداوة هي العامل الذي يؤدي الى الهبوط مرجوماً مذموماً مدحوراً، كما انّ المحبّة والصداقة في المقابل سوف تكون سبباً للصعود محموداً وممدوحاً، وهذا الصعود والهبوط سوف تظهر آثاره وعلاماته في ساهرة القيامة حيث انها «خافضة» و«رافعة».

تناسب الآيات:

بعد النهي الإلهي عن التصرف في الشجرة الممنوعة، تحرك الشيطان واستطاع بواسطة الوسوسة أن يصنع الأرضية والأجواء التي ادّت الى هبوط آدم وحواء من منزلتهما التي كانا فيها. وعندها جاءهما الخطاب: والآن حيث وقعتما في زلل الشيطان فلستما أهلاً للبقاء في الجنّة، فاهبطوا الى الأرض، وانتقلوا من دار الأمن والجنّة الخالية من الألم والضنا الى دار التعب والنصب ومحل العداوات والنزاعات الى حين من الزمن.

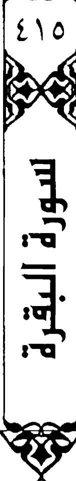
ففي القسم الأول من الآية يذكر وسوسة الشيطان وما سبّبته من زلل لآدم وحواء ادّى الى اخراجهما من الجنّة وهبوطهما من المقام الذي كانا فيه: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾.

وفي القسم الثاني من الآية يقول ايضاً: بعد الزلّة التي صدرت منهما وسقوطهما من مقامهما السابق جاءهما الخطاب أن اهبطوا!: ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾.

نحوان من الهبوط للشيطان:

في مسألة الهبوط، ورد الخطاب تارة بصيغة التثنية وفي خصوص آدم وحواء فقال: ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾[1] وذلك لانّ الشيطان قد خرج من قبل من الجنّة وهبط منها، ولكنّ في الآية محل البحث جاء الخطاب بصيغة الجمع (اهبطوا) وهو شامل لأبليس أيضاً، وهذا يدل على انّه كان موجوداً في الجنّة على نحو بحيث شمله ذلك الخطاب. ولذلك فسوف

١. سورة طه، الآية ١٢٣.



يجاب في مبحث لطائف وإشارات على السؤال عن كيفية تسلل الشيطان مرة اخرى الى الجنّة بعد خروجه منها.[1]

والشاهد على هذا الحضور هو الحوار الذي جرى بين آدم وحواء مع الشيطان والذي قال فيه الشيطان لآدم: ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى**﴾.[2] أو خطابه لآدم وحواء حيث قال لهما: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾[3] وكذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾[4] ومن قول الله تعالى مخاطباً آدم ايضاً في الآية الكريمة: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ**﴾[5] ومن الواضح بانّ المحاورة بين آدم وابليس تستلزم حضور الطرفين، كما انّ التعبير بكلمة (هذا) دليل على حضور ابليس.

ويظهر مما سبق انّ للشيطان نحوين من الهبوط: الأول هو الهبوط من مقام ومحل الملائكة الذي حصل له بعد الاستكبار عن السجود لآدم، ولازم ذلك هو الهبوط من الجنّة بما أنّها مقام وشأن رفيع والآية الكريمة: ﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[6] تشير الى ذلك، والهبوط الآخر هو الهبوط من الجنّة بما

---

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج٣)، ص ٤٣٧، من الترجمة العربية.

٢. **سورة طه**، الآية ١٢٠.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠.

٤. **سورة الأعراف**، الآية ٢١.

٥. **سورة طه**، الآية ١١٧.

٦. **سورة الأعراف**، الآية ١٣.

هي مسكن مؤقت تسلّل اليه لأجل اغواء آدم وحواء، وهذا الهبوط تحقّق بعد اغواء آدم وحواء وقد تمّ برفقتهما.

ويمكن أن يقال: انّ هذا الكلام لا يخلو من اشكال؛ لانّه مبني على التسليم بانّ الوجه في الخطاب بصيغة الجمع (**اهبطوا**) هو دخول الشيطان ومشاركته مع آدم وحواء،[1] في حين انّ السرّ في مجيء الخطاب بصيغة الجمع هو النظر الى ذريّة آدم وحواء في الخطاب، طبقاً لما اختاره امين الإسلام الطبرسي.[2] وبعبارة اخرى فانّ آدم وحواء هما الأصل لجميع افراد الانسانية والأصل لكلّ جماعة بمنزلة جميعهم، وانّ الشيطان غير مشمول اصلاً بهذا الخطاب، لانّه بهبوطه السابق من مقام الملائكة بعد الاستكبار عن السجود قد خرج من الجنّة ايضاً ولا معنى للهبوط الثاني، والتسلل لفترة محدودة لأجل القيام بعمل الاغواء والشيطنة، لا يُعدّ سكناً وصعوداً حتى يستوجب هبوطاً وسقوطاً آخر.

والشاهد على هذا الأمر وهو انّ الشيطان ليس مشمولاً بخطاب (**اهبطوا**) هو **أوّلاً**، الآية الكريمة: ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾ حيث انّه مع كون الخطاب بصيغة التثنية ويدل على عدم شمول الشيطان بهذا الخطاب، فانّه جاء مع قيد «**جميعاً**» الذي يدل على النظر الى نسل وذرية هذين المخاطبين. **وثانياً**، قوله تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى...**﴾[3] الذي جاء ذكره في بقية الآية محلّ البحث، وجملة: ﴿**فَإِمَّا**

١. **آلاء الرحمن**، ج ١، ص ١٧٨.
٢. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٤.
٣. **سورة البقرة**، الآية ٣٨.



يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ التي جاءت بعد قوله تعالى: ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾ حيث لاشك انّ المقصود من الضمير (كم) في قوله ﴿**يَأْتِيَنَّكُم**﴾ هو آدم وحواء وذريّتهما، اذن فوحدة السياق تقتضي أن يكونوا هم المقصودين من قوله: ﴿**اهْبِطُوا**﴾.

والجواب على هذا **اوّلاً**، انّ الذي يشكّل العنصرين الأساسيين في صدر الآية هو الموقف العدائي لابليس في قبال آدم وحواء، والمتمثل بازلالهما من جهة واخراجهما من جهة اخرى، وفي مثل هذا السياق الذي يسيطر فيه على جوّ الآية بيان العداء فانّ ذيل الآية سوف يكون له ظهور في عداء ابليس لآدم وحواء. واذا كان هناك عداوة متبادلة بين ذرية آدم وحواء، مثل عداوة الكفار والمنافقين للمؤمنين، وكون المؤمنين ﴿**أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ**﴾[1] فان الأصل في هذه الأمور وفي عداء الكفّار والمنافقين للمؤمنين يعود في الأصل الى مكر ابليس ودسائسه.

ثانياً، انّ الآية ٣٨ التي سوف تبحث قريباً شاملة لابليس أيضاً، لانّ الشيطان من الجنّ، والجنّ كالانس محكوم بالشريعة والمنهاج ومأمور بقبول الدين الإلهي اي الإسلام وليس خارجاً من دائرة التكليف أبداً. وبهذا التحليل يتّضح عدم تماميّة استنباط الزمخشري[2] بانّ ابليس ليس مخاطباً بأمر ﴿**اهْبِطُوا**﴾ وكذلك استظهار صدر المتألهين القائل بانّ اختصاص الخطاب بآدم وحواء اولى.[3]

---

١. **سورة الفتح**، الآية ٢٩.

٢. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٨.

٣. **تفسير القرآن الكريم**، صدر المتألهين، ج ٣، ص ١٠٩.

تنويه ١. انّ هبوط ابليس كان سقوطاً من المنزلة والمقام، ولكنّ هبوط آدم المقترن بحفظ كرامته كان نزولاً الى الأرض؛ يعني انّ الاستقرار في الأرض كان مشتركاً بين آدم وابليس، لكن ابليس جاء الى الأرض بعد فقدانه لمنزلته السابقة، وآدمعليه السلام استقر في الأرض مع حفظ درجته السابقة.

٢. مما تقدم يتضح توجيه رأي العلامة الطباطبائيقدس سره حول خطاب الهبوط، فهو يقول:[١]

ان خطاب اهبطوا الذي خوطب به آدم وحواء وابليس هو بمثابة الجمع بين الخطابين الآخرين: الأول، الخطاب الذي ذكر في سورة الأعراف والموجه الى خصوص ابليس وهو قوله تعالى: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا...**﴾،[٢] والآخر هو الخطاب الذي ذكر في سورة طه والموجّه الى خصوص آدم وحواء اي قوله تعالى: ﴿**اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾.[٣]

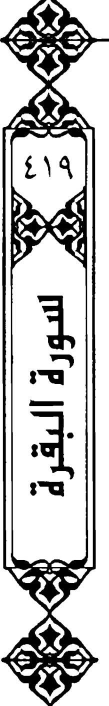
وتوجيه هذا الكلام هو انّ المنزلة التي سقط منها الشيطان بخطاب ﴿**اهْبِط**﴾ والمنزلة التي هبط منها آدم وحواء بخطاب ﴿**اهْبِطَا**﴾ تشتركان في معنى جامع شامل للمنزلتين ولا يختص بأحدهما، لانّه لا يشترط ابداً اتّحاد الدرجة أو الخصوصية في صدور الخطاب المشترك، أي ليس من اللاّزم لأجل صدور الخطاب المشترك ﴿**اهْبِطُوا**﴾ في الآية محلّ البحث، أن تكون منزلة آدم وحواء أي الجنّة

---

١. راجع: **الميزان**، ج ١، ص ١٣٢.

٢. سورة **الأعراف**، الآية ١٣.

٣. سورة **طه**، الآية ١٢٣.



التي ذكرت اوصافها في سورة طه ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾،[1] هي نفس المنزلة التي هبط منها ابليس، اذ مع انّ المنزلة في آية ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ والتي يرجع اليها ضمير (منها) هي منزلة الملائكة (وابليس قبل الاستكبار عن السجود لآدم كان في تلك المنزلة وكان الى جانب الملائكة وبخطاب ﴿اهْبِطْ مِنْهَا﴾ سقط منها) وهي غير منزلة جنّة آدم وحواء، لكنّه مع هذا فلا مانع من صدور الخطاب المشترك ﴿اهْبِطُوا﴾.

الشيطان، المحور الأصلي للعداوة:

انّ المقصود من عداوة البعض للبعض الآخر في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يمكن أن يكون عداوة الناس فيما بينهم بسبب وسوسة وايحاءات الشيطان، وكذلك يمكن أيضاً أن تكون العداوة المتأصلة لدى الشيطان بالنسبة الى الناس، ويمكن ايضاً ان يكون كلاهما مقصودين، اي العداوة الأصلية عند الشيطان في قبال بني آدم، والعداوة المتفرعة منها التي تحصل عند الناس فيما بينهم بسبب القاءات الشيطان والتي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾،[2] أي انّ الشيطان يريد أن يوجد العداوة والحقد والتباغض بين الناس بواسطة شرب الخمر واللعب بالقمار، ولاشك انّ الخمر والقمار ذكرا بعنوان مثال، لانّ طريق ايجاد العداوة بين الناس لا

---

١. **سورة طه**، الآيات ١١٨ ـ ١١٩.

٢. **سورة المائدة**، الآية ٩١.

ينحصر بهذين الأمرين، بل انّ الكثير من المعاصي والذنوب الاخرى تدفع الناس الى التباغض وتوقعهم في العداوة فيما بينهم.

وفي سورة الكهف ايضاً يقول تعالى: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾،[1] اذن فالخطاب ليس مختصاً بآدم وذريّته كما يقول الزمخشري، ولا هو مختص بابليس والانسان كما يقول صاحب المنار.[2]

وفي صورة كون المخاطب في قوله: ﴿**اهْبِطُوا**﴾ هو آدم وحواء وذريتهما كما تقدم القول عن امين الإسلام، فانّ مقتضى وحدة السياق أن يكون المقصود من الضمير «كم» في ﴿**بَعْضُكُمْ**﴾ هم ايضاً. وعليه تكون عداوة البعض للبعض هي عداوة الناس فيما بينهم، وليس في الآية نظر الى عداوة الشيطان للناس. ولذلك فان بعض المفسرين كالشيخ أمين الإسلام[3] فسَّر جملة: ﴿**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ بعداوة الناس فيما بينهم فقط.

لكن كما تمَّ الاستنباط من وحدة سياق الآية والانسجام بين صدرها وذيلها، فان خطاب اهبطوا، شامل للثلاثة آدم وحواء وابليس، كذلك ضمير الجمع في ﴿**بَعْضُكُمْ**﴾ يحوي جميع اضلاع ذلك المثلث، لانّ اساس العداوة ومحورها الأصلي هو الشيطان، وكلّ ما يتحقّق من عداوة وبغضاء في الجنس البشري فانّ أساسها ينشأ من وسوسة ابليس، حتى العداوة التي تحصل بين الأب وولده والتي تشير اليها الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ**

---

١. **سورة الكهف**، الآية ٥٠.

٢. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٧٨.

٣. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٤.

مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[1] فانّما هي من صنع المكر الشيطاني المدمّر، حيث يوجد المحبّة الكاذبة التي تدفع الأب نحو الكسب الحرام وجمع المال من الطرق غير المشروعة، ليأخذه ولده فيصرفه في المجالات المحرّمة.

عاقبة التمتع والعداوة:

كلمة ﴿إِلَى حِينٍ﴾ التي يقصد بها (الى حين الموت) أو (الى حين البعث) دليل على انّ الاستقرار في الأرض والتمتع بها لا دوام له ولا استمرار، وانّ تنعم الانسان في الحياة الدنيا محدود ومؤقت، وهذا ما اشير اليه في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾،[2] وفي سورة طه جاء ايضاً: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.[3]

وجملة ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ علاوة على وصفها للأرض بأنها مستقر للإنسان ومحلّ لتمتعه، فانّ مفادها هو انّ جميع العداوات سوف تنتهي في يوم الفصل، وانّ النزاع بين الناس انفسهم أو بينهم وبين الشيطان ليس دائماً وأبدياً، وانّما يستمرّ الى فترة معينة، وفي النهاية سوف ترجعون جميعاً الى الله يوم القيامة وسوف يفصل بينكم في محكمة العدل الالهي. وعندها سيقول الناس:انّ الشيطان

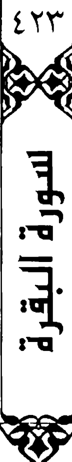
١. **سورة التغابن**، الآية ١٤.
٢. **سورة الأعراف**، الآية ٢٥.
٣. **سورة طه**، الآية ٥٥.

خدعنا والشيطان ايضاً يقول: انني لم افعل لكم شيئاً سوى أنّي دعوتكم فاستجبتم لي ﴿**فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**﴾[1] لاسيّما انّ دعوة الشيطان يقابلها الأنبياء من جهة، والعقل من جهة اخرى وهم يدعون الإنسان الى الخير.

وكلمة «مستقر» تأتي تارة بعنوان المصدر الميمي كما في قوله تعالى: ﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾،[2] لانّ الله سبحانه منزّهٌ من القرب والبعد المكاني، وتارة تأتي كاسم مكان كما في قوله تعالى: ﴿**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا**﴾[3] لانّ الجنّة يوجد فيها المكان المحسوس بالاضافة الى المقام والمكانة العقلية.

ومهما كان، فانّ الاستقرار تارة يكون مطلقاً وغير محدود، واخرى يكون مقيّداً ومحدوداً. وما يُذكر من استقرار عند الله سبحانه، فهو مطلق وغير محدود، وما يذكر من استقرار في الأرض فهو مقيّد ومحدود، لانّ الأرض بذاتها متناهية وسوف تتبدّل الى أرض القيامة. وبالنتيجة فانّ الموجودات الأرضية (الأعمّ من الحيّة والمتحركة على الأرض والميّتة والجامدة والراكدة تحت الأرض) يكون استقرارها في الأرض مقيّداً ومحدوداً. ولذلك توصف الحياة الدنيا والاستقرار في الأرض بانّه مجاز وممرّ، اي انّ الدنيا (دار المرور) وليست (دار القرار)، والتي هي دار القرار فهي تلك القيامة الكبرى، التي يكون فيها استقرار الجميع في

١. **سورة ابراهيم**، الآية ٢٢.
٢. **سورة القيامة**، الآية ١٢.
٣. **سورة الفرقان**، الآية ٢٤.



المشهد والمحضر الربوبي، وانّ قافلة الوجود اذا لم تحطّ رحالها في فناء واهب الوجود المطلق، فانّها لن تستقرَّ ولن تطمئنَّ، وستواصل كدحها حتى تلاقي الحقّ المطلق فتطمئن، كما انّ كلّ تمتّع وتنعّم في الأرض يكون مقيّداً ومحدوداً. والتمتع الوحيد الثابت والتنعم اللاّمتناهي هو الذي يكون لدى الحقّ المطلق، اي الله سبحانه. ولذلك فانّ قوله ﴿**إِلَى حِينٍ**﴾ كما يحدّد الاستقرار فانّه يحدّد التمتّع ايضاً، وحيث انّ آيات اخرى في القرآن الكريم وصفت لقاء الله بانّه المقرُّ المطلق، فانّ الآية محلُّ البحث وفي خلال ذكرها الانذار بالانقطاع والتحديد، فانّها تتضمن التبشير، أي إنّكم سوف تنتقلون من المقرّ المحدود الى المستقر اللاّمتناهي، ومن التمتّع الموقّت العابر الى التنعّم الثابت.

طبعاً ينبغي الالتفات الى انّ أيّ نحو من الاستقرار أو التمتّع اللاّمحدود، انّما هو ظل للقرار الإلهيّ اللاّمتناهي بالذات، لانّه يستحيل فرض وجودين غير متناهيين بالذات، أي اذا كانت الجنّة ونعيمها غير متناه وغير محدود، فان عدم تناهيه وعدم محدوديته سوف يكون بالعرض حتماً لا بالذات، لانّ غير المتناهي بالذات واللاّمحدود الذاتي هو الذات المقدسة الإلهيّة فقط، وكلّ غير متناه وغير محدود آخر اذا فرض وجوده، فهو يعتبر مظهراً لاسم من الأسماء الحسنى المطلقة الإلهية.

وفي نهاية البحث التفسيريّ لهذه الآية ينبغي التنويه الى انّ تفصيل قصة آدم وحواء وكيفيّة خروجهما من الجنّة قد جاء ذكرها في سورتي (**الأعراف**) و(**طه**)، ولذلك كان مناسباً أن تذكر جزئيات وتفاصيل هذه القصة هناك، وأن نتوقّف عن الخوض في تفاصيلها في ذيل الآية محل البحث.

لطائف وإشارات

١. صعوبة فهم آيات الخلافة:

انّ كون القرآن ذا وزن ثقيل كما في الآية الكريمة: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾[١] لا يعني صعوبة معارفه العينية فحسب، بل انّ استظهار المعنى الواضح لبعض الآيات المتعلقة بمسائل التوحيد، والنبوّة، والولاية، والخلافة وغيرها ليس بالأمر السهل. وليس أصحاب النظر وحدهم هم الذين يُبدون عجزهم حول هذه المسائل، وانّما أصحاب البصر ايضاً يعترفون بقصورهم عن هذا الأمر.

وعلى سبيل المثال نذكر هنا مقالة عن ابي المعالي محمد بن اسحاق صدر الدين القونوي (٦٠٧ ـ ٦٧٣) كي يتبيّن عجز أصحاب البصر كما عجز اصحاب النظر. فهو في الفك الداوودي في خلال تقييمه لمقام آدم وداوود• وتفضيل احدهما على الآخر يستشهد بالآيات ١١٨ و١١٩ من سورة طه ويقول:

(هذه القضية تشتمل على أمرين مشكلين لم ار أحداً تنبّه لهما، ولا أجابني أحد من أهل العلم الظاهر والباطن عنهما، وهو: انّه عليه السلام بعد سجود الملائكة له عليه السلام بأجمعهم ومشاهدة رجحانه عليهم بذلك وتعلّم الأسماء والخلافة ووصية الحق له، كيف أقدم على المخالفة وتشوّف (تشوّق) بقول ابليس الى ان يكون مَلَكاً وكيف لم يعلم انّ من دخل جنّة المعرفة بلسان الشريعة لم يخرج منها، وانّ النشأة الجنانيّة لا تقبل الكون والفساد لذاتها فهي تقتضي الخلود).[٢]

---

١. **سورة المزمّل**، الآية ٥.

٢. **الفكوك**، الفك الداوودي، ١١، ١٧.



وتوضيح الأمر المذكور هو انّ آدم قد بلغ درجة الكمال العلمي والعملي، ولم يكن متوقعاً من مثل هذا الإنسان الكامل أن يصدر منه النقص العلمي ولا العيب العملي، ولكنه ابتلي (بالجهل العلمي) وكذلك (بالجهالة العملية) لأنّه من جهة لم يعرف انّ الجنّة دار الخلود، وانّ الإنسان اذا صار من اهلها فلا يخرج منها، وانّ حريم الجنة مصونٌ من الكون والفساد، ومن جهة اخرى فانّه قام بمخالفة النصيحة الإلهية وصدر منه الشوق والرغبة الى أن يكون مَلَكاً متأثراً بقول ابليس ومصغياً له. ثم يقول هكذا:

(فكانّ هذه الحال تدلُّ دلالة واضحة على أنّ الجنّة التي كان فيها ليست الجنّة التي عرضها السماوات والأرض، والتي عرضها الكرسي الذي هو الفلك الثامن وسقفها عرش الرحمن، فانّ تلك لا تخفى على من دخلها، انّها ليست محل الكون والفساد، ولا أن يكون نعيمها مؤقتاً ممكن الانقطاع، فانّ ذلك المقام يعطي بذاته معرفة ما يقتضيه حقيقته، وهو عدم انقطاع نعيمه بموت أو غيره، كما قال تعالى: ﴿**عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾[1] أي غير منقطع ولا متناه، فافهم ما نبّهت عليه من غرائب العلوم وغوامضه ترشد).[2]

والشرح الإجمالي لذلك هو انّ بعض المقامات تتمتع بخصيصة وهي انّ ملامح وجودها تكون مشهودة ذاتاً للشخص الذي يبلُغها. وجنّة الخلد التي تساوي مساحتها الكون بأسره، تحمل ذاتاً هذه الصفة بحيث

---

١. **سورة هود**، الآية ١٠٨.

٢. **الفكوك**، الفك الداوودي، ١٢ ـ ١٧.

انّ الوارد فيها يدرك تماماً انّ نعيمها ليس مؤقتاً ومحدوداً ومنقطعاً، وانّ نشأتها محفوظة ومصونة من آفة الكون والفساد. ولا شيء فيها يطرأ عليه الفساد، ولا أحد يعرض عليه الموت (ومثل هذه المعرفة التي يحظى بها الداخل في جنّة الخلد، لا تعتريها شوائب النسيان والسهو والغفلة. ولذلك فانّ ساكن الجنّة مستحضر دائماً لهذه القواعد والاصول، ولا يغفل عنها ابداً) ويستمرّ صدر الدين القونوي في مقالته السابقة ويقول:

فحالة آدم وحواء• في هذه القضية كحال بني اسرائيل الذين قال الله تعالى في حقّهم: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**﴾[١] ولهذه المناسبة والمشاركة اردف الحقّ قصة آدم في سورة البقرة بقصة موسى وبني اسرائيل، مع ما بينهما من طول المدة، فراعى سبحانه في ذلك المضاهاة في العقل والحال، دون الزمان، فافهم سرَّ هذا من اسرار القرآن.[٢]

والتوضيح الموجز لذلك هو: كما انّ بني اسرائيل قد خسروا لما استبدلوا السافل بالعالي، والذي هو ادنى بالذي هو خير واعلى، وأُمِروا بالهبوط كذلك آدم وحواء عند فقدانهم السكن وسكينة الجنّة لأجل متعة عابرة من ثمرة الشجرة الممنوعة قد خسروا وأُمِروا بالهبوط. ولذلك فانّ هناك شبهاً بين القصتين، ولأجل هذا التشابه بين قصة بني اسرائيل وقصة آدم وحواء• فقد ذكرتا مترادفتين.

طبعاً هناك ملاحظات حول الفروق بين القصتين لا يمكن عدم

١. **سورة البقرة**، الآية ٦١.

٢. **الفكوك**، الفك الداوودي، ١٣ ـ ١٧.

ذكرها كما لا يمكن الظنّ بانّ هذه الملاحظات قد غابت عن النظر للشيخ صدر الدين القونوي وهي: **اولاً**: انّ آدمعليه السلام قد غضّ طرفه عن الأدنى، رجاء الحصول على الأعلى خلافاً لبني اسرائيل، الذين حرموا من الفيض الأعلى بسبب ميلهم وتعلقهم بالأدنى.

ثانياً: انّ هبوط آدم كان من سنخ هبوط الولاية والخلافة، وهو نزول خليفة الله من محلّ حضور المستخلَف عنه الى جمع المستخلَف عليهم، كما يُشار اليه فيما بعد، وليس من نوع هبوط الإهانة والاذلال الذي اُصيب به بنو اسرائيل.

ثالثاً: كان هبوط بني اسرائيل من سنخ الهبوط العَرْضي، لا الطولي، خلافاً لهبوط آدمعليه السلام الذي كان من سنخ الهبوط الطولي، لا العَرْضي؛ أي انّ بني اسرائيل قد هبطوا من مكان الى مكان آخر في دائرة الطبيعة والمادة، لكنّ النبي آدم قد انتقل من نشأة ما وراء الطبيعة الى دائرة الطبيعة، ومثل هذا الانتقال هو عين تنزُّل الوجود والمكانة والمقام، كتنزل القرآن من عند الله سبحانه لأجل هداية الناس، وليس كالتنزّل البدني والمكاني.

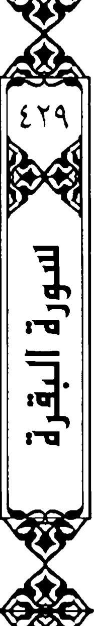
رابعاً، كان هبوط آدمعليه السلام مقترناً بالتوبة والاجتباء. ولذلك يعبّر عنه بهبوط الولاية والخلافة، خلافاً لهبوط بني اسرائيل الذي كان مقترناً بضرب الذلّة والمسكنة وكتابة العذاب الإلهي عليهم. وكما سبق التنويه إليه فانّ جميع هذه الملاحظات وامثالها كلّها تبيّن وجوه الاختلاف بين القصتين، وليست أبداً من وجوه المضاهاة والمشابهة، وهي لم تكن خافية عن النظر الدقيق للشيخ صدر الدين القونوي وامثاله.

٢. الشيطان ودوره في الإزلال والإذلال والإضلال والإظلال:

عداوة الشيطان للإنسان ظاهرة في منعه الإنسان من بلوغ الكمال، حيث انّ كمال الإنسان يحصل من جوانبه العلمية والعملية. لذلك فانّ الشيطان يستعين بكلٍّ شبهة وشهوة كي يقوم بعملية التجهيل العلمي والتفسيق العملي للإنسان، فيوقع الإنسان في الشبهة ليمنعه من حصول (الجزم العلمي)، ويدفعه نحو الشهوة العملية كي يبعده عن حصول (العزم العملي).

والسالك نحو الكمال يعلم انّ طريق الكمال محفوف بالأخطار والأعداء، ولا يوجد جمال الاّ وفي جانبه قبح، حتى لا يكون هناك سرور وحيرة الاّ وبعده دموع ندم وعبرة، ولا سيادة وسعادة الاّ وبعدها ذلٌّ وشقاء. ولذلك فانّ القرآن عندما ينبه اجمالاً على جميع مراحل ومنازل السقوط والصعود، فانّه يخبر الإنسان بعبارات مختلفة عن عداوة الشيطان له.

فمثلاً يذكر القرآن انّ الشيطان يقوم في مقابل سعي الإنسان في الحصول على كمال الاستقامة والثبات، بدور الإزلال والإرباك عن طريق المكر والخديعة، وفي مقابل حصول الإنسان على العزّة والكرامة والعلو في ظل الايمان، يبيّن القرآن بانّ الشيطان يحتال على الإنسان فيقوم بعملية (الإذلال) والاهانة له. وفي مجال هداية الإنسان وحركته في الطريق الصحيح ينبه القرآن الى ما يضمره الشيطان من حقد وعزم على (اضلال) الإنسان وايقاعه في التيه، وفي اجواء النور والوضوح التي ينعم بها أهل الورع والتقوى يشير القرآن الى انّ الشيطان يختلق الذرائع



وبحجّة (الإظلال) يدفع بالإنسان الى منقطة الظل، حتى يتمكّن وبعد اخراج الإنسان من دائرة النور الى الظل، ان يُهيء الأرضية لوقوع الإنسان في تيه الظُّلمات، لانّه ليس من السهل اخراج الإنسان من النور الى الظلمات مباشرة. ولذلك يسعى الشيطان أن يجعل من الوقوع في الظل جسراً للانتقال من النور الى الظلمات، أي انّه يجعل الإظلال ممهّداً للإظلام، ومهما كان فانّ ما يطرح في الآية محل البحث هو إزلال آدم وحواء الذي ادّى الى المعصية والإغواء، لانّ النكوب عن الصراط والانزلاق من وسط الطريق المعبّد يؤدي الى الانحراف والسقوط في المهاوي. وبالنتيجة فانّه سيجلب للإنسان الكثير من الصعوبات والعقد العلمية والعملية ويكون عاملاً لهبوط الإنسان من ابراج الكمال الى سجن الوبال.

٣. الزلل يمهّد للزلل الآخر:

إزلال الشيطان يحصل تارة بعد ارتكاب بعض الذنوب، وتارة يحصل دون سابقة ذنب، بل هو يعدّ الخطيئة الأولى. وقد ذكر في القرآن الكريم مثال لكلا القسمين: فالمثال على القسم الأول جاء في سورة آل عمران حيث يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ**﴾[1] اي انّ الشيطان قد أزلَّ هؤلاء وجعلهم ينهزمون امام العدو (في غزوة اُحُد)، بسبب بعض الذنوب التي ارتكبوها من قبل. والمثال على القسم الثاني ورد في سورة النحل حيث يقول

---

١. سورة آل عمران، الآية ١٥٥.

تعـالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْـدَ ثُبُوتِهَـا﴾.[1] أي لا تتخذوا اليمين والقسم وسيلة لاكتساب الأرباح، فيـؤدي ذلـك الـى زَلَـلِ الأقدام والانحراف بعد الثبات.

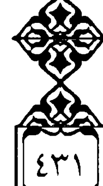
ويمكن تطبيق هذا المعنى على قـصة آدم وحـواء أيـضاً، لانّ الزلـل الذي حصل لهم في الجنّة على اثر الأكل من الشجرة الممنوعة كان زلـلاً ابتدائياً ولم يكن مسبوقاً بخطيئة، وان كان بنفسه قد سبَّبَ خروجهما من الجنّة ونزولهما الى الدنيا التي هي دار الخطايا.

ومهما كان فانَّ كلّ ميل الى الحيل الشيطانية واتّجـاه صـوب وسوسـة ابليس يعتبر زلة وانزلاقاً، وكلّ زلة سابقة تمهِّد وتجرّ الإنسان الى زلة اكثر، ويُشبه هذا درجات سُلّم البئر، الذي كُلّما اجتاز درجة منه ابتعد عن سـطح الأرض واقترب من قعر البئر. وعليـه فـان خطـر الزّلـل الابتـدائي وضـرر الانحراف الاول اقلّ من خطر الزلل النهائي وضرر الانحراف النهـائي. ومـا حصل لآدم وحواء عليهما السلام كان زللاً ابتدائياً ولم يكن مسبوقاً بزلل آخر، لكـنّ الزلّة التي أصابت المنحرفين عن الولاية الإلهيـة والخطيئـة التـي احاطـت بالمنافقين والكـافرين والمـشركين كانـت مـسبوقة بزلّـة اخـرى، ولـذلك فسوف تكون اشدّ ضرراً عليهم. وعلى هذا الأساس فانّ ما ذكر فـي قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَـانِ إِنَّمَـا اسْـتَزَلَّهُمُ الـشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[2] مـن ضـررٍ لإزلال الشيطان اكثر بمرات من ضرر الزلل المذكور في الآية محل البحث.

---

١. سورة **النحل**، الآية ٩٤.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٥٥.



٤. اسناد الإزلال الى الشيطان:

انّ الهداية والاضلال التي هي من الأسماء الإلهية الحسنى لها مظاهر متعددة. والهداية من حيث انّها هداية ابتدائية وهداية جزائيّة ثانوية لها مظاهر كثيرة، لكنّ الإضلال من حيث انّه جزائي فقط وليس هناك اضلال ابتدائي أبداً، فهو لا يعدّ من الأسماء والأفعال الإلهيّة، بل هو من الصفات السلبية لله سبحانه التي لها مظاهر اقل. وإزلال كالإضلال لا يكون ابتدائياً أبداً بل هو دائماً جزائي وله مظاهر معيّنة.

والإضلال وكذلك الإزلال انّما يسند الى الفاعل المعيّن، اذا كان الفاعل يتصف بالفعل الارادي ويستطيع التأثير على مصادر الادراك للشخص المبتلى بالوقوع في الزلل والانزلاق والضلالة، بواسطة اختراق فكره، والاّ فانّ الاسناد اليه لن يكون الاّ بالعُناية والمجاز. فإسناد الإزلال في الآية محل البحث الى ابليس كإسناد الضلالة اليه في الآية الكريمة: ﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾[1] وهو شبيه باسناد الضلالة اليه في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾[2] ومثل اسناد الضلالة الى فرعون في قوله تعالى: ﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى**﴾[3] وليس من سنخ اسناد الضلالة الى الأصنام والأوثان في الآية الكريمة: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ**﴾.[4]

---

١. **سورة الحج**، الآية ٤.

٢. **سورة يس**، الآية ٦٢.

٣. **سورة طه**، الآية ٧٩.

٤. **سورة ابراهيم**، الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

لانّ الأصنام لا تأثير لها على المجالات الادراكية لعابد الصنم، ولا تحرفه عن طريق الفكر، بل هناك مؤثّر فكري وارادي آخر كالشيطان الأصلي أو الشيطان الإنسيّ وبواسطة الاستعانة بآلة الصنم والوثن، يدعو الشخص الى النكوب والزلل والوقوع في المهاوي والمتاهات. اذن فما قاله البعض من انّ اسناد الإزلال في الآية محل البحث شبيه باسناد الإضلال الى الأصنام[1] غير صحيح، ولم يتمّ الانتباه في هذا القول الى الاختلاف الأساسي بين هذين النحوين من الاسناد.

٥. كيفيّة إسناد الإزلال الى الشيطان:

انّ اسناد الإزلال الى آدم وحواء عليهما السلام وكذلك اسناد اخراجهما الى ابليس تارة يفسّر طبقاً لاصطلاح الحكمة والكلام، واخرى يُبيّن بلغة العرفان. فعلم الحكمة يرى انّ نظام الوجود قائم على محور العليّة والمعلوليّة، وانّ اسناد الأفعال المذكورة الى ابليس هو من سنخ اسناد الفعل الى الفاعل القريب، واسنادها الى الله سبحانه هو من سنخ الاسناد الى الفاعل البعيد، أي انّ ابليس هو المبدأ الفاعلي القريب والعلة القريبة، والله سبحانه هو المبدأ الفاعلي البعيد والعلة البعيدة. والمقصود من القرب والبعد في نظام العليّة والمعلولية هو النظام الطولي الذي يعني انّ العلة القريبة ايضاً تعمل في ضمن دائرة قدرة العلة البعيدة.

وفي علم العرفان ايضاً حيث انّ نظام الوجود يصنّف على أساس

---

١. كشف الأسرار، ج ١، ص ١٤٩.

التشّأن والتجلّي والظاهر والمظهر فإسناد الأفعال المذكورة الى ابليس هو من سنخ اسناد الفعل الظاهر الى المظهر، لأنّه على أساس التوحيد الأفعالي لا توجد علة حقيقية سوى الله سبحانه، وكلّ ما سواه يُعَدّ مظهراً له، وتصبح مسألة الجبر والاختيار في نظام التوحيد الأفعالي قابلة للحل بنحو أدقّ وأرقّ. ومن هنا يُعلم: **اولاً**، يجب أن يتضح معيار الحقيقة العقليّة والمجاز العقلي. **وثانياً** الحكم بانّ اسناد الازلال والاخراج الذي هو فعل الله الى ابليس هل هو حقيقة أم مجاز، وان كان البعض قد حكم بصراحة ومن دون تردد بانّه اسناد مجازي.[1]

وبحلّ اصل المسألة يمكن تفسير جميع الآيات التي تدلّ على سيطرة ابليس او قيامه اجمالاً باختراق المجالات الادراكية والحركية للإنسان، مثلاً الآية التي تذكر ولاية ابليس على مَنْ يتولاّه كولاية الطاغوت على الكفار واخراجهم من نور محبّة الايمان بالله الى نار محنة الكفر بالله ومن فرح فطرة التوحيد الى ترح دنس الشرك ومن ولاء الحقّ الى شقاء الباطل ومن اُنس الصدق الى وحشة الكذب، تصبح قابلة للتبيين بنحو كامل، ودون الحاجة الى ارتكاب المجاز، وطبقاً لمبنى التوحيد الافعالي يمكن اسناد الأفعال المذكورة الى مظاهر الجمال والجلال الإلهي ومسمّيات الأسماء الحسنى الإلهيّة.

طبعاً يجب اتّخاذ الحيطة والدقّة الكافية في جميع الموارد كي لا تُجعل الصفة السلبية مكان النعت الثبوتي الإيجابيّ، وحتّى لا تقع الصفة مع الواسطة في محل الصفة بغير الواسطة، والفعل الجزائي يوضع في

---

١. **آلاء الرحمان**، ص ١٧٩.

محل الفعل الابتدائي، وبالنتيجة كي لا يسري النقص أو العيب الى الذات التي هي كمال محض وسلامة خالصة.

٦. الزلل عن الطريق أم الهدف؟

صحيح انّ منشأ زلّة آدم وحواء• يعود الى ارتكاب معصية الأكل من الشجرة الممنوعة، ولذلك فان ضمير ﴿عَنْهَا﴾ يرجع الى الشجرة، لكنّ تحقّق أصل الزلل امّا ان يكون بلحاظ الطريق أو بلحاظ الهدف؛ اي انّ السالك نحو ديار الكمال امّا أن ينزلق خلال الطريق فيُحرم من مواصلة الطريق أو انّه يُبتلى بالزلل بعد بلوغ الهدف، فيسقط من المقام الذي كان قد حصل عليه.

وعندما يكون الطريق غير المقصد ومنفصلاً عنه بنحو كامل، ويوجد بينهما اختلاف عيني وتغاير خارجي، فانّ الانزلاق من احدهما يختلف عن الزلل من الآخر، فمثلاً الشخص القاصد الى الحرم ويتحرك لأجل الوصول الى الكعبة، فحيث انّ الطريق غير الهدف وهما منفصلان عن بعضهما بلحاظ الوجود العيني والخارجي بنحو كامل، لذلك فانّ الانحراف المتعلق بأحدهما منفك عن الزلل المتعلق بالآخر، ولكن في المورد الذي لا يكون فيه الهدف شيئاً سوى باطن الطريق، وليس المقصد الأ لبّ الطريق وحقيقته، فهنا يكون الانزلاق والانحراف العائد الى أحدهما هو عين الزلل العائد الى الآخر.

وفي الآية محل البحث وان لم يرد كلام عن الطريق، لانّه لم يذكر طريق معيّن بحيث يكون سلوكه سبباً للوصول الى هدف خاصّ، لكن أصل الزلل والنكوب مناسب مع الطريق، واذا كان ضمير ﴿عَنْهَا﴾ في

الآية محل البحث يعود الى الجنّة بما انّها مقصد، فلأجل انّ المقصد الاخروي سوف يكون عين باطن الطريق المستقيم ومتنه، لانّ الدين الإلهي الذي هو صراط الله المستقيم والتدين الذي هو الاتّباع لذلك الدين لا يعني الاّ الاعتقاد الصحيح والأخلاق الحسنة والعمل الصالح، والجنّة ايضاً التي لها في عالم الآخرة وجود عيني وخارجي محسوس ومعقول سوف لن تكون شيئاً سوى باطن الدين، فالجنّة ليست كالكعبة، والدين ليس شيئاً كصحراء الحجاز حيث هما شيئان منفصلان عن بعضهما ومتغايران عيناً، وانّما حقيقة الجنّة التي هي موجود عيني وخارجي وبواسطة تجسّم الأعمال وتمثّل الأخلاق وتجسّد العقائد، هي نفس باطن الدين، أي ان الهدف سوف يكون باطن الطريق.

ولذلك فانّ الزلل المناسب للطريق يمكن أن يسند الى الهدف وبالنتيجة فان ضمير ﴿عَنْهَا﴾ يعود الى الجنّة.

٧. تعيين العامل الأوليّ للإزلال في الاسرائيليات:

ليس من السهل بيان كيفية وسوسة الشيطان لآدم وحواء والعامل الأساسي في ازلال آدم وحواء، وان ذكرت بعض الآيات القرآنية اشارات قصيرة إلى ذلك. وتدلّ بعض الروايات غير المعتبرة لاحتمال كونها من الاسرائيليات على انّ آدم عليه السلام بعد الدخول الى الجنّة ورؤية التكريم الإلهي قال: ليت هذا المقام خالد لا يزول. ولمّا عرف الشيطان بأمنيّة آدم هذه، اغتنم الفرصة، وعن طريق هذه الأمنية قام بإزلال آدم واخراجه.[1]

١. **جامع البيان**، ج ١، ص ٣١١.

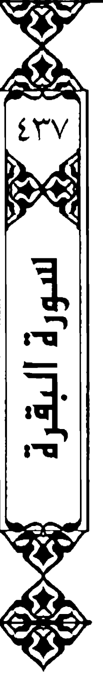


وهذا الاحتمال وان كان ينسجم مع الاسلوب المشؤوم للشيطان، لانّ خطته كانت مبنية على الإغواء والإضلال عن طريق الأمنية ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾،[1] لكنّه ليس من السهل اثبات مثل هذا التمنّي عند آدم واطّلاع ابليس على هذه الأمنيّة، كما انّ دموع بعض المحتالين لأجل خداع البعض مؤثّرة، لكنّه ليس من السهل اثبات تأثير ابليس على آدم وحواء بواسطة البكاء. فما ذُكر في تفسير (**كشف الأسرار**) وامثاله، من انّ ابليس بكى في أول الأمر، فقالا له لِمَ تبكي، قال: انّ من المؤسف ان تُسلب منكما هذه النعمة وتموتان، ثم قال: ألا ادلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى...،[2] يحتاج الى دليل نقلي معتبر.

ومن اللاّزم الاجتناب اطلاقاً عن الأخذ بالتاريخ الاسرائيلي الذي ليس انّه لا يتّصف بضوابط وموازين الحديث فحسب، بل هو لا يتمتع ايضاً بالمواصفات اللازمة لعدّه من التاريخ، كما جاء فيه كذلك أنّ حواءعليها السلام سقت آدمعليه السلام الخمر وأسكرته، وبعد ذلك أخذته نحو الشجرة الممنوعة فأكل هو ايضاً من تلك الشجرة.[3]

ويقال في تبرير مثل هذه المعصية بانّ بقيّة النعم في الجنّة ما عدا الشجرة المنهيّ عنها كانت حلالاً، وحيث انّ الخمر لم يكن منهياً عنه فانّ التمتع به كان جائزاً، وحيث انّه قد وقع الشرب منه، فانّ الآثار والمضاعفات السيئة للشرب وهي السكر سوف تحصل تبعاً لذلك، والتمييز بين الحق

١. سورة النساء، الآية ١١٩.
٢. **كشف الأسرار**، ج ١، ص ١٤٩.
٣. **جامع البيان**، ج ١، ص ٣١١.



والباطل في حال السكر ليس بالأمر السهل. ويقول الفخر الرازي في الرد على هذا التبرير غير الصحيح: انّ خمر الجنّة مصون من الاسكار، لانّه قد جاء في صفات الجنّة ونعمها انّها: ﴿**لاَ فِيهَا غَوْلٌ**﴾.[1]

ويتبيّن مما تقدم حول ضعف السند الروائي أو التاريخي لبعض المنقولات في هذا المجال، بانّه لا يمكن الاعتماد على الأحاديث أو الروايات المنقولة حول كيفية وصول ابليس الى آدم وحواء في الجنّة، وكيفية حصول المحاورة والمقاسمة والوسوسة والازلال، لانّ هذه المرويات مبتلاة بالضعف الداخلي من جهة،[2] وفاقدة للسند العملي واعتماد أصحاب النظر ورجال الحديث والتاريخ عليها فهي مبتلاة بالضعف الخارجيّ من جهة اخرى، وعليه فانّه يصعب اثبات الأمور المذكورة بواسطة الأحاديث والروايات السابقة التي تُشّم منها رائحة الاسرائيليات.

٨. كيفية وصول الشيطان الى الجنّة:

مع انّ الشيطان لا طريق له الى جنّة الخُلد، فكيف اذن دخل اليها وقام بإزلال آدم وحواء؟

جاء في بعض الاسرائيليات انّ الشيطان لم يدخل الجنّة بقدميه، وانّما تسلّل اليها عن طريق فم الحيّة، لكنّ الجواب الصحيح هو كما تقدم من انّ جنّة آدم كانت جنّة برزخية ولم تكن جنّة الخُلد، والطريق في الجنّة

---

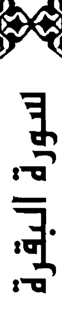
١. **سورة الصافات**، الآية ٤٧؛ **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ١٥.

٢. **آلاء الرحمان**، ص ١٧٩.

البرزخية مفتوح امام الشيطان، لانّ النشأة البرزخية، ليست نشأة التجرد العقلي المحض ولا هي الدائرة المختصة بالمخلَصين حتى لا يكون فيها مجال للشيطان، وانما هي دون حدود الاخلاص وفي الحدود التي تتضمن أيضاً التجرد الوهمي والخيالي، وان كان الشيطان لا يمكث فيها دائماً ولا يمكنه بلوغ درجتها العالية، ولكنه يتمكّن من التسلّل إلى درجاتها الدانية والوسوسة للإنسان لإزلاله والحيلولة دون بقائه في تلك النشأة. كما يحصل للإنسان احياناً من حالة روحية يشعر فيها بانّه قد تسامى عن الطبيعة، ويرى نفسه محصناً عن ارتكاب الذنوب، ولكنه يرى انّ هذه الحالة لا تستمر وانّ هناك من يجرّه من هذه القمة ليقع في الحضيض. ومهما كان فانّ الذين يريدون البقاء في شرفات البرزخ الذي هو أرفع من الطبيعة فانّ الشيطان يقوم بهدم ما تحت اقدامهم حتى يسقطوا: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ**﴾، لا انّه يحيط بهم من الأعلى ويسيطر عليهم، لانّه لا يستطيع الوصول الى ما هو اعلى من درجة الوهم والخيال.

طبعاً هناك فرق بين برزخ ما قبل الموت وبرزخ ما بعد الموت، لانّه في برزخ ما بعد الموت، يمكن للشيطان أن يحضر هناك كنتيجة لأعمال الناس. وذلك بأن يكون قريناً ورفيقاً للإنسان بعد رحيله من الدنيا ودخوله في عالم البرزخ، وهذا الاقتران والرفقة قد صنعها الإنسان لنفسه، فالله سبحانه يقول بانّ من يتعامى عن ذكر الله ولا ينظر الى نوره فانّا سنجعل الشيطان له قريناً، وسيُبتلى هو وقرينه بالعذاب الأليم: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾،[1] بل انّ نفس

١. سورة الزخرف، الآية ٣٦.



الاقتران مع هذا القرين ورؤيته وقد أخذ من الإنسان ايمانه وكلّ ما لديه يُعدّ عذاباً اليما آخر، ولذلك يضّج منه ويصيح: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾.[1]

وامّا في البرزخ الذي يدخل الإنسان إليه في هذه الدنيا بواسطة فكره، واحياناً يشاهده (وان كان بدن الإنسان في الدنيا، لكن فكره الذي يتّصف بالتجرد البرزخي ليس له زمان ولا مكان، كما انّ التجرّد الشيطاني أيضاً تجرد برزخي) فانّ الشيطان يتسلل الى هذا البرزخ، ويتصرف في فكر الإنسان ليمنع بقاء تلك الحالة البرزخية، ولا يدع الإنسان يفكّر بالطريقة الصحيحة، وبالنتيجة يمنعه من العمل الصالح. وتوضيح هذا الأمر سوف يأتي في الاشارة الآتية.

٩. الطريق لتسلّط الشيطان:

ان الشيطان يهاجم الإنسان من عدة محاور، فتارة من الأمام واخرى من الخلف، ومرّة عن اليمين واحياناً عن الشمال: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾،[2] وانّ أهم أساليب الشيطان بعد هجومه على الإنسان واقترابه منه هو العبث في فكر الإنسان وخياله، بأن يختلق له الأماني وينسج له التخيّلات، وكما اخبر القرآن عنه حيث يقول: ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾[3] ويزيّن الأشياء في نظر الإنسان، بزينة الأرض لا

---

١. سورة الزخرف، الآية ٣٨.

٢. سورة الأعراف، الآية ١٧.

٣. سورة النساء، الآية ١١٩.

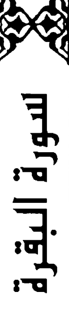
بزينة القلب والروح ﴿**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ**﴾،[1] فزينة روح الإنسان هي الايمان بالله تعالى: ﴿**حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[2] لا في الدار والبستان والأثاث والوسائل التي تعدّ زينة للأرض: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا**﴾.[3] فمن بنى داراً جميلة فانّه قد زيّن الأرض ولم يزيّن نفسه، وهذه المغالطة من فعل الشيطان حيث يصوّر للإنسان عن طريق الأماني انّ زينة الأرض زينة له.

ولابدّ من التذكير بهذه الملاحظة ايضاً وهي انّ العامل القريب لتسلّط الشيطان على فكر الإنسان هو نفسه الأمّارة. فلو لم توجد النفس الأمّارة التي تقوم بدور العميل والجاسوس لابليس لكانت الوسوسة شبيهة بالسُمّ الذي يدخل الفم، ولكنّه لا يصل الى الجهاز الهضمي أو يدفعه الجهاز الهضمي الى الخارج. فلذلك نرى ان الله سبحانه في بعض الآيات يذكر الوسوسة والإزلال المنتسب الى الشيطان ويسندها الى النفس الأمّارة للإنسان فيقول: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾.[4] هذا الإسناد يبيّن أنّه على الرغم من كون الفكر هو الطريق الذي من خلاله يسيطر الشيطان على الإنسان الاّ انّ محور الأفكار الشيطانية هو النفس الأمّارة للإنسان.

ولذلك فانّ الإنسان اذا حرّرَ ذاته من النفس الأمّارة، وانتزع هذه الوسيلة من يد الشيطان، فانّ هذه النفس الأمّارة بالسوء، سوف تتحول

---

١. **سورة الحجر**، الآية ٣٩.
٢. **سورة الحجرات**، الآية ٧.
٣. **سورة الكهف**، الآية ٧.
٤. **سورة ق**، الآية ١٦.



الى آمرة بالخير، وفي النهاية سوف يستثمر هذا الانسان المخلِص والمخلَص جميع قواه وطاقاته في طريق الفضيلة والصلاح.

تنويه أ: انّ الشيطان ومن أجل تسهيل عملية السيطرة على الإنسان والاسراع بها، فانّه قبل كلّ شيء يستعمل بعض قوى الإنسان ويجعلها في خدمته، فتكون كالعميل للشيطان الذي يقوم بفرض رغباته ومطالبه الباطلة على الإنسان. طبعاً الإنسان نفسه بسبب التساهل والغفلة، يوافق على استخدام هذه القوى، كما انّه يستطيع باليقظة والوعي وحسن التدبير والاستقامة أن يمنع ظهور مثل هذا العميل والذَنَب، وبعد ظهوره يعيده مرةً اخرى الى فطرته السليمة الاولى.

ب: اذا كان لابليس في ذلك المقام (مقام الوسوسة لآدم) «قبيل» و«جنود» فيحتمل انّه قام بمؤامرة الوسوسة بواسطة بعض اتباعه، لانّه بسبب كونه عدّواً علنياً لآدم وحواء• وعداوته لهما كانت معلومة وواضحة، لذلك فانّ احتمال قيام ابليس بنفسه ومباشرة بتلك المحاورة معهما، ليس قريباً جداً من الذهن. وليس هناك محذور في اسناد افعال اتباع الشيطان اليه، وهناك موارد وأمثلة منها مأنوسة لدى الأذهان، وان كان ظاهر القصّة انّ ابليس بنفسه قد تصدّى لعملية الإزلال والوسوسة والإخراج.

١٠. اقسام الوسوسة الشيطانية وطريقة النجاة منها:

الوسوسة تعني ذلك الشعور المبهم الذي فكر لا شعوري يحصل في روح الإنسان بعد اختراق الشيطان لها، وليس معروفاً لدى الكثير من الناس من أين يتمُّ ذلك، فتارة يظهر في حال الغفلة والنسيان، وذلك بان

يصرف الشيطان ذهن الإنسان جانباً عن التفكير في فوائد واضرار الشيء ويغفله عن ذلك، وخطر هذه الغفلة كبير الى درجة انّ الله سبحانه عندما يذكر عمي القلوب من أهل النار يقول: انّهم كالأنعام، بل هم أضلّ ثمّ يقول عنهم: ﴿**أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾.[1] كما انّ القرآن الكريم يعتبر الإنساء وتسليط النسيان على الإنسان من عمل الشيطان؛ اذ ليس جميع اقسام النسيان هي من لوازم طبيعة الإنسان ولا دورَ للشيطان فيها اصلاً، لانّ الآية الكريمة تقول: ﴿**وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾،[2] حيث انّ الإنسان احياناً يتمتع بسلامة تامة، وقواه الذهنية واعضاؤه صحيحة وفعّالة ويتذكّر جميع الأمور المادّية، لكنّه في نفس الوقت تغيب عن ذهنه المعارف الإلهية بشكل تام، وعلى كلّ حال فانّ هذا القسم من الوسوسة هو القسم الأول وهو أهمّ طرق تسلط الشيطان.[3]

وتارة ايضاً (عندما لا ينجح الطريق الأول) فانّه ينشط في مجال الصورة الذهنية الحاضرة لدى الإنسان، ويظهر له الشيء المضرّ به بمظهر النافع له، وهذا هو ما جاء على لسان الآيات بعنوان التزيين: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**﴾،[4] وذكر ايضاً بعنوان التسويل والاملاء: ﴿**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ**

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٧٩.

٢. **سورة الكهف**، الآية ٦٣.

٣. من الواضح انّ إسناد النسيان والغفلة الى الشيطان هو إسناد بالعرض، وذلك لان النسيان أو الغفلة أمر عدميّ (وهو زوال الصورة الذهنيّة)، والشيء الذي هو فعل الشيطان حقيقةً في مجال النسيان أو الغفلة انّما هو الاستمرار في إحياء صورة شيء آخر في ذهن الإنسان وتلهيته بتلك الصورة.

٤. **سورة النمل**، الآية ٢٤.

لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[1] وقد ذكر المبتلى به تارة بعنوان الجاهل المركّب (وهو الشخص الذي لا يعلم انّه لا يعلم أو يظنّ انّه يعلم) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.[2]

والذي حصل في قصة آدم هو القسم الثاني من وسوسة الشيطان؛ أي انّه لم يأت الى آدم عن طريق الغفلة والنسيان حتى يزيل صورة النهي عن الأكل من الشجرة من ذاكرة آدمعليه السلام (واذا ورد في بعض الآيات التعبير بالنسيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾،[3] فالظاهر انّ المقصود من النسيان هنا ليس هو نسيان صورة النهي لانّ الشيطان نفسه كان يعرض صورة هذه القضية أمام ذاكرة آدم وحواء) بل جاءهما عن طريق التزيين والجهل المركّب وقال لهما: ان الله، وان نهاكما عن هذه الشجرة، الاّ انّ التناول منها ليس مضراً بكما، بل انّ التمتّع منها يجعلكما تصيران إمّا ملكين أو من الخالدين في هذه الجنة: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[4] وبهذه الطريقة فانّه اظهر ما هو سبب (تدلّي) وسقوط آدم في مظهر الصعود والترقّي، ودلّ آدم اليه وفرضه عليه وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾[5] وهو كلام ظاهر في الدلالة على حبّ الخير والرُقي، لكنّ حقيقته التدلية (الإسقاط والرمي

---

١. سورة محمدصلى الله عليه وآله، الآية ٢٥.
٢. سورة الكهف، الآية ١٠٤.
٣. سورة طه، الآية ١١٥.
٤. سورة الأعراف، الآية ٢٠.
٥. سورة طه، الآية ١٢٠.

نحو الأسفل) أي انّ الشيطان وبواسطة التزيين والتسويل وبالأيمان المغلّظة ايضاً، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1] استطاع أن يظهر لهما الأمر الذي هو في حقيقته يؤدّي الى السقوط والهبوط بمظهر انّه العامل الذي يؤدّي الى البقاء والخلود.

وهذا القسم من الوسوسة يسمّى بـ(الغرور) ايضاً كما في الآية الكريمة: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾،[2] لانّ الغرور يستعمل في المورد الذي فيه يختلط الأمر على الإنسان فيحسب الشيء الحسن سيئاً والسيّء حسناً ويصير جاهلاً مركّباً، والاّ فانّ الإنسان الناسي والغافل لا يقال فيه انّه مغرور.

ومهما كان فانّ أهم سلاح عند الشيطان وأول اسلوب للتسلط على الإنسان هو الإغفال. فاذا استطاع أن يوقع الإنسان في الغفلة، فلا يحتاج أن يكلّف نفسه مؤونة التزيين والجهل المركب، فاذا استطاع الشيطان بالوسوسة ان يزيل صورة الشيء المطلوب من ذاكرة الإنسان، فقد حقّق ما يريحه، ولكن اذا بقيت تلك الصورة في ذاكرة الإنسان فانّ الشيطان سيبذل جُهداً كي يزيّن الأعمال القبيحة، ويظهرها للإنسان بوجه جميل ويفرضها عليه.

وبعبارة اخرى، انّ الشيطان يسعى في الدرجة الاولى أن يُنسي الإنسان أو يجعله غافلاً عن الخطر والضرر، وعندما يغفل الإنسان عن خطر الشيء، فانّ من السهولة أن يقع فيه، فتضيع من يده حقيقة نافعة. فالشيطان يدفع الإنسان الى الانشغال باللهو واللعب وزخارف الدنيا

---

١. سورة الأعراف، الآية ٢١.

٢. سورة الأعراف، الآية ٢٢.





فيمنعه من ذكر الله ويُنسيه يوم القيامة، وعن هذا الطريق يوقعه في العذاب الشديد: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.[1] وفي الدرجة الثانية اذا كان الإنسان ذاكراً لله، فانّ الشيطان يسعى عن طريق الجهل المركّب والتسويل، اي باظهار السيّء حسناً أو باظهار الحسن بصورة أحسن، فيحرم الإنسان من اكتساب الفضيلة المهمّة أو الأهمّ، كأن يجعل الإنسان منهمكاً في اداء المستحبّ فيمنعه ذلك عن اداء الواجب أو يشتغل بالواجب المهمّ فيحرم من أداء الواجب الأهمّ.

وعلى هذا الاساس فانّ القرآن الكريم بيّن لجميع العبادات كالصلاة والصوم والخمس والزكاة والحج وسائر الواجبات والمستحبات احكاماً محدّدة وأوامر معيّنة، والشيء الذي ليس له حدّ معين هو ذكر الله حيث قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[2] وكذلك التقوى التي هي ايضاً من ذكر الله قال فيها: ﴿اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[3]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾،[4] لانّ العدوّ يلاحق الإنسان في اليقظة والنوم، ولا يتركه حتّى للحظة، ويأتيه من الطرق الخفيّة التي لا يراه الإنسان فيها، ومن طريق النفس الأمّارة التي تكون في باطن الإنسان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[5] وهو عدوّ للإنسان الى الحدّ الذي لا يدع الإنسان أن يرى في نومه رؤيا حسنة، واذا رأى الإنسان رؤيا حسنة فانّ الشيطان يشوّش عليها بالأفكار والخواطر السيّئة.

---

١. **سورة ص**، الآية ٢٦.
٢. **سورة الأحزاب**، الآية ٤١.
٣. **سورة آل عمران**، الآية ١٠٢.
٤. **سورة التغابن**، الآية ١٦.
٥. **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

اذن فلأجل الخلاص من هذا العدوّ اللدود، لا وسيلة سوى الذكر الدائم، كما انّه يجب أن يبقى ذكر الله حيّاً في الباطن والسريرة بواسطة التضرع والأنين: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً**﴾[1] ويجب أن نعتبر الشيطان عدوّاً ونرجمه، وكلّما جاء نحونا استعذنا بالله منه، لانّ الله وصف نفسه بانّه وليّنا والشيطان عدوّنا، وقد وعدنا الله بالدفاع عنّا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[2] وقال لنا: اذا هجم عليكم الشيطان، وأراد أن يخدعكم فاستعيذوا فوراً بالله: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾[3] وليس المقصود من الاستعاذة هو مجرّد قول (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وانّما الاستعاذة الحقيقية هي أن تتحرّك روحنا نحو الله، عند الشعور بالوسوسة، كما يحصل في حالة اطلاق صفّارات الإنذار والأمر بالدخول في الملاجئ، فهناك لا يكفي أن تتفوّه بعبارة (أذهب الى الملجأ) فالألفاظ وحدها لا تنفع بل يجب الحركة نحو الملجأ والكون فيه.

١١. الشيطان وطرقه المتنوّعة في الإغواء:

يظهر من الآيات المتعلقة بوسوسة الشيطان لآدم وحواء، انّ الشيطان قد اعدّ لكلٍّ فرد اسلوباً خاصاً للإغواء؛ مثلاً اذا كان الانسان من أهل الدنيا فانّه يزيّن له ما يتعلق بها من أُمور كالنساء والأولاد والأموال، ولكنّ اذا لم يكن من أهل الدنيا، كآدم وزوجته، وكان يصبو الى الله والملائكة

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠٥.
٢. **سورة الحج**، الآية ٣٨.
٣. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠٠.





والحياة الخالدة وامثال ذلك، فانّ الشيطان يخدعه بذريعة هذه الأمور وتحت غطائها. ولذلك خدع آدم وحواء عندما وعدهما أن يكونا مَلَكين أو يكونا من الخالدين، ودلّهما على سبب الهبوط واصفاً ايّاه لهما بانّه وسيلة للخلود والبقاء قائلاً: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾.[1]

ويستفاد من هذه الملاحظة انّ الفرد اذا كان زاهداً أو عالماً تقيّاً ولم يتمكن الشيطان انّ يتسلط عليه عن طريق الشؤون الدنيوية، فانّه يأتيه بعنوان الناصح ويلقي اليه بالخيانة تحت غطاء النصيحة، كما في الآية الكريمة: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[2] ويستخدم اليمين الكاذبة أداةً لخداعه، وبذريعة صيرورة الانسان مَلَكاً أو داخلاً في جمع الأنبياء والأولياء ينحّي الإنسان عن الصراط المستقيم، الاّ أن يصل الإنسان السالك الى درجة الإخلاص المحض ويصبح من المخلَصين، فذلك المقام ليس فيه مجال للشيطان.

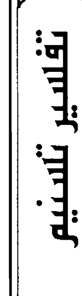
١٢. هدف الشيطان من الوسوسة للإنسان:

يحتوي القرآن الكريم على معارف كثيرة، والبعض منها لازال بكراً، وقصة آدم وحواء• ذات المغزى العميق والمعنى الثقيل، هي من هذا القبيل، فهي تنتظر قدوم مفسّر مبدع يكشف الجمال البارع للوحي ويزيل عنه الحجب والأستار الملقاة عليه والمتمثلة بالتفسير بالرأي المذموم أو الاحتمالات المبهمة والبدائية، حتى يخرج ومعه تجلّيات

---

١. **سورة طه**، الآية ١٢٠.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ٢١.



واشراقات الأنوار، وعندها يمكن لصاحب البصر الأمين أن يتمتع بالنظر الى ذلك المحبوب المحتجب خلف الأستار، وان كان أصحاب النظر والعلوم التحصيلية يراوحون في أول الطريق.

نعم، فانّ القصة المفعمة بالأسرار لآدم وحواء ودخولهما الجنّة وخروجهما منها، قد جاء في ثلاث سور من القرآن الكريم، وسوف تأتي بعون الله تفاصيلها خلال سورة البقرة،[1] وسورة الأعراف[2] وسورة طه،[3] وعلى مستوى الاحتمال المتعارف الذي هو عمل أصحاب النظر، وليس على مستوى العرض المشهود المتقن الذي هو زاد أهل البصر والعرفان.

والذي يظهر من سورة (البقرة) ان الشيطان قد اخرج آدم وحواء من الجنّة بالإزلال، لكن لم توضح فيها كيفية الازلال. والذي يظهر من سورة (**الأعراف**) انّ الشيطان استخدم أساليب الوسوسة والاحتيال واليمين الكاذب فدلّاهما واخرجهما من الجنّة تحت غطاء وذريعة الدلالة على الخلود وهو قوله تعالى: ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**﴾،[4] ويُستظهَر ما يشبه هذا المعنى من سورة (**طه**)، وهاتان السورتان (**الأعراف وطه**) هما اللتان بيّنتا سِرَّ ورمزَ الخروج بنحو اكثر تفصيلاً من سورة البقرة، ويتمثّل ذلك السرّ في ظهور سوأة وعورة آدم وحواء، وانّ العامل الذي ادّى الى إظهارها وإبدائها هو مكر ابليس وخداعه الرامي الى ايجاد الفضيحة، حيث لم يكن يهدف من الوسوسة سوى اظهار العورات والعيوب

١. **سورة البقرة**، الآيات ٣٥ ـ ٣٨.
٢. **سورة الأعراف**، الآيات ١٩ ـ ٢٥.
٣. **سورة طه**، الآيات ١١٦ ـ ١٢٣.
٤. **سورة الأعراف**، الآية ٢٢.

المستورة وافشاء الأسرار التي لا ينبغي كشفها، وكما في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾.[1]

والذي يبدو من تأكيد القرآن على هذا الأصل الجامع هو انّ ظهور العورة وبدوّ السوأة وما يتبعه من لوازم كان له دور مهمّ في الخروج من الجنّة والهبوط الى الأرض والاستقرار فيها، ولو لم يكن لهذا الحدث دور في الهبوط الى الأرض، لما كان القرآن الكريم يؤكّد على ذكره من جهة ولم يكتف بذكره من دون ان يذكر الحوادث الاخرى التي حصلت بعد ارتكاب الأكل من الشجرة المنهيّ عنها من جهة اخرى، طبعاً من الصعب القول بضرس قاطع بانّ آدم وحواء لم يكونا قبل ذلك عارفين بأصل السوأة، ولم يكن لهما علم بالميل الغريزي للأجوفين.

ويظهر من بعض آيات قصة آدمعليه السلام انّ هدف الشيطان من الوسوسة وإزلال الإنسان هو اظهار عيوب الإنسان ونقائصه ومواطن ضعفه لكي يفضحه وذلك كما بيّنت الآية الكريمة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾.[2] هذه الآية كأنّها تحذير لبني آدم من الشيطان لئلاّ يفضحهم، لانّه يبذل كلّ ما لديه من سعي وجهد من اجل أن يحطّ من كرامة الإنسان. فاحذروا أن يخدعكم كما اخرج أبويكم من الجنّة ونزع عنهما لباسهما كي يريهما سوآتهما ويفضحهما، واعلموا انّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم.

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

فهدف الشيطان هو اظهار الشيء الذي ظهوره مدعاة للخجل. وصحيح انّه لم يكن في قصّة آدم وحواء شخص آخر حتّى يطّلع على السوأة، لكنّه بعد ذلك وفي زمان تناسل أبناء آدم وكثرتهم، فانّ ظهور السوأة اصبح عيباً اجتماعياً موجباً للخجل.

ويقول الله سبحانه في الآية السابقة: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾[1] اي كما أنزلنا لباساً ظاهرياً ومادياً يستر السوأة الظاهرية لكم، فنحن أيضاً جعلنا لكم لباسَ التقوى كي يستر سوأتكم الباطنية ويمنع ظهور عيوبكم الباطنية، اذ انّ كلّ شخص لديه ميل الى الفساد باقتضاء طبيعته الباطنية (وان كان ميله الفطري نحو الفضيلة)، ولباس التقوى هو الذي يمنع العيب الباطني أن يظهر للعيان، ودور الشيطان هو اِغفال الإنسان عن لباس التقوى حتى تظهر سوأته وعيوبه الباطنية.

١٣. النتيجة الأخيرة للحرب مع الشيطان:

انّ قوله تعالى ﴿**اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ الذي يدلّ على استمرار الحرب والنزاع يتعلق بالأفراد الذين لازالوا في معركة مع الشيطان، وهم لم ينتصروا ولم ينهزموا، والاّ لوضعت الحرب اوزارها، حيث انّه بعد انتصار احد الطرفين سيكون الطرف الآخر (مولّى عليه) ويُجعل تحت الولاية والسلطة، أي انّ الذي لا يستطيع أن يهزم الشيطان ويقهره فانّه سوف يصبح تحت ولايته ويكون الشيطان وليّ أمره وهو يصير عبداً

---

١. سورة الأعراف، الآية ٢٦.

للشيطان وتنتهي المعركة، واذا استطاع في حربه مع الشيطان أن يقهره ويضطره الى الاستسلام، كما فعل أهل البيت عليهم السلام وجميع المخلَصين الذين اجبروا الشيطان على الاستسلام لهم، فهنا ايضاً سوف ينتهي النزاع وتتوقف الحرب. ومهما كان فانّ الذين انهزموا أو انتصروا في حربهم مع الشيطان قد انتهت معركتهم مع الشيطان، امّا بسيطرتهم عليه أو بوقوعهم اسرى في يده.

والمعركة تتعلق بالأفراد الذين لا هم في مستوى اولياء الله، ولا هم من الذين انحدروا الى أسفل سافلين كالكافرين والمنافقين؛ فهؤلاء لا يفارقون ميدان الحرب مع الشيطان، وعلى الرغم ممّا يتلقّونه من الضربات والجراح فانهم لا يستسلمون له، واذا حلّ بهم الموت خلال هذه الحرب فانّهم يُعدّون من الشهداء. ولذلك جاء في الروايات عن اهل البيت عليهم السلام: **«من مات على حبّ آل محمد مات شهيداً»**،[1] لانّ المحبّ لأهل البيت والعارف بحقهم حتى لو لم يسيطر على الشيطان ويغلبه، فانّه على أقل التقادير لا ينحني ولا يخضع للشيطان، وانّما يبقى دائماً في حال كرّ وفرّ وسجال معه.

تنويه: انتهاء الحرب لا يعني انتهاء العداوة، لانّ الشيطان المسلّط على الإنسان المنهزم المستسلم يعادي بشدةٍ عقيدته واخلاقه واعماله.

١٤. الشكل المتصوّر لعداوة الشيطان في جنّة آدم

نظراً لما تقدم من انّ جنّة آدم عليه السلام لم تكن جنّةً دنيوية، فانّ هنا سؤالاً

---

١. **بشارة المصطفى لشيعة المرتضى**، ص ٣٠٤؛ **بحار الأنوار**، ج ٢٣، ص ٢٣٣.

يطرح وهو كيف يمكن تصوّر عداوة ووسوسة الشيطان؟ اذ انّ الوسوسة والعداوة تتعلق بنشأة الطبيعة والتكليف فاذا كانت جنّة آدم في نشأة أعلى من نطاق الطبيعة والتكليف، فكما انّ الأحكام العامة للطبيعة مثل الموت والتعب والألم غير موجودة فيها، كذلك الوسوسة والعداوة ايضاً لا مجال لها فيها. مضافاً الى ذلك اذا كانت تلك الجنّة محلاً للعداوة فكيف انّ الله سبحانه يقول: ﴿**اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ حيث انّ ظاهر هذه الآية هو انّ العداوة مختّصة بالأرض.

والجواب على السؤال المذكور هو، الظاهر من العداوة المذكورة في جنّة آدم انّها ليست من سنخ عداوة الدنيا، لانّ القرآن الكريم قد ذكر ايضاً لأهل الجنّة وسكّان الملأ الأعلى نحواً من النزاع والخصام المتناسب مع وجود تلك المرحلة، فهو يقول حول أهل الجنّة: ﴿**وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا...**﴾[1] وهذه الآية تدلّ على انّ هناك نزاعاً بين أهل الجنّة حول شراب الجنّة ومن يتناول كأسه، على الرغم من عدم وجود الغلّ فيما بينهم: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾[2] كذلك لا يوجد في الجنّة اي نحو من اللغو والذنوب: ﴿**لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ**﴾،[3] أو عندما يتحدّث حول موجودات الملأ الأعلى فيقول: ﴿**مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾.[4] ولاشك انّ تنازع اهل الجنّة على الامساك بكؤوس الشراب ليس شبيهاً بالنزاع المنبعث من الغضب أو

١. سورة الطور، الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.
٢. سورة الأعراف، الآية ٤٣.
٣. سورة الطور، الآية ٢٣.
٤. سورة ص، الآية ٦٩.

الشهوة لأجل الحصول على اللذّة الكاذبة (كالنزاع العابث الذي يحصل في مجالس المتُرفين عندما يريدون أن يشربوا شيئاً)، بل هو نزاع عقلي وممدوح، كما انّ تخاصم الملائكة في الملأ الأعلى ليس بدافع الغضب والشهوة، لانّ المجال هناك هو للتسبيح والتقديس والاستغراق في العبادة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.[1] فلا مجال للنزاع المذموم، وانّما هو نزاع جميل وممدوح ويتناسب مع مرتبتهم الوجودية، وليس نابعاً من الرذائل النفسانية.

وعليه اذا لم تكن جنّة آدم دنيوية ومادّية، فانّ النزاع والخصام الذي كان بينه وبين الشيطان ليس من نوع النزاعات والخصومات التي تحصل بين مترفي الدنيا حتى تكون دائرة مدار الشهوة والغضب، وإنّما هو نحو آخر من النزاع الذي تبدل بعد الهبوط، وتحول عند نزوله الى عالم الطبيعة وظهر على نحو نزاع عنيف.

ومهما كان، فانّ العداوة بعد الهبوط: ﴿اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تختلف عن العداوة التي كانت في الجنّة قبل الهبوط. فالعداوة في الجنّة هي شكل من العداوة الظريفة التي تتلاءم وتتناسب مع تلك النشأة، وان لم تكن ممدوحة مثل النزاع الممدوح بين أهل الجنّة وخصام موجودات الملأ الأعلى، وانّما هذه العداوة بالنسبة الى الدرجة العالية من المحبّة والوئام الموجود هناك تعتبر مذمومة ولذلك فقد أدّت بهم الى الهبوط.

وخلاصة القول، انّ جنّة آدم حيث لم تكن جنّة الخلد، فلا ينبغي أن ننتظر أن نرى فيها جميع مواصفات جنّة الخلد، كما انّها لم تكن ايضاً

---

١. **سورة الأنبياء**، الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

بستاناً من بساتين عالم المادة والطبيعة، ولذلك لم تكن لها آثار المادة وصفاتها. طبعاً هذه المسألة من المعضلات التي يحتاج حلّها الى تأمّل اكثر.

١٥. هبوط الإنسانية الى نشأة الطبيعة

انّ ما يذكر في الآية محل البحث بعنوان الهبوط هو في الحقيقة هبوط انسانية الإنسان من العالم الأعلى الى نشأة الطبيعة، ومثل هذا الهبوط لعلّه يمكن التعرف عليه من آيات وروايات اخرى، منها قوله تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾**[1] الذي مع دلالته على ان انسانية الإنسان والدرجة التي يحظى بها الإنسان قد صيغت على احسن ميزان وقوام،[2] لكنّه نظراً الى قوله في تتمة الآية: **﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾** يحتمل أن يكون ذلك اشارة الى انّ الإنسان على الرغم من كونه في أحسن تقويم لكنّه عندما يتجه الى عالم الطبيعة فانّه في الحقيقة يهبط نحو أسفل السافلين.

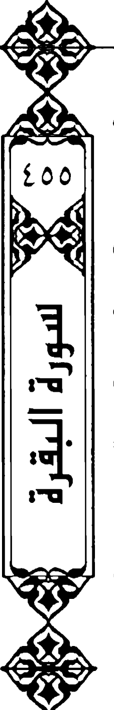
وطبقاً لبعض الآيات كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾**[3] فانّ الأفراد الذين تتعلق قلوبهم بنشأة الطبيعة بعد الهبوط اليها، ويصبحون من أبناء الدنيا ولا يعودون الى مبدأ: **﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**، فانّهم في القيامة أيضاً سيواجهون أسفل السافلين في النار. وفي مقابل هؤلاء فانّ الذين يوفّقون للعودة الصعودية بواسطة التوبة والايمان

---

١. **سورة التين**، الآيتان ٤ ـ ٥.

٢. ليس معنى **﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** هو انّ الإنسان من ناحية جمال البدن يحظى بأحسن قوام، لانّ هذا التعبير صادق حتى على اولئك الذين لم يتمتّعوا بجمال المظهر كبلال الحبشي.

٣. **سورة النساء**، الآية ١٤٥.



والعمل الصالح ويتّجهون نحو نشأة ما وراء الطبيعة فانّهم يعودون الى ذلك العالم الذي هبطوا منه.

وعلى هذا الاساس يحذّر عليّ أمير المؤمنين عليه السلام المجتمع البشري بأن يُفعّلوا عقولهم ويوقظوها ولا يغطّوها ولا يجعلوها نائمة راكدة، وذلك حتى تهديهم وتحكم عليهم بأن يكونوا من ابناء الآخرة، لانّهم جاءوا من الآخرة وهم يعودون اليها: (**وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ وَ إِلَيْهَا يَنْقَلِبُ**).[1]

يظهر من هذا الكلام النوراني انّ تلك النشأة التي سوف نعبر اليها، هي التي سبق أن تركناها خلفنا وجئنا منها، وظهورها لنا في عالم الآخرة ليس هو الظهور الأول لنا، فالإنسان ليس كسائر الموجودات التي نشأت من التراب فقط، بل انّ له سابقة اخروية ايضاً وقصّة هبوط الإنسان الى عالم الطبيعة تؤيّد ذلك، أو قابلة للتطبيق على ذلك المعنى.

١٦. الفرق بين الهبوط الكريم والمهين:

على الرغم من انّ عنوان الهبوط جامع مشترك يصدق على جميع أضلاع المثلّث المكوّن من آدم وحواء وابليس، لكن لكلّ واحد منهم فصل مميّز يمنع اشتراكهم في المدح والقدح، لانّ هبوط آدم كان مقارناً لقبول التوبة وكذلك الاجتباء والاصطفاء والهداية، ولكنّ هبوط ابليس كان مقترناً بالرجم والذمّ والدحر والذلّ والصَغار، حيث قد اشير في القرآن إليهما بجميع هذه النعوت والصفات.

---

١. **نهج البلاغة**، خ ١٥٤، المقطع ٤؛ **بحار الأنوار**، ج ١، ص ٢٠٩.

ولذلك فان أنغام الأمر بالهبوط همست في أذني آدم بنداء الخلافة والولاية، بل وتضمنت ابلاغهُ بالنبوّة والرسالة، ولكنّ زجرة وصيحة الهبوط صكّت أُذن ابليس بأمر الاهانة والصَغار واللعن، ولذلك فانّ الهبوط المحترم لآدم يختلف عن الهبوط الذليل لابليس، ولكن الجمع بين المجتبى والمرجوم والتائب والخائب والولي والعدوّ في خطاب ﴿اهْبِطُوا﴾ مدعاة للتعب والنصب ولعلّ شعور آدم بالمرارة والضجر من هذا الباب، وانّ كان هذا التعبير يبعث السرور من ناحية اخرى حيث انّ الله سبحانه لم يعرّف نفسه بانّه عدوّ لهم، كما لم يعرّف الجميع بانّهم عدوّ له، بل أعلن فقط بانّه عدوّ للبعض (ابليس)، كما ان ذلك البعض اي الشيطان عدوّ لله سبحانه بسبب تمرّده وتكبّره.

١٧. شجرة الهبوط وشجرة الصعود:

اذا قَبلنا بانّ الذي قام به الشيطان في قبال آدم هو الخديعة فحسب، لا انّه علاوة على الخديعة كان كاذباً من الأساس أيضاً، فانّ معنى ذلك صحّة وصدق ما أظهره في كلامه الذي اقسم عليه من أنّ هذه الشجرة هي شجرة الخلد، وانّ الأكل منها يحقّق الخلود والبقاء (لبعض الأفراد). وان كان من الممكن أن يكون قد أخطأ في تطبيق هذه الشجرة على الشجرة الممنوعة، أو انّه كذب عليهما أو أنّه أخطأ في كون آدم وحواء اذا أكلا من هذه الشجرة فهما يُصبحان خالدَين.

وبالنتيجة فانّه طبقاً للفرض المذكور أعلاه فانّ تعبير الشيطان يفيد بانّه توجد في عالم الخلق شجرة تهب الخلود والحياة الأبدية لمن تناول منها،

وهذا يدل على حقيقة وهي كما انَّ ثمار بعض الأشجار تؤدّي الى الهبوط والسقوط، كذلك فانَّ ثمار بعض الأشجار الاخرى تحقّق الصعود والعلوّ.

ولذلك جاء في الآيات والروايات ذكر بعض الأشجار بانّها (شجرة الجنّة)، والبعض الآخر بانّها (شجرة النار)، مثلاً ورد حول سجيّة الكرم انّها شجرة أصلها في الجنّة وفروعها في متناول أيدي الناس، فمن كان سخيّاً فانّه يتعلق بغصن من أغصانها فيدخله الجنّة، أو ما جاء حول شجرة طوبى بانّ أصلها في الجنّة وفروعها في الدنيا بأيدي المؤمنين،[1] وما ورد في حقّ حارثة بن زيد من أنّه تمسّك بجميع أغصان شجرة طوبى؛ لأنّه كان ينظر الى الجنّة والنار ويرى جميع أغصان شجرة طوبى.[2] أو ما جاء من حديث عن الرسول الأكرمﷺ حول القيامة حيث كان يقول: انّ طوبى شجرة أصلها في بيتي وفروعها في بيوت أهل الجنّة، وفي حديث آخر: انّ أصلها في بيت علي بن ابي طالب وفروعها في بيوت المؤمنين.[3] فقال بعض الصحابة يا رسول الله لمَ قلت سابقاً انّ أصل شجرة طوبى في داري والآن تقول: انّ أصلها في دار عليّ؟!

فقالﷺ (**داري ودار عليّ بمكان واحد**).[4]

وعلى هذا الأساس جاء في القرآن الكريم وصف الشجرة المسمّاة بالزقّوم حيث قال تعالى: **﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ**

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٨ ص ١٦٦؛ **التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري**، ص ٥٠٧.
٢. **بحار الأنوار**، ج ٨ ص ١٦٨؛ **التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري**، ص ٥٠٨.
٣. **بحار الأنوار**، ج ٨ ص ١٣٧؛ **تفسير القمي**، ج ٢، ص ٣٣٦.
٤. **بحار الأنوار**، ج ٨ ص ١٩٦؛ **تفسير فرات الكوفي**، ص ٢١٦.



الشَّيَاطِينِ﴾[1] اي انّ شجرة الزقّوم تنبت من جهنّم وهي شجرة غير قابلة للاحتراق وتُسقى من النار، أي انّها على العكس من أشجار الدنيا تتغذّى على النار وثمرتها أيضاً هي النار والتمسك بفروعها واغصانها التي هي الكفر والنفاق والفسق والمعصية يؤدّي الى الدخول في النار.

تنويه: حيث انّ جنّة آدمﷺ لم تكن جنّة الخلد، فانّ أيّاً من أشجارها وثمارها أيضاً لم يكن من شجر وثمار الخلد. طبعاً انّ الامتحان الإلهي تعلق ببعض أشجار تلك الجنّة.

١٨. توجيه رأي العلاّمة الطباطبائيّ حول العهد:

يطرح العلاّمة الطباطبائيّ في حديثه حول العهد الذي نسيه آدم في ذيل الآية محلّ البحث، وعندما يذكر قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾**[2] الوارد في صدر قصة آدم وحواء في سورة (**طه**)، فهو يطرح هذا السؤال وهو هل انّ المقصود من العهد (الذي ادّى نسيانه الى الخروج من الجنّة والوقوع في تعب الدنيا ونصبها) هو ذلك النهي الوارد في قوله تعالى: **﴿لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾**[3] أم انّ المقصود منه هو ذلك التحذير من عداوة الشيطان المذكور في قوله تعالى: **﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾**[4] ام انّه العهد الكلّي والعام الذي أُخذ من

---

١. سورة **الصّافات**، الآيات ٦٢ ـ ٦٥.

٢. سورة **طه**، الآية ١١٥.

٣. سورة **البقرة**، الآية ٣٥.

٤. سورة **طه**، الآية ١١٧.

جميع الناس في الموطن الخاص بالميثاق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾،[1] أو انّه العهد الخاص المأخوذ من الأنبياء عليهم السلام بعنوان الميثاق الغليظ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.[2]

ويجيب قائلاً: انّ الاحتمال الأول غير صحيح، لانّ الشيطان نفسه قد ذكّر آدم بهذا النهي في اثناء معصية آدم واغواء الشيطان له، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا...﴾[3] والأمر الوحيد الذي صدر من الشيطان هو انّه حلّلَ هذا النهي، لا انّه جعل آدم ينسى أصل ذلك النهي.

والاحتمال الثاني أيضاً غير صحيح، لأنّ التحذير من الشيطان لم يكن مختصاً بآدم وانّما كان شاملاً لآدم وحواء كليهما، لانّ الله سبحانه قال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ في حين انّ ظاهر الآية ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ...﴾ هو اختصاص نسبة النسيان الى آدم. فيبقى الاحتمال الثالث وهو انّ العهد المنسيّ هو عهد الربوبيّة الذي جاء في آية الميثاق مع ميزة خاصّة تكون فيه بالنسبة للأنبياء عليهم السلام. فهذا الاحتمال اذن هو الاحتمال الصحيح.[4]

ولأجل توجيه هذا البيان يقال: **اولاً**، انّ ظاهر اختصاص الخطاب بآدم وكذلك ظاهر ارجاع ضمير المفرد الى آدم هو انّ الأمر المذكور

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٧٢.

٢. **سورة الأحزاب**، الآية ٧.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ٢٠.

٤. **تفسير الميزان**، ج ١، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

مختص بآدم، وانّ حواء لم تُشرك فيه. **ثانياً**، لا توجد قرينة متصلة ولا منفصلة تشهد على تعميم الخطاب، وتمنع من الاكتفاء بظاهر اختصاص الخطاب وكون الضمير مفرداً. **ثالثاً**، في الكثير من مواضع القصة المذكورة يوجد شاهد متصل أو منفصل على التعميم، ولكنّه في بعض الموارد لم تقم مثل هذه القرينة، وأمّا العهد الخاصّ بالأنبياء ـ وليس أصل العهد ـ فهو مختصّ بآدمعليه السلام، وكذلك مسألة سجود الملائكة وتعليم الأسماء الإلهية من قبل الله وإنباء تلك الأسماء الى الملائكة فانّ جميع ذلك من مختصّات النبي آدم، اذن يمكن بهذا التوجيه القبول برأي الاستاذ العلاّمة.

لكن يحتمل ان يكون العهد المنسي هو عداوة ابليس لا غير، وأمّا اختصاص آدم بالنسيان فلانّه الفرد الأول في هذه القصة والعنصر الأساسي فيها، ولا يتنافى ذلك مع نسيان حوّاء. طبعاً اطلاق العهد على هذا التحذير والانذار هو من باب انّ التكليف الإلهي يقترن بالتعهد الخاص من قبل العبد، وجميع حقوق الله واحكامه يمكن ارجاعها بلحاظ آخر الى عهود إلهية.

١٩. مزلّة الباطل ومزالّ الأقدام

حيث انّ الازلال والازلاق يحتاج الى وسائل وادوات، ومتاع الدنيا وسيلة مناسبة للانزلاق، فالدنيا «مزلّة للباطل» ومغرياتها «مزّال للأقدام»، وأولياء الله يستجيرون بالله دائماً من سُبات العقل الذي يؤدي الى العجز عن الفهم الصحيح والعمل الصالح ومن الابتلاء ايضاً بقبح الزلل، كما جاء في كلام أمير المؤمنينعليه السلام حيث يقول (**ما لعلّي**



ونَعيمٍ يَفْنَى وَلَذَّة لاَ تَبْقَى، نَعُوذُ بِاللَّه منْ سُبَات الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِه نَسْتَعِينُ)،[١] ويرى اولياء الله انّهم يسيرون على الطريق المعبّد الواسع للحقّ، وانّ مخالفيهم يسيرون في الطريق المنحرف ومزلة الباطل، وكما قال امير المؤمنين عليه السلام: **(فَوَالَّذي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ إنِّي لَعَلَى جَادَّة الْحَقِّ وَ إنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّة الْبَاطلِ)**،[٢] ومدح في موضع آخر الانسان المتّقي بانّه قليل الزلل، فقال عليه السلام: **(تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ قَلِيلاً زَلَلُهُ)**[٣] وذمّ المنافق واصفاً ايّاه بالضّلالة والاضلال والزلّة والازلال فقال عليه السلام: **(وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ فَإنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ)**.[٤]

اي انّ قادة النفاق الذين يقومون بإزلال الآخرين يُعدّون الأرضية المساعدة على الانزلاق والانحراف،بواسطة سبات العقل وزلّة القلب كما قال امير المؤمنين عليه السلام في كتابه لزياد بن ابيه حول ما قام به معاوية حيث جاء فيه: **(وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ)**[٥] وحيث انّ ثمرة الاستقامة هي الجنّة، وعاقبة الزلّة هي النار، كما قال عليه السلام: **(مَنِ اسْتَقَامَ فَإلَى الْجَنَّة وَ مَنْ زَلَّ فَإلَى النَّارِ)**[٦] فانّا نسأل الله سبحانه للجميع ولاسيّما لمدوّن هذه السطور ولكتابته أن يحفظنا من الزلّة والإزلال، بل يجعل هذا التأليف سائغاً كالماء الزُّلال، ولا يكون مرّ المذاق واجاجا تغصّ به

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٢٤، المقطع ١٢.
٢. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٧، المقطع ٦.
٣. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٣، المقطع ٢٠.
٤. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٤، المقطع ٤.
٥. **نهج البلاغة**، الكتاب ٤٤، المقطع ١.
٦. **نهج البلاغة**، الخطبة ١١٩، المقطع ٧.

العقول ويعسر هضمه على الأفهام، وأن ينهل من كوثر القرآن حتى يصل ويمتزج بكوثر العترة، آمين رب العالمين بمحمد وآله الطاهرين.

البحث الروائيّ

١. معصية آدم عليه السلام

عن الرضا عليه السلام: «... **ولم يكن آدم وحوّاء شاهدين قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً، فدلّاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه بالله.**

وكان ذلك من آدم قبل النبوّة، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، وانّما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلمّا اجتباه الله تعالى وجعله نبيّاً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.[١]

ـ عن الرضا عليه السلام... **وانّ آدم لما اكرمه الله تعالى ذكره باسجاد ملائكته له وبادخال الجنّة، قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عزّ وجلّ ما وقع في نفسه. فناداه: ارفع رأسك يا آدم وانظر الى ساق عرشي، فرفع آدم رأسه فنظر الى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: لا اله الاّ الله محمد رسول الله، علي بن ابي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة**

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٨٦، ح ١٢؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٥٩، ح ١١٠؛ **عيون أخبار الرضا**، ج ١، ص ١٧٤.

التفسير

قلنا: جاءت (**قلنا**) بصيغة المتكلم مع الغير لأجل التفخيم والتعظيم، وحسب الاصطلاح فانّ ضمير «نا» للعظمة، لا للجمع. كما ويمكن أيضاً ان يكون بهذا الاعتبار وهو انّ مدبّرات الأمر كانت واسطة في ابلاغ هذا الأمر وكأنّ الله سبحانه يقول: انّا والملائكة قلنا لآدم كذا.

اسكن: السكن في (اسكن) يعني ما يقابل الاضطراب الحاصل من حالة فقدان المأوى وامثالها وهو بمعنى الاطمئنان، وليس بمعنى ما يقابل الحركة. وجملة «اسكنا هنا» بمعنى كونا في الجنّة مرتاحين فارغي البال، كما في أمر الله تعالى لنبيّه بأن يأخذ الزكاة من الناس ويدعو لهم لانّ دعاءه مصدر راحة واطمئنان لهم ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**﴾،[1] وكقوله تعالى ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ**﴾[3] والآية ١٠٤ من سورة (الاسراء)، وليس السكن هنا من سنخ ﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ**﴾[4] بمعنى عدم الحركة.

تنويه: بعض المفاهيم كمفهوم (الخلود) تفيد معنى الاستمرار والدوام، وبعض المفاهيم لا تتنافى مع معنى الاستمرار، مثل (اللبث)،

١. **سورة التوبة**، الآية ١٠٣.
٢. **سورة الأعراف**، الآية ١٨٩.
٣. **سورة الأعراف**، الآية ١٦١.
٤. **سورة الشورى**، الآية ٣٣.

الظنّ بانّ درجات الخلافة وكذلك مراتب ولاية خلفاء واولياء الله متفاضلة كنبوّة الأنبياء ورسالة المرسلين، وفي دائرة الولاية ونطاق الخلافة الإلهيّة ليس الحسد وحده ممنوعاً فحسب، بل حتّى الغبطة غير المأذون بها أيضاً غير صحيحة، لانّ تلك الحسنة من اولئك العظام هي بمثابة السيّئة. طبعاً انّ سرّ القدر الذي بانت حقيقته للآخرين بعد الهبوط جعل قصة آدم من اولها الى آخرها مليئةً بالحكمة.

ب: هناك سؤال حول عصمة الأنبياء، هل انّها بعد بعثتهم ورسالتهم ام انّ الدليل العقلي الذي يحكم بلزوم عصمتهم مطلق بحيث يشمل ما قبل بعثتهم ونبوتهم أيضاً؟ وفي جواب هذا السؤال ينبغي أن يقال: انّ البحث عن عصمة الأنبياء بما انّه بحث كلامي وعقائدي عميق، لذلك يحتاج الى مجال مناسب آخر، وان كان الامام فخر الدين الرازي قد ذكر على نحو التفصيل أدلّة المخالف والموافق وآراء المُفرطين والمفرّطين والمعتدلين وناقشها،[1] كما جاء الكثير منها في تفسير صدر المتألهين.[2] واثبات أو نفي هذه المسألة الكلامية بواسطة بعض الأحاديث المرسلة التي هي الى الآثار اشبه منها الى الأخبار، والى المدسوس الموضوع اقرب منها الى المنقول، والى الرأي اقرب منها الى الرواية، انّما هو أمر في غاية الصعوبة.

اضافة الى جميع هذه الصعوبات، فانّ هناك ملاحظة رائعة اخرى غابت عن اكثر تأليفات المفسّرين وهي انّهم وان ميّزوا بين عصر ما قبل نبوّة الأنبياء وما بعدها، لكنّهم لم يذكروا امراً أساسيّاً وهو الفرق بين

---

١. **التفسير الكبير**، مج ٢، ج ٣، ص ٧ ـ ١٥.

٢. **تفسير القرآن الكريم**، صدر المتألهين، ج ٣، ص ١١١ ـ ١٢٥.

(عصر الفترة) وما قبل ظهور أصل النبوّة التشريعية وبين (عصر الفطرة) وما بعد ظهور أصلها، لأنّه في قصّة آدم عليه السلام علاوة على الاختلاف ما بين عصر ما قبل نبوّته وما بعدها الموجود عند بقيّة الأنبياء والمرسلين فانّه يلاحظ فيها اختلاف ماهوي آخر أيضاً لا يوجد لدى الأنبياء الآخرين، وهو انّ آدم عليه السلام قد عاش فترة لم تكن فيها نبوّة تشريعية في عالم الإمكان أصلاً، وفي مثل هذا الظرف لا يمكن استنباط حكم مسألة من شريعة ومنهاج مجعولين من قبل الدين لانّ المفروض هو ان الشريعة لم تظهر في العالم بعدُ أصلاً. وعليه فانّ طرح مسألة العصمة في مثل هذه الحالة يختلف عما هو عليه في حال ظهور الشريعة.

والإمام الرازي وبعد ذكره لسبعة أدلّة تدلّ على معصية آدم عليه السلام فانّ أهمّ جواب ذكره هو انّ أيّاً من هذه الوجوه السبعة لا يدلّ على انّ ارتكاب المعصية كان في حال النبوّة،[1] لكنّه لم يذكر هذا الأمر الأساسي.

٢- المعصية الأولى للبشرية:

ـ عن السجاد عليه السلام: ـ **فأول ما عُصي الله به الكبر وهو معصية ابليس حين ابى واستكبر، وكان من الكافرين ثم الحرص وهو معصية آدم وحواء حين قال الله عزّ وجلّ لهما: ﴿كُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ فأخذا ما لا حاجة بهما اليه، فدخل ذلك على ذريتهما الى يوم القيامة وذلك انّ اكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به اليه).**[2]

١. **التفسير الكبير**، مج ٢، ج ٣، ص ١٢، ذيل الآية ٣٦ من **سورة البقرة**.
٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٠، ح ١١١ ـ **الكافي**، ج ٣، ص ١٣٠.

اشارة: مع غضّ النظر عن سند الحديث، فانّه ينبغي الالتفات الى ما يأتي: **اوّلاً**: حيث لم يحرز تحقق أصل الشريعة والأمر التشريعي في مسألة السجود لآدم عليه السلام، فليس من السهل حمل معصية ابليس على المعصية التشريعية، كما انّ من الصعب حمل ما ارتكبه آدم على المعصية التشريعية، قبل احراز أصل النبوّة التشريعية.

ثانياً: اذا كان سبب الارتكاب هو نسيان العهد فلن تكون هناك معصية، لان التكليف مرفوع حال النسيان.

ثالثاً: اذا كان الحرص هو سبب الارتكاب، فلابدّ انّ هذا الحرص الشديد الشامل قد ادّى الى النسيان، وانّ الارتكاب قد وقع حال النسيان.

٣. زمان ومكان هبوط آدم وحوّاء:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ «فهبط آدم على الصفا، وانّما سمّيت الصفا، لانّ صفوة الله هبط عليها ونزلت حوّاء على المروة، وانّما سمّيت المروة، لانّ المرأة نزلت عليها. فبقي آدم اربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنّة. فنزل عليه جبرئيل فقال: يا آدم! ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته؟ قال: بلى. قال: وامرك ان لا تأكل من الشجرة، فلمَ عصيته؟ قال: يا جبرئيل! انّ ابليس حلف لي بالله انّه لي ناصح، وما ظننت انّ خلقاً خلقه الله يحلف بالله كاذباً».[1]

---

١. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٣؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٨١، ح ٤؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦١، ح ١١٤.



ـ سئل أمير المؤمنين عن اكرم واد على وجه الأرض، فقال: **واد يقال له سرانديب، سقط فيه آدم من السماء.**[1]

ـ عن رسول الله ﷺ: **يوم الجمعة سيد الأيّام، خلق الله فيه آدم واهبط فيه آدم الى الأرض.**[2]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: **سمّي الصفا صفا لانّ المصطفى آدم هبط عليه فقطع للجبل اسم من اسم آدم عليه السلام وهبطت حوّاء على المروة وانّما سمّيت المروة مروة لانّ المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من اسم المرأة.**[3]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: **انّ آدم أُنزل فنزل في الهند.**[4]

ـ عن ابن عباس: **أُهبط آدم الى أرض يقال لها: دجناء، بين مكّة والطائف.**[5]

ـ عن عليّ عليه السلام: **اطيب ريح الأرض الهند، اهبط بها آدم فعلق ريحها من شجر الجنّة.**[6]

ـ عن ابن عباس: خرج آدم من الجنّة بين الصلاتين: الظهر والعصر، فأُنزل الى الأرض، وكان مكثه في الجنّة نصف يوم من آيام الآخرة، وهو خمسمائة سنة من يوم كان مقداره اثنتي عشرة ساعة

---

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٤، ح ١٢٦؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ٣٢٠.
٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٤، ح ١٢٨؛ **كتاب الخصال**، ج ١، ص ٣١٥ ـ ٣١٦.
٣. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٤، ح ١٣١؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١٣٧.
٤. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٤، ح ١٣٢؛ **علل الشرائع**، ج ٢، ص ١١١.
٥. **الدر المنثور**، ج ١، ص ١٣٥.
٦. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٣٥.

واليوم الف سنة ممّا يعدّ اهل الدنيا، فأهبط آدم على جبل بالهند يقال له نود، واُهبطت حوّاء بجدّة، فنزل آدم معه ريح الجنّة فعلق بشجرها وأوديتها.[1]

ـ عن الصادق عليه السلام: **فلمّا هبط آدم الى الأرض هبط على الصفا، ولذلك اشتق الله له اسماً من اسم آدم، لقول الله: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾، ونزلت حوّاء على المروة فاشتق الله لها اسماً من اسم المرأة....**[2]

اشارة: مع غضّ النظر عن ارسال السند وصعوبة اثبات المعارف العلمية بهذا النوع من الأخبار التي هي بالآثار اشبه منها بالأحاديث، ومع غضّ النظر عن احتمال كونها من الاسرائيليات غير القابلة للاعتماد، ينبغي الالتفات الى ما يأتي:

أولاً: لا يوجد اختلاف حول زمان الهبوط طبقاً لما ذكر هنا، لكنّ مكان الهبوط ذكرت حوله اقوال عديدة، فاذا لم يكن المقصود هو بيان مظهر النزول ومنشأ بركته الوجودية الذي هو أمر قابل للتعدّد، فانّ من الصعب حينئذٍ الجمع بين الأقوال غير المتناسبة.

ثانياً: ساحل البحر يطلق عليه اسم (جُدّ) وهو اسم لا يخصّ المدينة الواقعة في ارض الحجاز ابداً. ولذلك جاء في بعض الأحاديث ذكر جُدّة بحر الهند، وفي بعض النصوص الفقهية وردت عبارة وقوع السمك في الجُدّ اي شاطئ البحر.

ثالثاً: جاء في بعض المنقولات ذكر مسافة كبيرة بين مهبط آدم

---

١. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٣٩.

٢. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٨، ح ٢٢.

ومحلّ هبوط حوّاء، وفيما إذا كان احدهما قد هبط على الصفا والآخر على المروة فليس هناك مسافة يُعتدّ بها بين المهبطين.

٤. الهدف من هبوط آدم:

عن امير المؤمنين عليه السلام: **فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَة لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِه وَ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِه.**[1]

عن ابي عبد الله عليه السلام: **لمّا هبط آدم الى الأرض، احتاج الى الطعام والشراب، فشكى الى جبرئيل: فقال له جبرئيل: يا آدم كن حرّاثاً. قال فعلّمني دعاء، قال: قل «اللّهم اكفني مؤنة الدنيا، وكلَّ هول دون الجنّة والبسني العافية حتى تهنئني المعيشة».**[2]

اشارة: حيث انّ الهدف من خلق آدم كان هو الخلافة،وكان المخطّط له أساساً من مثل هذا الاستخلاف هو أن يكون الخليفة مستقراً في الأرض، وان كانت دائرة استخلافه اوسع من حدود الأرض، لذلك فقد تمَّ إعداد جميع وسائل الامتحان ودوافع ارتكاب الأكل من الشجرة الممنوعة وفكرة الورود الى الأرض، كي يتحقق الهدف الأصلي الذي هو استقرار الخليفة في الأرض. والأدوار التي يقوم بها الخليفة المذكور هي زيادة النسل وإعمار الأرض وإتمام الحجّة الظاهرية في ضمن تقوية وإثارة الحجّة الباطنية (**يُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُول**).[3]

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ٩١ (الأشباح)، المقطع ٨٢؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٢، ح ١٢١.
٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٧، ح ١٤١؛ **الكافي**، ج ٥، ص ٢٦٠.
٣. **نهج البلاغة**، الخطبة ١، المقطع ٣٧.



٥. المقصود من (حين)

ـ عن الصادق عليه السلام: **﴿اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ اي الى يوم القيامة.**[1]

اشارة: حيث انّ لجميع الأفراد قدراً خاصّاً من الاستقرار والتمتع في مدة حياتهم في الأرض، واذا لم يتمّ استيفاء حقوق الجميع، فانّ المفاد الكامل للآية لا يتحقق، لذلك فان معنى كلمة (**حين**) سوف يكون هو زمان انقراض الدنيا وظهور عرصة القيامة، واذا كان قد جاء في خلال تفسير الآية انّ كلمة (**حين**) تعني نهاية حياة الأشخاص فان ذلك ناظر الى جانب من الجوانب الواسعة للمعنى الجامع لكلمة (**حين**)، وهذا التحديد يحمل في ثناياه وعداً بانتهاء ترح الهجران وحلول فرصة الوصال واللقاء، وانّ امامنا مرحلة الصعود مرة أخرى شريطة أن تكون من اهل العقيدة الطيبة والعمل الصالح، اذ: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾**،[2] كما انّ قوله **﴿مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾** يفيد أمرين: احدهما: ان الهبوط لا يعني الزوال والفناء وانّما يقترن بالتمتّع، والآخر: انّ هذا التمتع محدود، ونتيجة ذلك إمّا نعمة الجنّة او عذاب النار، وهو أمر يرتبط بعمل المتمتّعين انفسهم.

---

١. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٣، ح ١٢٣؛ **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٣.

٢. **سورة فاطر**، الآية ١٠.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

خلاصة التفسير

بعد إزلال الشيطان الذي كانت نتيجته هبوط آدم الى الأرض، وبعد أن ادرك آدم خطأه، وقام بصدد اصلاحه وجبرانه، فقد تلقّى من ربّه كلمات ليتوب بواسطتها ويجبر خطأه امام الله، والله سبحانه قد قَبِل توبته ايضاً لأنّه تواب ورحيم.

والمقصود من تلقّي الكلمات في جملة ﴿**فَتَلَقَّى**﴾ هو انّ آدم استقبل هذه الكلمات والمعارف عن وعي ورغبة واشتياق، واخذها لأجل العمل والطاعة؛ كما انّ المقصود منها لعلّه الادراك التفصيلي للأسماء التي كان قد تعلمها آدمعليه السلام على نحو الإجمال في قضية تعليم الأسماء ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء**﴾.

وطبقاً للقراءة غير المشهورة، فانّ (آدم) يعتبر مفعول قوله: ﴿**فتلقّى**﴾

و﴿**كَلِمَات**﴾ فاعلها، وانّ الكلمات هي التي تلقّت آدم، والملاحظة اللطيفة التي تُستأنس من هذا المعنى هي انّ بلوغ الفيوضات المعنوية يعود الى لطف الله بالإنسان، والموهبة التي تفيض من جانبه على الإنسان، لا الى طلب الإنسان.

ونظراً الى انّ ظاهر الكلمات المتلقّاة (أو المتلقية) هي جزء أو تفصيل لتلك الأسماء التي جرى تعليمها لآدمعليه السلام ، على نحو الإجمال والعموم، فالمقصود منها، ليس هو مجرد الألفاظ والمفاهيم الذهنية، وانّما المراد هو الحقائق الخارجية،التي من جملتها الآيات الوجودية لأهل البيت عليهم السلام، وحيث انّ الكلمات تعني الحقائق العينية، فان لها ظهوراً خاصاً في عالم الاعتبار، وجميع ما ورد في الروايات من الفاظ ومفاهيم، فهو صحيح بما انّه يمثّل المرحلة النازلة لتلك الحقائق العينية.

كما انّ الكلمات المتلقّاة لها درجات واقسام، وبالتبع لها فانَّ التلقّي للكلمات ايضاً له درجات، فتارة المقصود من الكلمة هو الجملة الأدبية وتلقّيها هو استماعها بواسطة حاسة السمع وادراك مفهومها الذهني بواسطة جهاز الفهم والادراك، وتارة المقصود من الكلمة، هو العين الخارجية وتلقّيها هو الأخذ العيني للكلمة في المثال المنفصل أو الطبيعة والمادة، وتارة المقصود من الكلمة هو القضاء الإلهي والحكم الحتمي له سبحانه، وتلقّيها هو الاطّلاع الشهودي على اللوح المحفوظ الإلهي الذي هو غير قابل للتغيير وأعلى من القَدَر. فلا الكلمة مختصة بالألفاظ والمفاهيم الحصولية، ولا التلقّي والاستماع مختصٌ بالأُذُن الظاهرية المحسوسة. وما جاء حول آدمعليه السلام بعنوان تلقّي الكلمات يمكن أن يكون

جامعاً بين المعقول والمحسوس. كما انّ درجات التلقّي سوف تتعلق بدرجات الكلمات، وتعتمد على مراتب ومنازل المخاطَبين المتلّقين لها ايضاً. وظاهر الآية محلّ البحث انّ القاء الله سبحانه وتلقي آدمعليه السلام قد تمّ مباشرة وبغير حجاب، كما ويمكن مع ذلك أن يكون قد حصل عن الطريقين الآخرين من طرق التكليم الإلهيّة الثلاثة (المذكورة في سورة «**الشورى**» الآية ٥١).

وتفريع تلقّي الكلمات وذكره مع (فاء التفريع) دليل على انَّ آدمعليه السلام قد بادر فوراً بعد الزلة وارتكاب مورد النهي الى لقاء الكلمات التي يتمّ بها الرجوع والعودة والتوبة. ومسارعة آدم الى نيل رضا الله تدلّ على انّ آثار وسوسة ابليس لم يكن لها ذلك البقاء، حيث تبدل عقاب الغضب الإلهي بسرعة الرضا الى خطاب ممزوج بالمحبّة، واُلقي الى آدم بماء كوثر الكلمات الزّلال، فاذا بآدم العاصي المخطئ قد أصبح مجتبىً ومهديّاً.

ولعلّ السرَّ في افراد ضمير (فتاب عليه) هو انّ آدم هو الأصل وحوّاء هي الفرع، أو انّ مخالفة آدم تعتبر أشدّ من ارتكاب حوّاء. ولذلك اُسندت قضايا (نسيان العهد)، و(فقدان العزم)، و(العصيان)، و(الغواية) ايضاً الى آدم وحده.

التفسير

تاب: كلّما نسب فعل (تاب) الى الله فانّه يستعمل مع (على)، واذا نسب الى العبد فانّه يستعمل مع (الى)، لانّه في الصورة الاولى يعني الاشفاق



والعطف (اشفاق اللطف والرحمة والنظر والانعطاف) ومن الواضح انّ هذين الأمرين يستعملان مع (على) فيقال (أشفق عليه) و(عطف عليه)، وفي الصورة الثانية يعني العودة والرجوع، ولاشك انّ رجع تستعمل مع (إلى)[1] وصِلَة كلّ معنى تتناسب مع ذلك المعنى.

تناسب الآيات

بعد إزلال الشيطان الذي ادّى الى هبوط آدم الى الأرض، ادرك آدمعليه السلام زلّته وخطأه وانّه قد ظلم نفسه وعرَّضها لخسران كبير، والآية الكريمة: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[2] شاهدة على ذلك. لذلك فقد بادر الى تدارك ما فات منه، واذا لم يستطع في الدنيا أن يعود الى تلك الربوع التي تفيض بالبهجة والسرور، فلا يفوته على الأقلّ أن ينتقل من هذه النشأة المظلمة ودار الغرور ويرجع الى موطنه الأصلي.

والمحور الأساسي في الآية محلّ البحث، هو بيان كيف انّ آدم تدارك خطأه وزلّته، فهي تقول: انّ آدم بعد الهبوط تلقّى من ربّه كلمات لأجل التوبة والإنابة، وبتلك الكلمات تاب وعاد الى الحضرة الربوبية، والله تعالى ايضاً قَبِل توبته، لانه هو «التوّاب» و«الرحيم».

تعليم الأسماء لآدم إجمالاً وتفصيلاً:

يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى**﴾ انّ تلقي آدم الكلمات، قد تمَّ بوعي

١. راجع: **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٥.
٢. **سورة الأعراف**، الآية ٢٣.

إلى آدم عليه السلام، ولوصل حكم الله إلى ذلك الفرد بواسطة آدم عليه السلام. والمقصود من الحكم طبعاً ليس هو الحكم المرتبط بالشريعة الاعتبارية المولوية.

٤. لكل واحد من عوالم الطبيعة والمثال والعقل وكذلك عوالم الدنيا والبرزخ والقيامة حكمه الخاص به، أي انّ الجنّة مثلاً ليست مجرد مكان للرفاهية والتنعّم بحيث انّ ساكنيها مختلفون، فبعضهم ينال قسطاً وافراً من نعمها، والبعض الآخر يكون نصيبه منقوصاً، وكأنّ المعصية ممكنة هناك، ولا خصوصية للمكان أي الجنّة، بل انّ الجنّة نشأة خاصة لا مجال فيها اصلاً لوجود (اللغو) ولا (التأثيم)، ولا يسمح لساكني دار الخلد أن يدخلوها الاّ من بعد تصفيتهم وتطهيرهم من آفات وشوائب الهوى والانحراف.

وقد تحدث القرآن الكريم عن نقاء حريم الجنّة ودار الخلد من دنس المعاصي فقال تعالى ﴿**لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ**﴾،[1] وكذلك طهارة أهل الجنّة وساكني دار الخلد من قذارة الذنوب فقال تعالى ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾،[2] أي انّ قلوب أهل الجنّة نقية ومصفّاة من جميع اشكال الغلّ والخيانة، سواء منها ما كان يتعلق بالأحكام الإلهية أو السنّة النبوية أو حقوق الآخرين وممتلكاتهم، أي انّ جميع أنواع الخيانة لله والنبيّ وأمانات الناس التي نهى الله تعالى عنها بقوله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ**﴾[3] قد ازيلت تماماً من قلوب أهل الجنّة. وعليه فلا يمكن القول بانّ جنّة آدم كانت نفس

---

١. **سورة الطور**، الآية ٢٣.

٢. **سورة الحجر**، الآية ٤٧.

٣. **سورة الأنفال**، الآية ٢٧.

وعلى الرغم من انّ قراءة رفع آدم ونصب الكلمات، هي المعروفة والمشهورة، ولكن لم يَقمْ دليل على بطلان قراءة نصب آدم، والملاحظة اللطيفة التي تستفاد منها وكذلك من الآية الكريمة: ﴿**لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ هي انّ الفيوضات المعنوية، ليست كالفيوضات المادّية: ﴿**سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ**﴾[1] وكلّ من ارادها نالها، بل يتوقف نيلها وبلوغها على هبة الله ولطفه وإعطائه.

واللقاء معنى جامع، وكلُّ فرد من مصاديقه الكثيرة يقترن بخصوصيّة لا توجد في بقيّة المصاديق. ويُعلم من هذا الاختصاص أن لا شيء من تلك الخصوصيات مأخوذ في حقيقة معنى اللقاء. فتارة يكون الاتصال الخالي من الادراك والمعرفة مصداقاً للقاء، كما في لقاء الأرض بالجبال التي هي ثابتة وقائمة على الأرض والله سبحانه القاها في الأرض: ﴿**وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾،[2] وتارة أخرى نرى مصداقاً آخر يمتاز بالمعرفة والادراك كلقاء المنافقين بالمؤمنين والكفار: ﴿**وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا**﴾.[3]

وفي الكثير من الموارد ذكرت مسألة المعاد والحضور أمام الله بعنوان انّه لقاء الله، كما في قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾،[4] كما عبّرت آيات اخرى عن المواجهة

---

١. سورة فصّلت، الآية ١٠.
٢. سورة لقمان، الآية ١٠.
٣. سورة البقرة، الآية ١٤.
٤. سورة الكهف، الآية ١١٠.

العسكرية بين المسلمين والكفّار بانّها لقاء كما في الآية الكريمة: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.[١]

والملاحظ في عنوان التلقي انّه نحو اتّصال ناشئ عن وعي من جهة، وعن رغبة واشتياق من جهة اخرى.

والمستفاد من الآية الكريمة: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائَكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٢] هو حضور الملائكة لدى المؤمنين عن علم وشوق ورغبة، لانّ التلقي، كاللقاء يحتاج الى المبدأ الفاعلي للإلقاء والتلقية، وذلك المبدأ الفاعلي تارة يلقي كلمةً الى الإنسان المتقي، ومرجع هذا الإلقاء الى تلقّي الكلمة للإنسان المتقي المتلقّي كما في قوله تعالى: ﴿رَسُولُ اللّه وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾،[٣] طبعاً المقصود من الكلمة في هذه الآية هو النبيّ عيسى عليه السلام الذي هو موجود عيني وخارجي اعطاه الله لمريم.

وقد ذكر هذا المعنى بعينه بنحو جامع وشامل لجميع المراتب، العينية، واللفظية والذهنية، في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾،[٤] لانّ القرآن حقيقة تتضمن جميع المراتب، من مرتبة: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الى مرتبة: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ التي ذكرت في الآية ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٥] واذا كانت تلك الحقيقة الجامعة الواسعة قد القيت الى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فانّه قد

---

١. **سورة الأنفال**، الآية ١٥.

٢. **سورة الأنبياء**، الآية ١٠٣.

٣. **سورة النساء**، الآية ١٧١.

٤. **سورة المزّمل**، الآية ٥.

٥. **سورة الزخرف**، الآيتان ٣ ـ ٤.

تلقّى اذن جميع مراتب القرآن، لكن بعد تلقّي القرآن للرسول، لانّه وان كان التلاقي يحصل باتصال الطرفين احدهما بالآخر في زمان واحد، لكن حيث انّ الرسالة هي الشيء الذي يأتي من المبدأ الملقي ويبحث عن مخاطبه فيجده ويتّصل به، ولذلك فانّ التقدم يكون للشيء الذي نزل من جهة المبدأ الفاعلي للالقاء. وعليه فانّ تلقّي الرسول الأكرم ﷺ للقول الثقيل الملقى من قِبَل الله مسبوق بتلقّي ذلك القول الثقيل للرسول الأكرم ﷺ، لانّ ذلك القول هو الذي جعل النبيّ المزمّل[1] والمدثّر[2] ينهض وينبعث ويدهش، ويتّصف بصفة النبوّة والرسالة المتميّزة والممتازة.

وبعض الأفعال مثل (الملاقاة) و(التلاقي) وان كانت تفيد الاشتراك من جانبين، لكن بعضها يمتاز بانّ الجانب الفاعلي في احد الطرفين يُغَلَّب على جانبه المفعولي، ولذلك يكون احدهما من الناحية النحوية فاعلاً والآخر مفعولاً، كما في: (لاقى زيد عمراً) لكنّ البعض الآخر من هذه الأفعال يمتاز بتساوي الجانبين، ولذلك يعتبر كلا الطرفين من الناحية النحوية فاعلاً كما في: (تلاقى زيدٌ وعمرو).

طبعاً هذا التقييم يتمُّ مع غضّ النظر عن ذلك المبدأ الفاعلي الأصيل المسؤول عن الإلقاء والتلقية، والاّ فانّ ما يصدر منه يتّصف بالسبق والتقدم، كما ويقترن بالتأثير الفاعلي، أي انّ ما ينزل من ناحية المبدأ الفاعلي بالإلقاء والتلقية، فانّه يسيطر على الطرف المقابل، ويجعله محكوما لأثره الخاصّ وصفته المعيّنة، سواء كان من نوع القهر والغضب

---

١. سورة المزمّل، الآية ١.

٢. سورة المدثّر، الآية ١.

والتنفير كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] او كان من نوع الجذب والمحبّة والرأفة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾،[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.[3]

ومن هذا التحليل المفصَّل يمكن الاستنباط بان قراءة آدم بالنصب تتضمّن معنى لطيفاً، وان كان الشيخ ابو جعفر الطبري وعلى الرغم من تجويزه قراءة آدم بالنصب من ناحية القواعد الأدبية العربية، قد اعتبرها على خلاف اتفاق أهل القراءة،[4] ولم يقبلها، لكنّ مثل هذا الاتفاق اذا لم ينته الى سنّة المعصوم عليه السلام فلا يُستند اليه في الفتوى.

وينبغي الالتفات الى انّه في الموارد التي يؤدّي الإلقاء والتلقية فيها الى رمي الشيء في مهاوي الخطر والعذاب، فانّ صفة السبق والتقدم الفاعلي والتأثير تكون للطرف المستقبِل، لا الشيء النازل، فلو ألقى احدٌ شيئاً في البحر، فانّ الدور الفاعلي هنا يكون للبحر الذي يبتلع الشيء أو الشخص المُلقى فيه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.[5]

المراد من الكلمات:

انّ المقصود من (**كلمات**) وكما تقدم، ليس سوى الأسماء التي جرى

---

١. **سورة المائدة**، الآية ٦٤.

٢. **سورة طه**، الآية ٣٩.

٣. **سورة الإنسان**، الآية ١١.

٤. **جامع البيان**، ج ١، ص ٣١٩، ٣٢٠.

٥. **سورة ق**، الآية ٢٤.

تعليمها لآدمعليه السلام، اي انّ الكلمات المتلقاة ظاهراً هي جزء من تلك الأسماء، لانّ (**الأسماء**) في الآية الكريمة: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ جمع محلّى بالألف واللام، وكما تقدم سابقاً فانّها تفيد العموم خصوصاً مع النظر الى التأكيد بكلمة (**كلّها**).

كذلك فانّ المقصود من هذه الكلمات، ليس هو مجرد الألفاظ والمفاهيم الذهنية، اذ انّ الله سبحانه قد اطلق مصطلح (الكلمات) في القرآن الكريم على الحقائق الوجودية، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿...**قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي**﴾،[1] فاذا كان قد ورد في روايات أهل البيتعليهم السلام انّ المقصود من هذه الكلمات هو اسماء اصحاب الكساء،[2] فينبغي توجيه ذلك بانّ آدمعليه السلام زار انوار أهل البيت واشباحهم، وانّ الكلمات المتلقّاة هي تلك الآيات الوجودية لأهل البيت عليهم السلام، وان كان قد نطق بأسمائهم المباركة عندما تاب وتكلّم مع الله بعنوان الاستغفار.

ويمكن السؤال عن انّه اذا كان المقصود من الكلمات، ليس هو ألفاظها ومفاهيمها الذهنية، وانّ الرواية المذكورة توجّه بانّ المقصود من أسماء أصحاب الكساء هو الأنوار والأشباح الوجودية والخارجية، فكيف يتمّ توجيه الرواية التي نقلها الفيض عن الكافي والتي جاء فيها انّ الكلمات هي: (**لا إله الاّ انت سبحانك اللهم وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فأغفر لي وانت خير الغافرين، لا إله الاّ انت سبحانك**

---

١. **سورة الكهف**، الآية ١٠٩.

٢. راجع **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٦.

اللهم وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي وارحمني انّك انت أرحم الراحمين، لا إله الاّ انت سبحانك اللّهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ انك التوّاب الرحيم)؟[١]

ألا تصحّ هذه الرواية ان تكون قرينة على انّ المراد من الكلمات هو ألفاظها ومفاهيمها الذهنية؟

الجواب هو **أوّلاً**: لابدّ من احراز كون النشأة التي القيت فيها الكلمات المذكورة في الآية محلّ البحث الى آدمعليه السلام، هي في ضمن دائرة ونطاق الدنيا والأرض حتى يراد منها الألفاظ والمفاهيم الذهنية أو انّها كانت في نطاق الجنّة، الذي هو فوق عالم الاعتبار والألفاظ العبرية والعربية والفارسية. فاذا لم يثبت انّ دائرة المحاورة كانت في ضمن نطاق الأرض، ونشأة اعتبار ووضع الألفاظ والمفاهيم الذهنية، فانّه لا يمكن حمل الكلمات الواردة في الآية على هذا المعنى.

ثانيا: جاء في بعض الروايات انّ المقصود من الكلمات التي ابتُلي بها النبي ابراهيمعليه السلام هي نفس الكلمات التي تلقّاها النبي آدمعليه السلام. ومن الواضح انّ الكلمات التي ابتُلي بها النبي ابراهيمعليه السلام كانت من سنخ الحقائق الخارجية، ولم تكن من سنخ الألفاظ والمفاهيم الذهنية.

ثالثاً: حيث انّ الكلمات بمعنى الحقائق العينية لها ظهورها الخاص في عالم الاعتبار، فجميع ما ورد حول ألفاظها ومفاهيمها الذهنية صحيح بمعنى انّه يمثّل المرحلة النازلة لتلك الحقائق العينية، ولكن لا يوجد أيّ حديث من الأحاديث الواردة في هذا الشأن، يدلّ على حصر الكلمات

---

١. **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٦.

في الألفاظ والمفاهيم. وسوف يأتي توضيح اكثر لهذه المسألة في بحث لطائف وإشارات.[١]

درجات تلقّي الكلمات:

انّ تلقّي الكلمات له درجات واقسام تتحدّد وفقاً للمقصود من الكلمات المتلقّاة، فتارة المقصود من الكلمة هو العبارة الأدبية الأعمّ من العربية والفارسية، التي يقولها المتكلم، والمستمع يتلقّى ويستمع ما ألقى المتكلم كما في قوله تعالى: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا**﴾.[٢] ففي مثل هذه الموارد، يكون التلقّي هو الاستماع بحاسة السمع وادراك المفهوم الذهني بواسطة جهاز الفهم والادراك لا أكثر. وتارة يكون المقصود من الكلمة هو العين الخارجية، كما سبق ذكره، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾،[٣] ففي مثل هذه الموارد، يكون التلقّي هو الأخذ العيني للكلمة، سواء في عالم المثال المنفصل أم في الطبيعة والمادة، وتبعاً للمرحلة التي يتجلّى فيها ذلك الموجود العيني.

واحياناً ايضاً يكون المقصود من الكلمة، هو القضاء الإلهي والحكم القطعي لله سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ**﴾،[٤] وقوله تعالى ﴿**كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٤٩٣، من الترجمة العربية.
٢. **سورة الكهف**، الآية ٥.
٣. **سورة آل عمران**، الآية ٤٥.
٤. **سورة الأعراف**، الآية ١٣٧.

عَلَى الَّذينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾،[1] ففي مثل هذه الموارد، فانّ التلقّي هو الرؤية واللمس الشهودي بالنسبة الى اللوح المحفوظ الإلهي الذي هو غير قابل للتغيير وفوق مرحلة القَدَر. طبعاً اذا تنزلت تلك المعارف الراقية واكتست رداء الألفاظ والمفاهيم الذهنية، فسوف تكون كلمة عرفية ويكون تلقّيها هو التلقي المعروف المتداول بين عامّة الناس.

والقصد هو انّ اطلاق الكلمات على الأعيان العالية وكذلك على الحقائق الوجودية هو ديدن القرآن الكريم، ولذلك فقد صدر الحكم الإلهي على هذا المنوال فقال تعالى: ﴿لاَ تَبْديلَ لكَلمَات اللّه﴾،[2] ﴿وَتَمَّتْ كَلمَتُ رَبِّكَ صدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لكَلمَاته﴾،[3] وتارة تطلق الكلمة على الاصول العقائدية والقواعد الحقوقية الكليّة في الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَة سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.[4]

وبعد بيان اقسام الكلمة، فانّ انحاء التلقي سوف تكون معلومة على نحو الإجمال، كما انّ معنى (جوامع الكلم) اذا اتّضح بنحو جامع، فانّ معنى الإعطاء الإلهي والاستعطاء النبوي وكيفية وجود هذا النحو من العطاء سيتّضح ايضاً، وبالتالي يتضح المعنى العميق للحديث الشريف (**أُعطيت جوامع الكلم**)،[5] واذا ما اراد أحد أن يحظى بدرجة تلقي: ﴿كَلِمَةُ اللّه هيَ الْعُلْيَا﴾[6] فانّ

---

١. **سورة يونس**، الآية ٣٣.
٢. **سورة يونس**، الآية ٦٤.
٣. **سورة الأنعام**، الآية ١١٥.
٤. **سورة آل عمران**، الآية ٦٤.
٥. **بحار الأنوار**، ج ٨ ص ٣٨؛ **كتاب الخصال**، ج ١، ص ٣٩٢.
٦. **سورة التوبة**، الآية ٤٠.

عليه أن يرقى الى ذروة السموّ الروحي، وأن يحظى بنصيب وافر من المعارف الإلهيّة، والاّ فان تلقّيها سوف لن يكون متيسراً له.

والمهم هو انّه لا الكلمة، مختصة بالألفاظ ذات المفاهيم الحصولية، ولا استماعها ينحصر بالأُذُن الظاهرية المحسوسة، بل انّ بعض الكلمات ليس فيها لفظ ولا نطق، وبعض انحاء الاستماع تحصل دون أُذُن محسوسة، كما جاء عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام حول كلام أهل البرزخ والأرواح المنتقلة الى العالم الآخر حيث يقول: (**وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ**)،[1] وأهم من ذلك ما جاء عنه عليه السلام حول كلام الله سبحانه ومناجاته مع خاصّة اوليائه وعباده حيث قال: (**وَمَا بَرِحَ لِلَّه عَزَّتْ آلاَؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ**)[2] والكلام الذي يلقيه الله سبحانه في صميم افئدة اوليائه الملكوتيّين لا يحتاج الى أُذن وحاسة سمع مادّية، كما انّ التكلّم به ايضاً لا يحتاج الى حنجرة وفم ومخارج حروف، لانّ حقيقة مثل هذا الكلام ليست من سنخ الألفاظ والحروف.

ومهما كان، فانّ من الممكن أن يكون ما جاء حول آدم عليه السلام بعنوان تلقّي الكلمات جامعاً بين المعقول والمحسوس، وقد بيّن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هذا المعنى بكلماته المضيئة فقال: (**بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِه وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِه، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِه، وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَتَنَاسُلِ**

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٢١، المقطع ١٧.

٢. **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٢٢، المقطع ٣.

الذُّرِّيَّة)،[١] فهذا الكلام يحمل على الجامع بين كلا القسمين. وبالنتيجة فانّ تلقّي آدم عليه السلام ايضاً سوف يكون جامعاً بين الملك والملكوت، لاسيّما انّه كان فيما قبل الهبوط في نشأة ليس فيها تناسل وتكاثر، فهي كانت نشأةً فوق المادة، والتكلّم في ذلك العالم وتلقّي الكلمات يتناسب حتماً مع ذلك العالم.

تنويه ١. القاء كلمة الرحمة التي جاءت في العبارة التي ذكرت من نهج البلاغة، يعني ذلك الفيض الابتدائي لله سبحانه وهو اكثر تناسباً مع قراءة النصب لآدم، وان كان لا يتنافى مع القراءة المعروفة، أي قراءة الرفع.

٢. اذا كان المقصود من الكلمات، هو الحقائق الوجودية فانّ الجمع بين الأدعية المختلفة فيما بينها من جهة، والتوسل والاستشفاع بأهل البيت عليهم السلام من جهة اخرى يكون سهلاً، ومعنى ذلك **اوّلاً**: حلّ وانتفاء الاختلاف في الروايات والأدعية التي تضمّنت عبارات مختلفة، **وثانياً**: بعد حلّ اختلاف أحاديث الدعاء فانّ الجمع بين نتيجة تلك الأحاديث، وبين التوسل والاستشفاع بأهل البيت عليهم السلام الذي ذُكر في روايات اُخرى، بعنوان تلقّي الكلمات سوف يكون سهلاً، واذا كان المقصود هو هذه الكلمات المتداولة والألفاظ ذات المفاهيم الذهنية المتعارفة وحيث انّ النصوص الواردة حول هذا المعنى، هي في صدد بيان المصداق وليس فيها ايّ نصّ يفيد الحصر، فالجمع بينها كلّها سوف يكون ممكناً. حتى ما نُقل عن البعض من انّ المقصود من الكلمات المُتلقّاة هو امور من

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١، المقطع ٣٣.

قبيل البكاء، والحياء، والدعاء، والندم، والاستغفار والحزن،[1] فهي ايضاً قابلة للدخول في المعنى الجامع الذي أُشير اليه.

٣. كما انّ درجات التلقّي ترتبط بمراتب الكلمات، كذلك تعتمد أيضاً على مدارج ومعارج ومستوى المخاطَبين المتلقّين، لانّ ايّ مخاطَب يتلقّى الكلام المُلقى بقدر سعة وعاء قلبه: (**انّ هذه القلوبَ أوعية فخيرها أوعاها**).[2]

التلقّي المباشر للكلمات:

وان كان تلقّي الكلمات في معناه الاصطلاحي يختلف عن المكالمة، وكذلك القاء كلمة الرحمة الذي ذكر في نهج البلاغة[3] يختلف عن المحاورة الكلامية بين المتكلم والمخاطب، لكن يمكن أن يكون لجميعها ملاك جامع واصل مشترك. ذلك الأصل الجامع هو انّ التكليم الإلهي للبشر على النحو الذي يريد فيه البشر أن يتلقّى كلام الله، ينحصر في ثلاثة طرق بيّنتها الآية الكريمة: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾.[4] أي لا يمكن للبشر أن يصبح مخاطباً من قِبَل الله، ويتلقّى كلامه الاّ عبر ثلاثة طرق هي: ١. الوحي المباشر، ٢. الوحي من وراء الحجاب المانع عن الرؤية، كما في شجرة موسى عليه السلام، ٣. إنزال الوحي بواسطة ارسال الملائكة.

---

١. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٧.

٢. **نهج البلاغة**، الحكمة ١٤٧.

٣. **نهج البلاغة**، الخطبة ١، المقطع ٣٣.

٤. **سورة الشورى**، الآية ٥١.

وفي محل البحث، فانّ آدم عليه السلام كان من سنخ البشر، ولم يكن من جنس الملائكة وشبهها، وقد تلقّى الكلام الإلهي. وعليه فلابدّ أن يكون التلقّي قد حصل عن احد تلك الطرق الثلاثة. وظاهر القرآن انّ آدم قد تلقّى تلك الكلمات من ربّه، وليس هناك قرينة متصلة ولا منفصلة تدلّ على تعيين طريقة التلقّي، كما لم يذكر دليل لُبّي متصل أو منفصل على طريق معيّن أو امتناع طريق معيّن آخر. وعليه فمع القول باحتمال احد الطرق الثلاثة المذكورة يمكن الاستظهار بانّ القاء الله وتلقّي آدم عليه السلام، كان بنحو مباشر وبغير واسطة، أي لم يكن لأيّ مَلَك دور في هذا الأمر، حتى يكون واسطة في مهمّة القاء الكلمات، كما لم يكن هناك أيُّ حجاب في البين حتى يكون الإلقاء المذكور قد تمّ من وراء ذلك الستار الحاجب، ولم يكلّف اي رسول ومبعوث بتلقّي آدم عليه السلام حتى يتلقّى آدم عليه السلام الكلمات المذكورة من ذلك المبعوث الالهيّ. فما يستظهر من هذه الشواهد هو، انّ الالقاء الإلهي كان بغير حجاب ودون ارسال رسول، وآدم عليه السلام ايضاً قد تلقّى مباشرةً من دون واسطة وبغير حجاب.

مسارعة آدم نحو تحصيل رضا الله:

انّ تفريع تلقّي الكلمات وذكره مع (فاء التفريع) يدلّ على انّ آدم عليه السلام قد بادر فوراً بعد الزلّة وارتكاب الخطأ الى لقاء الكلمات المناسبة للتوبة، والرجوع لكي يتدارك ما بدر منه من خطأ، والله سبحانه الذي هو سريع الرضا قد قَبِل في الحال توبة عبده التائب، وتلطّف عليه برحمته الخاصة. ويتبيّن من بدار آدم ومسارعته نحو نيل رضا الله، انّ وسوسة ابليس

وازلاله لم يكن له ذلك التأثير، وانّ عتاب الغضب الإلهي قد تبدّل بسرعة الرضا الإلهي الى خطاب مُفْعَم بالرأفة والمحبّة.

وكما انّ تعليم الأسماء الإلهيّة كان ينطوي على سرٍّ أجاب على استفهام الملائكة واعطى جواباً مقبولاً لسؤالهم: **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾**[1] كذلك في الكلمات الملقاة ايضاً يكمن سرّ واشارة يزيل الخطأ والزلل، ويطهّر بماء زلال كأنّه الكوثر، جميع انحاء الضلالة والمعصية والغواية والنسيان التي كانت لصقت بآدم، واذا بذلك الكوثر قد جعل آدم المخطئ مجتبىً، وآدم العاصي صار مهدياً. واذا كانت التوبة التي ذكرت في قوله تعالى: **﴿فَتَابَ عَلَيْه﴾** هي التوبة الإلهيّة الاولى فهي تعني انعطاف اللطف الإلهي ابتداءً على العبد الآبق كي يرجع الى مولاه ويعود العبد الهارب الى سيّده، ويشعر الإنسان الخاطئ بالندم على فعلته، ويغيّر ما هو عليه بعقد العزم على تطهير نفسه، فانّ قراءة النصب لآدم في هذه الحالة هي المناسبة، أي انّ الكلمات الإلهيّة النيّرة المنبّهة قد تلقّت آدم، وذهبت نحو استقباله برأفة ورحمة،وانقذته مما كان فيه، واذا كانت التوبة المذكورة، هي التوبة الثانية التي تدرك الإنسان التائب من قِبل الله، بعد رجوع العبد نادماً الى الله، ففي هذه الحالة تكون قراءة رفع آدم هي المناسبة.

ومهما كان، فانّ قبول توبة آدم كانت مقترنة بالرحمة الخالصة، ولم تقترن بالغضب ابداً، لانّ الله سبحانه وان كان يقبل التوبة: **﴿أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِه﴾**[2] واذا كان في توبة العبد المذنب خلل أو نقص

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٣٠.

٢. **سورة التوبة**، الآية ١٠٤.

فانّ الله يتجاوز عن ذلك (ولذلك جاء في الآية المذكورة تعبير عن عباده للدلالة على التجاوز والعفو عن العباد)، لكنّ الله تعالى تارة يؤدّب وينبّه الإنسان التائب بحكمته، وتارة يجعله مدلّلاً برحمته.

ودليل هذا الاختلاف هو انّه في نهايات بعض آيات القرآن الكريم ذكرت صفة التوبة مع صفة الحكمة الإلهيّة كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾،[1] وذكرت في نهايات بعض الآيات الأخرى صفة التوبة مقترنة بصفة الرحمة كما في الآية محل البحث: ﴿**فَتَابَ عَلَيْه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾. وحيث انّ صفة الرحيم تنبئ عن الرحمة الإلهية الخاصّة والميزة التي فيها هي انّها لا تكون نصيباً للجميع، فيُعلم من ذلك انّ بعض الناس التائبين ولاسيّما آدم الصفيّ عليه السلام قد كانوا يتمتعون بالرحمة الخاصة.

وانّ اولياء الله يتلقون جلال الله في ظل جماله، ويلاقون غضبه مقترناً برأفته ومحبته. وهذا التلقّي الذي يحصل فوراً بعد ترك الأولى أو السهو الطفيف والنسيان الخفيف لا يُعدّ مزاحماً، وانّ نعمة الولاية الإلهية لا تفارق العبد الصالح أبداً، والشاهد على ذلك كما يمكن ان يلاحظ في قصة آدم الصفيّ، كذلك يمكن رؤيته في قصة النبيّ يونس عليه السلام؛ لانّ الله سبحانه يقول فيه: ﴿**لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نعْمَةٌ مِّن رَّبِّه لَنُبذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ منَ الصَّالحينَ**﴾[2] أي انّ الاجتباء الإلهيّ السريع قد شمل عبده الحفيّ وحظي بالصلاح والاجتباء.

---

١. **سورة النور**، الآية ١٠.

٢. **سورة القلم**، الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

السرّ في افراد الضمير في «عليه»

على الرغم من انّ آدم وحواء• قد تابا كلاهمـا معـاً، لكـنّ الـضمير فـي جملة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قد ذكر مفرداً. ولعلّ السرّ في افراد الضمير هنـا هـو **اوّلاً**: انّه قد ذكر سابقاً في سورة «الأعراف» التي هي مكيّة عن لـسان آدم وحواء قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا...﴾،[1] وعليه فلا حاجة لذكر توبة حوّاء في سورة «**البقرة**» المدنية والتي نزلت فيما بعد.

ثانياً: تارة تذكر في الكـلام أسـماء متعـددة، ولكـن حيـث انّ أصـل الفعل والهدف واحد، لذلك يذكر الضمير العائد اليها بصيغة المفرد، كمـا في قوله تعالى: ﴿وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[2] فالضمير هنا مفـرد مـع انّ المرجع متعدد، لانه ذكر قبله اسم الله سـبحانه والرسـول الأكـرمﷺ، لكنّ الهدف الحقيقي واحد ورسـول اللهﷺ لـيس لـه عمـل ولا غـرض سوى تنفيذ اوامر الله وتحقيق مقاصده واهدافه.

ثالثاً: انّ افراد الضمير سببه انّ احدهما أصل والآخر فـرع، كمـا ذُكـر في قصّة موسى والخضر•. لانّ يوشع بن نون، كان يرافق موسـى عليه السلام فـي سفره، وعند الوصول الى البحـر وركـوب الثلاثـة فـي الـسفينة، نـرى انّ القرآن يذكر الفعل بصيغة التثنية فيقـول: ﴿فَانطَلَقَـا حَتَّـى إِذَا رَكِبَـا فِـي الـسَّفِينَةِ﴾[3] ولـم يعبّـر بـصيغة الجمـع (ركبـوا) لانّ يوشـع كـان تابعـاً لموسى عليه السلام، وفي قصة السيدة حوّاء ايضاً لم يتحدث عن توبتها لأجل أن

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٣.

٢. **سورة التوبة**، الآية ٦٢.

٣. **سورة الكهف**، الآية ٧١.

حوّاء كانت تابعة لخليفة الله آدمعليه السلام، وهي فرع له في مجموع القصّة. وليس فيها ايّة دلالة على تفرّع جنس المرأة من جنس الرجل وقد لاحظنا هذا في كلام سبق تفصيله.[1]

رابعاً، وان كان ظاهر العمل قد استند بنحو متساوٍ الى آدم وحواء من حيث انّ كلاً منهما قد ذاق الشجرة وأكل منها، لكنّ معصية آدم تعدّ اشدّ من معصية حواء. ولذلك نُسبت امور مثل «نسيان العهد»، و«فقدان العزم»، و«المعصية» و«الغواية» الى آدم، كما انّ ظاهر التوبة والتضرع والتوسل والاستشفاع قد اسند الى آدم وحواء بنحو متكافئ، لكنّ اتّصاف آدم بتلقّي الكلمات والمبادرة الى التوبة وامثال ذلك كان بدرجة أكمل.

ولذلك فقد اسندت امور من قبيل «تلقّي الكلمات» و«قبول التوبة» و«اجتباء الله» و«الاهتداء» الى آدم، وهذا المعنى لا ينافي انّ حواء عليها السلام كانت شريكة لآدمعليه السلام في جميع هذه الأمور الايجابيّة والسالبة، لكن درجة الأمور الايجابيّة وكذلك دَرَكَة الأمور السالبة لدى حواء كانت في هذا الصعود والهبوط اقلّ من درجات ودَرَكات آدمعليه السلام، وهذا الامتياز في الدرجة والتمايز في الدَرَكة هو المُصحّح لإفراد الضمير في كلمة (عليه) وغيرها.

الانسجام بين الآيات في قصّة آدم عليه السلام:

لأجل ان تتضح معاني الآية وتزول شبهة عدم انسجامها مع آية «سورة الأعراف» ينبغي الالتفات الى امور هي:

---

١. راجع هذا الكتاب (**تفسير تسنيم**، ج ٣)، ص ٣٩٥، من الترجمة العربية (٦ـ سرّكون آدم محوراً في بعض الخطابات).

اوّلاً: لم يبيّن القرآن الكريم الكلمات التي تلقّاها آدم‌عليه‌السلام، وما جاء في سورة الأعراف يمكن أن يكون في حدود بيان بعض مصاديقها، وليس جميعها. فالكلمات المذكورة اذن لا تنحصر في جملة: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.[1]

ثانياً: كان للكلمات المتلقّاة دور في توبة آدم، لانّ ظاهر الآية محلّ البحث انّ التوبة الإلهية كانت مقترنة مع تلقّي الكلمات المذكورة، وكلمات آية سورة الأعراف تبيّن توبة آدم وحوّاء، والله سبحانه لم يردها بعد ان نقلها عنهما، بل انّه تعالى وطبقاً للآية محلّ البحث امتدح نفسه بصفتين عاليتين هما «**التوّاب**» و«**الرحيم**»، وهذا يدلّ على انّ ما ذكره سابقاً في مكة في سورة «**الأعراف**» قد بيَّن قبوله فيما بعد في المدينة في سورة «**البقرة**».

ثالثاً: انّ تلقّي الكلمات الذي كان مقارناً للتوبة وقبولها قد حصل قبل الهُبوط الى الأرض، لانّه طبقاً لما سبق نزوله في مكة في سورة «**الأعراف**» فانّ الأمر بالهبوط قد صدر بعد الاستغفار والتوبة وبعد طلب الرحمة، وما جاء بعد ذلك في المدينة في سورة «**البقرة**» وهو تلقّي الكلمات المنسجمة مع التوبة وتلقّي صفتي الرجاء وهما «**التوّاب**» و«**الرحيم**» فانّه قد حصل قبل امتثال الأمر بالهبوط، لانّه وان كان هناك أمر ابتدائي صادر بالهبوط ذكر في الآية ٣٦ من سورة البقرة، لكنّ الآية ٣٧ منها ذكرت مسألة تلقّي الكلمات والتوبة، وبعد ذلك في الآية ٣٨ منها صدر الأمر النهائي بالهبوط الذي رافقه الامتثال الخارجي.

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٣.





وعليه فينبغي تفسير قصّة تلقّي الكلمات والتوبة الإلهية كلّها بما يتناسب مع ما قبل الهبوط، كي يكون متناسباً مع تلك النشأة، لا بعد الهبوط الى الأرض حتى يكون محكوماً بقوانين عالم الاعتبار وأحكام الدنيا، وامّا مسألة هل انّ آدم وحواء معاً قد تلقّيا الكلمات، أم انّ التلقّي كان مختصاً بآدم عليه السلام وحده، فقد تقدم ذكرها في البحث السابق.

رابعاً، قال الاستاذ العلامة الطباطبائي رحمه الله: انّ من المحتمل أن تكون الكلمات المتلقّاة في الآية محل البحث، هي تلك الكلمات بعينها التي نقلت عن آدم وحواء• في سورة الأعراف، لكنّ وقوع الكلمات المذكورة: ﴿**قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**...﴾[1] قبل الأمر بالهبوط في سورة «**الأعراف**» ووقوع تلقّيها بعد الأمر بالهبوط في هذه السورة (**البقرة**) لا يساعد على الاحتمال المذكور.[2] وبالتأمل في انسجام السورتين في انّ الأمر النهائي بالهبوط كان بعد نقل تلقّي الكلمات وبعد الإدلاء بالكلمات الخاصّة، يتبيّن انّ المعنى يساعد الاحتمال المذكور. طبعاً ليس من السهل القطع بوحدة الكلمات، لكنّه من المعقول القول باحتمال اتحّادها كواحد من التفاسير المقبولة.

لطائف وإشارات

١. التماميّة والنقص في التلقّي

كما انّ تبيين أصل التلقّي وكذلك تعيين درجته الخاصة يرتبط بالادراك

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٢٣.

٢. **الميزان**، ج ١، ص ١٣٣.

الصحيح لمعنى الكلمات ومعرفة المنحى الخاص بها، كذلك فانّ التماميّة والنقص في التلقّي ايضاً تتبع التماميّة والنقص في الكلمات.

وتعتقد الاماميّة بانّ جميع الكلمات الحقّ والكلمات النافعة ترجع الى كلمة التوحيد، وكمال كلمة التوحيد مشروط بتولّي ولاية الأقطاب والمحاور الحقيقية للتوحيد وهم أهل البيت المعصومون الأطهار عليهم السلام، وحديث «سلسلة الذهب» لثامن الحجج الإمام الرضا عليه السلام دليل قاطع على انّ كلمة التوحيد لن تكون تامّة الاّ بولاية الأركان الحقيقيين للتوحيد. ولذلك فانّ الظهور التام لتوحيد الله سبحانه في جميع مراحل الوجود يتمّ في مظهر الخليفة الكامل، وهم أهل البيت المعصومون الأطهار عليهم السلام الذين هم نور واحد وتعدّد قوالبهم لا ينافي وحدة القلب فيهم، وحيث انّ تماميّة التحصّن والدخول في حصن التوحيد تحصل بقبول ولاية الموحّدين الخُلَّص، فانّ آدم الصفيّ عليه السلام لمّا كان في ساق عرش الله، فانّه اضافة الى تلقّي كلمات التوحيد، فقد زار أسماء الموحّدين الكاملين وهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين (عليهم افضل صلوات المصلّين) وأدرك بانّه في ظلّ التوسل والاستشفاع بالمسمّين بهذه الأسماء سوف يكون دعاؤه التوحيديّ وتضرعه نافعاً، ولذلك فقد لجأ الى اولئك الذوات المقدسة.

ومن المؤسف بانّه كما انّ بعض المسلمين بتروا الصلوات وراحوا يصلّون على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بالصلوات البتراء وحذفوا أسماء اهل بيته وآله، كذلك فعلوا بأسماء أهل بيت الرسول الأكرم وآله المعصومين في توسل واستشفاع آدم الصفيّ عليه السلام في ساق العرش، فعندما دوّنوا قصة



تلقّي آدم عليه السلام ذكروا فيها التوسل الأبتر والشفاعة البتراء، وما جاء في كتاب «كشف الأسرار وعدّة الأبرار» للخواجة عبد الله الأنصاري وكذلك في كتاب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، هو من هذا القبيل، فقد فرّقا وفصلا بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وقالا كالتالي:-

انّ آدم رأى مكتوباً على ساق العرش: (لا اله الاّ الله محمد رسول الله)، ولمّا وقع في الزلّة استشفع بالمصطفى وقال: اللّهم اغفرلي بحقّ المصطفى.[1]

٢- توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله:

لاشك بانّ توبة العبد تعني رجوعه بعد ارتكاب الذنب نحو الله بواسطة التضرع وإظهار الطاعة والانقياد، لكنّ توبة الله التي تعني لطف الله ونظره بعين العطف الى العبد العاصي تتحقق بطريقين: الأول: طريق الهام التوبة الى العبد،والثاني: طريق قبول توبة العبد. وبالنتيجة، فانّ لله توبتين بحيث ان توبة العبد تقع بينهما وتكون محفوفة بهذين الفيضين، وما جاء في سورة التوبة من انّ الله يلهم عبادهُ التوبة كي يتوبوا ويعودوا: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ**﴾[2] فهو اشارة الى التوبة الاولى لله تعالى، وما جاء في الآية محل البحث في قوله تعالى: (**فتاب عليه**) وما ذكره في نهايتها من صفتي «**التواب**» و«**الرحيم**» كتعليل، فانّ فيه اشارة الى التوبة الثانية لله سبحانه.[3]

١. **كشف الأسرار**، ج ١، ص ١٥٥؛ **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٧٧.

٢. **سورة التوبة**، الآية ١١٨.

٣. راجع كتاب **تفسير الصافي**، ج ١، ص ١٠٥.

طبعاً مع النظر الى انّ التوبة الثانية لله كتوبة العبد تتضمن معنى الرجوع، فينبغي أن تفسّر بالنحو الذي يتضمن مفهوم الرجوع، كأن يقال بانّ الله سبحانه بعد توبة العبد يرجع على العبد برحمته التي سلبها منه بسبب الذنب، ولازم ذلك طبعاً هو قبول توبة العبد، واذا قيل: بانّ التوبة الثانية لله هي نفسها قبول توبة العبد واكتُفي بهذا المقدار، فانّ هذا القول لا يؤدّي حقّ المعنى المطلوب، وهو وان كان صحيحاً في الجملة، ولكنه بحاجة الى ما يكمّله حتى يكون صحيحاً بالجملة.

ومهما كان فان التوبة الأولى لله وهي رحمته ولطفه الخاص بعبده المذنب، اذا اتّجهت صوب العبد فانّها توقظه وتدفعه نحو التقرب والإنابة الى الله، اي انّ العبد اذا لم ينظر اليه الله بعين لطفه، فانّه لا يوفّق للتوبة، ولا يحظى بمثل هذه النعمة. فأيُّما مذنب تاب وحظي بنعمة العودة الى مبدأ الوجود، فليعلم انّ اللُّطف الإلهي قد شمل حاله، لانّ جميع النِّعم هي من الله: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ**﴾[1] فاذا لم تهبّ النفحات الرحمانيّة والنسيم القدسيّ من ناحية الله فانّ الإنسان المذنب لن ينتبه من نوم الغفلة.

فاذا ما اريد للإنسان النائم أن يستيقظ، ويتوجه اليه الخطاب الذي ذكره امير المؤمنين علي عليه السلام عندما قال: (**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ وَ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ،وَ مَا أَنَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ**)[2] وينال هذا النحو من النفحات، فانّ عليه ان يُطّبق ما

١. **سورة النحل**، الآية ٥٣.
٢. **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٢٣.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قوله: (**انّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها ولا تعرضوا عنها**)[1] فيجعل نفسه امام هذه النفحات ولا يعرض عنها، لانّ هذا الحديث يدلّ على أنّه من الممكن انّ الله تعالى يلهم الفرد بان يتوب ويرسل نحوه النفحة والنسيم الرحماني، وفي نفس الوقت فانّ هذا المذنب يرفضها ويعرض عنها بحرّيته واختياره.

٣. التوبة وآراء المتكلمين فيها:

التوبة لفظ مشترك معنوي ومعناها الجامع هو الرجوع، وان كان رجوع العبد الى الله يختلف مصداقاً عن رجوع الله الى العبد، لكنّ هذا التغاير يتعلق بخصوصيّات المصداق التي يتمّ استظهارها بواسطة حرف الجرّ والصلات المختلفة من باب تعدّد الدال والمدلول، وما جاء في بعض التفاسير كتفسير الفخر الرازي من انّ «التوبة لفظ مشترك»،[2] فلابدّ أن يكون مقصودهم هو الاشتراك المعنوي للتوبة.

والتوبة غير الاعتذار، لانّ العاصي الذي يرى نفسه معذوراً، يعتذر من فعله، امّا التائب فلا يرى لنفسه عذراً يعتذر به عن ذنبه، كما انّ مواصفات التوبة تختلف عن خصوصيّة الإنابة، على الرغم من امكان استعمال كلٍّ منهما مكان الأُخرى. وهذا الاختلاف بين التوبة والإنابة يمكن ان نجد له شاهداً في كلام الامام السجاد عليه السلام حيث يقول: (**اللّهم ان يكن الندم توبة اليك، فأنا أندم النادمين، وإن يكن الترك لمعصيتك إنابة**

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٦٨، ص ٢٢١.
٢. **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٢٢.



فأنا أول المنيبين)[١] حيث نرى انّ الإمام عليه السلام في هذا الدعاء يسمّي العزم على ترك المعصية في المستقبل إنابةً. طبعاً هناك فروق ظريفة ودقيقة بين هذه العناوين المذكورة، وقد ذكرت مفصّلة في كتب الأخلاق، والبحث فيها خروج عن غرض هذا الكتاب.

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ستة شروط وعناصر أساسيّة للتوبة التامة والكاملة، وقد رويت هذه الشروط الستة عن «ذو النون المصري» ايضاً،[٢] والاختلاف القليل بين النقلين لا يضرّ بوحدة المضمون.

وعلى الرغم من عدم وجود فرق جوهري بين عناوين من قبيل «قابل التوب»، و«توّاب» و«تائب»، لكن على القول بانّ الأسماء الإلهيّة توقيفية، فان اطلاق التائب على الله من باب التسمية لا الوصف لا يخلو من محذور،[٣] لانّ مثل هذا الاسم لم يطلق على الله سبحانه.

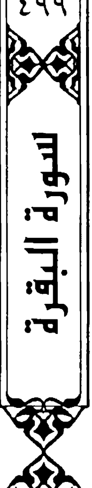
وبعض الأفعال مقدورة لله وحده ومنحصرة ايضاً في الحقّ الإلهيّ، كايجاد الميل والانجذاب نحو التوبة الذي هو تصرف خاصّ في قلب العاصي، ولا يتسنّى الاّ لمقلّب القلوب وحده، كما انّ قبول توبة التائب، والعفو عنه أو التخفيف عن عقوبته مختص بالله، وما ينقل عن بعض الأحبار والرهبان من إعطاء صكوك التوبة والغفران فانّهم آثمون ويتحملون الوزر في ذلك.

---

١. **الصحيفة السجادية**، الدعاء ٣١.

٢. **التفسير الكبير**، مج ٢، ج ٣، ص ٢٥.

٣. **الجامع لأحكام القرآن**، مج ١، ج ١، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.



والبحث عن حقيقة التوبة وانّها لا تحصل بغير الأركان الأساسية الثلاثة وهي «العلم»، و«الحال» و«الفعل» هو مختصّ بعلم الأخلاق. وما ينبغي التعرض له اجمالاً هنا هو تقييم اجمالي لآراء ذوي النظر حول هل انّ قبول التوبة واجب على الله أم لا؟ وما معنى وجوب ذلك وعدم وجوبه. وتحليل هذه المسائل يتمّ عبر النقاط التالية:

أ: انّ منكري التحسين والتقبيح العقلي يعزلون العقل عن مقام القضاء والحكم في مثل هذه المعارف. ولذلك يقولون بان العقل ليس لديه حكم حول وجوب أو عدم وجوب قبول توبة التائب على الله، وانّ زمام التحسين والتقبيح بيد النقل، والنقل لم يسند الى الله شيئاً سوى الوعد بقبول التوبة. ولذلك يرون بانّ قبول التوبة تفضّل محض.[1]

ب: وامّا القائلون بالتحسين والتقبيح العقلي، فالبعض منهم مفرط وبعضهم معتدل. فأمّا اهل الإفراط فهم طائفة الاعتزال الذين يرون بانّ التوبة واجبة على الله على نحو (يجب على الله)، وانّ تركها قبيح على نحو (يقبح على الله)، غافلين عن انّ الموجود اللاّمتناهي والحقّ المحض والوجود الصرف لن يكون خاضعاً ومقهوراً لأيّ قانون، لانّ كلّ قانون اذا لم يوجد، فحتّى لو فرض في ظرفه المناسب فانّه لا يتمتّع بقدرة السيطرة، وكلّ موجود غير الله سبحانه، فهو ممكن، وكلّ ممكن فهو مخلوق ومقهور لله. وعليه فلا صحّة للفرض الذي يقول بانّ الموجود المقهور لله يكون حاكماً وقاهراً عليه.

ج: هناك طائفة من المعتقدين بالحسن والقبح العقلي يستدلون

---

١. **التفسير الكبير**، مج ٢، ج ٣، ص ٢٢.

بعض الظواهر النقلية ويعتبرون انّ قبول التوبة تفضّل ولا يرون لها ايّ ضرورة ووجوب، ويمكن اعتبار الشيخ امين الاسلام الطبرسي من هذه الطائفة، لانّه وان لم يكن كالأشاعرة، منكراً للتحسين والتقبيح العقلي لكنّه بواسطة الاستدلال بالآية الكريمة: ﴿**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾[1] اعتبر قبول التوبة تفضّلاً، لانّ الأمر الضروري والشيء الواجب الحتمي لا يحتاج الى السؤال، لانّ الله سبحانه يفعله قطعاً ودون سؤال ايضاً.[2]

د: هناك طائفة من المعتقدين بضرورة تأثير التوبة ووجوب الأثر المترتب عليها أجابوا على الاستدلال النقلي المذكور وقاموا بتوجيه مضمون الآية التي استدل بها بوجوه، ويمكن أن يُعدّ صدر المتألّهين من هذه الطائفة، فهو بعد ذكره لكلام امين الإسلام الطبرسي﵀ يردّ عليه بما يلي:

اولاً: انّ السؤال والطلب لا لأجل انّ ترتب أثر التوبة عليها ليس ضرورياً، بل لأجل انّ العبد التائب يشكّ في اجتماع شرائط القبول في توبته، وضرورة الأمر الواقعي لا تتنافى أبداً مع الشك في مقام الإثبات وتحقق شروطه.

ثانياً: انّ السؤال ليس دائماً لأجل طلب تحقق المسؤول عنه، بل أحياناً يحصل السؤال مع القطع بتحقق الشيء المسؤول عنه، وذلك لانّ الغرض يتحقق في السؤال نفسه، عندما يكون المقصود من

---

١. **سورة غافر**، الآية ٧.

٢. **مجمع البيان**، مج ٤، ج ٨ ص ٨٠٢.



السؤال هو اظهار التواضع والانكسار من السائل، حيث انّ اظهار الانكسار والمذلّة في ساحة ومشهد المولى المطلق وبسط الكلام مع المحبوب وعرض الافتقار لديه أمر محبوب ومطلوب، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾[1] بنفس هذا المعنى على بعض الوجوه.[2]

هـ: ان الطائفة التي تقول بضرورة ترتّب أثر التوبة عليها يمكن تلخيص كلامهم في عدد من الأصول وكما يلي:

الأصل الأوّل: انّ نظام الوجود قائم على محور العلّية والمعلولّية، أي انّ لكلّ موجود امكاني علّة، وكلّ شيء عند اجتماع الشروط والعناصر الأساسيّة للعلّية يصبح علّةً تامّة لشيء معيّن آخر.

الأصل الثاني: كما انّ وجود المعلول من غير علّة محال، كذلك فانّ تخلّفه عن علّته التامّة سوف يكون ممتنعاً، بنحو يستحيل فيه انفكاك احدهما عن الآخر.

الأصل الثالث: عليّة العلّة التامّة تثبت امّا بالدليل التجربي أو الرياضي أو الفلسفي أو النقل القطعي والمعتبر.

الأصل الرابع: طبقاً للأدلة النقلية المعتبرة في اجواء الشريعة، فانّ بعض الأمور تكون علة تامةً لبعض معيّن من الامور الخاصة وهي العلة التي تتحملها اجواء الحكمة العملية وتتناسب معها.

الأصل الخامس: انّ معنى ضرورة قبول التوبة ووجوب قبولها ليس

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٢٨٦.

٢. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألهين، ج ٣، ص ١٥٠ ـ ١٥١ بتصرف قليل.

هو ما ذهب اليه المعتزلة، وذلك لانّ قولهم (يجب على الله) ليس صحيحاً، كما انّه لا ينسجم مع عقيدة الأشاعرة، لانّهم لا يعتقدون بنظام العلّة والمعلول والعلاقة الضرورية بين الأشياء الممكنة، بل انّ المقصود من وجوب قبول التوبة وعدم كونها امراً تفضّلياً هو انّ التوبة المستكملة للشروط تكون سبباً تامّاً للقبول، وانّ ترتّب القبول عليها واجب وضروري، كما انّ ترتّب النظافة على الغسل بالصابون ضروري وترتّب الارتواء على شرب الماء واجب، لانّ الله تعالى قد جعل الطاعة سبباً للتكفير عن الذنب، والحسنة سبباً لمحو السيئة، ولم تكن القدرة الإلهيّة محرجة في قبال هذا الفعل، وانّما هي مشيئة الله قد اقتضت مثل هذا الأمر وارادت أن تكون الأمور السابقة سبباً للأشياء المذكورة. وعليه فانّه يجب أن تكون هكذا.[1]

وما يمكن أن يقال في تبيين وتكميل هذه المسألة هو، انّ صعوبة الحكم ليس في قياس الأثر مع المؤثّر، وانّما في تقييم صدوره من الله سبحانه، أي انّ المحور الأساسي في الكلام هو: هل انّ الله يجب أن يقبل التوبة المستكملة لشروط القبول، ام انّ التوبة وان كانت تامّةً وكاملة ونصوحاً وجامعةً لكلّ شروط القبول، فانّ قبولها بالنسبة الى الله سبحانه مجرّد تفضّل وليست أكثر من ذلك.

ما يعتقد به المعتزلة هو وجوب قبول التوبة الكاملة على الله، وما يقول به الأشاعرة هو انّ قبول التوبة الكاملة تفضّل محض من الله، وقد وافق كل من الشيخ المفيد والشيخ الطوسي (قُدّس سرّهما) على مبنى

١. راجع **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألّهين، ج ٣، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

التفضّل، ورجّحه العلامة الحلّي في بعض كتبه الكلاميّة، وتوقّف المحقق الطوسي في بعض رسائله كالتجريد وأيّد الشيخ البهائي في كتابه الأربعين قول المفيد والطوسي (قُدّس سرّهما) واعتبر القول بوجوب القبول مخدوشاً.[١]

ومع هذه التفاصيل لا يمكن الحكم دون الفصل النهائي بين العناوين والموضوعات المختلفة للبحث، والرأي الأخير وان كان يمكن استفادته من خلال الكلام المنقول عن صدر المتألّهين، لكن حيث انّ لُبَّ هذا الكلام يعود الى التركة العلمية الثقيلة للشيخ الرئيس ابن سيناﷺ وصدر المتألّهين نفسه قد ورث هذه المسألة العلمية الفاخرة من ذلك الفيلسوف العظيم، وكان دائماً يمثل امامهُ في غاية الاحترام والخضوع العلمي ويعترف بالفضل له، لذلك وجب ان تلحظ هذه المسألة على نحو أصل لازم، وهو ذلك الفرق الدقيق بين (الواجب على الله) و(الواجب عن الله)، أي انّ التوبة النصوح والإنابة التامّة والندم الكامل سوف يصدر قبولها عن الله كأمر قطعي وضروري، لا انّه يجب على الله أن يفعل ذلك.

مثلاً، انّ صدور العدل (واجب عن الله)، لا انّه (واجب على الله)، وصدور الظلم (ممتنع من الله)، لا انّه (ممتنع على الله)، وفي مسألة قبول التوبة، فانّ مثل هذا التفضّل ضروري «من» الله، وليس ضرورياً وواجباً «على» الله، وانّ اشتمال الآية محل البحث على صفة **«الرحيم»** الى جنب صفة **«التوّاب»** لا يمكنه ابداً حلّ مثل هذه

---

١. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألّهين، ج ٣، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

المشكلة الكلامية، لأنّه قد ورد في آية اخرى كما تقدم اقتران صفة (**الحكيم**) مع صفة (التوّاب). فما ذكره الآلوسي من انّ هذا دليل على التفضّل، وان كان صحيحاً بمعنى انّ القبول التفضّلي لله هو فوق القبول العدلي والاستحقاقي، لكنّه ليس صحيحاً بالنسبة الى المبحث الحالي الذي يدور حول انّ أصل القبول دائر بين التفضّل والضرورة الكلاميّة.

البحث الروائيّ

١. كيفيّة توبة آدم عليه السلام وتلقّي الكلمات الإلهيّة:

ـ عن احدهما عليهما السلام في قوله تعالى ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ**﴾ قال: **لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني وانت آرحم الراحمين. لا اله الاّ انت سبحانك اللّهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ انّك انت التواب الرحيم.**[1]

ـ عن الصادق عليه السلام: **انّ آدم** عليه السلام **لمّا أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال: «اللّهم انّي اسألك بحقّ محمد وآل محمد لمّا غفرت لي» فغفر الله له.**[2]

ـ عن ابي عبد الله عليه السلام: **انّ آدم وحواء تمنّيا منزلة أهل البيت** عليهم السلام

---

١. **الكافي**، ج ٨، ص ٣٠٤؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٩٢؛ **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٧، ح ١٤٢.

٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٧؛ **الاحتجاج**، ج ١، ص ١٠٦.

فلما اراد الله عزّ وجلّ أن يتوب عليهما جاءهما جبرئيل فقال لهما: انّكما ظلمتما انفسكما بتمنّي منزلة من فضّل عليكما، فجزاؤكما قد عوقبتما به من الهبوط من جوار الله عزّ وجلّ الى ارضه، فاسألا ربّكما بحقّ الأسماء التي رأيتموها على ساق العرش حتّى يتوب عليكما. فقالا: اللّهم انّا نسألك بحقّ الأكرمين عليك: محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام، الاّ تبت علينا ورحمتنا، فتاب الله عليهما انّه هو التواب الرحيم.[1]

ـ عن مفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام: سألته عن قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ما هذه الكلمات؟ قال عليه السلام: هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه، فتاب عليه وهو انّه قال: يارب أسألك بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، الاّ تبت عليّ، فتاب الله عليه انّه هو التواب الرحيم.[2]

ـ عن النبي صلى الله عليه وآله: وامّا صلاة المغرب فهي الساعة التي تاب الله عزّ وجلّ فيها على آدم، وكان بين ما أكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمائة سنة من ايّام الدنيا، وفي ايّام الآخرة يوم كألف سنة ما بين العصر والعشاء. فصلّى آدم ثلاث ركعات: ركعة لخطيئته وركعة لخطيئة حوّاء وركعة لتوبته. فافترض الله عزّ وجلّ هذه الثلاث ركعات على أمّتي وهي الساعة التي يستجاب فيها الدعاء. فوعدني ربّي عزّ وجلّ أن يستجيب لمن دعاه فيها.[3]

---

١. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧؛ معاني الأخبار، ص ١١٠.
٢. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٧، ح ١٤٨؛ كتاب الخصال، ج ١، ص ٣٠٤.
٣. تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٩؛ علل الشرائع، ج ٢، ص ٣٢.

ـ عن ابي جعفر عليه السلام: **الكلمات التي تلقّاهنّ آدم من ربه فتاب عليه وهدى، قال: «سبحانك اللّهم وبحمدك إنّي عملت سوء وظلمت نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين. اللّهم إنّه لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك إنّي عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنّك أنت الغفور الرحيم».**[1]

ـ عن الصادق عليه السلام: **فلمّا تاب إلى الله من حسده وأقرّ بالولاية ودعا بحقّ الخمسة: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، غفر الله له، وذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.**[2]

ـ عن علي عليه السلام: **الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه، قال: «يارب! أسألك بحقّ محمد، لمّا تبت عليّ. قال: وما علمك بمحمّد؟ قال: رأيته في سرادقك الأعظم مكتوباً وأنا في الجنّة».**[3]

ـ عن ابن عباس: سألت النبي صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه؛ قال صلى الله عليه وآله: سأله بحقّ محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليه. فتاب عليه.[4]

ـ في قوله **﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾**... قال: ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين.[5]

ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ الله حين اهبط آدم إلى الأرض أمره أن يحرث بيده فيأكل من كدّه بعد الجنة ونعيمها. فلبث يجأر ويبكي**

---

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٩٥، ح ٨؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٩، ح ٢٥.
٢. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٩٦، ح ١٠؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٩، ح ٢٧.
٣. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٩٦، ح ١١؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٦٠، ح ٢٨.
٤. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٩٤، ح ٥؛ **الأمالي**، الصدوق، ص ٧٠.
٥. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٤٤.

على الجنّة مائتي سنة، ثم إنّه سجد لله سجدة فلم يرفع رأسه ثلاثة أيام ولياليها، ثمّ قال: أي ربّ ألم تخلقني؟ فقال الله: قد فعلت، فقال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: قد فعلت، قال: ألم تسكنّي جنّتك؟ قال: قد فعلت، قال: ألم تسبق لي رحمتك غضبك؟ قال الله: قد فعلت فهل صبرت أو شكرت؟ قال آدم: لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي إنّك أنت الغفور الرحيم. فرحمه الله بذلك وتاب عليه، إنه هو التوّاب الرحيم.[1]

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: **البكّاؤن خمسة: آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وعلي بن الحسين عليه السلام. فأمّا آدم فبكى على الجنّة حتى صار في خدّيه أمثال الأودية...**[2]

ـ عن الباقر عليه السلام: **فلبث يجأر** (رفع صوته بالدّعاء) **ويبكي على الجنة مائتي سنة ثم إنّه سجد لله سجدة فلم يرفع رأسه ثلاثة ايام ولياليها...**[3]

ـ عن الصادق عليه السلام: **فبقي آدم أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنة فنزل جبرئيل...**[4]

ـ قال ابن اسحاق لابن عباس: ما الكلمات التي تلقّى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج، فهي الكلمات.[5]

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٥، ص ٥٨، وج ٥٠، ص ٥١؛ **تفسير البرهان**، ج ١، ص ١٩٥؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٩.

٢. **تفسير نور الثقلين**، ج ١، ص ٦٤، ح ١٢٧؛ **كتاب الخصال**، ج ١، ص ٢٧٢.

٣. **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٤٠، ح ٢٤.

٤. **تفسير القمي**، ج ١، ص ٤٣.

٥. **الدرّ المنثور**، ج ١، ص ١٤٥.

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: **إنّ الله تبارك وتعالى عرض آدم في الميثاق ذرّيته. فمرَّ به النبي صلى الله عليه وآله وهو متكئ على عليّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام تتلوهما والحسن والحسين عليهما السلام يتلوان فاطمة؛ فقال الله: ياآدم! إيّاك أن تنظر إليهم بحسد أهبطك من جواري.**

فلمّا أسكنه الله الجنّة، مثّل له النبيّ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم) فنظر إليهم بحسد، ثمّ عرضت عليه الولاية فأنكرها فَرَمَتْهُ الجنّة بأوراقها. فلمّا تاب الى الله من حسده، وأقرّ بالولاية ودعا بحقّ الخمسة: محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم) غفر الله له وذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾.[1]

اشارة: مع الاغماض عن ضعف أسانيد الأحاديث المذكورة بسبب الإرسال وغير ذلك، فانّ هناك عدداً من المسائل يمكن استفادتها منها وهي:

أ: انّ الدعاء والتوسل والاستشفاع قد صدر من آدم وحوّاء عليهما السلام قبل الهبوط الى الأرض، وايّ دعاء وتوسّل حصل بعد الهبوط فلا منافاة له مع ما كان قد وقع من قبل، لكنّ أصل تلقّي الكلمات والتضرُّع والتوسُّل بها قد حصل من السابق.

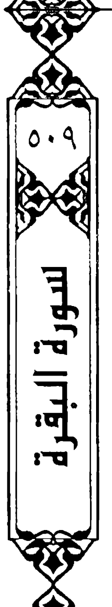
ب: كما تقدم خلال لطائف وإشارات، من انّه لا يوجد اي حديث من هذه الأحاديث يدلّ على حصر الكلمات في مضامينها حتى يكون كلٌّ منها منافياً للآخر. وعليه فلا محذور في قبولها بأجمعها.

ج: انّ تعرّف آدم على أهل البيت المعصومين الأطهار عليهم السلام في مرحلة أخذ الميثاق من الذريّة وتمثّلهم لآدم في الجنّة لا ينافي شهود

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٢٦، ص ٣٢٦، ح ٩؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٥٩.





أسماء اولئك الذوات النورانية في ساق العرش الإلهيّ، وان كانت مسألة الحسد المذموم بحاجة الى التوجيه، وقد تقدمت الاشارة اليه.

د: انّ مسألة التمثّل هي من الأبحاث الأساسية المهمّة في المعارف القرآنية، ولها دور أساسي في حلّ بعض الأسرار الملكوتية، وينبغي الاستفادة منها في الموارد المناسبة.

قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

خلاصة التفسير

بعد هبوط واستقرار آدم وحواء في الأرض وكذلك هبوط الشيطان، واستحكام العداء بينه وبين الانسان، تُطرح ضرورة الوحي والدين وطريقة تعامل الإنسان معهما. ولذلك فقد أُشير في الآيتين المذكورتين اعلاه الى ابتداء الشريعة والدين بعد الهبوط الى الأرض، وكذلك نوّهت الآيتان الى انقسام الناس في اسلوب تعاملهم مع الشريعة الى فئتين، إحداهما: مهتدية، والأُخرى: ضالّة، وبالتالي فقد ذُكر انّ مصير المهتدين هو السعادة، وانَّ مصير الكافرين والمكذّبين هو الشقاء والعذاب.

وانّ الآية ٣٨ (وهي الآية الاولى من الآيتين محلّ البحث) والآية ٣٦

هما منسجمتان بلحاظ تحديد بداية ونتيجة الهبوط ومبدأه ومنتهاه، ولهما مفاد ومؤدّى واحد. أي انّ ﴿اهْبِطُواْ﴾ في الآية الاولى من الآيتين محل البحث، تكرار لقوله ﴿اهْبِطُواْ﴾ في الآية ٣٦. ولهذا فقد ذُكرت وجوه مختلفة لبيان الغرض من هذا التكرار والمصحّح له، وهذه الوجوه يمكن اجتماعها ايضاً ولا منافاة فيما بينها.

وكلمة ﴿جَمِيعاً﴾ وان كانت شاملة لجميع المأمورين بالهبوط، لكنّ مفادها يختلف عن معنى كلمة (جمع) وهي تعني انّ الجميع دون استثناء يجب أن يمتثلوا أمر الهبوط، سواءً هبطوا سوية ام بنحو منفرد، لا انّها تستلزم معنى الجمع وضرورة الاجتماع في حال الامتثال. وعليه فانّ من الممكن أن يكون هبوط الهابطين، أي آدم وحواء وابليس، مختلفاً من جهات متعددة (مثل جهة المبدأ والطريق والمسافة والمهبط)، كما انّ الدافع لهبوطهم ومنهجهم بعد الهبوط مختلف أيضاً.

والمقصود من قوله: (**هدى**) ليس هو هداية النبي والكتاب النازل من السماء خاصّة، وانّما هو شامل لكلّ دليل تامّ عقليّ ونقليّ معتبر أيضاً.

نظراً الى انّ الحياة المُلكية والطبيعيّة للإنسان في الأرض تكون ناقصةً بغير الهداية التشريعية، وانّ الوحي والنبوّة ضرورة للمجتمع البشري ولا يمكنه ابداً أن ينفصل عن الهداية الإلهيّة، فقد ذُكرت مسألة الوحي والتشريع في الآية محلّ البحث بصيغة الجملة الشرطية (التي يتوهم انّها تفيد الشك)، ولهذا فهي بحاجة الى التوجيه، والوجه الصحيح هو انّ الجملة الشرطية، لا بلحاظ الوجود العيني منافية لضرورة المقدّم والتالي، ولا بلحاظ الوجود العلمي، مستلزمة للشك في تحقّق المقدّم والتالي

ومنافية للقطع به. ولكن مع هذا، فما السبب في عدم ذكر قضية التشريع وارسال الرسول بصيغة الجملة الحملية، ولعلّ السبب في ذلك هو انّ هذه القضية كانت جديدة لدى الجيل الذي نشأ بعد آدم وحوّاء، ولم يكونوا مطّلعين عليها بعدُ. كما وهناك وجوه اخرى أيضاً يمكن ذكرها.

والتعبير بواسطة ياء المتكلم في قوله (**منّي هدى**) و(**هداي**) اشارة الى انّ الشيء المفيد والنافع للطريق والهدف، والذي يستحقّ أن يوصف بالهداية، هو ما كان مصدره من الله، والاّ فهو هوى وليس (**هدى**).

وجملة ﴿**يَأْتِيَنَّكُم**﴾ تشير الى انّ الهداية الإلهيّة يترتب عليها الأثر، وتصبح حجّة اذا وصلت الى الإنسان وتمّ ابلاغها اليه.

واتّباع الهداية الإلهيّة له آثار ايجابيّة وسلبية كثيرة، وقد اُشير في الآية الثانية من الآيتين محل البحث الى الأثر السلبي فقط وهو نفي الخوف والحزن. وقرينة التقابل تدلّ على انّ المتمرّد على الهداية الإلهيّة مصاب بالخوف والحزن.

واتّباع الهداية العقلية أو النقلية وان كان واجباً، وانّ التمرد عليهما شقاء وخسران، واستخدام عنوان (الهداية الإلهيّة) وحده كاف في تفهيم هذين الأمرين، لكنّ الله سبحانه ولأجل تثبيت الحق ونفي أيّ نحو من الانحراف، قد جاء بعوامل كثيرة لأجل تأكيد وتوضيح وترسيخ المعنى المطلوب، كالتصريح بالاسم الظاهر، وعدم الاكتفاء بالضمير في قوله: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ**﴾.

والأصل الجامع (للآيات) يشمل البراهين العقلية ايضاً. وبالنتيجة فانّ ضلعي القرينتين المتقابلتين في آيتي محل البحث، اي «**هدى**» و«**آياتنا**» منسجمتان فيما بينهما.

التفسير

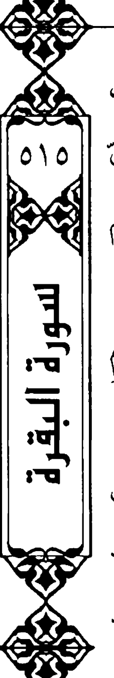
إمّا: جواب «**إمّا**» التي هي حرف شرط، هو مجموع الجملة الشرطية ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ كالذي يقول لأحد: «اذا جئتني فسوف اطعمك إن استطعت».[1]

منّي: الإتيان بياء المتكلم في كلمتي (**منّي**) و(**هداي**) والمجئ بالاسم الظاهر (**هُداي**) بدلاً من الضمير والتعبير بـ(تبعه)، والمجيء بضمير المتكلم بدلاً من الألف واللاّم فقال: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ**﴾ ولم يقل (فمن تبع الهدى)، لاسيّما مع الالتفات الى تقديم «**منّي**» على «**هدى**» فكلّ ذلك يدلّ على انّه ليس هناك هداية نافعة للمجتمع الانساني سوى هداية الله التي تحصل عن طريق الوحي والعقل البرهاني، وكلُّ ما هو مخالف للوحي أو البرهان العقلي اذا ما عُرِض على الإنسان باسم الهداية فهو في الحقيقة ضلالة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللّه هُوَ الْهُدَىَ**﴾.[2]

خوف: الفرق بين «الخوف» و«الخشية» هو في انّ الخشية من غير الله مذمومة ويجب أن تنحصر بالله، كما يقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّه وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ**﴾[3] لانّ الخشية تعني أنّ الإنسان يعتقد بقلبه انّ الشيء المعيّن أو الشخص الفلاني مصدر للتأثير فيخاف ويتأثّر تبعاً لذلك الاعتقاد، فلاشكّ انّ مثل هذا الاعتقاد مذموم، لانّه لا مؤثّر في عالم الإمكان سوى الله سبحانه. خلافاً للخوف الذي هو

---

١. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٥، في ذيل الآية ٣٨ من **سورة البقرة**.
٢. **سورة البقرة**، الآية ١٢٠.
٣. **سورة الأحزاب**، الآية ٣٩.



مجرّد ترتيب الأثر العملي، ولا ينشأ من الاعتقاد بالاستقلال في التأثير، كما يخاف الإنسان من الحشرات المؤذية فيبتعد عنها، ومثلما انّ النبي ﷺ كان يخاف من المشركين ان ينقضوا العهد الذي أبرمه معهم ولذلك قال له الله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**﴾.[١] اي اذا ابرمت عهداً مع المشركين وتخاف أن ينقضوه فارمِ بالعهد اليهم.

والفرق بين (الخوف) و(الحزن) ايضاً هو في انّ الخوف ينشأ من القلق من فقدان الشيء في المستقبل، في حين انّ الحزن ينشأ غالباً بعد فقدان الشيء في الماضي، وان كان يحصل الحزن احياناً في الحاضر عند القطع بزوال النعمة في المستقبل، وعدم امكان التخلص من ذلك بالدفع أو الرفع أو الصبر وتحمّل الضرر والخسارة.

تناسب الآيات:

بعد الهبوط واستقرار آدم وحواء في الأرض وكذلك هبوط الشيطان واشتداد العداوة بينه وبين الإنسان، طرحت مسألة ضرورة الوحي والدين ونتيجة موقف الإنسان تجاه الوحي، لانّ الإنسان مع وجود عدوّ له كالشيطان، لا يمكنه ان يبلغ مقصده دون ارشاده بواسطة الوحي (من الخارج) والعقل (من الداخل).

والآيتان محل البحث تضمنتا الأمر بهبوط الجميع الى الأرض واشارتا أيضاً الى ابتداء الشريعة، والى قبول بعض الناس بها وزوال الخوف

---

١. **سورة الأنفال**، الآية ٥٨.

والحزن عن المهتدين وايضاً الى نكول وتمرد البعض منهم والى العقاب الشديد الذي سيطال المتمردين: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا (تلك المنزلة) جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

السرّ في تكرار خطاب ﴿اهْبِطُواْ﴾

اذا كان الهبوط الثاني المستفاد من قوله تعالى: ﴿**اهْبِطُواْ**﴾ في الآية ٣٨ هو نفس ذلك الهبوط المستفاد من قوله تعالى ﴿**اهْبِطُواْ**﴾ في الآية ٣٦، فانّه سوف يصبح تكراراً، وهنا يأتي الحديث حول الغرض من هذا التكرار، ولكن اذا كان الهبوط الثاني يختلف عن الهبوط الأول، فليس هناك تكرار أصلاً الاّ في اللفظ فلا حاجة للبحث حوله.

وقد ذهب البعض الى انّه لم يحصل تكرار أصلاً، لانّ الهبوط الثاني يختلف عن الهبوط الأول تماماً في بدايته ونهايته، اذ انّ الهبوط الأول كان من الجنّة الى السماء الدنيا، والهبوط الثاني كان من السماء الدنيا نحو الأرض. وعليه فانّ الهبوطين يختلفان فيما بينهما من حيث المبدأ والمنتهى، فلا يوجد اذن ايّ تكرار الاّ في حدود لفظ ﴿**اهْبِطُواْ**﴾.

وهذا الاحتمال لا ينطبق مع ظاهر الآيات المذكورة، لانّ ظاهر الآية ٣٦ وان كان يُشخّص الجنّة مبدأ للهبوط، لكنّه يفيد بانّ مقصد هذا الهبوط هو الأرض، وليس السماء الدنيا، حيث انّ تلك الآية قالت: ﴿**اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ وظاهر الآية ٣٨ ايضاً يفيد بانّ الجنّة مبدأ الهبوط، لانّ تلك الآية تقول: ﴿**اهْبِطُواْ مِنْهَا**﴾



والضمير المذكور يعود قطعاً الى نفس تلك الجنّة، كما انّ الآية تفيد ضمناً، وليس صراحة، بانّ مقصد هذا الهبوط هو الأرض، لانّ ذيل هذه الآية ناظر الى الحديث عن الشريعة، ومن الواضح انّ المنهاج والشريعة جاءت لأجل العمل بها في نطاق الأرض وللموجود الأرضيّ اي الطبيعيّ، وليس للموجودات الملكوتية أو العالية الموجودة في السماء.

وعليه، فانَّ الآيتين ٣٦ و٣٨ متّفقتان في تحديد بداية ونهاية الهبوط وبيان المبدأ والمقصد منه، ومفاد الآيتين واحد. اذن فالقول المذكور الذي مفاده عدم التكرار والذي نقله الشيخ الطوسيﷺ وآخرون عن بعض اصحاب التفسير،[1] غير تامّ.

تنويه: انّ الفخر الرازي بعد نقل القول المذكور عن الجبائي، اعترض على الوجهين المذكورين.[2] وردّ صدر المتألّهينﷺ على اعتراضات الرازي، ومع التكلّف وبالاستعانة ببعض الأقوال المنقولة قام بتوجيه كلمات الجبائي بنحو لا يخلو من ضعف. ثمَّ احتمل أن يكون الهبوط الأول الى البدن والهبوط الثاني الى الدنيا. وما ذكره من طريقة تعلّق النفس بالبدن حقّ،[3] ولكنّ استظهار ذلك من الآية محل البحث في غاية الصعوبة.

ويمكن أن يقال في اثبات عدم التكرار انّ المخاطَبين بأمر الهبوط في الآية ٣٦ هم آدم وحواء وابليس، وأمّا المخاطَبون بالأمر الثاني في الآية ٣٨ فهم آدم وحواء وذريّتهما خاصة، حيث انّه بعد الأمر الثاني بالهبوط ذكرت

---

١. **التبيان**، ج ١، ص ١٧٣.
٢. **التفسير الكبير**، مج ١، ج ٢، ص ٢٨.
٣. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألّهين، ج ٣، ص ١٥٨ ـ ١٦٠.

الشريعة، والمخاطبون بتلقّي الشريعة هم أنفسهم المخاطبون بالأمر الثاني بالهبوط، وحيث انّ الشريعة مختصّة بالإنسان، لذلك فانّ المخاطبين بالأمر الثاني بالهبوط هم الأفراد من الناس المذكورين، وعليه فانّ الأمر الثاني بالهبوط غير الأمر الأول به؛ لانّ المخاطبين مختلفون.

وهذا الاحتمال أيضاً[1] كسابقه مقدوح به وغير تامّ، لانّ الشريعة ليست مختصّة بالإنسان، فالجنّ ايضاً مكلّف كالبشر وابليس من الجنّ، وليس من الملائكة، ولذلك فهو مخاطب بالشريعة ايضاً. ناهيك عن ذلك فلو سلّمنا باختصاص الشريعة بالإنسان وعدم شمولها لابليس، فانّ هذا الأمر لا يدلّ أبداً على انّ المخاطَبين بالأمر الثاني بالهبوط هم آدم وحواء وذريّتهما، لانّ كلّ واحدة من هاتين الجملتين تجعل مخاطبيها المخصوصين بها مشمولين لمحور خطابها؛ ولا يوجد أيّ تلازم بين المضمونين، حتى يلزم منه وحدة المخاطَب. ومهما كان فانّ المخاطبين بأمر الهبوط الثاني هم أنفسهم المخاطبون بأمر الهبوط الأول. وبالنتيجة فانّ الأمر الثاني تكرار للأمر الأول. ولذلك ينبغي البحث عن سرّ هذا التكرار، وهو كما يلي:

١. انّ الغرض من التكرار هو تأكيد الأمر ولأجل الاهتمام بمسألة الهبوط.[2]

٢. انّ الهدف من التكرار هو للايحاء بانّ تلقّي الكلمات والتوبة والاجتباء الإلهي كلّها لا تمنع من حتمية هبوط آدم، وانّ بعض آثار ارتكاب مورد النهي لم ترتفع بالتوبة، وان كانت هناك آثار كثيرة منه قد

---

١. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألهين، ج ٣، ص ١٥٨ ـ ١٦٠.

٢. **جوامع الجامع**، ج ١، ص ٤٥، ذيل الآية ٣٨ من **سورة البقرة**.

زالت بالتوبة، وحيث انّ خطاب ﴿اهْبِطُواْ﴾ قابل للتحليل فان التكرار بالنسبة لآدم وحواء يكون كما اُشير اليه، ولكن بالنسبة لابليس فان التكرار يعني التشديد والتغليظ في الإهانة والتنكيل وامثال ذلك.

٣. حيث انّ أحد الأمور التي كانت بعد هبوط آدم هي مسألة تشريع الدين وارسال النبيّ، وذكر مسألة تلقي الكلمات والتوبة وقبولها قد أوجد فاصلاً بين مسألة الهبوط ومسألة التشريع، فلذلك قد تكرّر الأمر بالهبوط، كي يوجد ارتباطاً في الكلام مع المقصد الأساسي المترتب على الهبوط، وحتى لا يكون ذكر مسألة التوبة سبباً لتفكّك وانفصام الكلام.

٤. حيث انّ هناك فرقاً كبيراً بين الأثر التكويني والأثر التشريعي، وحيث انّ كلا الأثرين يترتّب على هبوط آدم وحواء وابليس الى الأرض، وانّ الجمع بينهما في كلام واحد ليس مناسباً، لذلك فان الأمر بالهبوط قد ذكر مرّة حتى يذكر اثره التكويني وهو الاستقرار في الأرض والتمتّع فيها الى زمن معيّن، ثمّ ذكر الهبوط مرّةً اُخرى لأجل ذكر الأثر التشريعي له الذي سبق بيانه، وسرّ ضرورة التشريع أيضاً هي انّ ابليس المرجوم والمذؤوم والمدحور وبسبب عداوته الشديدة للإنسان يسعى أن يدفع بالإنسان نحو التمتّع القبيح والاستثمار السيء للمصادر الطبيعية والثروات المادّية الاخرى. والتشريع الإلهي وكما سيأتي في بحث لطائف وإشارات لازم وضروري لأجل ارشاد الإنسان الى التمتّع الحسن وتجنّب التمتع القبيح وكما قال تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾.[1]

١. سورة هود، الآية ٣.

تنويه: وان كان من الممكن ادغام الوجه الرابع في الوجه الثالث، لكنّ فصل الوجهين المذكورين عن بعضهما فيه فائدة بيانية وتوضيحيّة.

وملخّص القول هو انّ الأمر الثاني بالهبوط هو نفس الأمر الأول به، وهذا التكرار وان كان له مبرّرات كثيرة لكنّ صفة كونه تأكيداً باقية، وحيث ان التأكيد يعني اعادة الكلام السابق ولا اختلاف بين الشيء ونفسه، لذلك فلا حاجة الى الإتيان بحرف عطف، ولذلك جاء تكرار: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُواْ**﴾ في الآية ٣٨ دون حرف عطف، في حين انّ الآية ٣٦ كانت محتاجة الى ذكر حرف العطف حتى يرتبط مضمونها بالسابق.

وبعض المفسرين وضمن اعترافه بانّ احتمال التأكيد بعيد فقد قال في تأييد ذلك الاحتمال:

انّ الله سبحانه سبق وأن أعلن بانّ الهبوط قد حصل بسبب زلّة آدم وحواء واخراج ابليس، وها هو ذا ينسبه الى نفسه دون أن يعزوه الى شيء آخر، وهذا يشبه المعنى المذكور في الآية الكريمة: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ**﴾[١] ليدلّل على انّ الارادة الإلهيّة لو لم تكن لما كان إزلال واخراج ابليس مؤثّراً.[٢]

وفيه انّ نسبة الفعل الى الله تكون صحيحة اذا كان الفعل راجحاً، ولكنّه اذا كان مرجوحاً كالهبوط الناشئ من ازلال ابليس واخراجه فهي ليست صحيحة، لأنَّ السيئة وان كانت (من عند الله)، لكنّها ليست (من الله).

---

١. **سورة الأنفال**، الآية ١٧.

٢. راجع: **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٩٧. مع قليل من التصرف.

تعدّد انواع الهبوط:

ان كلمة ﴿جَمِيعاً﴾ في الآية محلّ البحث، وان كانت شاملة لجميع المأمورين بالهبوط، ولا تدع لأحد منهم حجّة مقبولة في ترك امتثال الأمر، لكنّ عنوان (الجميع) غير عنوان (الجمع) كما انّ عنوان (أجمعين) غير عنوان (مجتمعين)؛ حيث انّ كلمة جميع وكذلك لفظة أجمعين تعنيان انّ الكُلَّ مأمورون بطاعة الأمر دون استثناء سواءً تمّ تنفيذ الأمر فرادى أم جماعة، ولكنّ كلمة جمع وكذلك كلمة مجتمعين تعنيان انّ الكلَّ يجب أن يمتثلوا الأمر في حال الاجتماع، وحيث انّ عنوان (الجميع) لا يستلزم عنوان (الجمع) كما انّ عنوان (اجمعين) لا يدل على ضرورة الاجتماع في حال الامتثال، لذلك فهو ينطبق على طاعة الأمر على نحو الفرادى ايضاً، الاّ أن تقوم قرينة داخلية أو خارجيّة تدلّ على ضرورة الاجتماع في حال الامتثال.

فاذا تبيّن بانّ عنوان الجميع لا يستلزم الاجتماع في حال الامتثال، بل ولا ينافي الافتراق في كيفيّة الهبوط أيضاً، فمن الممكن اذن ان يكون هبوط الهابطين، أي آدم وحوّاء• وابليس مختلفاً فيما بينهم من جهات متعددة، كأن يكون المبدأ وكذلك الطريق والمسافة ومحل الهبوط ايضاً مختلفاً فيما بينهم، كما انّ الهدف من الهبوط ومنهاج العمل فيما بعده مختلف ايضاً. فمثلاً كان هبوط آدم لأجل الخلافة، والنبوّة، والرسالة، والإمامة وقيادة المجتمع البشري. وهبوط ابليس كان لأجل الوسوسة، والاغواء، والاضلال، وايجاد الأماني والآمال الكاذبة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وإلقاء الشبهات والمغالطات في القلوب المريضة



ليجادلوا اولياء الله، وامثال ذلك. وهبوط حواء، اضافة الى تحقيق ما هو متيسر لدى اوساط اهل التقوى والدرجات العالية الذين يتحمّلون الخلافة الإلهيّة بمقدار ما لديهم من طاقة ويعملون بها، كان يهدف هبوطها الى التوالد وتربية النسل وترشيده وتكامله، ولتكون مظهراً للعطف والرحمة والمحبّة الإلهيّة، لكنّ جميع المخاطبين بالهبوط كانوا مشتركين في أصل الامتثال ولا أحد فيهم يختلف عن غيره من هذه الجهة، اي انّ جميعهم قد هبطوا.

تنويه: انّ مسألة هبوط النفس الى البدن وكراهتها لذلك واستيحاشها في ابتداء النزول، وتقيُّدها بعد التعلق بمظاهر الطبيعة التي تعَدُّ كالأغلال والآصار والسلاسل، ثمَّ بعد ذلك اُنسها بنفس هذا السجن الحقير ونسيانها لمرحلة القصر الإلهي السامي وكراهة الخروج من دائرة الطبيعة والعروج مرّة اخرى نحو موطنها الأصيل، أي الى جوار ربّ العالمين، كلّ ذلك حديث رائع جداً ويليق بشأن ومستوى فكر وتدبّر الحكماء الإلهيّين، لكنّ الظنّ بانّ الآية محل البحث مشعرة به وانّ القصيدة العينية للشيخ الرئيس ابن سيناؒ التي مطلعها:

هبطت اليك من المحلّ الأرفع وَرقاء ذات تعزّز وتمنّع

ناظرة اليه، والقول بانّ سرَّ تكرار الأمر بالهبوط هو صعوبة ترك الوطن المألوف ووحشة فراق دار الأمن والراحة والانتقال منها الى محل الخوف والتعب،[١] يُعدُّ خروجاً عن صبغة واطار التفسير، وان كان البحث عن كيفية تعلق الروح بالبدن في ضمن الآيات المناسبة

١. راجع: **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألّهين، ج ٣، ص ١٦٠ ـ ١٦٣.

لهذا الموضوع هو من الأمور التي يجدر بالمفسّر الخبير أن يتصدّى لها بل يجب عليه ذلك.

سعة الهداية الإلهيّة:

ان المقصود من ﴿**هُدىً**﴾ ليس هو خصوص النبيّ والكتاب النازل من السماء، لانّ عنوان الهداية الوارد في الآية مطلق وشامل لكلّ دليل عقلي تام ونقلي معتبر، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فانّه لا يوجد ايّ عامل أو سبب لتقييد هذا الاطلاق.

وظنّ البعض انّ تقابل الجملة محل البحث مع جملة: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَروا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ دليل على تقييد الاطلاق، فقالوا: انّ المقصود من (**هُدىً**) بقرينة المقابلة هو النبي والكتاب الإلهي،[1] لكنّ مثل هذا الظهور ليس ثابتاً للتقابل حتى تكون له صلاحيّة تقييد المطلق، لانّه كما انّ الدليل النقلي المعتبر هو حجّة وآية إلهية كذلك البرهان القطعي العقلي الذي يكون اساساً للتوحيد والاستدلال على الخطوط الأصلية والعامة للدين، فانّه ايضاً سوف يكون حجةً وآية إلهيّة، والكفر والتكذيب به وانكاره والجحود به يؤدّي بصاحبه الى دخول جهنّم. ولذلك نرى القرآن الكريم في بعض الآيات يحتجّ بالبرهان العقلي ويذمّ المنكرين له.[2]

وبناءً على ذلك، فاذا لم يمكن بقرينة التقابل أن نستدل بعموم أو

---

١. **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٩.

٢. **سورة الأنبياء**، الآيات ٢٢ ـ ٢٤.



اطلاق كلمة (**هدىً**) على عموم أو اطلاق الآيات فنوسّعها حتى تكون شاملة للآية العقلية كشمولها للآية النقلية، فانّه لا يمكن ابداً أن نحرز اختصاص عنوان الآيات بالآيات النقلية ونعتبر ظهورها في الاختصاص ثابتاً ومن ثمَّ نجعل ذلك، بقرينة التقابل، سبباً لتخصيص أو تقييد عموم أو اطلاق كلمة (**هدىً**)، سالكين بذلك الطريق المتعرّج الذي ذُكر في كتاب الكشّاف.[1]

وان كانت قرينة التقابل في حدّ ذاتها تساعد في استظهار بعض المسائل، لكن في الموارد التي تكون فيها لكلّ واحد من الطرفين المتقابلين خصوصيّة ملحوظة، فهنا لا يمكن ان نعدّي حكم احد المتقابلين الى الآخر، مثلاً في محل البحث يوجد لدينا وعد للتابعين بصدق لهدى الله في مقابل وعيد للمكذّبين بالآيات الإلهيّة. والوعد المترتب على الهدى، هو من سنخ الخير والكمال المقضيّ والمرضي بالذات لله سبحانه، والوعيد للعصاة والمتمردين هو من سنخ الشرّ والشقاء المقضيّ والمرضيّ بالعرض، لانّ الأصل في الإنسان هو الخلافة الإلهيّة ونيل رحمته الخاصة، والنكوب عن هذا الصراط والنكول عن تقبّل الخلافة والتمرّد على الولاية الإلهيّة ونبذ الكتاب الإلهي وبالتالي السقوط من قصر رحمة الله الى سجن غضبه، هو خلاف للأصل. ولذلك فانّ سنخية المتقابلين في بعض المراتب والدرجات لن تكون محفوظة ولا يلاحظ سياق التقابل.

ولعلّه من هذا الباب ورد ذكر النار والخلود فيها، في جانب الوعيد،

---

١. **الكشّاف**، ج ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.



ولكن في جانب الوعد لم يأت ذكر للجنّة والخلود فيها، وانّما تحدّث فقط عن نفي الخوف والحزن. ولعلّ السرَّ في هذا التفريق هو الأمر الذي أشار اليه بعض أهل المعرفة في فنّهم الخاص بهم، وأيّدته بعض الأدلّة النقلية، وهو انّ المهتدين إمّا ان يكونوا من ذوي الدرجة العالية أو من ذوي الدرجة العُليا. والطائفة العالية هم الذين يختارون طريق الهداية الإلهيّة بسبب الخوف من النار أو الخوف من فقدان الجنّة أو بسبب الشوق اليها. وامّا الطائفة العُليا فيختارون الهداية الإلهيّة خوفاً من فراق الله وخشية من فقدان لقائه أو شوقاً الى لقائه. ولذلك فانّ الطائفة العُليا تفكّر بما هو أسمى وأعلى من الجنّة المعروفة، والجنّة مشتاقة اليهم، وليسوا هم المشتاقين اليها، كما انّ الجنّة خائفة من حرمان لقائهم، لا أنّهم خائفون من حرمان الدخول في الجنّة، وحيث انّ مكافأة وجزاء نفي الخوف وزوال الحزن ليست مختصة بالطائفة العالية، بل هي شاملة للطائفة العُليا بطريق أولى، لذلك فانّ بعض آيات القرآن قد جمعت بين الدخول في الجنّة ونفي الخوف والحزن، وبعض الآيات الاخرى جمعت بين مقام الولاية ونفي الخوف والحزن، كما في قوله تعالى: ﴿**ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾،[1] وقوله تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّه لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.[2]

ومن الواضح انّ مقام الولاية ذو مراتب، واعلاها هي نفي التعلق بما سوى الله. ولذلك فليس هناك أيُّ خوف وحزن لدى وليّ الله الاّ لأجل

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ٤٩.

٢. **سورة يونس**، الآية ٦٢.

لقاء الله، واذا ذكر الخوف والحزن في شأنه فلابدّ أن يقصد به الجنّة التي هي قلقة وخائفة من أن تحرم من ورود مثل هذا الضيف الكريم، لا انّه هو الخائف من عدم دخول الجنّة، أي كما انّ الجنّة مشتاقة الى خاصّة الأولياء كذلك فهي خائفة من احتمال عدم دخولهم فيها.

عدم عروض الشكّ والترديد على القضيّة الشرطيّة:

انّ الحياة المادية والطبيعية في الأرض بالنسبة الى الإنسان الذي هو موجود متفكّر ومختار تكون ناقصة بغير الهداية التشريعية، ولا يمكن أبداً للمجتمع البشري أن ينفصل عن الهدى والإرشاد الإلهي، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً**﴾[1] حيث تدلّ هذه الآية الكريمة على ضرورة الوحي والنبوّة.

ومن ناحية فانّ مثل هذا الفيض الخاص، رحمة خاصّة أوجبها الله سبحانه على نفسه حيث قال تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[2] واستدل القرآن الكريم على ضرورتها بقوله تعالى: ﴿**رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا**﴾[3] اي ان الله تعالى لو لم يرسل أنبياءه ورسله لتبشير المتّقين وانذار المفسدين لكانت حجة الله ناقصة يوم القيامة، بل لكان الناس

---

١. **سورة البيّنة**، الآيتان ١ ـ ٢.

٢. **سورة الأنعام**، الآية ٥٤.

٣. **سورة النساء**، الآية ١٦٥.

يحتجون على الله ويقولون له لِمَ لم تهدنا؟ فهذه الآية الكريمة مع احترامها للبرهان العقلي، فانّها تعتبر العقل لازماً لسعادة البشرية ولكنّه ليس كافياً. ولذلك تعلن ضرورة وجود الوحي والنبوّة، وسوف تأتي تفاصيل جميع هذه المباحث في موضعها المناسب.

وما يبحث هنا هو السبب في ذكر مسألة التشريع والوحي والنبوّة بصيغة الجملة الشرطية المفيدة للشك. وقد ذكرت وجوه في توضيح وتبرير هذه الحالة، يُشار هنا اجمالاً الى بعضها وكما يلي:

١. انّ الايمان بالمبدأ والتوحيد ليس مشروطاً بإرسال الرسول وانزال الوحي، لانّ الدليل العقلي على لزومه كاف. فحتّى لو لم ينزل كتاب من السماء ولم يبعث نبيّ فانّ الايمان بالمبدأ وتوحيده ضروري.

وهذا الوجه الذي ذكره الزمخشري في الكشّاف[1] مقدوح به من عدّة جهات لانّه **اوّلاً**: انّ الهداية المذكورة في الآية محل البحث هي اعمّ من الهداية العقلية والنقلية. **ثانياً**، انّ التبعيّة للهداية الإلهيّة ليست في الخطوط العامّة للدين فحسب، أي ليست منحصرة في الايمان بالمبدأ وتوحيده، وانّما هي شاملة لجميع تفاصيل الدين، وتوفير مثل هذه الهداية واجب، كما انّ الزمخشري المعتزلي كغيره من متفكري المعتزلة يعتقد بوجوبها، وان كان ينبغي ازالة النقص والخلل في مقالتهم، حيث انّ جميع الأمور المذكورة هي من سنح (الواجب عن الله) لا (الواجب على الله).

٢. حيث انّ إرسال الرسول وانزال الكتاب ليس واجباً على الله، لذلك فقد ذكر هذا الأمر بصيغة الشك. وهذا الوجه مقدوح به لانّه مبنيّ

---

١. **الكشّاف**، ج ١، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

على انكار الحسن والقبح العقليين الذي يعتقد به الأشاعرة وقد اشار اليه بعض متأخري الأشاعرة تبعاً للمتقدمين منهم فهو يقول: وان كان محور الشك أمراً آخر لكن وكما ذهب اليه البيضاوي فانّ مفاد الآية هو عدم وجوب ارسال الرسول على الله.[1] ونقد المبنى الأشعريّ والتمييز بين (الواجب عن الله) و(الواجب على الله) هو خارج من البحث الحالي، وليس محور الآية محلّ البحث ـ اطلاقاً ـ هو الحكم بعدم وجوب ارسال الرسول من قِبَل الله سبحانه.

٣. التمييز بين العلل الذاتية والعلل الاتفاقيّة وامكان انفكاك المعلول في مجال العلل الاتفاقيّة لا الذاتية والحكم بانّ الحصول على الرسالة وامثالها ليس ضرورياً لطبيعة البشر، ولذلك فقد ذكرت بصيغة الجملة الشرطيّة التي يكون فيها الشك باللحاظ العلمي في مقابل الإمكان باللحاظ العيني. وهذا الوجه مع تفاصيله الكاملة ومصطلحاته الفلسفية قد قَبِله صدر المتألّهين﵀.[2] حيث انّ العنصر الأساسي في الآية محلّ البحث وكذلك الآية ١٢٣ من سورة طه هو نزول الهدى وإعطاؤه من جانب الله سبحانه، وليس وصول البشر اليه، وبعبارة اخرى انّ المحور الأساسي في الآيتين هو بيان المبدأ الفاعلي لنزول الوحي، وليس بيان مبدئه القابلي، لأنّه قد جاء في الآيتين قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾، ومن جهة اخرى فانّ الفاعل، اي الله سبحانه قد فرض على نفسه ارسال الرسول، ولذلك فان مقالة صدر المتألّهين﵀، مع قبول جميع المقدّمات والمبادئ الصريحة والمطويّة في البحث، غير تامّة.

---

١. **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٢٥ ـ ٤٣٢.
٢. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألّهين، ج ٣، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

والذي يمكن أن يقال حول العنصر الأساسي في البحث وحلّ الإشكال المطروح، هو انّ الجملة الشرطية بلحاظ الوجود العيني ليست ابداً منافية لضرورة المقدم والتالي أو امتناعهما، ولا هي مستلزمة لامكان وجود المقدّم والتالي، كما انّها بلحاظ الوجود العلمي ليست منافية للقطع بتحقّق المقدّم والتالي أو القطع بعدم تحقّقهما، ولا هي مستلزمة للشكّ في تحقّقهما.

انّ مصبّ حكم القضيّة الشرطية المتّصلة اللزومية، هو التلازم بين المقدّم والتالي، ومفاد حكم القضية المنفصلة العنادية هو التنافي بين المقدم والتالي، اي انّ المتصلة فيها جزم بالنسبة الى التلازم، وفي المنفصلة جزم بالنسبة الى «التعاند» و«التنافي». ولا مجال في القضية الشرطية أبداً للشك والتردد والاحتمال. نعم، بالنسبة الى الوجود العيني تارة يكون المقدم والتالي كلاهما ضروري الوجود أو ممتنع الوجود. وتارة يكونان ممكني الوجود، كما انّه بلحاظ الوجود العلمي، تارة يكون كلّ منهما مقطوع الوجود أو مقطوع العدم، وتارة اخرى مشكوك الوجود، وبهذا التحليل يظهر انّه لم تكن هناك حاجة الى الجهد الكبير الذي بذله جماعة من المفسّرين.

نعم يمكن التدبر في قضيّة وهي انه قد يُعبَّر احياناً عن مسألة ضرورية بشكل قضية حملية، وتارة يعبّر عنها أيضاً بصيغة قضية شرطية، وحيث انّ مسألة التشريع وارسال الرسول كانت جديدة بالنسبة الى الأجيال التي تناسلت من آدم وحواء عليهما السلام ولم يكونوا قد اطّلعوا عليها بعدُ، ومن جهة أُخرى فانّ الحكم الارشادي أو غيره في الجنّة، قد تمّ

نقضه ومخالفته، لذلك فقد صدر هنا تحديد خاص وتهديد متميّز بصيغة القضية الشرطيّة، ومفاده انّ حكم الله اذا نُقض مرّة اخرى ووقعوا في المعصية بسبب وسوسة ابليس واغوائه، فان العقاب الأليم الشديد في انتظاركم. كما انّ هناك وجوهاً اخرى يمكن ذكرها لبيان الفائدة من التعبير عن المسألة المذكورة بصيغة القضية الشرطية، لكن ينبغي الحذر لئلاً تنحرف المسألة عن مجراها الأصلي ولا تتمّ تهيئة وتمهيد الأرضيّة لمسألة الشك في ارسال الرسول.

ضرورة الهداية الإلهيّة البالغة:

حيث انّ المقصود الحقيقي للإنسان هو بلوغ القرب الى الكمال المطلق وهو الله سبحانه، لذلك فانّ النافع بحاله والصالح لطريقه وهدفه هو ما كان صادراً من الله سبحانه، وذلك هو الذي يستحقّ صفة الهدى، والاّ فانّ الصادر من غير الله (هوى) وليس (هدىً) أي انّ الأفكار العقلية اذا لم تدلّ على الله ولم تحرك الإنسان نحوه وفي طريقه فانّها هوى وليست هدىً، وإذا لم يكن الدليل النقليّ من قِبَل الله ولم يهد إليه فهو هوى وليس هدى. ولذلك قال الله سبحانه في الآية محلّ البحث: ﴿**مِّنِّي هُدًى... تَبِعَ هُدَايَ...**﴾.

فالقصد، انّ مفاد الآية هو انّ ايّ دليل عقلياً كان أم نقلياً، يجب أن يكون صادراً عن الله، ولا ينبغي ايضاً أن يكون ملاكه ونصابه خفيّاً، كما انّ الأثر لا يترتب عليه الاّ عند وصوله للإنسان، لانّ مجرد جعل ونصب العلامة وانشاء الدليل قبل بلوغه الى البشر المكلّف والمسؤول لا يكفي



ويكون فاقداً لصفة الحجيّة الإلهيّة، واذا لم يلتفت اليه الإنسان ولم يعمل به فليس عليه عقاب، أي انّ الهداية الإلهيّة سواء كانت من نوع البرهان العقلي أو الدليل المعتبر النقلي يُشترط فيها علاوة على البلوغ العلمي واكتمال نصاب الحجيّة، أن يكون فيها بلوغ عينيّ أيضاً، أي يتمّ ابلاغها الى الأفراد المكلّفين في وسط المجتمع البشري، حتى تكون من جميع الجهات حجّة إلهيّة بالغة، والاّ فلن يترتب أيّ أثر سيّء على الترك والمخالفة الناشئة من الجهل أو السهو أو النسيان أو الغفلة عن ذلك الدليل، وعبارة ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ ناظرة الى هذا المعنى.

طبعاً هذا لا يعني ان الرسول الإلهي يجب أن يصل الى جميع الأفراد واحداً واحداً، وابلاغ الحكم الإلهي اليهم على نحو الدعوة الخاصّة، بل يكفي مجرّد عرض الرسالة الإلهيّة والإدلاء بها في وسط المجتمع الإنساني على النحو الذي يستطيع به كلّ فرد مدرك ومتتبّع بدرجة متعارفة أن يحصل عليها بعد بذل مقدار متوسط من الفحص والبحث ودون عسر وحرج. وتفصيل هذه المسألة موكول الى علم اصول الفقه.

ولا حاجة الى التوضيح بانّ الهداية الإلهيّة اعمّ من النبيّ والإمام والسنّة والسيرة المعصومة المتعلقة بهما، كما انّها أعمّ من البرهان العقليّ والنقليّ. طبعاً بالنسبة الى الأوحدي من أهل السير والسلوك والعارفين بالحقائق، فانّ الشهود القلبي بعد العرض على شهود الولي المعصوم يكون معتبراً لديه بعنوان انّه هداية إلهيّة.

وعلى كلّ حال فانّ جميع الناس من الأنبياء والأُمم مشمولون بخطاب ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾، لانه اذا كان المقصود من الهداية هو البرهان العقلي

والشهود القلبي فانّ شموله للأنبياء واضح، واذا كان المقصود منها هو النبيّ والإمام فان شمولها لهما ممّا لا يخفى، لانّ كل نبيّ وإمام معصوم فهو يتّصف بشخصيّتين:احداهما الشخصيّة الحقيقيّة، والاخرى:الشخصيّة الحقوقيّة، ومن الواضح انّ مقام النبوّة والإمامة يتعلّق بالشخصيّة الحقوقيّة للنبيّ والإمام، وعليه فان شخصيتهما الحقيقيّة هي كسائر الأفراد يشملها الخطاب الإلهيّ، ويجب عليها أن تطيع وتتبع شخصيّتهما الحقوقيّة.

اذن فانَّ الفخر الرازي لم يكن مخطئاً في استنباطه الذي قال فيه: اذا كان المقصود من (**هُدى**) هو الأنبياء فانّ ذلك يوجب تخصيص الخطاب بذرية آدم،[1] وان هذا التخصيص كتخصيص «هُدى» بالأنبياء هو بغير دليل، وحيث انّ ابليس وذريّته من سنخ الجنّ، وطائفة الجنّ أيضاً كطائفة الإنس يعملون بالفكر والاختيار ومكلّفون بالتكليف الإلهي، اذن هؤلاء ايضاً كآدم وحواء وذريّتهما مشمولون بالخطاب الإلهيّ، وليس هناك ايُّ تمييز بين خطاب (**اهبطوا**) وخطاب (**يأتينّكم**) من هذه الناحية. نعم يمكن أن يكون نبيّ الجنّ ليس من سنخهم، بل يكون من صنف الإنسان، وهذا الاختلاف في السنخية لا يسببّ محذوراً في البعثة والاحتجاج وامثال ذلك.

فيُستنتج: **اوّلاً**: انّ خطاب ﴿**يَأْتِيَنَّكُم**﴾ لا يمكن أن يُعتبر مختصاً بآدم وحواء وذريّتهما، **وثانياً**: لا يمكن أيضاً عن طريق وحدة السياق أن نحسب الخطاب الثاني (**اهبطوا**) مختصاً بهم، ونعتبر ابليس خارجاً عن الأمر الثاني بالهبوط، لاننا بعد أن حكمنا بعدم صحة المبنى القائل

---

١. **التفسير الكبير**، مج ٢، ج ٣، ص ٢٨.



باختصاص خطاب ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ بالإنسان، لا يمكن أن نؤسس هذا البناء الهشّ على ذلك المبنى المتزلزل.

كذلك لا يمكن القول: اذا كان المقصود من الهداية، هو البيان والدلالة. فان خطاب ﴿اهْبِطُواْ﴾ عام، واذا كان المقصود منه هو الأنبياء والمرسلين فهو مختصّ بآدم وحواء وذريّتهما، لانّه على جميع الفروض لا يوجد أي وجه لاختصاص الخطاب الثاني بالهبوط بآدم وحواء وذريّتهما، لكنّ تعميم خطاب ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ ليشمل ذريّة آدم وحواء له ما يصحّحه، ويمكن أن يُشَبه بقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[1] حيث عبَّرَ عن الذريّة قبل وجودها بصيغة الجمع، وحينئذ يمكن أن يعتبر مجموع هذا التعميم شبيهاً بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾،[2] حيث انّ هذا المعنى قد ذكر في تفسير الشيخ الطبريّ[3] وبيَّنه الشيخ الطوسي[4] رحمه الله في التبيان، وتمّ توضيحه في مجمع البيان للطبرسي قدس سره[5].

تنويه: انّ ظاهر بعض الآيات هو اتيان الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ...﴾[6] ولكن ليس لها ابداً أي ظهور في تخصيص

١. **سورة البقرة**، الآية ١٢٨.
٢. **سورة فصّلت**، الآية ١١.
٣. ج ١، ص ٣٢٥.
٤. ج ١، ص ١٧٤.
٥. ج ١ ـ ٢، ص ٢٠٤.
٦. **سورة الأعراف**، الآية ٣٥.

العام أو تقييد المطلق، لانّ كلا الدليلين بصدد اثبات أمر معيّن، فهما مثبتان في الاصطلاح الاصولي. ولذلك فان هذا الظاهر لا ينافي أبداً عموم أو اطلاق الآية محلّ البحث وأمثالها.

آثار الهداية الإلهيّة:

طبقاً للرؤية التوحيدية الكاملة في جميع مراتب الذات والصفات والأفعال والآثار، فانّ الطريق الوحيد الذي يبعث الحياة في المجتمع البشري، هو التبعيّة للهداية الإلهيّة، ولذلك يقول الله سبحانه لنبيّه: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[1] اي انّ المثال والمقتدى الحقيقي لك ليس هو الأنبياء السابقين، وانّما هو الهداية الإلهيّة التي اتبعوها هم ايضاً فأوصلتهم الى الهدف، ولذلك فانّ الآية محل البحث ايضاً تذكر بانّ السبيل الوحيد لنجاة المجتمع هو التبعيّة للهداية الإلهيّة.

انّ لاتّباع الهداية نتائج وآثاراً ايجابيّة وسلبية كثيرة اُشير اليها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة. وما جاء التأكيد عليه في الآية محل البحث بنحو صريح هو نفي الخوف والحزن، أي ان نتيجة التبعيّة للهداية الإلهيّة هو نفي جميع انواع الخوف في المعاد وسلب جميع أشكال الحزن والغمّ في القيامة. في ذلك اليوم عندما يستولي الخوف والحزن من شدّة العذاب على الجميع، هناك فئة من الناس، وهم التابعون بصدق لهدى الله، سوف يكونون في أمن وسلام من الخوف والحزن، فالآيات التي تدلّ على العذاب الشامل في القيامة كقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ**

---

١. سورة الأنعام، الآية ٩٠.

كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[1] وأمثالها تُخصّص بمثل هذا النحو من الآيات التي تدلُّ على زوال الحزن والخوف عن التابعين لهدى الله.

ملاحظات حول الخوف والحزن:

١. ذكرت نصوص مصادر الهداية الإلهيّة اي نصوص القرآن والمعصومين عليهم السلام انّ الله سبحانه قد اعدّ مقاماً خاصاً للخائفين، فقد قال تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾،[2] وقال ايضاً: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[3] ومن جهة اخرى، فقد أمر سبحانه عباده بالخوف منه، والرهبة من الذات الربوبيّة فقال تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾[4] وفي نفس الوقت أمر عباده بأن يرجوا رحمته ويثقوا بعفوه ومغفرته. اذن هناك نحو من الخوف والرجاء وحالات محمودة وممدوحة من الحزن تتضمّنها الهداية الإلهيّة. وعليه فان التابع لهداية الله بهذا اللحاظ سوف يكون خائفاً وحزيناً.

٢. جاء في نصوص الهداية الإلهيّة ذمّ التعلّقات بالدنيا والآصار والأغلال والسلاسل المرتبطة بشيء هو رأس كلّ خطيئة، وهذا الذمّ جعل اولياء الله لا يعتريهم الخوف من احتمال زوال شيء من متاع الدنيا في المستقبل، ولا ينتابهم الحزن والغمّ اذا ما فقدوه في الماضي، وبهذا النحو امتُدح المؤمن الحقيقي كما مُدح بانّه لمّا اعتقد بعظمة الله في

١. **سورة الحج**، الآية ٢.
٢. **سورة الرحمن**، الآية ٤٦.
٣. **سورة النازعات**، الآيتان ٤٠ ـ ٤١.
٤. **سورة البقرة**، الآية ٤٠.

نفسه أصبح كلّ ما سوى الله صغيراً في عينه، وكما جاء في وصف المتقين: (**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**).[1]

٣. جاء في نصوص الهداية الإلهيّة ان الله وعد اتباعه الصادقين بزوال الخوف والحزن عنهم، وانّه سيفي لهم بوعده في يوم المعاد، وحينئذ سيعلن لهم صدق الوعد والوفاء بالعهد فيقول لهم: ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾[2] وأمّا خوف وحزن التابع للهداية فهو ناشئ من عدم اطمئنانه بكمال طاعته وتبعيته للهداية الإلهيّة، بحيث لا يكون مشمولاً بالوعد الإلهيّ.

٤. انّ الوعد بزوال الخوف والحزن مستلزم للوعد بجميع الخيرات؛ لانّ أيّ كمال يسلب من التابع للهداية الإلهيّة في الماضي والحاضر والمستقبل، أو يُمنع من الحصول عليه سوف يسبب لديه خوفاً أو حزناً، وحيث انّ جميع انواع الحزن والخوف قد ازيلت عنه فهذا يعني انّه لن يفقد ولن يُحرم من ايّ نعمة.

٥. انّ هذا الوعد لا يعني تساوي درجات جميع أتباع الهداية الإلهيّة؛ لانّ الكمال المتوقع لكلّ انسان يتناسب مع مستوى معرفته وحدود معرفته تابعة لدرجته الوجودية، وحيث انّ الدرجات الوجودية للأفراد متفاوتة، لذلك فانّ المستوى المعرفي لهم سوف يكون مختلفاً أيضاً وبالتالي فانّ رجاءهم وطموحهم لن يكون في درجة واحدة. وعليه يمكن أن يقال: ان جميع النعم المناسبة لكلّ فرد

---

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٣، المقطع ٥.

٢. **سورة الزخرف**، الآية ٦٨.



تعطى له، ولذلك فلا يوجد عند المؤمنين الحقيقيين أيُّ خوف وحزن على الرغم من اختلاف درجاتهم ومراتبهم.

٦. على الرغم من انّ الأتباع الصادقين للهداية والمشمولين بوعد النجاة من الخوف والحزن قليلون، ولذلك جاء ذكرهم في الآية محل البحث بالفعل المفرد ﴿تَبِعَ﴾، لكنهم في نفس الوقت يتّصفون بالكثرة النفسية أو النسبية، ولذلك جاء الإخبار عنهم في الضمير وفي الفعل بصيغة الجمع فقال تعالى: ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾، كما عبّر عنهم بصيغة الجمع ايضاً في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.[1] فلا يمكن القول بانّ تابع الهداية عُبِّر عنه بالمفرد والكافر المكذّب عُبِّر عنه بصيغة الجمع، وانّ سرّ ذلك هو وحدة المؤمن وكثرة الكافر. أجل من الممكن أن يكون عدد الكفّار والمكذّبين اكثر من عدد اتباع الهداية الصادقين.

٧. انّ القرآن الكريم ذكر النتائج الإيجابية والعاقبة الحسنى لأتباع الهداية الإلهيّة في مواضع عديدة، ابرزها قوله تعالى: ﴿**وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**﴾،[2] حيث ذكر في هذه الآية اسم السلام الذي هو اسم من الأسماء الإلهيّة الحسنى الذي ينزل على التابع الحقيقي للهداية الإلهيّة مع كل ما يحمل من مظاهر الأمن والسلم.

٨. حيث انّ الخوف ينشأ من عامل خارجي ويسيطر على الخائف، لذلك جاء التعبير عنه بحرف (**على**)، خلافاً للحزن الذي ينشأ من الباطن.

---

١. **سورة الأحقاف**، الآية ١٣.

٢. **سورة طه**، الآية ٤٧.

طبعاً كلّ ظاهرة تشغل بال الإنسان وتهيمن عليه فهي تسيطر على نفسه وحينئذ فان استعمال حرف «على» يكون صحيحاً في حقّه. والبعض من المفسّرين احتمل بانّ معنى ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ هو انّه لا أحد يخاف عليهم.[1] لكنّ الفصل بين الخوف والحزن من ناحية وحدة السياق غير صحيح، والآية الكريمة: ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ الناظرة للمعاد قرينة مناسبة على انّ المقصود هو انّه لا يوجد ايّ خوف على التابعين الحقيقيين، أي انّهم لايطالهم الخوف، لا انّ الآخرين لا يخافون عليهم، لانّه في يوم القيامة كلّ انسان مشغول بنفسه عن التفكير بالآخرين وكما قال تعالى: ﴿**لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾.[2]

٩. انّ الفعل حَزِنَ اذا كان من باب عَلِمَ يَعْلَم فهو لازم، واذا كان من باب نَصَر ينصرُ فهو متعّد وقوله تعالى ﴿**لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ**﴾[3] و﴿**لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ**﴾[4] شاهد على التعدية. ولعلّ الجامع بين البابين يمكن استظهاره من نفي الحزن في الآية الكريمة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾،[5] اي انّ التابع الحقيقي للهداية الإلهيّة لا يعتريه حزن من الباطن ولا غمّ من الخارج.

١٠. انّ ما ذكر في الآية محلّ البحث بعنوان الأصل العام والشامل، وهو اتّباع الهداية الإلهيّة، وجاء بيانه بوجهه السلبي الذي هو إيجابيّ في

---

١. **روح المعاني**، ج ١، ص ٣٨١.
٢. **سورة عبس**، الآية ٣٧.
٣. **سورة يوسف**، الآية ١٣.
٤. **سورة الأنبياء**، الآية ١٠٣.
٥. **سورة فاطر**، الآية ٣٤.

حقيقته وروحه، قد طُرح في آيات اخرى على نحو التفصيل،وذكر بوجهه الإيجابيّ ايضاً كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] حيث تمّ بيان أصل الهداية الإلهيّة في هذه الآية بنحو مفصّل، على انّها الايمان والعمل الصالح واقامة الصلاة وايتاء الزكاة، وذكرت فيها النتيجة الإيجابية للتبعيّة التي هي الأجر من عند الله والنتيجة السلبية لها (نفي الخوف والحزن). طبعاً انّ الأجر عند الله يدلّ على مقام عالٍ.

١١. قرينة التقابل تدلّ على انّ المتمرّد على الهداية الإلهيّة مبتلى بالخوف والحزن، لأنّه وان كان الوصف واللقب وامثالهما لا مفهوم لها، لكن في المواضع التي يظهر فيها للكلام مؤدّى خاص فانّه ليس من السهل انكاره ونفيه. والآية محل البحث هي بصدد بيان الحدّ الفاصل بين الخوف والأمن وحدود الحزن والسرور. فمن باع دار الغرور بجنّة السرور واختار اتّباع الهدى الإلهيّ على اتّباع هوى النفس، فانه ينجو من الخوف والحزن في يوم المعاد، ولكن من باع جنّة السرور بدار الغرور ورجَّح اتّباع هوى النفس على اتّباع الوحي الإلهي والعقل البرهاني، فانّه سوف يقع في الخوف والحزن في يوم الفزع الأكبر، كما ويستفاد من قرينة التقابل في محلّ البحث انّ منشأ الخوف والحزن في المعاد هو جهنّم التي يواجهها أصحاب النار. ولذلك فانّ اتّباع الهداية الإلهيّة لن يعتريهم ايّ خوف وحزن من هذه الناحية.

تنويه: لعلّ السرّ في تقديم نفي الخوف على نفي الحزن هو انّ

---

١. **سورة البقرة**، الآية ٢٧٧.

الحصول على النعمة وهو الذي يكون عاملاً لزوال الحزن يتمّ بعد الخلاص من جميع انواع المصائب والآفات التي يكون الخوف واحداً منها.

تأكيد وتثبيت الوعد والوعيد:

وان كان الاتّباع للهداية العقلية والنقلية واجباً، والتمرّد عليها خسراناً وشقاء، وكان يمكن أن يكتفي القرآن الكريم بجعل عنوان (الهداية الإلهية) لوحده محوراً في بيان هذين الأمرين، لكنّ الله سبحانه ولأجل تثبيت الحق ونفي أيّ نحو من الانحراف قد استخدم وجوهاً كثيرة لتأكيد وتوضيح وتثبيت المسألة، وفيما يلي يُشار الى بعض هذه الوجوه:

١. التصريح بالاسم الظاهر وعدم الاكتفاء بالضمير، لأنّه بعد قوله: ﴿**يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً**﴾ لو كان يقول (فمن تبعه) لكان كافياً، لانّ الضمير سيعود على ﴿**هُدىً**﴾ ويتحقق المراد، لكنّه ذكر كلمة ﴿**هُدىً**﴾ مرّة اخرى بالاسم الظاهر حتى يكون عنصر الهداية بنحو صريح مداراً ومحوراً للاستدلال.

٢. الاضافة التشريفيّة لكلمة (**هدى**) الى ضمير المتكلم اي الى الله سبحانه، حتى يتبيّن انّ محور واساس الكلام هو الهداية الإلهيّة، مع انّ المسألة بأسرها كانت تدور حول هذا المحور، لأنّه سبق ان قال: ﴿**مِّنِّي هُدىً**﴾.

٣. التصريح بذكر كلمة الكفر الشنيعة وفعل التكذيب الناشئ من نكران الجميل، حتّى يتّضح بانّ التمرّد على الهداية الإلهيّة يرافق لدى الإنسان، أقبح النزعات والرذائل العقائدية والأخلاقية. ولذلك لم يكتفِ

بعبارة (من لم يَتبَّعه) مع انّ قرينة التقابل كانت تقتضي ان يقول (من لم يتبّعه) في مقابل قول (فمن تبعه).

٤. الاضافة التشريفية لكلمة آيات الى ضمير المتكلم، أي الى الله سبحانه مع التفخيم والتجليل، الذي هو في مثل هذه الموارد لازم للمتكلم مع الغير، مع انّه لو كان يذكر الآيات بغير اضافة لكان كافياً لانّ محور البحث هو اتّباع الهداية والآيات الإلهيّة أو التمرّد عليها

٥. اضافة حرف الجرّ اي حرف (الباء) مع انّ كلمة التكذيب تستعمل بغير حرف جرٍّ ايضاً، وذلك للدلالة على زيادة القبح والتأكيد على بشاعة التكذيب، وكلمة ﴿**آيَاتِنَا**﴾ امّا أن تكون متعلّقةً على نحو التنازع بالفعلين السابقين، أي ﴿**كَفَرُواْ**﴾ و﴿**كَذَّبُوا**﴾، (طبعاً استعمال كلمة كفر سوف لن يكون بغير حرف الجر مثل الباء) أو انّ القدر المتيقّن فيها أن تكون متعلّقة بكلمة ﴿**كَذَّبُواْ**﴾.

٦. التعبير عن الكافرين والمكذّبين، بكلمة ﴿**أُوْلَـئِكَ**﴾ المشعر ببعدهم يضفي درجة اُخرى من التأكيد على المسألة، والاّ كان من الممكن أن يعبّر عن مراده وفقاً للقرينة المقابلة، بأن يقول: (هم أصحاب النار).

الانسجام والتمايز بين البرهان والوحي:

وان كانت هناك موجودات غيبية كثيرة خارجة عن دائرة البرهان العقلي بسبب كونها شخصية وجزئية، فلا يشملها البرهان العقلي، كعدم شموله للموجودات المادّية والشخصية، وفي هذا المجال فانّ طريقها الوحيد فقط هو الدليل النقلي المعتبر. امّا الموارد التي يستدل عليها بالبرهان



العقلي ولها صفة عقائدية أو اخلاقية أو فقهية أو حقوقية، وبنحو يكون للعقل دور مؤثر في العمل بها أو تركها، فهذه الموارد اضافة الى كونها مصداقاً للهداية العقلية فهي تندرج تحت عنوان آيات الله ويشملها مصطلح (الآيات). فما ذكر في جانبي القرينتين المتقابلتين في الآية محل البحث اي ﴿هُدًى﴾ و﴿آيَاتِنَا﴾ يمكن أن يكون منسجماً انسجاماً كاملاً.

وقد ذهب البعض الى انّ المقصود من الآيات امّا خصوص الكتب الإلهيّة والأنبياء، أو الاعمّ من ذلك والمعارف العقلية، واضاف قائلاً:

وعند التحقيق مرجعهما واحد، لانّ معاني الكتب السماويّة هي عين البراهين العقلية، وذوات الرسل عين مبادئها التي هي العقول بالفعل، والكلّ شاهد الجمال وآيات العظمة والجلال، والإعراض عن معرفتها والاهتداء بها يوجب العذاب والنكال والسقوط عن درجة الكمال).[1]

وينبغي الالتفات الى انّ الاتحاد والانسجام بين البرهان والقرآن في بعض الموارد لا ينافي وجود التغاير فيما بينهما في بعض الوجوه الاخرى، وفيما يلي يُشار الى قسم من وجوه التمايز تلك:

١. انّ المعلوم في الوحي يكون اعمّ من المعلوم في البرهان العقلي، لانّ البرهان العقلي وكما اشير اليه، لا يشمل الافراد في الخارج والموجودات الجزئية، وانّما يجري فقط في دائرة الموجودات الكليّة.

٢. انّ المعلوم في الوحي موجود عيني، والمعلوم في البرهان موجود ذهني، لانّ البرهان يدور فقط في دائرة المفاهيم، وان كانت تلك المفاهيم حاكية عن الموجودات العينيّة، لكنّ الوحي مرتبط بالموجود

---

١. **تفسير القرآن الكريم**، لصدر المتألّهين، ج ٣، ص ١٦٨؛ **تفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٥٦.

العينيّ بصورة مباشرة. ومن الواضح انّ للكليّ والجزئيّ معنىً خاصّاً اذا استعملا في مجال الموجود العينيّ.

٣. انّ العلم في مجال الوحي حضوريّ، وفي مجال البرهان العقليّ حصوليّ. وهذا الاختلاف الثالث ناشئ من الاختلاف الثاني، لانّ الموجود والمعلوم العينيّ لا يتيسّر إدراكه الاّ بالعلم الشهودي.

٤. انّ طريق الوحي، الذي هو معصوم، مختص بالأفراد المعصومين ايضاً، كالأنبياء والائمة عليهم السلام، لكنّ طريق العقل، أي البرهان الكلامي والفلسفي، فهو وان كان معصوماً من حيث كونه برهاناً تامّاً وليس فيه أيّ خلل أو نقص في العلاقة الضرورية بين المقدّمات والنتائج، أي انّ العلاقة فيه بين المقدمات والنتائج ضرورية وذاتية وكليّة ودائمية ومحفوظة من آفة الاختلاف وعيب التخلّف، لكنّ سالكي هذا الطريق من المفسّرين والفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ليسوا معصومين. ولذلك يحصل لديهم احياناً تبديل في الموضوع أو تحول في المحمول أو تغيير في النتيجة على النحو الذي يتكفّل بتوضيحه فنّ المغالطة.

وعلاوة على اوجه التمايز المنظورة بين البرهان العقلي والوحي ينبغي الالتفات الى مسألة، وهي انّ الوحي القرآني أو الحديث القدسي الذي يظهر في هيئة سنّة المعصوم، انّما ينتقل الى الآخرين في اطار وقالب المفاهيم والكلمات، فما هو في متناول ايدي الناس هو المفاهيم والكلمات التي لا تخرج عن دائرة العلم الحصولي. وعليه فعند الحديث عن تقييم الدليل العقلي والدليل النقلي لا ينبغي البحث في نفس ما يتلقّاه المعصوم، وانّما لابدّ أن يكون كلامه محوراً للبحث، وهذا الكلام

ليس أكثر من مفهوم وعلم حصولي. نعم، اذا تمكّن احد من أن يسلك طريق حارثة بن مالك[1] ويقترب الى العلم الشهودي فهنالك يتحوّل الكلام الى تقييم العرفان بواسطة القرآن، وهو موضوع خارج عن اطار بحثنا الحاضر.

الفرق بين العلم والاعتقاد:

غالباً ما يذكر عنوان ﴿**أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ مقترناً مع جملة ﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، لكنّه في بعض الموارد يذكر دون أن يقترن مع تلك الجملة، كما في الآية ٢٩ من سورة المائدة والآية ٥ من سورة الأعراف والآيتين ٦ و٤٣ من سورة غافر والآية ٢٠ من سورة الحشر، ومعنى كلمة الخلود طبقاً لأصل الوضع هو الحبس الطويل، ولكنّها تدل عرفاً على البقاء والاستمرار والدوام.[2]

وحيث انّ عنوان ﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ بمثابة البيان لعنوان ﴿**أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ لذلك فقد ذكر بغير حرف عطف، اذ لا يوجد تغاير بين البيان والمبيَّن حتى يعطف أحدهما على الآخر بحرف العطف.

والآية محلّ البحث معناها واضح ولا يعتريه ايّ ابهام، كما وليس فيه تشابه ولا نقص ولا قصور. ومن الممكن الحديث عن هذا النحو من الآيات التي تذمّ الكفر والتكذيب وتتوعّد بعذاب النار الشديد عليهما، بحيث يقال عنها ما يلي:

ان الإنسان في مواجهة الآيات الإلهيّة لا يخرج عن حالين: فامّا أن

١. راجع: **بحار الأنوار**، ج ٢٢، ص ١٢٦؛ **الكافي**، ج ٢، ص ٥٤.
٢. **التبيان**، ج ١، ص ١٧٣ ـ ١٧٩.

يكون عالماً بأنّها آيات الله سبحانه ففي هذه الحالة لا يمكن له الكفر والتكذيب، أو أن يشكّ بأنها آيات الهيّة ففي هذه الحالة لا مفرّ له سوى الكفر والتكذيب. وعليه فانّ هذا النحو من الآيات يكون من سنخ المتشابه. ويرتفع تشابهها بالعَرْض على أهلها وتدل بقوة ووضوح على أنّه لا يصح التكذيب والكفر بالآيات الإلهيّة.[1]

وينبغي الالتفات الى انّ هذا النحو من الآيات واضحة المعنى، بشرط أن لا تبقى مبادئها التصديقية مخفيّة. فانّ مراعاة المبادئ السابقة لها دور مؤثّر في كشف الجو التفسيري للآية، وهو انّ الهداية الإلهيّة الأعمّ من البرهان العقلي والدليل النقلي المعتبر يجب أن تصل من ناحية الله تعالى الى المكلّف، أي انّ حجّة الله من جهة يجب أن تتوفّر فيها العناصر الأساسية للاحتجاج، فتصل الى درجة البلوغ ولا يُرى فيها اي نحو من القصور وعدم النضج الناشئ من الخلل والنقص في بعض مبادئها، ومن جهة البيان والوصول يجب أن تُبلَّغ الى المكلّف حتى تصير حجّةً بالغة، وهذا هو ذات المعنى الذي ذكر في الآية محلّ البحث في قوله تعالى: ﴿**يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى**﴾. وعليه فانّ الانسان المكلّف لن يكون لديه شكّ في كون الدعوة حقّاً وفي صدق دعوى مدعيّ النبوّة والرسالة.

والمهم هو انّ العلم لا يجتمع مع الكفر والتكذيب. فالعلم بالنتيجة هو وصف نفساني يتحقّق بالضرورة بعد حصول مبادئه ومقدماته القطعية، ولا أحد يستطيع بعد اكتمال المبادئ القطعية لمسألة ما، أن يقول: انّني لا اريد ان افهم هذه المسألة. امّا الايمان والاعتقاد فهو فعل

---

١. راجع: **تفسير السيد مصطفى الخميني**، ج ٥، ص ٥١٢.

نفساني، توجد بينه وبين النفس واسطة هي ارادة الفاعل، والانسان يستطيع بعد العلم بكون شيء مّا حقّاً وصدقاً أن لا يؤمن به كما هو حال الذين وصفتهم الآية الكريمة: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾[1] والآية ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ**﴾.[2]

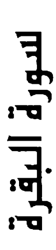
ومن هذا التحليل يتبيّن **اوّلاً**: انّ مقسم جميع الأقسام هو إيتاء الهداية من قبل الله واتمام الحجّة منه، بحيث لا يبقى لدى المكلّف مجال للشكّ والإبهام والجهل.

ثانياً: ان الاعتقاد بان الشيء حقّ وصدقّ لا يجتمع مع الكفر والتكذيب به، وان كانت العبارة التي ذكرت في (تفسير المنار) لم تؤخذ فيها الدقّة المطلوبة، اذ يظهر من تلك العبارة اعتبار الجمع بين الاعتقاد والكفر والتكذيب ممكناً.[3]

ثالثاً: ان (العلم) بان الشيء حق وصدق يجتمع مع الكفر والتكذيب به، كما في الظاهر غير المتشابه للآية محلّ البحث وكذلك آيات اُخرى مشابهة لها حيث ذكر فيها انّ جماعة كفروا وكذّبوا بعد مجيء الهداية الإلهيّة لهم. والفرق بين العلم والاعتقاد هو انّ العلم يعني الاطّلاع على الربط بين المحمول والموضوع (العقد)، والاعتقاد هو عبارة عن عقد وربط لبّ القضية وروحها مع روح الانسان العالم. ولو تمّت مراعاة الفرق بين العلم والاعتقاد وعُرف بانّ الأول من سنخ (الرؤية) وهو فعل

---

١. **سورة النمل**، الآية ١٤.
٢. **سورة الاسراء**، الآية ١٠٢.
٣. **تفسير المنار**، ج ١، ص ٢٨٧.



العقل النظري، والثاني من سنخ (الميل والرغبة) وهو فعل العقل العملـي، وحصل التمييز بينهما لما وقع التساهل في عبارة تفسير (المنار) ولا الغفلة في كلام الآخرين.

لطائف وإشارات

١. هبوط آدم وهبوط ابليس:

ان الهبوط من المقام العالي تارة يكون بسبب فقدان المنزلة السامية، كالذي اصيب به ابليس عندما خلع لباس الفلاح وارتدى ثوب الطلاح فهبط بالرجم والصَغار والذلّ والهوان: ﴿مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا﴾،[1] وتارة اخرى يكون الهبوط مع احتفاظ الانسان بكرامته وذلك بان ينزل لأجل هداية الآخرين، فهذا نزول لا يحطّ من درجة الانسان العالية ولا يدنّس جماله وجلاله، كما ظهر في سفر آدم عليه السلام من الحقّ الى الخلق. والمقصود هو انّ بعض انحاء الهبوط ليس لا تعدّ نقصاً ووهناً للهابط فحسب، بل تصير سبباً لكرامة المَهْبط. ولذلك فانّ قلوب اولياء الله من حيث انّها مهابط للوحي والإلهام الإلهيّ الخاص فانّها تتمتع بكرامة متميّزة.

والفرق الآخر بين قسمي الهبوط هو انّ صاحب الهبوط الأول لا غاية ولا همّ له بالنسبة الى المعارف الإلهيّة الاّ أن يكون (نائياً) و(ناهياً) عنها، أي كما انّه يبتعد بنفسه عن الكمال كذلك يسعى لنهي الآخرين ومنعهم من التكامل، في حين انّ صاحب الهبوط الثاني قد هبط وكلّ

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٨.

همّه وهدفه أن يصعد بنفسه، وأن يُمهِّد الوسيلة والطريق لصعود الآخرين بواسطة تعليمهم وتزكية نفوسهم. ولذلك يكون اسوةً لسالكي دار الوصال واماماً للمتوجّهين صوب اللقاء.

٢. المخاطَبون الأصليون في خطاب الهبوط:

حيث انّ المحور الأساسي في الهبوط هو العداء والنزاع بين عاملي الصلاح والطلاح، والتعارض والتنافي بين طرق ووسائل التقوى والطغوى، ودور حواء في هذه القصّة دور فرعي وتبعي، وهذه التبعيّة لا علاقة لها بنوع الجنس، فحتى لو كان الشخص الثالث رجلاً لكان دوره فرعياً وتبعياً أيضاً، لأنّه لم يكن لديه مقام النبوّة أو لم يكن اهلاً أن يبعث رسولاً في المستقبل، بناء على هذا، يمكن اعتبار آدم وابليس على أنّهما المصداقان البارزان للآيات النازلة حول مسألة الهبوط، حتى في المورد الذي جاء فيه الخطاب بصيغة المثنّى.

بيان ذلك هو: انّ الأمر بالهبوط تارة جاء بصيغة المفرد كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾.[١] واخرى بصيغة المثنّى كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾،[٢] وجاء تارة ثالثة بصيغة الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾[٣] و﴿**قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا**﴾.[٤]

---

١. **سورة الأعراف**، الآية ١٣.
٢. **سورة طه**، الآية ١٢٣.
٣. **سورة البقرة**، الآية ٣٦.
٤. **سورة البقرة**، الآية ٣٨.

والمخاطَب في حال الإفراد هو ابليس خاصّة، ولاشك في ذلك، لانّ ذلك الخطاب اقترن بالكثير من الصفات المذمومة التي لا تتناسب الاّ معه. اضافة الى انّ محور الخطاب الوحيد في ذلك المورد هو ابليس خاصّة.

والمخاطَب في حال التثنية، وان ذكر في الأبحاث السابقة انّه آدم وحواء• لكنّ ما يتراءى في الذهن الآن هو انّ المخاطب الأصلي في هذا الخطاب بصيغة المثنّى هو آدم وابليس، وامّا حواء فتندرج ضمناً تحت كلمة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، لانّ حضور حواء في أصل القصة لم يكن اساسياً وجدّياً، وهذا الدور الثانوي لها ليس لكونها امرأة وانّما لأجل عدم مشاركتها الأساسيّة في أصل القصة، مثل ما جاء حول النبي موسى عليه السلام وصاحبه يوشع بن نون والخضر عليه السلام، لانّ تلك القصة المهمة تنقسم الى قسمين: فالقسم الأوّل منها: تكفّل بالحديث عن قصّة موسى ويوشع وفي ذلك المحور كانت الأفعال والضمائر تذكر بصيغة التثنية، وكانت ترجع الى موسى عليه السلام ويوشع، والقسم الثاني: تكفّل ببيان قصة موسى والخضر عليهما السلام وفي ذلك المحور كانت الأفعال والضمائر تذكر بصيغة المثنّى ومرجعها الى موسى والخضر كما في قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾[1] و﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا﴾[2] و﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾،[3] ولم يذكر أي فعل أو ضمير بصيغة الجمع، لانّ المحور الأساسي في هذا القسم من القصّة هو موسى والخضر عليهما السلام ولم يكن ليوشع دور مؤثّر فيه.

١. سورة الكهف، الآية ٧١.

٢. سورة الكهف، الآية ٧٤.

٣. سورة الكهف، الآية ٧٧.

طبعاً هذا الاستشهاد مبني على انّ يوشع بقي مرافقاً لموسى عليه السلام في المرحلة الثانية من القصة ولم يفارقه، وحيث انّ مسألة العداوة هي الأساس في القصّة محل البحث، وبين آدم وحواء لم تكن أيّة عداوة بل انّ كلاً منهما كان مصدر سكينة وطمأنينة للآخر، والعداوة الموجودة لدى البعض من ذريّتهما كانت موجودة بالقوة لا بالفعل، والذي كان اساساً للعداوة بالفعل هو العلاقة بين آدم وابليس، اذن يمكن القول: ان خطاب التثنية في قوله (**اهبطا**) كان متوجهاً الى آدم وابليس كما انّ دخول ابليس في الخطاب بصيغة الجمع: ﴿**اهْبِطُوا**﴾ متيقن، لانّ آدم وحواء من جهة، وابليس من جهة اخرى، هما السبب في نشوء تلك العداوة المتقابلة، وحيث انّ الأمر الثاني بالهبوط الجمعي هو نفس الأمر الأول بالهبوط الجمعي، اذاً فالمخاطبون في قوله: ﴿**اهْبِطُوا**﴾[1] هم آدم وحواء وابليس.

٣. ثلاث دلالات وتحذيران:

كما تقدم في ابتداء تفسير الآية، فانّه بعد حصول الهبوط واستقرار آدم وحواء عليهما السلام في الأرض واخراج الشيطان وظهور عداوته للانسان، اصبح الوحي والدين ضرورة ملّحة، لانّ الانسان مع وجود هذا العدوّ في الأرض لا يمكنه أن يبلغ هدفه دون مرشد ودليل، ودليله هو العقل من الباطن، والوحي من الخارج.

ونظراً لكون الانسان مختاراً ولتمكّنه من التمرّد على أوامر الوحي، لذلك فانّ الآيتين محل البحث جاءتا كتحذير لجميع الناس بانّ كلٌّ من

---

١. سورة البقرة، الآية ٣٨.



تبع الهداية الإلهيّة واطاع الأوامر والإرشادات الإلهيّة فانّه سوف يكون في أمن من الخوف والحزن، وكلّ من يتمرّد عليها ويواجهها بالتكذيب والإعراض فانّ مصيره سوف يكون الى عذاب النار.

وهذه القاعدة الكلية تدلّ على اختيار الانسان في قبول الهداية الإلهيّة ورفضها، ولذلك فانّ هاتين الآيتين بلحاظ هذا المعنى تشبه الآيات الأُخرى التي تدل على اختيار الانسان كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[1] وهي آيات تكرر ذكرها في القرآن بصيغ مختلفة، فهي تارة يؤتى بها دون أن يكون لها فرد مُخاطَب كما في الآيات محلّ البحث، وكما جاء أيضاً في سورة «طه» في قوله تعالى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾[2] وتارة جاء فيها ذكر عنوان ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**﴾ حيث جعلت جميع بني آدم مُخاطَبين لها وقالت: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾[3] أي احذروا يا بني آدم من أن يفتنكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنّة.

وعلى كلّ تقدير فانّ القرآن يُعلن هذه الحقيقة وهي انّكم اذ هبطتم الى الأرض فيجب أن تعلموا أنّ هذه الأرض التي هي مهبطكم تختلف عن الجنّة، وهي دار التعب والنصب والألم والموت، وهي ميدان صراع وعداء فيما بينكم، وفيما بينكم وبين الشيطان أيضاً، واذا كان عداء

---

١. **سورة الانسان**، الآية ٣.

٢. **سورة طه**، الآيتان، ١٢٣، ١٢٤.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

الشيطان لكم في الجنّة منصبّاً على حرمانكم من فرصة الاستمرار في الجنّة، فانّه في الأرض سوف يسعى بنفس الطريقة كي يمنعكم من بلوغ السعادة الأبدية. فالآيتان محل البحث وشبههما تفيد ثلاث دلالات وتحذيرين، فأمّا الدلالات فهي:

أ: انّ البشر لا يمكن أن يعيش في الأرض بغير دين، وانّ مسألة الهداية الإلهيّة قد وجدت منذ أن استقر آدم وزوجه في الأرض، فاعلموا أنّكم لا تستطيعون الحياة في الأرض بغير الدين والقانون.

ب: انّ أفراد البشرية أحرار في اختيار الطريق.

ج: انّ الهداية ليست الاّ الأوامر والإرشادات الصادرة من الله.

وأمّا التحذيران اللذان تضمنتهما الآيات فهما:

اوّلاً: اعلموا بانّ الصراع والعداوة بينكم وبين الشيطان مستمرة مادمتم تعيشون في الأرض.

ثانياً: انّ المغلوبين من قِبَل الشيطان سيطالهم العذاب الأبدي، والذين لا يصيبهم الخوف والحزن هم فقط الذين لا يتّبعون اهواءهم، ولا يحققون مصالحهم ومآربهم الشخصية باسم القانون والدين والهداية، والذين يتركون اساليب المكر والتلبيس جانباً ويتّبعون هدى الله فقط.

٤. نفي الخوف والحزن عن المهتدين:

انّ نفي الخوف والحزن عن اتّباع هدى الله الذي جاء في قوله تعالى: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ يعدّ وعداً إلهيّاً يتمّ الوفاء به في القيامة، والاّ فانّ المؤمن في الدنيا ينبغي أن يحيى بين الخوف والرجاء.

بيان ذلك: انّ الهداية الإلهية هي مجموعة من القواعد العقائدية والأخلاقية والعملية، التي من جملتها وجوب الخوف من الله والرجاء لرحمته الواسعة. وانّ اليأس من رحمته يُعَدُّ كفراً، فعلى المؤمن ان يكون آملاً لرحمة الله وكذلك خائفاً غير آمن من عذابه. ولذلك يقول تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.[1]

والله سبحانه يقول في الآية محل البحث: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ وفي سورة (الأعراف) يقول أيضاً ﴿**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾[2] وفي سورة (السجدة) يقول ممتدحاً اولئك الذين يُحيون الليل خوفاً من الله: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾[3] وكذلك يقول في سورة (الرحمن): ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾،[4] ويقول في سورة (النازعات): ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾.[5]

وعليه فان مقتضى الجمع بين تلك الآيات والآية محل البحث هو أن يقال: انّ موعد تحقق ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ هو المعاد.

---

١. **سورة الزمر**، الآية ٩، انّ جملة (**يحذر الآخرة**) يمكن ان تكون مفسرة لمعنى الخوف من الله، اي انّ المقصود منه هو كون المؤمن يخاف من نتيجة عمله، والاّ فانّ الله ذا الرحمة الواسعة والجمال المحض لا معنى لأن يُخاف منه، وانّما يخاف المؤمن أن يكون قد قصَّر في اداء تكليفه ولم يطع اوامر ربّه كما ينبغي.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ٥٥.

٣. **سورة السجدة**، الآية ١٦.

٤. **سورة الرحمن**، الآية ٤٦.

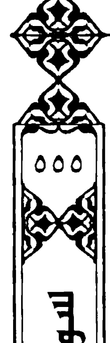
٥. **سورة النازعات**، الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

وهو الأمر الذي ذكره القرآن الكريم في سورة (**فاطر**) عن لسان اهل الجنّة في قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للَّه الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَة من فَضْله لاَ يَمَسُّنَا فيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فيهَا لُغُوبٌ**﴾[1] وهو نفس الوعد الذي يتم الوفاء به في يوم القيامة ويتمّ الاعلان عنه بخطاب: ﴿**يَا عبَاد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾.[2]

وفي شؤون الدنيا ايضاً توجد نظائر لهذا الوعد والوفاء به، كما في قوله تعالى لامّ موسى عليه السلام: ﴿**وَلاَ تَخَافي وَلاَ تَحْزَني إنَّا رَادُّوهُ إلَيْك وَجَاعلُوهُ منَ الْمُرْسَلينَ**﴾،[3] فوعدها ثم وفى لها بوعده، وفي هذا يقول تعالى مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿**فَرَجَعْنَاكَ إلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ**﴾[4] ويعد الله سبحانه المجاهدين المؤمنين فيقول: ﴿**وَلاَ تَهنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ**﴾[5] وحول فتح مكة يقول تعالى: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجدَ الْحَرَامَ إن شَاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحَلِّقينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ لاَ تَخَافُونَ**﴾.[6] وذلك هو الوعد الإلهيّ الذي وفى به الله، فدخل المسلمون مكّة منتصرين فاتحين وحينها أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله (**لا إله الا الله وحده وحده وحده، انجز وعده ونصر عبده**)،[7] وهو دعاء تكلم به النبي بأمر من الله تعالى، نظراً الى انّه:

---

١. **سورة فاطر**، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.
٢. **سورة الزخرف**، الآية ٦٨.
٣. **سورة القصص**، الآية ٧.
٤. **سورة طه**، الآية ٤٠.
٥. **سورة آل عمران**، الآية ١٣٩.
٦. **سورة الفتح**، الآية ٢٧.
٧. **بحار الأنوار**، ج ٨٨ ص ٦٣؛ **مكارم الأخلاق**، ص ٣٠١.



﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾،[١] أو الوعد الذي اخبر بـه الله نبيّـه موسـى حـول النجاة من الفراعنة حيث قال لـه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِـي الْبَحْـرِ يَبَـسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾[٢] حيث انّ هذا الوعد جـاء بـصيغة النفـي خلافـاً للوعد الذي قاله لأُمّ موسى ﴿لاَ تَخَافِي﴾ الذي جاء بصيغة النهي. ثـم ذكـر وفاءه بالوعد لموسى في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.[٣]

ومهما كان فانّ هذه جملة من الوعود الدنيوية التـي تـمّ الوفـاء بهـا. والوعود الأُخرويّة الإلهيّة على نفس المنوال، اي انّ الوفـاء بهـا قطعـيٌّ لا ريب فيه، لانّ خلف الوعد مستحيل من قِبَل الله سبحانه: ﴿لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾[٤] وما جاء في الآية محلّ البحث وهو قوله تعـالى: ﴿فَـلاَ خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مصداق للوعـد الإلهـي، أي الوعـد برفـع ودفـع الخوف والحزن عن اولياء الله، والذي اشير اليه ايضاً فـي آيـات متعـددة أُخرى، كما قال في سورة الأحقـاف ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[٥]

والملفت للنظر انّه قد جاء في سورة (الأنبياء) ذكر الوفاء بهـذا الوعـد بالخصوص (اي عدم الحزن والخوف في الآخرة) اي يقـال صـريحاً لهـم: انّ هذا الأمن من الاضطراب والفزع الأكبر هو ذات مـا وعـدناكم بـه فـي الدنيا، فالآيات الكريمة تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّـا الْحُـسْنَى أُوْلَئِـكَ

١. سورة النجم، الآية ٣.
٢. سورة طه، الآية ٧٧.
٣. سورة طه، الآية ٧٨.
٤. سورة الروم، الآية ٦.
٥. سورة الأحقاف، الآية ١٣.

عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.[١]

فالانسان الذي يخاف الله في الدنيا ويخشاه، يكون في الآخرة آمناً من الحزن والخوف، ويهنأ بالسلام التام. ومن اتّبع اليوم هدى الله فانّ السلام الإلهي الذي هو فيض خاصّ من الله سوف يتنزل عليه: ﴿**السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**﴾[٢] وسيكون آمناً من غوائل الخوف والحزن، ومن كان مؤمناً في الدنيا ولم يدنّس ثوب ايمانه بأدران الظلم، فانّه يحظى في الآخرة بالأمن الجامع بين نفي الخوف ونفي الحزن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ**﴾[٣] والذين سلكوا طريق التقوى في هذه الدنيا فسيكونون في الآخرة في مقام أمين كما اخبرت عن ذلك الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾[٤] وكما يظهر من جواب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لابن مسعود حينما سأله في آخر ايام حياته: متى أجلك يا نبيّ الله؟ فجاء في الجواب (**المنقلب الى... العرش الأعلى والكأس الأوفى والعيش الأهنأ**).[٥]

٥. الخوف والحزن الممدوحان والمذمومان:

كما تقدم فانّ أولياء الله يتحلّون بالخوف الممدوح في الدنيا، اي انّ

---

١. **سورة الأنبياء**، الآيات ١٠١ ـ ١٠٣.

٢. **سورة طه**، الآية ٤٧.

٣. **سورة الأنعام**، الآية ٨٢.

٤. **سورة الدخان**، الآية ٥١.

٥. **بحار الأنوار**، ج ٢٢، ص ٤٥٥؛ **الأمالي**، للطوسي، ص ٢٠٥.



لديهم خشية من غضب الله عليهم اذا ما ارتكبوا ذنباً وزلّوا عن الطريق، ويخافون من إعراض المحبوب، وإدبار ذلك المعشوق الحقيقي عنهم مع رجائهم وأملهم في رحمته، لكنّ الخوف والحزن المذموم يتعلق بالكفّار الذين ليس لديهم ايمان بالله من الأساس، وكذلك بالمؤمنين المبتدئين الذين لم يبلغوا بعد مقام الولاية والتقوى والاستقامة، والذين يصيبهم الحزن اذا نزلت بهم بعض الحوادث كفقد الأموال والأولاد وامثالها، أو انّهم يخافون من هجوم الأعداء أو الابتلاء بالفقر أو فقدان الأموال، وكما اشار الى ذلك قوله تعالى ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**﴾.[1]

وبيان ذلك: انّ الانسان العادي يكون مغموماً في الحال اذا فقد شيئاً، ويصاب بالعذاب الباطني (الحزن)، ويكون مرعوباً في الحال ومصاباً بالعذاب الداخلي (الخوف) من احتمال فقدان ذلك الشيء في المستقبل.

وهذا القلق والخوف من المستقبل، أو الحزن على الماضي يتعلق بالأفراد الذين لا يؤمنون بالله أصلاً، أو انّهم من المؤمنين به سبحانه لكنّهم لم يبلغوا درجة الولاية والتقوى والاستقامة والثبات في طريق الحق. امّا اولئك الذين بلغوا مقام اولياء الله، وذاقوا طعم محبة الله وقربه وولايته، فلا خوف لديهم مما قد يُصيبهم في المستقبل، ولا حزن لهم على ما فقدوه في الماضي. بل يمكن القول بانّهم لا يصابون بشيء في المستقبل ولم يفقدوا شيئاً في الماضي، لانّ أولياء الله لا يتعلق قلبهم بشيء سوى الله، حتى يكون قابلاً للزوال والفقدان، واذا ما فقدوا شيئاً

١. **سورة البقرة**، الآية ١٥٥.

بسبب الغفلة والنسيان فانّهم يلجأون الى الله سبحانه الذي هو (**مدرك كل فوت**)[١] و(**مبدّل السيئات بالحسنات**)[٢] فيجبر لهم ما فات ويبدّل سيئاتهم حسنات، والشعور الذي يتحلّى به أولياء الله هو الذي اشارت اليه الآية الكريمة: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾.[٣]

فهذه هي الطائفة الوحيدة التي لا ينتابها الحزن والخوف، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقد قال الله سبحانه عنهم وبنحو مطلق: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾،[٤] بل أشار في أحد المواضع الى نفي الحزن والخوف عنهم في الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...**﴾.[٥]

ومن الممكن ايضاً أن تكون بعض الآيات السابقة الذكر مثل: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾[٦] و﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ**﴾[٧] و﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٨] مطلقة فتدلّ على معنى شامل للدنيا والآخرة بالنسبة لهذه الطائفة.

---

١. **بحار الأنوار**، ج ٩١، ص ٣٣٢؛ **مهج الدعوات**، ص ٢٤٥.
٢. **بحار الأنوار**، ج ٩٣، ص ٤١٠؛ **مهج الدعوات**، ص ١٤٧.
٣. **سورة الحديد**، الآية ٢٣.
٤. **سورة يونس**، الآية ٦٢.
٥. **سورة فصّلت**، الآيتان ٣٠ ـ ٣١. بلحاظ جملة ﴿**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾.
٦. **سورة الدخان**، الآية ٥١.
٧. **سورة الأنعام**، الآية ٨٢.
٨. **سورة الأحقاف**، الآية ١٣.

٦. نتائج قبول أو رفض الهداية الإلهيّة:

جاء في الآيات التي يدور حولها البحث ان مصير من يرفض الهداية الإلهيّة هو عذاب النار، ومن يتبع الهداية الإلهيّة فان نتيجته هي انّه لا يرى خوفاً ولا حزناً في الآخرة، لكن في سورة (طه) تحدث عن نفس هذه القضية (وهي عاقبة المهتدين بآيات الله ومصير الكافرين والمكذّبين بها) وذكر النتيجة التي تنتظر الفئتين بنحو مطلق بحيث لا يختصّ بالآخرة فقال تعالى: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾،[1] اي انّ عاقبة الذين اتّبعوا الهداية الإلهيّة هي النجاة من جميع انواع التيه والضلال والنصب والقلق وألوان الخوف والحزن الماديّ، والذين أعرضوا عن ذكر الله ورفضوا هدى الله وكفروا بآياته وكذّبوا بها (حيث انّ جملة ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾ في آية سورة (طه) حلّت بدلاً عن جملة ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ...**﴾ في الآية محلّ البحث) فانّهم سيواجهون في حياتهم ضيق المعيشة وفقدان الراحة والأمن والطمأنينة، ويكون دأبهم الحزن على الماضي والخوف من المستقبل.

وحيث انّ المقصود من قوله: ﴿**مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ ليس هو الضائقة المالية فحسب، بل انّ من يعرض عن ذكر الله يقع في الضيق والضنك، حتى وان كان ثريّاً ومتمولاً، بل انّ الضنك الذي يواجهه الغنيّ والمتمول أسوأ من الضنك الذي يواجهه الفقير، لانّ الفقير لا يرى الاّ لوناً واحداً من الضنك، لكنّ الانسان المتكاثر يعاني من نحوين من الضيق والضنك، قلق

---

١. **سورة طه**، الآيتان ١٢٣ ـ ١٢٤.

وضنك للمحافظة على الموجود (اذ انّ جزءاً من سعيه وجهده يستهلكه في كيفيّة حفظ ثروته)، وقلق آخر لأجل زيادة الثروة، اي انّ القسم الآخر من جهده وطاقته يستهلك في طريق زيادة مقدار ثروته. فلن يهدأ له بال أبداً وكما يكون حاله هكذا في الدنيا، فكذلك في البرزخ، وفي القيامة سوف يكون في ضيق ايضاً، وفي جهنّم سوف يُلقى في مكان ضيّق كما ذكرت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾[1]

وبهذا البيان يتّضح انّ اتّباع هدى الله موجب للحفظ من الخوف والحزن والضلالة والشقاء في الدنيا والآخرة، وفي جميع الأحوال، وانّ المعصية والتكذيب والإعراض عن ذكر الله يجلب لصاحبه الضيق والضنك في جميع النشآت والأحوال.

٧. الهداية الإلهيّة وتعديل الحريّة:

ان الهداية الإلهيّة سواء كانت على نحو البرهان العقلي أو الدليل النقلي المعتبر، تقوم بتعديل وتنظيم حريّة البشر لا تعطيلها، لانّ الهداية الإلهيّة منسجمة مع الفطرة الروحيّة والطبيعة البدنية للإنسان، وهي تبيّن للإنسان حاجاته الحقيقية الصادقة وتميّزها عن الحاجات الوهمية الكاذبة، كما وترشد الإنسان الى معرفة الأسباب والوسائل المشروعة والصحيحة، وتميّزها عن الوسائل الباطلة وغير الصحيحة، وتحرّر الإنسان السالك من الإسراف والترف والتبذير، وتسوقه نحو العدل والاحسان والحياة الطيّبة. والدليل على ذلك يظهر من البحث والتحليل في الآيات التي بيّن الله

١. سورة الفرقان، الآية ١٣.

سبحانه فيها النتائج الإيجابية لاتّباع الهداية الإلهيّة، والتي نشير فيما يلي الى بعضها:-

١. انّ الاستقرار في الأرض والتمتع من مواهبها الطبيعية بعد الهبوط تارة يكون متزيّناً بجمال الحريّة، وتارة يكون ملوثاً بقبح ودنس التحلل والانفلات. والهداية الإلهيّة لها دور كبير في التمييز بين حسن الحرية وقبح الانفلات. وكما تقدّم ذكره فانّ الله سبحانه قال: ﴿**يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾.[1] فالآية محلّ البحث وان ذكرت أصل التمتّع بنحو مطلق، لكنّ نفس هذا التمتّع ذكر في سورة (**هود**) مقيّداً بقيد (**حسناً**) وتحسين التمتّع يُقصد به تعديله لا تعطيله وجميع انواع اللذائذ الموجودة في اطار الطبيعة، وفي حيّز قدرة الإنسان اذا ما تمّ تحسينها وتعديلها بالحريّة الحسنة الجميلة، فانّها هي مصداق الاهتداء بهدى الله بعينه، والاّ فسوف تكون كفراً بالنعمة وتكذيباً لما جاء به العقل والنقل.

٢. ان الانسان متحرك، ويتحرك نحو هدف حتميّ يريد الوصول اليه، ومثل هذا السالك بحاجة الى هداية خالقه، كي لا يضيّع هدفه ويقع في الانحراف، والتابع للارشادات الإلهيّة هو الذي ينجو من خطر الضلال ويكون آمناً من الشقاء والنصب، كما أخبر تعالى عن ثمرة اتّباع هدايته فقال: ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى**﴾.[2] وعليه فانّ الإنسان المهتدي متفائل بانّ امامه مستقبلاً زاهراً وناصعاً.

٣. ان الانسان المنحرف والأعوج الذي لا ينتفع بنصائح وارشادات

---

١. **سورة هود**، الآية ٣.

٢. **سورة طه**، الآية ١٢٣.

خالقه سيكون محروماً من الحريّة الجميلة، ويوقع نفسه في قبح التحلل والانفلات ويبقى مدفوناً في مجال الطبيعة الضيّق وسجن البدن وقبر الأهواء والغرائز المهلكة، ويعيش تحت وطأة ضغط قبر الحياة الدنيا، لأنّه قد وأد نفسه حيّاً، وقد أخبر القرآن عن هذه الحالة فقال: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾.[1] وقد بيّن الله سبحانه جميع المسائل المرتبطة بالمنهج الذي يفيض بالحياة والكمال للبشرية والذي انزله اليهم بعد الهبوط وإتيان الهداية. فالحياة الصادقة والحرية الحسنة الجميلة هي نصيب المهتدين والدنيا والحياة الكاذبة نصيب المنحرفين.

٨. عواقب الكفر والتكذيب بالآيات الإلهيّة:

انّ ما مضى الحديث حوله يتعلق بالفئتين اللّتين محضتا الايمان والكفر، وهُما الفئة التابعة تبعيّة تامّة والفئة المتمرّدة تمرداً تاماً، امّا الفئات الأُخرى التي تطيع حينا وتتمرد حيناً آخر، وتخلط اتّباعها بالانحراف والاعوجاج فلم تُذكر هنا، وان جاء ذكر هذه الفئات الاخرى في مواضع اخرى من القرآن الكريم كما في الآيات ٩٧ ــ ١٠٢ من سورة التوبة، كقوله تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.[2]

فالعقاب الأليم الشديد الذي أُعدّ للكافرين والمكذّبين بالآيات الإلهيّة لا يشمل اصحاب الدرجات المتوسطة من المؤمنين العاصين أو العصاة

١. سورة طه، الآية ١٢٤.

٢. سورة التوبة، الآية ١٠٢.

التفسير

قلنا: جاءت (**قلنا**) بصيغة المتكلم مع الغير لأجل التفخيم والتعظيم، وحسب الاصطلاح فانّ ضمير «نا» للعظمة، لا للجمع. كما ويمكن أيضاً ان يكون بهذا الاعتبار وهو انّ مدبّرات الأمر كانت واسطة في ابلاغ هذا الأمر وكأنّ الله سبحانه يقول: انّا والملائكة قلنا لآدم كذا.

اسكن: السكن في (اسكن) يعني ما يقابل الاضطراب الحاصل من حالة فقدان المأوى وامثالها وهو بمعنى الاطمئنان، وليس بمعنى ما يقابل الحركة. وجملة «اسكنا هنا» بمعنى كونا في الجنّة مرتاحين فارغي البال، كما في أمر الله تعالى لنبيّه بأن يأخذ الزكاة من الناس ويدعو لهم لانّ دعاءه مصدر راحة واطمئنان لهم ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ**﴾،[1] وكقوله تعالى ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[2] وقوله تعالى ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ**﴾[3] والآية ١٠٤ من سورة (الاسراء)، وليس السكن هنا من سنخ ﴿**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ**﴾[4] بمعنى عدم الحركة.

تنويه: بعض المفاهيم كمفهوم (الخلود) تفيد معنى الاستمرار والدوام، وبعض المفاهيم لا تتنافى مع معنى الاستمرار، مثل (اللبث)،

---

١. **سورة التوبة**، الآية ١٠٣.

٢. **سورة الأعراف**، الآية ١٨٩.

٣. **سورة الأعراف**، الآية ١٦١.

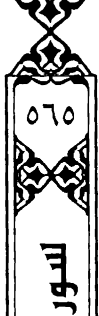
٤. **سورة الشورى**، الآية ٣٣.

٩. ترتيب وهيكلّية قصّة آدم:

انّ العناصر الأساسيّة التي تشكّل قصة آدمﷺ والتي يوجد قطع بترتّب بعضها بلحاظ السبق واللّحوق، خلافاً للبعض الآخر الذي يصعب احراز الترتيب فيه، وتبدأ بمسألة المحادثة والمشاورة والحوار الإلهيّ مع الملائكة، والتي هي بمثابة الديباجة والبوابة الذهبية التي تلمع في بداية هذه القصة، ثمّ القسم المتعلّق بخلق بدن آدم الذي يعود الى عالم الطبيعة ويكون تاريخياً وزمانياً، ويحكم مراحله ومراتبه السبق واللحوق الزماني كمراحل: الطين، والحمأ المسنون، وصلصال كالفخّار، والتسوية وغيرها. طبعاً مسألة التكامل مأخوذة هنا، لانّ الطفرة مستحيلة، وان لم يكن من الضروري أن يتحقّق التكامل وفقاً للطريقة المعتادة، لانّ التكامل يتحقّق ايضاً بغير الطريقة المعتادة. ثمّ نفخ الروح الذي تمّ بعد التسوية والوجود العقلي لروح الإنسان المقدّم على عالم الطبيعة، لكنّ وجوده النفسيّ يبتني على الآراء المختلفة في هذا المضمار، فهل انّ النفس روحانية الحدوث والبقاء أم هي جسمانية الحدوث وروحانية البقاء.

وبعد نفخ الروح وظهور آدم، تحقّقت مسألة الخلافة بنحو القوّة، أي وُجِد مخلوق كفؤ وصالح للخلافة الإلهيّة. وبعد تعليم الأسماء الإلهيّة الحسنى انتقلت الخلافة من مرحلة القوّة البعيدة الى مرحلة القوّة القريبة الى الفعلية. وبعد عرض الأسماء على الملائكة، واظهار عجزهم عن الإنباء بها، وصدور الأمر لآدم بإنبائهم بها، وقيام آدم باخبار الملائكة بالأسماء، بلغت الخلافة الشأنية المذكورة الى مرحلة الفعلية.

وبعد اكتمال نصاب الخلافة بالفعل صدر الأمر بالسجود لخليفة الله.



فأطاع الملائكة هذا الأمر وتمرّد ابليس عليه. فحظي الملائكة المطيعون بمقام القرب الإلهيّ الشامخ واستمروا ينعمون بالكرامة الإلهيّة في ظلّ طاعتهم الأوامر الإلهيّة. وامّا الشيطان المارد فقد هبط من تلك المنزلة ذليلاً مدحوراً بسبب ما اصيب به من عمى الجهل وظلمات الجهالة.

وانتقل آدمعليه السلام لأجل الامتحان الى محلٍّ يتّصف بالرفاه والكمال لكنّه ليس محصناً من وسوسة ابليس، ممّا ادّى الى تأثّر آدمعليه السلام بوسوسة ابليس وابتلائه بالزلّة مع احتفاظه بكرامته وعصمته، فأدّى ذلك الى الهبوط الهادف نحو الأرض الذي تلاه ظهور الوحي والنبوّة والرسالة.

انّ سرد هذه القصة ونظمها وترتيبها ونضدها التاريخي طبقاً لكلمات القرآن هو بهذا النحو الذي اُشير اليه، لكنّ المسألة المهمّة هي انّ ما تمّ في نطاق الطبيعة فهو زماني، وليس هناك محذور عقلي في تقدّمه وتأخره التاريخي، وما وقع خارج دائرة الطبيعة، فعلى الرغم من انّ له سبقاً ولحوقاً خاصّاً به، لكنّه غير قابل للاتّصاف بالتقدّم والتأخّر التاريخي والسبق واللحوق الزماني، وان كان بيانه في قالب الألفاظ لأجل المخاطبين الطبيعيين يفيد التاريخ ويوهم معنى التزمّن بزمان خاص والتمكّن بمكان معيّن.

البحث الروائيّ

١. مصاديق الهداية الإلهيّة:

عن جابر قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن تفسير هذه الآية في باطن القرآن: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾؟ قال: **تفسير الهدى عليٌّ، قال الله فيه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.**[1]

اشارة: مع غضّ النظر عن كون الروايات التي تُنقل بعنوان التفسير الروائي مرفوعة أو مقطوعة أو موقوفة أو مرسلة، فانّه ينبغي الالتفات الى ما يأتي **اولاً:** انّ هذا النحو من الأحاديث ذكرت بعنوان التطبيق وبيان بعض المصاديق الكاملة، وقد عارضها البعض واعرض عنها آخرون. **وثانياً:** انّها في حدّ التمثيل وبيان المثال وليست بصدد التعيين لانّ الإمام عليّاً بن ابي طالب عليه السلام ليس مصداق الهداية الوحيد، بل انّ جميع المعصومين من آل طه وياسين عليهم السلام مصاديق كاملة للهداية، كما انّ القرآن الكريم الذي هو الثقل الأكبر وكفؤ العترة الطاهرة عليهم السلام مصداق آخر للهداية الإلهيّة.

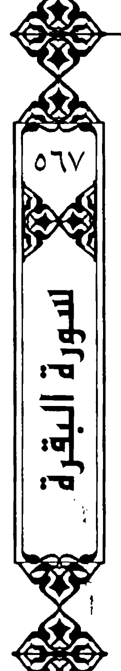
٢. الآيات التي كُذّب بها:

ـ عن العسكري عليه السلام: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ الدالاّت على صدق محمد على ما جاء به من اخبار القرون السالفة، وعلى ما أدّاه الى عباد الله من ذكر تفضيله لعليّ وآله الطيبين خير الفاضلين بعد محمد صلى الله عليه وآله سيّد البريّات اولئك الرافعون لصدق محمد صلى الله عليه وآله في انبائه والمكذّبون له في نصب اوليائه على سيّد الأوصياء المنتجبين من ذريّته الطاهرين.**[2]

اشارة: كما تقدم في الحديث السابق، فمع غضّ النظر عن ضعف

١. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ٢٠٠؛ **تفسير العياشي**، ج ١، ص ٦٠، ح ٢٩.
٢. **تفسير البرهان**، ج ١، ص ٨٩، ح ١؛ **التفسير المنسوب الى الإمام العسكري** عليه السلام ص ١٨٥.





سند هذا النوع من الأحاديث بسبب الرفع أو القطع أو الوقف أو الارسال فانّها من حيث الدلالة ايضاً لا ترقى الى مستوى بيان معنى الآية، وانّما هي بصدد تطبيق المفهوم على المصداق الخاص، وهذا أمر انكره البعض ولم يقبلوه.

قصّة آدم في القرآن والعهدين

في ختام تفسير آيات الخلافة تُذكر بعض المسائل المتعلقة ببحث مقارنة قصة آدم في القرآن الكريم والأحاديث المأثورة مع ما هو مذكور من النصوص الدينية في العهدين أو تفاسير الشارحين لها، والبتّ فيها، والنطق بالقول الفصل فيما بينها يعود الى ذلك المفسّر ذي الرؤية الشاملة، والحكم الجامع والنظرة الواسعة والمطّلع على (جوامع الكلم)، والخطوط المشتركة بين الكتب الإلهيّة، بحيث يستطيع أن يميّز كلّ ما هو دخيل وأجنبي، بحيث يصدر حكمه العادل دون افراط وتفريط.

١. السبب في صعوبة الحكم في قصّة آدم:

ان السرّ في صعوبة الحكم والإدلاء بالقول الفصل حول آدم وحواء وابليس، هو انّ بعض الأحداث القديمة تكون بين فترة واخرى محطّاً لأنظار وآراء وبحوث الخبراء في ذلك الاختصاص. لذلك فان الآراء المطروحة حولها تكون قليلة والتضارب فيما بينها يكون طفيفاً، فيكون الجمع فيما بينها سهلاً. لكنّ بعض الحوادث القديمة تكون محطّاً للأنظار والبحوث ومعتركاً

للآراء بنحو مستمرّ لا ينقطع من قبل الكثير من الباحثين والخبراء في نفس الاختصاص أو في البحوث العامّة، فيجتمع حولها ركام من الآراء المتضاربة بحيث يصبح من الصعب تلخيصها والجمع فيما بينها، واحياناً لا يصل البحث فيها الى نتيجة سوى الحيرة والإبهام.

والقصة الطويلة والمتشعبة لآدم وحواء والملائكة وابليس هي من النوع الثاني، لانّ ما يتعلق بعلم (الأحياء) وظهور آدم بعنوان (الانسان الأول) كان ولا يزال محلاً للبحث والتحقيق من قبل علماء الأحياء ومن جهة فانّه يقترن مع مسألة خلق آدمعليه السلام، والذي يتعلق (بالنصوص الدينية) والمصادر النقلية فانّه كان ولا يزال عرضة لأنحاء متعدّدة من استنباط المفسرين واستنتاج آراء مختلفة من قبل الشرّاح، وما يتعلّق بالنقل من (المصادر المعصومة) والمنابع الدينية الآمنة فانّه قد تعرّض ويتعرّض باستمرار للأخبار الغثّة والسمينة وسرد القصص الصادقة والكاذبة، وما يتعلق (بالتحليلات العقلية) أو (الكشفيات الشهودية) للحكماء والعرفاء، فانّها كانت ولازالت بين الحين والآخر يختلط فيها الطرح البديع المقبول مع البدعة المرفوضة.

هذا الجو المضطرب يثير غبار الغمّ على المفسِّر فيثقل على قلبه لما يراه من أن بعض الآيات المتشابهة تُفسّر دون الارجاع الى المحكمات، واحاديث التفسير ضعيفة من جهة كونها مقطوعة أو موقوفة أو مرسلة، فمن جهة يرى انّ آيات القرآن الذي هو الثقل الأكبر والمرجع الأخير لم تُبيَّن بالنحو الصحيح، ومن جهة اخرى يرى انّ الأحاديث المأثورة لم تبلغ نصاب الاعتبار والحجيّة، حتّى تكون صالحة لتفسير وشرح آيات القرآن الكريم.

كما انّ تعقيد النصوص الدينية تسربّ من اليهودية الى المسيحية ومن هناك انحدر نحو الإسلام، وحيث انّ هذه المسألة لها جذور عميقة في التاريخ تتعلق بالنصوص الدينية والأخبار المرتبطة بزمن ما قبل اليهودية التي انتقلت الى هيئة التفسير اليهودية، فبالنتيجة انّ كلّ ما قيل من عهد النبي آدمعليه السلام إلى خاتم الأنبياءصلى الله عليه وآله قد انعكست آثاره وظهرت في دائرة التفسير والتحليل الإسلامي، مما جعل الأصل النقي الناصع لقصّة آدمعليه السلام يصبح محفوفاً بالتهويلات المستهجنة والمقزّزة وغير المعقولة، بحيث لا يستطيع سوى المفسّر الذي اشرقت روحه بالشوق الى الجنّة والمحقق الذي تتوق نفسه نحو نعيم الرضوان أن يُزيح عن الحقيقة جميع ما احاط بها من غبار واقذار ويطرح عن حريمها جميع التهويلات، ويجعل مصباحه الذي يستضيء ويهتدي به في طريقه هو العقل البرهاني مع الوحي القرآني بعد ارجاع المتشابه الى المحكم وعرض الحديث على القرآن وكذلك موازنة ومقايسة ما جاء في الكتب المحتملة التحريف مع ميزان الحق والصدق المطلق، أي القرآن، ويتحرّك في هذا الطريق والأمل يغمره بان يفيض الله عليه من مواهبه الغيبية، ولا يتفوّه بشيء ما لم يبلغ اليقين أو الاطمئنان، ولا يحكم الاّ بقدر ما توفّر لديه من علم، ويمتنع من ان يقول شيئاً لم يحصل له به العلم، لانّ العلم بالحقائق رزق مقدّر ينزل تدريجياً الى المجتمعات البشرية، وقد قُدّر منه لكل عصر ومصر وجيل نصيبه المعيّن.

والتنويه المهمّ في هذا المجال هو انّ نقد الاسرائيليات لا ينبغي أن يتجاوز حدّه المطلوب، فيؤدّي الى التشكيك بنصّ من النصوص الأصلية

للتوراة أو الانجيل أو الزبور وامثالها، لانه كما يجب في النبوة أن نعتقد بعصمة وقدسية جميع رسل الله: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[1] فكذلك يجب الاعتقاد في الكتب الأصلية والصحف غير المحرّفة والنصوص غير المختلطة بما يخالف الوحي، بأنّها مقدّسة وطاهرة وانّها حجّة ونقول (لا نفرّق بين شيء من كتبه)، لانّ القرآن الكريم أوجب الايمان بجميع الكتب الإلهية غير المحرّفة فقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.[2]

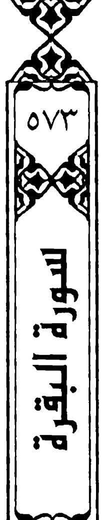
٢. الإنسان الأوّل في علم الأحياء والنصوص الدينيّة:

الظاهر من كل نص اُلقي الى الناس من اجل تعليمهم بلغة التفاهم واسلوب الخطاب المتداول، هو انّه حجّة، الاّ أن يقوم دليل معتبر عقلي أو نقلي يؤدي الى الانصراف عن الظهور. والنصوص الدينية غير مستثناة من هذا الأصل التعليمي. وعليه فانّ ظاهر الآيات القرآنية التي تقول بانّ آدم خلق من العناصر الأرضية وانّه لم يولد من احد، هو حجّة.

وما هو مطروح للبحث في علم الأحياء، وما تمّ الاستدلال عليه من الهياكل المكتشفة وما توصل اليه علم الآثار، كلّ ذلك مادام لم يجتز حدود الفرضية ولم يأخذ لون التحقيق العلمي فهو لا يعد مصدراً يعتمد عليه لدى خبراء العلوم الانسانيّة، كما لا يصلح أن يكون سبباً لتأويل ظاهر النصوص الدينية والتصرف بها، واذا تعدّى حدود (الفرضية) وبلغ

١. **سورة البقرة**، الآية ٢٨٥.

٢. **سورة البقرة**، الآية ٢٨٥.



نصاب (النظرية) الثابتة، وصار معتمداً لدى الباحثين المتخصصين، فانّه لا يرقى أبداً الى مستوى اثبات كيفية خلق آدمعليه السلام حتى يُسوّغ التصرّف في ظاهر النصوص الدينية، لانّ هناك أُناساً كثيرين جاءوا الى الدنيا قبل آدمعليه السلام ثمّ انقرضوا، ولكنّ آدمعليه السلام لم يولد من أحد منهم.

والسبب في عدم فائدة الهياكل المكتشفة وكون التجارب الفنيّة في علم الأحياء غير مجدية، هو انّ هذا النحو من التجارب وان دلّت على اكتشاف أمر ما لكنّها لا تستطيع ابداً أن تنفي خلاف ما دلّت عليه، لانها لم تجرّب امتناع خلاف الأمر المكتشف، أي انّ التجربة يمكنها أن تحكم بانّ هذا الأمر قد وقع في المجتمع البشري، لكنّها لا تتمكن من أن تحكم بانّ غيره محال، وان البشرية قد وجدت فقط عن هذا الطريق الذي يقول به علماء الآثار وتؤيده تجارب علم الأحياء.

ويمكن تلخيص الغرض من هذا البحث بانه ينبغي **اولاً**: الفصل بين مسألة كيفية ظهور آدمعليه السلام الذي هو الأب للجيل الحاضر من البشريّة عن البحث في كيفية ظهور الانسان الأول.

ثانياً: التمييز بين مقدار ما يدلّ عليه العلم التجريبي والقيمة الدلالية لعلمي الفلسفة أو الكلام الذين يتمتعان بالنظرة الواسعة وقوة الدلالة في جانبي (النفي والاثبات)، والاعتراف بانّ عدم الوجدان التجريبي لا يدلّ على عدم وجود الشيء الذي لم يخضع للتجربة، فلا ينبغي الخلط بين (الامتناع العادي) و(الاستحالة العقليّة).

ثالثاً: لا يصّح المساواة بين الجعل بمعنى الخلق الذي يأخذ مفعولاً واحداً، مع الجعل بمعنى التصيير والتحويل الذي يأخذ مفعولين، وآية

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ التي تعني خلق الخليفة لا ينبغي أن تؤخذ بمعنى النصب وتحويل الشيء من وضع الى وضع آخر.

رابعاً: لا ينبغي الخلط بين عنوان خليفة الله وخليفة الأقوام السابقة، ولو انّه حتى لو كان آدم خليفة للأقوام السابقين أيضاً فانّ ذلك لا يكون دليلاً على تطور الأنواع أو خلق آدم من ذريّة الأقوام السابقة.[1]

خامساً: انّ عنوان التعليم وان كان يدلّ على سبق وجود آدم المتعلّم، لكنّ ذلك لا يدلّ أبداً على انّه وجد من جيل سابق ولا يدلّ على تطور الأنواع الداروينى.[2]

بناءً على ذلك فانّ صحّة وسقم آراء واقوال علماء الأحياء، مثل: ١. إنبات البشر من الأرض، ٢. المنشأ الكوني للبشر الذي أدّى إلى انتشار مواده الاولية في الجو، ثم انتقالها بواسطة المطر الى الأرض، ٣. التطور أو تكامل الأنواع، ٤. ثبات الأنواع، كلّ ذلك لا يمكنه أن يبيّن تاريخ خلق آدمعليه السلام، الاّ في حالة انحصار الانسان الأول في آدم وثبوت عدم وجود بشر قبله، في حين انّه طبقاً لبعض الأدلّة الروائية وغيرها فانّ هناك اقواماً كثيرين عاشوا قبل آدم وانقرضوا، كما انّ هناك عوالم كثيرة كانت عامرة ثمّ دُمّرت، حتى جاء الدور الى آدم الأخير والعالم الحالي، وليس هناك رأي من الآراء المذكورة يبيّن مصير آدمعليه السلام الذي تتحدّث عنه النصوص الدينية، كما انّه ليس هناك نص من النصوص الدينية يقول بانحصار خلق البشرية في آدمعليه السلام وعدم وجود ايّ انسان قبل آدم في ايّ

---

١. راجع كتاب (**برتوى از قرآن**) اي **اشراقة من القرآن**، ج ١، ص ١١٣.

٢. كتاب (**برتوي از قرآن**)، ج ١، ص ١١٣، وهو باللغة الفارسيّة.

إلى آدمﷺ، ولوصل حكم الله إلى ذلك الفرد بواسطة آدمﷺ. والمقصود من الحكم طبعاً ليس هو الحكم المرتبط بالشريعة الاعتبارية المولوية.

٤. لكل واحد من عوالم الطبيعة والمثال والعقل وكذلك عوالم الدنيا والبرزخ والقيامة حكمه الخاص به، أي انّ الجنّة مثلاً ليست مجرد مكان للرفاهية والتنعّم بحيث انّ ساكنيها مختلفون، فبعضهم ينال قسطاً وافراً من نعمها، والبعض الآخر يكون نصيبه منقوصاً، وكأنّ المعصية ممكنة هناك، ولا خصوصية للمكان أي الجنّة، بل انّ الجنّة نشأة خاصة لا مجال فيها اصلاً لوجود (اللغو) ولا (التأثيم)، ولا يسمح لساكني دار الخلد أن يدخلوها الاّ من بعد تصفيتهم وتطهيرهم من آفات وشوائب الهوى والانحراف.

وقد تحدث القرآن الكريم عن نقاء حريم الجنّة ودار الخلد من دنس المعاصي فقال تعالى ﴿**لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَـأْثِيمٌ**﴾،[1] وكذلك طهارة أهل الجنّة وساكني دار الخلد من قذارة الذنوب فقال تعالى ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾،[2] أي انّ قلوب أهل الجنّة نقية ومصفّاة من جميع اشكال الغلّ والخيانة، سواء منها ما كان يتعلق بالأحكام الإلهية أو السنّة النبوية أو حقوق الآخرين وممتلكاتهم، أي انّ جميع أنواع الخيانة لله والنبيّ وأمانات الناس التي نهى الله تعالى عنها بقوله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ**﴾[3] قد ازيلت تماماً من قلوب أهل الجنّة. وعليه فلا يمكن القول بانّ جنّة آدم كانت نفس

---

١. **سورة الطور**، الآية ٢٣.

٢. **سورة الحجر**، الآية ٤٧.

٣. **سورة الأنفال**، الآية ٢٧.

عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[1] يمكن أن تُفسَّر بمعنًى جامع هو: اننا نقصّ أحسن القصص (المصدر بمعنى المفعول) أي اننا نذكر لكم اجمل قصة ونحكيها لكم بأجمل اساليب الحكاية. وعليه فانّ جميع قصص القرآن وكذلك جميع أساليب العرض والحكاية في القرآن قد جاءت على النحو الأحسن.

وحُسن القصّة يتمثّل في كونها حقّاً وصدقاً، وانّها نافعة ومعبّرة وتربوية، وحسن الحكاية يتمثّل في تجنّب الإجمال والإهمال والإبهام والتطويل والإيجاز المخّل وامثال ذلك. ولهذا فانّ قصّة آدم عليه السلام أحسن القصص من هذه الجهة، وما جاء في أول سورة يوسف فانّما يقصد به بيان السُنّة الإلهيّة في طريقة حكاية القصص، وليس مختصّاً بقصّة النبي يوسف عليه السلام بأيّ نحو من الأنحاء، بل انّ ايّ وجه من وجوه الجمال في قصّة يوسف وأيّ نحو من أساليب التفنّن في عرض تلك القصّة انّما هو تبلور لقصّة آدم وانعكاس عن كيفيّة عرضها وحكايتها، لانّ كلّ ما ليوسف من جمال وجلال انّما يعود الى خلافة الانسان الكامل ومعرفته بالأسماء الإلهيّة الحسنى وسجود الملائكة له وأمثال ذلك.

ولأجل ذلك فانّ جميع النصوص الدينية الموجودة في العالم يجب أن تعرض على القرآن الذي عرض قصّة آدم الجميلة على أحسن وجه، لانّ القرآن له سيطرة وهيمنة على جميع النصوص الأُخرى، سواء كانت تلك النصوص وحياً من السماء، أو كانت من الأحاديث المأثورة، وسواء كانت تلك الأحاديث صادرة عن الدوائر اليهودية والنصرانية وامثالها او

١. سورة يوسف، الآية ٣.

كانت صادرة من حوزة الإسلام. وان كان هناك دليل آخر على وجوب عرض غير القرآن على القرآن، وقد اشير اليه في ثنايا البحث السابق.

وحيث انّ الاسلوب القَصصي القرآني المتعلق بقصّة آدم عليه السلام هو الأحسن، لذلك اذا لوحظ في مسألة من مسائلها إغماض أو ابهام أو اهمال لشيء ما أو لكيفيّة معيّنة، فالسبب في ذلك هو امّا أنّ ذكر تلك المسألة ومراعاة تلك الكيفيّة يؤدي الى نتائج سلبية، أو حتّى اذا كانت له نتائج ايجابية فانّ ما يساويه أو يشابهه قد ورد ذكره وتمّت مراعاته.

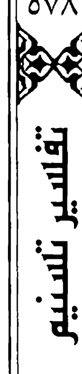
وممّا تقدّم يمكن أن يقال: انّ الخطوط العامّة والجامعة للأصول القرآنية حول قصة آدم كخلقه من تراب ومن غير اب واُمّ وغير ذلك، امّا ان تكون موافقة للكتب الإلهيّة السابقة الأصلية وغير المحرّفة او انّها ليست مخالفة لها والاّ لكان القائمون على كتب العهدين من الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى المتربصين للنقد والمترصدين للقدح، سينزلون الى ميدان المواجهة ويقرعون طبول حرب الجعل والافتراء والدسّ والوضع ويثبتون ذلك، أو أن يتّهموا القرآن بالتناقض ويثبتوا ذلك بحجة انّ القرآن من جهة يدعوا الى تصديق جميع الكتب والصحف الإلهيّة السابقة: ﴿**مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾[1] ومن جهة اخرى فانّه يخالفها بصورة علنيّة ولا يصدّق بمضامينها في حين انّ أهل الكتاب لم يوجّهوا مثل هذا الاتّهام للقرآن الكريم، وانّما جاءت سهام تُهم الجعل والافتراء والوضع صوب الوحي الإلهي من قِبَل المشركين والملحدين. وبالطبع فانّهم كانوا عاجزين عن اثبات مثل هذه الاتّهامات.

ولعلّ السبب في وجود الوحدة والكثرة، والمرّة والتكرار، والإجمال

---

١. آل عمران، الآية ٣.





والتفصيل في القصص القرآنية هو انّ كون أي قصّة أحسن القصص يختلف من قصّة الى اخرى. لذلك فانّ قصة اعلان الخلافة لآدم عليه السلام ذُكرت مرّةً واحدة، ولكنّ قصة الأمر بالسجود له وطاعة الملائكة وتمرّد ابليس قد ذكرت عدّة مرّات. وخلاصة القول هنا هي انّ قصة آدم الصفيّ قد ذكرت بنحو من العناية الخاصّة، كي تُحفظ وتصان من غبار الجهل وظلمات الكذب ودنس التحريف والجعل والدسّ.

٤. موافقة الملائكة على خلق آدم:

تدلّ بعض النصوص المستنبطة من التوراة كالتلمود بانّ الارادة الإلهيّة لمّا تعلقت بخلق آدم، دعي الملائكة الى الحوار والتباحث. فبعضهم وافق عليه مؤمّلاً المحبّة والعطف الذي سوف يظهر منه، والبعض لم يوافق خوفاً ممّا سوف يصدر منه من مفاسد ونزاعات، وبالتالي فانّ الذات القدسية قرّرت خلق آدم.[1] لكنّ مثل هذه التفصيلات لم تُستَظهر من القرآن، وان كان النقل المعتبر عن المعصوم عليه السلام يمكن أن يؤخذ بمثابة تفسير للنصّ وتقييد للمطلق أو تخصيص للعام وامثال ذلك. في غير هذه الحالة، فانّ اثبات مثل هذا التمييز بين الملائكة يكون بحاجة الى دليل معتبر.

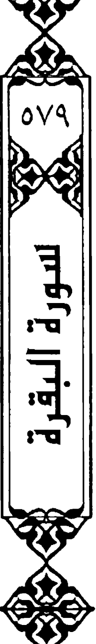
٥. خلق آدم على صورة الله

صحيح انَّ القرآن الكريم قد راعى كرامة خلق الإنسان وذكر فيها عنوان

---

١. **دائرة معارف بزرك اسلامى (دائرة المعارف الاسلامية الكبرى)**، ج ١، ص ١٧٤، (وهي باللغة الفارسيّة).





(الخلافة) و(نفخ الروح الإلهيّة) وامثال ذلك لكنّه تجنّب عن ذكر امور مثل (الصورة) و(الشبيه) وامثال ذلك، اي لم يرد في ايّ آية من القرآن المجيد انّ الإنسان خلق على (صورة الله) أو انّه (شبيه الله). نعم جاء هذا الأمر في الأحاديث مع تمييز معناه الصحيح عن الخطأ، لانّ بعض الأحاديث قد نفت عن الله سبحانه عنوان (الصورة) المستلزم للتجسيم والتشبيه،[1] وبعض الأحاديث اثبتت لله عنوان الصورة المستلزم لإضافة الإنسان التشريفية[2] الى الله تعالى وهي كالاضافة التشريفيّة الحاصلة في اضافة الكعبة الى الله في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ...﴾[3] مع تنزيه الله عن الحاجة الى البيت أو المكان الآخر. لكنّ عنوان الصورة والشبيه يلاحظ بنحو جليّ في سفر التكوين من التوراة وفي التلمود ايضاً وفي سائر كتب تفسير وشرح تلك النصوص المقدسة.

فقد جاء في التلمود ما يلي:

انّ الأصل الذي يقول بانّ الإنسان خلق شبيهاً لله هو الأساس في تعليمات علماء اليهود حول الوجود الإنساني. وبهذا اللحاظ فانّ الإنسان له فضيلة على جميع المخلوقات وهذا يشهد على انّه القمّة في عملية الخلق. انّ الإنسان محبوب؛ لأنّه خُلق يشبه الله. وانّ انساناً واحداً يعادل جميع الخلائق. الإنسان الأول، خلق مفرداً، حتّى يعلمك بانّ من يقضي على نفس انسانية، فانّه في نظر الكتاب المقدّس كانّما قضى على العالم

١. راجع كتاب **التوحيد** للصدوق، الباب ٦، ص ٩٧.

٢. **توحيد الصدوق**، الباب ١٢، ص ١٥٢.

٣. **سورة الحج**، الآية ٢٦.

بأجمعه. وكلّ من يُنقذ نفساً من الفناء فانّـه فـي نظـر الكتـاب المقـدس كأنّما قد انقذ العالم بأجمعه. (ميشنا سنهدرين، ٥:٤).[١]

وجاء في كتاب (الهيات مسيحي) ما يلي:

ان الكتاب المقدس يبيّن الوضع البـدائيّ للإنـسان كمـا يلـي: (علـى صورة الله وشبيه الله). والظاهر انه ليس هنـاك اخـتلاف كبيـر فـي اللغـة العبرية بين الصورة والشبيه ولا ينبغي أن نسعى لنجد فروقاً بين الاثنـين، ولكن يجب أن نفهم المقصود الأصلي ما هو).[٢]

(ان الله روح، والإنسان ايضاً لـه روح. والخـصاص المهمّـة للـروح هـي العقل والضمير والارادة. والروح موجود عقلي واخلاقي وحـرّ، فعنـدما خلـق الله الإنسان على صورته جعل هذه الخصائص فيه.... وهذا الشبه بين صـفات الله والإنسان شرط لازم لمعرفة الله وهو يمثّل اساس شخـصيتنا الدينيـة، فلـو لم نكن نشبه الله لم يكن باستطاعتنا معرفة الله بل كنّا كالحيوانات الفانية).[٣]

وخلاصة القول هي انّ التعبير بخلق الإنسان على صورة الله والـشبيه بالله منتشر في الكتب التعليمية اليهودية وفي المصادر الدينية المـسيحية. والمهم هو توجيه وتفسير هذه العبارات كي تصان المعرفة الإلهيّة من أن تدنس بأيّ نوع من التجسيم والتشبيه أو الحلول والاتحاد مـع الموجـود الممكن، وتبقى صفة (القدس) و(السبحان) في محلها الأصلي آمنـةً مـن حملات التحريف والأوهام الخاطئة.

---

١. التلمود، الفصل الثالث، الإنسان، ترجمـة مـن الـنص الانجليـزي الـى الفارسـية، اميـر فريدون جرجاني، ص ٨٧ و...

٢. ترجمة عن كتاب (**الهيات مسيحي**)، ص ١٤٥ ـ ١٥٠.

٣. ترجمة عن كتاب (**الهيات مسيحي**)، ص ١٤٥ ـ ١٥٠..

وقد تحرّك محقّقو اليهود والنصارى لاسيّما بعد تنامي الرؤية الكونية الإلهيّة الإسلامية، للقيام بالتأمل العميق في ما جاء في سفر التكوين وكذلك في اسفار التوراة من السفر الثاني الى الخامس وكذلك في ما هو مقبول في الكتب المسيحية المعتبرة، وذلك كي يحافظوا عليها من حملات الانتقاد المادية وتجسيم الله سبحانه.

فعدّة منهم تصرّفوا وتأوّلوا في معنى الصورة والشبيه واقتربوا الى النتيجة المطلوبة، وآخرون منهم تصرّفوا في معنى الإنسان وآدم فخرجوا من ظلمات التجسيم لكنّهم لم يخرجوا من ظلام التشبيه.

والطائفة الأولى مثل موسى بن ميمون القرطبي الاندلسي (٥٣٠ـ ٦٠٣هـ ، المطابق لسنة ١١٣٢ـ١٢٠٥م) الذي اعتبر التوراة نازلة من السماء لهداية الأولين والآخرين، وانّ فهم معارفها غير ممكن لمن لا يوليها اهمية ويجعلها في سُلَّم الأولويات بعد الأكل والشرب وسائر الرغبات، وقال: انّ الصورة في اللغة العبرية لا تعني الشكل والملامح وفسّرها بالتشابه المعنوي، كما انّه فسَّر عنوان (المثال) ايضاً بالتشابه المعنوي، وقال: انّه ـ مثل الصورة ـ لا يعني التشابه الجسمي، واعتبر المقصود من الصورة والمثال هو الادراك العقلي، فهو يقول: حيث انّ الإنسان (آدم) يتمتّع بالادراك العقلي فهو مخلوق على صورة الله وشاكلته.

ويرى ابن ميمون ان الذين لم يخوضوا في المعرفة الدينية يعيشون خارج بيت المعرفة الإلهيّة، والذين خاضوا فيها ولكن لم يبلغوا جميع المبادئ التصديقية بواسطة البراهين والأدلّة القاطعة، فانّهم عالقون في ممرّ دار المعرفة الدينية ولم يصلوا الى التعرف الكامل على صاحب

الدار، وهناك ثلّة من الذين خاضوا في هذه المعرفة ونهلوا منها جميع المسائل البرهانية اللاّزمة فهؤلاء قد حصلوا على المعرفة الكاملة لربّ الدار، وقمّة هذه المعرفة والرفقة والمحبّة هي من نصيب الأنبياء، ودرجاتها النازلة هي من نصيب اتباعهم الصادقين والحكماء، كما انّ الأنبياء ذوو مراتب مختلفة، فبعضهم يرى ربّه من بعيد، (كما قال: من بعيد تراءى لي الربّ) والبعض منهم يشاهد ربّه من قريب. ثمّ يقول: انّ من لم يكن من أهل التحقيق في معرفة الله، وانّما يتردّد اسم الله على شفتيه عن طريق التقليد أو الادراك الخيالي، فهو عندي خارج عن دائرة المعرفة وبعيد عنها.

وعلى كلّ حال فانّ المقصود من الصورة والمثال هو تلك المعرفة العقليّة والوعي التعقلي الذي يتمتّع به الإنسان، وذلك الكمال هو المثال والشاكلة الإلهيّة التي خلق آدم عليها.[١]

ويبيّن ابن ميمون مجالات العلوم وسُلّماً يوضّح درجات العلماء فيقول: انّ من يبذل جهده في طلب علمي الرياضيات والمنطق ويشتغل بهما فهو من تلك الطائفة التي تعيش خارج دائرة المعرفة الإلهيّة وتدور حولها، كما قيل على سبيل المثال في (ابن زوما): من انّ (ابن زوما لا يزال في الخارج)، فهو يمكث دائماً خارج قصر معرفة الله. ومن سعى لطلب علم الطبيعيات واشتغل به حتّى أتقنه فقد ورد الى دار المعرفة الإلهيّة ولكنّه لا يزال يتحرّك في ممرّاتها. ومن اتقن العلوم الطبيعية وادرك العلوم الإلهيّة فان مقامه سوف يترقى فيكون في داخل القصر مع

---

١. **دلالة الحائرين**، تحقيق حسين آتاي، ص ٢٦، ٧٢٠، ٧٢١.

السلطان، وهذا المقام لمن بلغ درجة العلماء، وهم ايضاً في درجات مختلفة من الكمال. ومَنْ ركّز كلّ وجوده نحو الله واستثمر جميع فعالياته ونشاطاته العقلية للبحث في الموجودات للاستدلال بها على الله تعالى والاطّلاع عليها بتدبّر، فانّه يتربّع في محل سلطان قصر المعرفة، وهذا المقام هو درجة الأنبياء.[١]

وهناك مفسّرون وشرّاح ومتكلمون وباحثون في العلوم الدينية كانوا ولا يزالون كابن ميمون الحكيم يرون انّ معنى الصورة والمثال أعلى وأسمى من دائرة التجسيم ويحملونه على الشاكلة والوجه المعنوي. وخلاصة رأي هذه الطائفة هو توضيح معنى الصورة والمثال والتشابه وتنزيهه عن الحمل على التجسيم.

والطائفة الاخرى تصرّفوا وتأوّلوا في معنى الإنسان (آدم) المصوّر بصورة الله والممثّل بالمثال الإلهي والمشبّه بشبيه الله، واستنقذوه من خطر التجسيم ومفسدة المادية، الاّ انّهم لم يتخلّصوا من خطر التشبيه الاّ أن يلجأوا الى توجيه وتأويل أعلى وحينئذ ينجون منه، كما انّ الطائفة الاولى قد اضطرّت اليه. فالطائفة الثانية تارة تقول في بيانها للمقصود من الإنسان، انه يتمثل في جانب روحه المجرّدة، لا بخصوص بدنه ولا بمجموع ما لديه من الروح والبدن، واحياناً تقول: انّ المراد من الإنسان هو صفة الفكر والعقل الموجودة لديه، وتارة تقول: انّ المقصود من الإنسان (آدم) يتمثّل في آدم الروحاني والقديم في مقابل آدم الجسماني والحادث. فقد روي عن (حزقيال) في عروجه الى السماء ومشاهدته

---

١. **دلالة الحائرين**، ص ٧٢٠.





العوالم الروحانية انّه يتحدث عن رؤيته صورة كصورة الانسان. كما انّ الفيلسوف اليهودي فيلون الاسكندراني (النصف الأول من القرن الأول الميلادي) يعتقد بوجود آدم علوي وآخر سفلي ويقول:

انّ الذي خرج من الجنّة هو آدم السفلي وامّا آدم العلوي فلا يزال باقياً في الجنّة.[1]

وخلاصة هذه التأويلات هي التخلّص من محذور التجسيم لكن خطر التشبيه لازال باقياً على حاله، لانّ الله سبحانه موجود لا شبيه له ولا نظير ولا مثيل: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[2] والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يحلّ عقدة عناوين الصورة والمثال والتشابه وامثالها هو الحل الذي يطرحه القرآن، وهو العنصر الأساسي الذي يتكوّن منه القرآن، وذلك لانّ القرآن يعتبر مفردة (الآية) والعلامة هي الصفة العامّة لجميع المخلوقات، وكلّ موجود يحظى بنصيب اوفر من الوجود تكون درجة اتّصافه بالآية اعلى واقوى، بحيث انّ بعض الموجودات الإمكانيّة آية إلهيّة بيّنة كالنهار، وبعضها آية إلهيّة مظلمة كالليل فقد قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾.[3]

وجميع الموجودات الإمكانيّة وان كانت مظاهر وآيات إلهيّة، لكنّ الإنسان يحظى بنحو خاص ومتميّز من المظهرية لكونه موجوداً جامعاً. ولذلك فقد جاء في شأنه انّ الله خلق الإنسان على صورته ومثاله وشبيهاً

---

١. **دائرة معارف بزرك اسلامى**، ج ١، ص ١٧٧.

٢. **سورة الشورى**، الآية ١١.

٣. **سورة الاسراء**، الآية ١٢.

به. هذا التأويل مشهور في المذهب العرفاني المتأخر لدى اليهود، ولا يمكن أن يُنفى احتمال تأثير الإفرازات الإسلامية عليه، وان كان ليس من السهل رمي أهل الكتاب بالتجسيم والتشبيه وامثال ذلك، الاّ ما أخبر به القرآن الكريم عن قول طائفة منهم بالتثنية أو التثليث في مقابل التوحيد، وهذا الإخبار حقّ وصدق وان كان المُخبر به وهو اعتقادهم بالتثنية والتثليث باطلاً وكذباً.

تنويه: ذهب بعض الباحثين الى انّ بعض تفاسير العهدين المتعلقة بخلق آدم، والتي تقول بان الإنسان العقلي خُلق قبل الإنسان الجسماني، متأثرة بنظرية افلاطون، لكن ليس من السهل القطع بهذا الحكم، لانّ من الممكن أن يكون منشأ الاثنين، أي نظرية افلاطون وتفسير بعض مفسري العهدين، هو الأحاديث الدينية التي كانت تُتداول مقارنة لنزول التوراة فيما بين أصحاب موسى عليه السلام والتي كانت تُلقى من قبل النبي موسى أو النبي هارون عليهما السلام، شبيهة بما جاء في الأحاديث الإسلاميّة من انّ الأرواح قد خُلقت قبل الأبدان، ورأي افلاطون المبني على تقدم الأرواح على الأبدان مطابق لها. طبعاً انّ انتشار نظرية افلاطون في فترة زمنية معيّنة ودائرة مكانية خاصّة من جهة، وتطابق الاصطلاح وصيغة العبارة مع المصطلحات الافلاطونيّة من جهة اخرى، مهّدَ الأرضيّة لمثل هذا التحليل. ومثل ذلك ما يقوله اليهود من انّ إله العالم خلق الوجود على أساس التوراة، وانّ معارف التوراة هي خريطة عالم الإمكان،[1] وهذا النحو من الاعتقاد مطابق لبعض آراء فلاسفة اليونان.

---

١. (**بخشي از تبوت اسرائيلي ومسيحي**) محمود راميار، ص ٢٣٥.

٦. مناقشة لحدسيّات متفكر يهوديّ:

انّ آدمعليه السلام بسبب ارتكابه المنهي عنه وأكله من الشجرة الممنوعة قد اخرج من الجنّة، امّا لو لم يرتكب مورد النهي، فليس معلوماً الى أين يكون مصيره، وكم كان سيبقى هناك، ولم يقم دليل معتبر عقلي ولا نقلي على ذلك، لكنّ احد متفكري اليهود منح افكاره الحدسية درجة الرواية الحسيّة وذكرها بعنوان الخبر الموثق المعتمد، وهي انّ آدم لو لم يذنب لنزل عليه جميع ما في التوراة، كما انّ بعض الأحكام والقوانين السابقة لشريعة موسى؛ قد أعطيت من قبل لآدمعليه السلام. فمراعاة يوم السبت وجبت منذ زمانه كما انّه أول شخص قام بتقديم القربان.[1]

وحسب ما يعتقد يهودا هلوي (٤٧٨ـ ٥٣٤ هـ ق ـ ١٠٨٥ـ ١١٤٠م) وهو طبيب وفيلسوف يهودي اندلسي فانّ كلٍّ واحد من الأنواع أو الأقانيم الأربعة للطبيعة (الجماد، والنبات، والحيوان والإنسان) يتمتّع بجزء أعلى وأكمل من بقيّة الأجزاء. وفي النوع الإنساني فانّ هذا الكمال يتحقق في الأفراد الذين يتمتعون بروح النبوّة والقوة الإلهيّة وهذه القوة هي التي تجعل الإنسان قادراً على أن يقيم علاقة ثابتةً مع الله. وهذه القوة قد ورثها ابناء يعقوب (اسرائيل) من آدم، وتلك الميزة هي التي جعلت اليهود ممتازين وميّزتهم عن الأقوام الاخرى، ولكنّ هذه القوة تتحقق وتكون موجودة بالفعل اذا ما تمّت الاستجابة للأحكام الإلهيّة (التوراة) وارتوت ونمت وترعرعت في (الأرض الموعودة).[2]

---

١. **دائرة معارف بزرك إسلامى**، ج ١، ص ١٧٥.

٢. **دائرة معارف بزرك اسلامى**، ج ١، ص ١٧٦.

وليس لهذا الكلام دليل سوى حدس المتفكّر المذكور؛ حيث يختلط احياناً القطع النفسي بالقطع المنطقي فيأخذ هذا النحو من التخيّل صبغة الإيمان المنطقي، كالذي ذُكر حول الأصل والعنصر الأعلى والممتاز لليهود، والذي لا يؤيّده أيٌ دليل عقلي أو نقلي معتبر. وذلك لأنه **اوّلاً**: انّ درجات الأنبياء والمرسلين مختلفة، كما انَّ صحفهم وكتبهم ليست في مستوى واحد، ولا يمكن اثبات ما هي الصحيفة أو الكتاب الذي كان سوف ينزل على آدم في حال كونه لم يرتكب المعصية، ولم يُقدّم ايّ دليل معتبر على اثبات مثل هذا الحدس.

ثانياً: انّ الله سبحانه وجود صرف وحقّ محض، واذا أُريد تقييم كل درجة وجودية بلحاظ الحكمة النظرية، وكلّ درجة في القيم والأخلاق بلحاظ الحكمة العملية، فينبغي أن تقاس بالنسبة الى الله الذي هو الحق المحض، والله سبحانه جعل التقوى ميزاناً لكرامة الإنسان وقيمته فقال: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[1] كما أعلنَ بانّ الحصول على ايّ عهد ومنصب إلهي فهو مشروط بالعدل والصلاح، وممنوع عند وجود الظلم والطلاح فقال تعالى: ﴿**لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.[2] وذريّة ابراهيم سواء كانوا من (بني اسماعيل) أو من (بني اسحق) فالصلاح والطلاح هما المعيار لكلّ من اراد منهم الفوز أو الخسران، ولذلك فلا يوجد عند الله قوم أو فئة أو قبيلة قد اختصهم بكرامته دون الناس. بل ان كلّ من تبع الدين الإلهي والكتاب المنزل في عصره بنحو أفضل وأشمل فانّه يحظى بدرجة اعلى من الفيض الإلهي ويكون فوزه وفلاحه أكمل.

---

١. **سورة الحجرات**، الآية ١٣.

٢. **سورة البقرة**، الآية ١٢٤.

٧. تساوي المرأة والرجل في الخلق على الصورة الإلهيّة:

وان كان قد جاء في بعض عبارات مفسري وشرّاح العهدين ما يوهم تقدّم الرجل على المرأة وترجيح احد الجنسين على الآخر، لكنّ بعض قواعدهم واصولهم الأساسيّة تحدثت عن تساوي الرجل والمرأة من جهة خلق كل منهما على الصورة الإلهيّة، وحيث انّ عناوين الصورة والمثال والتشابه تمَّ تفسيرها بمعنى الآية والمظهريّة، لأجل صيانتها من خطر التجسيم ومفسدة التشبيه، فانّ هذا المبنى لا يفرّق بين خلق آدم على صورة الله وخلق حوّاء على صورة الله. ويمكن ملاحظة الاشارة الى هذا التساوي في الخلق على الصورة الإلهيّة في سفر التكوين[1] وفي اجزاء من التفاسير التي كتبت حول أسفار العهد القديم.[2]

تنويه: عند اسناد القضايا العلمية الى اتباع الكتب الإلهيّة ينبغي التمييز بين المتفكّرين المتعمّقين منهم والأفراد العاديين، لانّ ما كتبه ذوو الدرجة المتوسطة من كتّابهم كان موضع نقد من قِبَل الخواص من علمائهم. والقرآن الكريم الذي نزل على اساس العدل والقسط ويتكلم في محور الحق والصدق، عندما ينتقد القائلين بالتثنية والتثليث، فانّه يميّزهم عن غيرهم من الأتباع الصادقين من أهل الكتاب ويخصّهم بالمدح وحسن الذكر ويقول: ﴿**لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾.[3]

---

١. **نشيد الخلق بحسب التقليد الكهنوتي**، الفصل الاول، ص ٣٨.

٢. **السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم**، ج ١، ص ٣٤.

٣. **سورة آل عمران**، الآية ١١٣.





٨. الأب المعنويّ لآدم:

كما جاء في عبارات العرفاء والفلاسفة والمتألّهين الإسلاميين فانّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وان كان في الظاهر ابناً لآدم اب البشر، ولكنه بحسب المعنى يعدّ أباه، لانّه اعلى منه في المعارف ودرجات الكمال التي هي ميزان الابوّة المعنوية، فالمعرفة والكمال الأعلى شاهد على ابوّة النبي محمد صلى الله عليه وآله للنبي آدم عليه السلام، ومثال هذا النحو من التفكر العرفاني جاء في اشعار ابن الفارض حيث يقول:

وانّي وان كنت ابن آدم صورةً

ولي فيه معنى شاهد بأبوّتي

كذلك جاء في عبارات المفسّرين والشرّاح والعرفاء المسيحيّين ايضاً ما يشبه هذا المدح والتوصيف.

فهم يعتقدون بانّ عيسى بن مريم وان كان بلحاظ البدن الترابي الذي جاء عن طريق الامّ ابناً ظاهرياً لآدم الصفيّ، لكنّ معارفه الإلهيّة شاهدة على ابوّته المعنوية للنبي آدم، وكما ورد في الكتب الإسلامية اقوال مأثورة وغير مأثورة مُثبّتة حول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بانّه (الصادر الأوّل) أو (الظاهر الأوّل) وان الموجودات والمظاهر الإمكانيّة وُجدت أو ظهرت بواسطته، كذلك نفس هذا المعنى يُلاحظ في الكتب المسيحية ايضاً وبصياغات مختلفة، فيقولون حول المسيح عليه السلام بانّه الكلمة الاولى والمخلوق الإلهيّ الأول.

وبدلاً من (المخلوق الإلهيّ) يذكر تارة بعنوان (المولود الإلهيّ).

---

١. ديوان ابن الفارض.

ولعل ما يشبه هذا الاسلوب من التعبير بالمدح والاطراء موجود بين اتباع النبي موسى عليه السلام واصحاب النبي ابراهيم الخليل عليه السلام بالنسبة الى هذين النبيّين العظيمين، حيث وصف كلّ منهما ايضاً بالصادر الأول أو الظاهر الأول، كما ارتضوا القول بأُبوّتهما المعنوية لآدم عليه السلام.

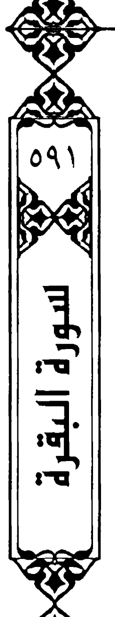
وهذه المسألة فضلاً عن حاجتها الى البحث في أدلّتها النقلية وتقييم صحّة وسقم السند والدلالة، فانّه يجب أن تخضع للتحليل العقلي، لانّ الأُبوّة المعنوية كالنبوة والرسالة والخلافة وسائر الشؤون الكمالية مقولة مشكّكة لها مراتب ودرجات متعددة. ولذلك فانّه نظراً الى المقام العالي لشخص آدم الصفيّ عليه السلام فانّ من الممكن قياس الدرجات الأعلى منه بلحاظ الصادر أو الظاهر المتقدم من جهة والأب المعنوي من جهة اخرى، لا أن تُقدّم عليه كل درجة أو مقام.

٩. الإنسان الأوّل في شريعة زردشت:

لا يوجد في المصادر المتبقّية من شريعة زردشت ما يتعلق بخلافة الإنسان، وتعليم الأسماء، وإنباء الملائكة، والأمر بالسجود، وطاعة جميع الملائكة ما عدا ابليس، وبالتالي لا يُلاحظ فيها من المعارف ما هو مشهود بكثرة في الكتب الإلهية الاخرى لاسيّما القرآن الكريم.

فالإنسان الأوّل في هذا المذهب هو (كيومرث). وهذا الاسم بمعنى (الحياة القابلة للموت) في مقابل (الحياة غير القابلة للموت) التي هي مختصة بالله سبحانه. وذكر في هذا المذهب خصائص ومواصفات لسعادة الإنسان وكماله من قبيل (الفكر الحسن)، و(القول الحسن)،





و(العمل الحسن)، وجاء التعبير عنها بعنوان الأصول والقواعد الأخلاقيّة، كما ذكرت مواصفات اخرى في اطار الأصول المذكورة اكثرها أو كلّها موجودة بصور مختلفة في النصوص المقدّسة لأصحاب الأديان في العالم، لكن لا يُلاحظ فيها ذكر للمسائل الأساسيّة حول الخلافة وتعليم الأسماء وأمثال ذلك.